دكتور
عبد الفتاح مقلد الغنيمي

كيف ضاع الإسلام من الأندلس بعد ثمانية قرون...؟؟

(مأساة الفردوس المفقود)

٩٢/٨٩٧هـ - ٧١١/١٤٩٢م



١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

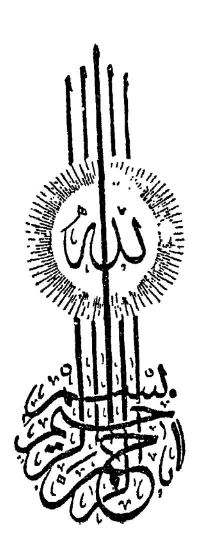
دكتــور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى



(مأساة الفردوس المفقود)

٩٢/٨٩٧هـ ـ ١١/٧/١٤٩٢م

١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

الى شقيقى المهندس عبد الرازق

من أشـــــدد به أزرى واشركه فى أمـرى
وأعضد به مسيرتى ، مأوى الوحشـة
وثـانى اثنين ذرية ، ركن الامـان ،
ومـلاذ الزمـان ، وحصن الايـام ..
هـذه الدراسـة ...

٢١ رجب ١٤١٣هـ
١٤ يناير (كانون ثانى ١٩٩٣م)

دكتـور
عبد الفتاح مقلد الغنيمى

« مأثورة هـذا الكتـاب »

« أن أرعى ابل يوسف بن تاشفين أمير المرابطين بالمغرب خير لى أن أرعى خنـازير ألفونس السـادس ملك قشتالة بأسـبانيا » ٠

(المعتمد بن عباد (أحد ملوك الطوائف)
(جمادى الاولى ٤٧٨هـ ـ يوليو ١٠٨٥م)

لقد كان أمراء الطوائف ـ قل أقزام الطوائف ـ الذين تتحـكم فيهم الانانية والضعف والغـدر والخيانة والتحالف مع أعداء العقيدة بعـد أن هانت لديهم مصـالح الامة وباعوا دينهم الاسلامى وعقيدتهم السـمحة وباعوا بلادهم وأهلهم للعـدو المتربص ثمنـا لبقائهم فى السلطة سـببا فى ضـياع الاندلس ٠

وهكذا أصاب الامة الضـياع بقدر ما ضـيع هؤلاء الحـكام الخلق الاسلامى القويم وانحرفوا عن جادة الطريق ٠٠ وهكذا ضاع الاندلس ٠

فماذا يقول حـكام وأمـراء وملوك عالمنـا العربى والاسـلامى فى العصر الحـديث ٠

التمهيد

مع نهاية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) بدأت حركة الدفع الاسلامى تفقد قوتها وفاعليتها ويبدأ المسلمون يفقدون زمام المبادئة واختل التوازن العالمى وتحول المد الاسلامى الى الدفاع وبدأت القوى المعادية تتحول الى الهجوم وانتقلت المعركة الى أرض الاسلام وتحولت الديار الاسلامية الى أرض محتلة أو خاضعة أو تابعة أو قابعة دون حراك لدفع الاخطار التى تحيط بها ومنذ ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر لازال العالم الاسلامى يدور فى فلك القوى المعادية ولم تستطع القوى الاسلامية أن تمسك بزمام القوة مرة أخرى ٠

ومن هنا خسر المسلمون أرضا ولازالت الامة تفقد كل حقب تاريخية أراضى جديدة (الاندلس ، فلسطين ، البوسنة والهرسك) والعديد من الاراضى الاسلامية الاخرى ومن هنا فنحن عندما نعيد كتابة التاريخ الاسلامى بروح اسلامية نقية فان ذلك لا يمانع أن نذكر الحقيقة ولا نبطلها فذكرها يكون عبرة وعظة للاجيال القادمة ولنبين العيوب والاسباب والثغرات التى لحقت بحركة التاريخ الاسلامى وما هى التدعيات التى ساعدت على اضمحلال حركة المد الاسلامى فى بلاد الاندلس بعد تلك الفترة الطويلة التى تزيد عن ثمانية قرون (٨٠٥ سنة) ذلك لان القاء الضوء على الاسباب الجوهرية للانكسار الحاد فى الموجة الاسلامية فى أوربا كانت وراء هذه الاسباب التى عجلت بتلك النهاية المأسوية والهزة العنيفة للدور الاسلامى والاندحار الشديد لقوة الدفع الذاتية الاسلامية واختلال ميزان القوى وانفلات الزمام من أيدى المسلمين حتى حقبتنا هذه بنهاية القرن العشرين (الخامس عشر الهجرى) وما نشاهده اليوم صورة حية الاحداث ٠

وهكذا قرب أن ينصرم نصف قرن على مأساة فلسطين (خمسون

عاما) وبالماضى البعيد انقضت خمسمائة عام على طرد المسلمين من الاندلس واليوم نسمع آنات المسلمين وصراخهم وعويلهم فى البوسنة والهرسك (مليون ونصف طريد ـ متشرد ، ٢٠٠ الف قتيل وشهيدا ، ٥٠ الف امرأة مغتصبة) .

وليس هذا فقط بل فى بورما وكشمير والهند والصومال فهل يعتبر حكام المسلمين ونقول من اضاع الاندلس أشعبها أم حكامها وملوكها وأمرائها وسلاطينها أن شعب الاندلس كان هو الضحية .

ان أمانة الحكم تجعل الحاكم مسؤلا أمام الله عن كل خطأ فى حق الشعب فمن ينقذ مسلمى البوسنة والهرسك ، ان أوربا لا ولن تسمح بقيام دولة اسلامية من قبلها فكما طردت المسلمين من الاندلس سيتم طرد أبناء البوسنة والهرسك لان طاردى مسلمى البوسنة والهرسك هم احفاد الذين طردوا المسلمين من الاندلس .

ذلك لان الشعوب كانت دائما هى الضحية عندما يتولى أمرها حاكم جاهل غشوم لا يقدر المسؤلية الملقاة على عاتقه حق قدرها أو تقديرها ولا يضع أمانة الحكم ومسؤليته والتى اختارها الله له عن طريق الوراثة (وراثة الحكم أو علية القوم أو بناء على رغبة شعبية) .

ومن هنا كان التهاون فى حق الشعوب وحق الدين الخالد والعقيدة الاسلامية وسوء القيادة والجهل بأمور الحكم من الامور التى ساعدت كل المساعدة لكى تكون نهاية الاندلس بهذه الصورة وعدم معرفة حقيقة الطرف الآخر المعادى صاحب النفس الطويل الذى لا يكف عن تحقيق أهدافه دون أن يتحرك قيد أنملة عن ما حققه من انتصارات (اسرائيل واغتصاب فلسطين ، الحرب فى البوسنة والهرسك والهنود فى ولاية برادتش (مسجد أيوديا فى شمال الهند) وهدم المسجد الذى بنى فى القرن السادس عشر منذ (٤٠٠ عام) لكن المسلمون دائما عند حسن النية وطيبة القلب التى يستغلها الطرف المعادى فى تحقيق أهدافه .

ان الذين حققوا أهدافهم فى طرد المسلمين من الاندلس كانت بدايتهم نحو ثلاثمائة رجل وامرأة اعتصم بهم قائدهم (بلاى) فى احدى كهوف منطقة جبلية وعرة فى جليفية شمال غرب الاندلس ومن هذا الكهف كان منطلق الحركة القومية الاسبانية التى حملت شعار طرد المسلمين العرب بعد مقام دام ثمانية قرون .

ان أسبانيا تحتفل هذه الايام (ديسمبر ١٩٩٢) بطرد المسلمين ومرور خمسمائة عام على ذلك الحدث واقيم احتفال بهذه المناسبة ونحن نقول لماذا أندلس ١٩٩٢م وهم يحتفلون بذكرى الجلاء حيث عادت النغمة العنصرية والبغض ضد المسلمين حيث وقف رجل أسباني في وسط الاحتفال من أحفاد الين طردوا المسلمين من بلادهم بعد أن كانوا سادة بها ليقول هذه العبارة أمام عدسات محطات التليفزيون العالمية الامريكية (C. N. N.) قال المسلمون زبالة وحثالة العالم
Moslems are the Robbish of the world

تأسفيا ان الذين يمارسون قمة البشاعة والوحشية والسقوط الانسانى تحدث فى قلب أوربا بزعامة أمريكا حيث الاغتصاب الجماعى بكل بشاعتها حيث الهول والفظائع المؤلمة لاغتصاب أكثر من خمسين الف امرأة مسلمة على أيدى وحوش الصرب ثم اعتقال المغتصبات فى معسكرات جماعية يمارسون عليهن الاغتصاب المنظم يوميا حتى يحملن ولا يفرج عنهن الا بعد سبعة شهور من الحمل هذه صورة زبالة وحثالة العالم وليس المسلمون هم زبالة العالم أما التطهير العرقى والتعصب الدينى الطائفى الذى يمارسه الصرب ضد شعب البوسنة والهرسك لا لشىء الا لانهم مسلمون لا يجب أن تقام لهم دولة اسلامية فى قلب أوربا ولن تسمح أوربا الديمقراطية لقيام دولة اسلامية صغيرة بها ، كما لم يسمح للمسلمون بالبقاء فى الاندلس بعد قضاء فترة طويلة تزيد عن ثمانية قرون .

ومن هنا فان ما يحدث اليوم لمسلمى البوسنة والهرسك على يد الصرب من قتل وترويع وتعذيب وابادة واذلال وطرد الملايين من شعب البوسنة والهرسك طوال عشرة شهور أو اكثر فامر طبيعى لا غبار عليه فقد حدث قبل ذلك فى الاندلس وفى كل شرق أوربا ، ان الخطة الحديثة هى نفس الخطة

التى وضعت لابادة المسلمين فى الاندلس وفلسطين ان الهدف النهائى فى البوسنة والهرسك هو نفس الهدف الذى وقع للاندلس .

ومن هنا جاء قرار وسيطى الامم المتحدة سيرس فانس ، ديفيد أوين ليقدما اقتراحهما الخاص بتقسيم دولة مستقلة اعترفت بها الامم المتحدة وأغلبية دول العالم الى عشرة أقسام (أقاليم) تخضع للحكم الذاتى وهكذا كان ضياع الاندلس نذيرا أو على وشك القيام للاسلام فى البوسنة والهرسك طبقا للخطة التى وضعتها القوى المعادية للاسلام وهكذا يكون نفس المصير حيث تتم التصفية النهائية قتلا وتعذيبا لرجاله واغتصابا لبناته ونسائه وتشريدا لاطفاله بغير هوية الى الدول الغربية حيث يتم التغريب والتنصير وتلك هى مكافأة لابطال الصرب رجال التطهير العرقى الدولى ومن هنا كان أى عار يواجه المسلمون (المليار ومائتى مليون نسمة) وهم يشاهدون حرب التطهير العرقى والابادة الجماعية لشعب البوسنة والهرسك حيث تركوا لانفسهم ولمصيرهم البائس لم يتحرك لهم جار ولا اهتم بهم شعب مسلم مثلما تركنا شعب البوسنة والهرسك لم تسعفهم بأكثر من برقيات التأييد والاحتجاج فمن يسعف البوسنيين بعد أن احتلت ٩٠٪ من أراضيهم وتشرد باقى البقايا الا لسبب انهم (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله) .

من كل هذه الاحداث والربط بين الماضى البعيد خمسمائة عام (٥٠٠ عام ضياع الاندلس) خمسون عام على ضياع فلسطين واليوم يضيع شعب البوسنة والهرسك فى قلب أوربا .

أن التاريخ عظة وعبرة ولكن مع يتعظ ويعتبر فى الماضى البعيد هو الماضى القريب والحاضر الحاضر فى كل هذه الآلام والحسرات والجراح النفسية كانت وراء هذه الدراسة .

مصداقا لقوله تعالى فى سورة القمر آية ٤ ، ٥ (ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر) وهكذا كان ضياع الاندلس عبرة للايام وعظة لحكمة التاريخ وتنبيه

للغافلين عما يجرى لعالمنا الاسلامى من احداث جسام ٠ ان الذين يطالعون هذه الدراسة قد لا يفاجئون بأحداث البوسنة والهرسك وفلسطين وبومباى واحمد اباد بالهند وكشمير وبورما ، فصورة الاندلس تتكرر احداثها اليوم على مرأى وسمع من المسلمين وكان الامر لا يعنى الا قوما بأنفسهم ، وماذا يقول المسلمون لخمسين الف امرأة وفتـاة مسلمات فى البوسنة والهرسك فى معسكرات الاغتصاب العـربى ولا حـول ولا قـوة الا بالله ولا غـالب الا الله ٠

دكتــور
عبد الفتاح مقلد الغنيمي

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك الملوك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير ، والصلاة والسـلام على نبى الهـدى محمد بن عبد الله ﷺ هادى البشرية ونور الانسانية وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .

أما بعـد ..

فتلك هى دراسة عن الاندلس الاسـلامى ، أرض الاسـلام المفقودة ، قصـدت أن تحـمل عنـوان ، كيف ضـاع الاسـلام من الاندلس بعـد ثمـانية قـرون (٩٢ ـ ٨٩٧هـ) نضـعها بين يدى القـارىء الكريم الذى يشهد اليوم ضـياع أرض اسلامية أخـرى فى أوربا وهى البوسـنة والهرسك وكذلك بالامس القريب ضاعت أرض فلسطين وكل يوم تضـيع ديارا وأرضا عربية اسلامية على مرأى من الرأى العام العالمى فى العصر الوسيط والعصر الحديث وربمـا فى عصور مستقبلية .

ذلك لان هـذه الدراسة عن الاندلس فردوس الاسـلام المفقود ، درة أوربا الحضارية وكعبة معرفتها وملاذ طلابها طوال ثمانية قرون ، بل هى دار العـلم والعلماء وركن الدين والثقافة والحضارة ، بل هى الاسلام الطريد وشعب الاندلس الاسلامى الطريد ، دار تهفو اليها قلوب العـرب والمسلمين عبر التاريخ الطويل درس المـاضى الاليم وعبرة التاريخ أمام الاجيـال المعاصرة واللاحقة . وسلبيات الحـكم وجهل الحـكام وقـلة الحـكمة وظهور العصبية والقبلية والاهواء الشخصية والمطامع الفردية وقصر وعدم النظرة الموضـوعية والمستقبلية للصراع وحـكام وسـلاطين لا يدرون من العواقب الوخيمة شـيئا وشهوة السلطان وكرسى الحكام وهول المأساة ، وتفرق ملوك (أقزام الطوائف) والتحالف مع أعداء الديار وفقد البصـر

والبصيرة والاستعانة بعدو الدين على أخ الدار والديار والوقوع أسرى نساء القصور والعبيد والجوارى والبعد عن شرع الله وتحكم الرقيق (الصقالية) والخصيان والاماء فى مقدرات الشعوب وضياع أربعة ملايين مسلم (هكذا تذكر المصادر الاوربية) (أربعة ملايين منذ أكثر من خمسمائة عام) بين متنصر ومهاجر قسرا أو غريق البحار وسجين غصبا وعبيد استرقاق وخضوع لمحاكم التفتيش ورضوخ واذلال وفى النهاية كانت هذه المسيرة الطويلة مأساة العصور وجرح الاسلام والمسلمين وحلم المستقبل البعيد الذى ربما يعود .

وتلك هى مسيرة الدراسة تاريخ طويل ثمانية قرون ، لكن من أضاع التاريخ وحطم الاسلام واقتلع نداء حى على الصلاة من مساجد قرطبة وغرناطة وأشبيليه وطليطلة وتسبب فى تحويلها الى كنائس . هذا ما نراه ونقرأه ونطلع عليه فى هذه الدراسة عبر الماضى البعيد الذى انطفىء فيه نور الاسلام منذ خمسمائة عام او يزيد ، فهل نعتبر بدروس الماضى البعيد والقريب (فلسطين) والحاضر (البوسنة والهرسك) وندرأ الاخطار وضياع الديار . ضاعت الاندلس فى الماضى البعيد وبالامس القريب ضاعت فلسطين واليوم تضيع البوسنة والهرسك وغيرها من الديار فى الفلبين وبورما والصومال والهند وكشمير وغيرها عن ديار وقع عليها الظلم والقهر على رقاب الاسلام والمسلمين ولا يوجد من يسمع النداء او يجيب .

وهكذا سارت هذه الدراسة على النحو المنشود لها والهدف المقصود من تأليفها ووضعها أمام كل عين لكى تطالع هذه الدراسة التى تم تقسيمها الى احدى عشر فصلا اضافة الى الخاتمة وقائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة .

وكان الفصل الاول لماذا الفتح والغزو الاسلامى وما هى الاسباب والعوامل والمسببات التى دفعت المسلمين الاوائل للدفاع عن عقيدتهم وكسر الحصار من حولهم ودفع أعداء الاسلام ايصالا لوصول نداء الاسلام الى

الشعوب المقهورة وتحـرير الانسان ووضع البشرية على الطريق القـويم طريق الاسـلام ٠

حيث لم يكن المد الاسلامى حركة غزو سلب واسلاب وغنـائم وجزية وحكم وسيطرة بل كان الفتح موكب دعوة روحية وهكذا لم ينقضى القرن الاول الهجرى حتى كانت الراية الاسلامية قد أطلت على ديار الاندلس ٠

وكان الفصل الثانى عن الاندلس المدلول اللفظى والوضع الجغرافى والاحوال قبل الفتح الاسلامى وكيف اتفق العلماء والباحثين على أصـل الاسم (الاندلس) ومتى استخدم المسلمون هذا اللفظ وموقعها الجغرافى والمراحل التاريخية التى مرت بهـا قبل الفتح الاسلامى وكيف خضعت للقوط حتى أزال المسلمون هذا الحـكم ٠

وتلاه الفصل الثالث عن قوات الاسـلام وفتـح الاندلس وكيف كان العبور الى الاندلس أمرا طبيعيا بعد فتح المغرب وكيف أعطت القيـــادة الاسلامية ضوء الفتح وقامت القوات الاسـلامية بالعبـور بقيـادة طارق ابن زياد وتحقق الانتصار على القوط ودخل الجيش الاسلامى طليطلة ودور موسى بن نصير فى اتمـام فتح الاندلس والقيام بالفتح سويا مع طارق ابن زياد فى شمال الاندلس وقرار استدعاء موسى وطارق الى دمشق وماذا ثم من أحداث بعد عودة موسى وطارق الى دمشق ٠

وجـاء الفصل الرابع عن الاندلس بعـد موسى بن نصـير وظهـور عبد الرحمن الداخل الاموى وحتى فترة حكم الولاء التى امتدت من عـام ٩٥هـ ـ ١٣٨هـ وألقيت نظرة على كل حـكام هـذه الفترة العديدين الذين وصل عددهم الى احدى وعشرين واليـا نهـاية بيوسف بن عبد الرحمن الفهـرى آخـر هؤلاء الولاه الذين ظلوا يحكمون البـلاد اكثر قليـلا من أربعين عـاما ٠

وبعـده جـاء الفصل الخـامس عن الدولة الاموية بالاندلس ودور عبـد الرحمن الداخل فى بنـاء هـذه الدولة الاموية بعيـد عن الخـلافة

العباسية وما هى العقبات التى واجهته فى توحيد الاندلس بعد عبوره الى الاندلس ومواجهة الاخطار الداخلية والخارجية وتأمين حدوده الشمالية مع امبراطورية شرلمان ووفاة عبد الرحمن عام ١٧٢هـ وتولى الحكم بعده لابنه هشام ثم الحكم بن هشام ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ ثم فترة حكم عبد الرحمن الثانى ٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ ثم بعده ابنه محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ) وبعده ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ) ثم أخيه عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ) وما هى الاحداث التى تمت خلال حكم الثلاث امراء الثلاث الآخرين (٢٨٣ ـ ٣٠٠هـ) ٠

وترتب على الفصل الخامس الفصل السادس الذى كان عن عصر الخلافة الاموية وعصر الازدهار الحضارى وظهور عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) وكيف تم اعلان الخلافة الاموية عام ٣١٦هـ وكيف تقدمت الاحوال فى هذه الفترة أزهى عصور الاندلس قاطبة ودور قرطبة العاصمة فى العالم الاسلامى والاوربى والعالم المعاصر وكيف آل الحكم الى ابنه الحكم الثانى (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) ٠ ومسؤليات الحكم وكيف كان الحكم عالما باحثا وليس سياسيا حاذقا ثم كيف آلت الامور الى ابنه الصغير هشام المؤيد (٣٦٦هـ ـ ٣٩٩هـ) وظهور محمد بن أبى عامر الوزير الاول وسلبه لسلطات الخلافة والخليفة ووفاة محمد بن أبى عامر وتولى أولاده المظفر وعبد الرحمن مقاليد الحكم حتى عام ٣٩٩هـ ٠

وكان الفصل السابع عن سقوط الخلافة الاموية (٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ) وفترة الاضطرابات والقلق والمشاكل الداخلية والخارجية وتحديات امارات الشمال المسيحية التى تتربص بديار الاسلام ٠

والفصل الثامن عن الاندلس فى عصر ملوك (أقزام) الطوائف (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ) وكيف انقسم الاندلس الى اكثر من ستة عشرة ولاية أو عشرين ولاية مع ذكر أهم الولايات التى ظهرت فى هذه الفترة الحالكة فى تاريخ الاندلس وهى امارة الجهاورة فى قرطبة ، بنى ذى النون فى طليطلة ، بنى عباد فى أشبيلية ثم امارة سرقسطة وامارة بطليوس وحكه بنى الافطس ، وامارة بلنسية وغيرها من الامارات الاندلسية وكيف كان

سقوط طليطلة دافعا لحكام الاندلس على دعوة المرابطين للدخول الى الاندلس وانقاذ الاندلس ٠

ثم كان الفصل التاسع ودور المغرب فى درء الخطر المسيحى عن الاندلس وجهاد يوسف بن تاشفين ومعركة الزلاقة فى عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م ودور المرابطين فى تأخير سقوط الاندلس لاربعة قرون أخرى وكيف تطور الصراع بين القوى النصرانية فى معارك أخرى قادمة أدت الى عبور يوسف بن تاشفين عدة مرات الى الاندلس وتوحيد جبهة الاندلس تحت قيادة المرابطين وبناء دولة مرابطية فى المغرب والاندلس ٠

ثم كيف كان ظهور دولة الموحدين فى المغرب سببا فى سقوط العديد من المدن والثغور الاندلسية بسبب سحب المرابطين لقواتهم من الاندلس للوقوف فى وجه الموحدين وهكذا كان هذا السبب المباشر فى سقوط العديد من المدن والثغور ثم آلت الامور الى الموحدين حيث تحرك الموحدون عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م ودارت حرب طويلة بين الفونسو والموحدين فى معركة الارك التى كانت تشبه الزلاقة ٠

ثم كانت معركة العقاب عام ٦٠٨هـ/١٢١١م وانهزمت قوات الناصر الموحدى وعقب هزيمة العقاب تساقطت المدن الاندلسية وكيف سقطت كل المدن فيما عدا بقاء امارة أو مملكة غرناطة ٠

وكان الفصل العاشر عن مملكة غرناطة بقايا الاندلس الكبير ٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ/١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م وكيف ظلت هذه الامارة أكثر من قرنين ونصف تواجه قوات أسبانيا المسيحية ومن يدعمها من دول أوربا ٠ وكيف تدخل بنى مرين حكام المغرب لمساعدة بنى الاحمر حكام غرناطة وحدوث العديد من المعارك لكن غرناطة لم تستطع الصمود وفى النهاية سقطت الاندلس فى عهد أبو عبد الله محمد الحادى عشر بعد أن قام بتوقيع وثيقة استسلام المدينة ودخول فرناندو وايزبيلا قصر الحمراء بغرناطة فى الثانى من ربيع الاول ٨٩٧هـ/٢ ديسمبر ١٤٩٢م وترك الاندلس ورحل الى المغرب وبذلك

اسدل الستار على قصة الاسلام فى الاندلس تلك المأساة الدموية التى راح ضحيتها اكثر من أربعة ملايين مسلم .

وكان الفصل الحادى عشر عن لماذا ضاعت الاندلس وما هى الاسباب التى حالت دون استمرار الوجود الاسلامى فى هذا البلد الاسلامى بعد ثمانية قرون به وكيف تضافرت عدة عوامل لضياع هذا البلد الاسلامى .

ثم كانت الخاتمة وهى خلاصة النتائج التى تم التوصل اليها فى هذا البحث .

ونهاية المطاف جاءت قائمة المصادر والمراجع العربية والاجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة حتى كانت فى الصورة التى عليها .

ومن ثم أتوجه للقادر الواحد الموفق الذى وفقنى بعونه سبحانه وتعالى بأن اسخر هذا العمل المتواضع لكى أتركه للقارىء الكريم لكى يصدر حكمه عليه راجيا أن أكون قد استطعت معالجة هذا الموضوع بما يوضح الطريق لتلافى أخطار أحدقت وتحدق بعالمنا الاسلامى الكبير .

والله ولى التوفيق ،

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الملك فيصل

٢١ رجب ١٤١٣هـ (١٤ يناير (كانون ثانى) ١٩٩٢م)

الفصل الأول

لمــاذا الفتح والغزو الاسلامى ؟

عندما كانت الدعوة الاســلامية تشرق بأنوارها الالهيــة فى شــبه الجزيرة العربيه وكـ ناالاسلام قد بدأ يوطد أركانه ويرسى دعائمه فى هذا الجــزء من غرب القارة الاسيوية حيث اختيــار العنــاية الالهيــة لسيدنا محمد ﷺ ليكون حامل خاتم رسالة وأقدس أمانة وأتم كتاب فى قلب مكة المكرمة حيث بيت الله الحــرام كانت يومئذ دولتى الروم والفرس أقـــوى دول العصر وكان هرقل وكسرى يتحكمان فى سياسة العالم ومصائر أمــم الارض وكانت الحرب سجالا بين الدولتين ولــم يكن يدور بخــلد أية دولة صغرى أن تفكر فى التعرض لهما أما وذلك شأن دول العــالم المعروفة يومئذ فقد كان الاجدر ببلاد العرب أن يكون شانها شأن بقية الدول الصــــغرى لاسيما ان الجــزيرة العربية لم تكن الا قبــائل متنفارة متناحرة متشاحنة منقسمة على نفسها .

ولــما كان رسول الله ﷺ رسول البشرية وهادى الانسانية ومنقـــذ العالمين من الضلالة الى النــور قد أمر بالصــدع بالدعوة الى كل العــالم فما كان عليه ﷺ الا أن يدعو ملوك العالم وأمرائها الى دين الله الخــالد فكان أن أرسل رسلا الى كل من هرقل الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر والحارث الغساسى ملك الحيرة والحارث الحميرى ملك اليمن والى نجاشى الحبشة يدعوهم جميعا الى الدخــول فى الاســلام رســالة الله الى شعوب الارض قاطبة فقد كانت القوة الروحيــة والهداية القــرآنية دافعــا لهؤلاء الرسل بأن ينطلقوا جميعا كل الى حيث أرسله رسول الله ﷺ .

ولقد كانت هذه الرسائل الى هؤلاء الملوك والأمراء باعثا لهم جميعا لمحاولة الوقوف الى الاحــداث الكبرى التى تجــرى على أرض الجــزيرة

العربية وكيف ان هناك دولة عربية اسلامية اتخذت مقرا لها فى المدينة المنورة وكيف توحدت هذه البلاد لاول مرة فى تاريخها تحت راية واحدة هى راية لا اله الا الله محمد رسول الله .

فكان التحرى والبحث وارسال الرسل السريين (الجواسيس) لمتابعة هذه الاحداث ومن ثم رأوا جميعا الاخطار تحدق بهم بعد أن أدرك الطرفان القويان (الفرس والروم) أن القوة الاسلامية العربية الصاعدة قد باتت تشكل خطرا شديد عليهما لاسيما بعد أن دعا محمد ﷺ هؤلاء الاباطرة للدخول فى الاسلام فى حين ان المسلمين لم يبلغ بهما الامر الى حد التحرش بهاتين الامبراطوريتين لكن كانت الخطة الاسلامية فى بداية الامر المحافظة على استقلال الدولة الاسلامية الناشئة والذود عن هذا الاستقلال وتأمين الحدود الاسلامية العربية من خطر جنود قيصر الروم وكذلك جنود كسرى الفرس ولم يكن المسلمون يفكرون فى الاغارة على بلاد الشام أو دولة الحيرة المتحالفة مع الفرس أو أن يتخذوا من دعوة الرسول ﷺ الى هرقل وكسرى للدخول فى الاسلام سببا فى محاربة هذه القوى .

لاسيما ان القرآن الكريم قد قرر ان العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ووعدهم الله سبحانه وتعالى اذ هم آمنوا حق الايمان ودافعوا عن عقيدتهم حق الدفاع وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة درأ للعدوان ولكن صد الهجوم الواقع على الرسالة الخالدة ومحاولة مدها الى شعوب الارض قاطبة بالدعوة الحسنى والاقناع السليم والتبصرة بحقيقة الاسلام وجوهر القرآن الكريم لكى يأخذوا بأسباب النصر ذلك لان الدعوة الاسلامية انطلاقا من مبادئها القرآنية قد وعدها الله بالنصر على من يحارب عقيدة الاسلام ويقف لها بالمرصاد ويحاول أن يحد من انطلاقها ذلك لان الاسلام فى دعوته الى الغزو والفتح لم يكن من أجل الاستيلاء على الغنائم واجازد الغنيمة أو استرقاق البشر وسبى النساء واذلال الشعوب والتحكم فى رقابها أو سعيا للشهرة واكتساب الشجاعة لان الغزو والفتح كان من أجل كيان اسلامى واحد تسوده المساواة والمحبة والاخوة الصادقة والتضامن تحت لواء راية واحدة .

وهنا لا نجد الا أقوال المؤرخ الفرنسى (جوستاف لوبون) لكى تكون شهادة وهو رجل عرف بصحة المنهج ونزاهة الفكر ورسوخ العلم بتاريخ الاسلامى انطلاقا الى أبعاد جديدة وغايات أرحب وتلك سنة الدعوة الفتوح الاسلامية أن الاسلام لم يتجه الى القهر بالسيف وحمل الشعوب على الدخول فيه بالاكراه بل اتجه الى شعوب مسحوقة بوطأة الدولتين العظيمتين (الفرس والروم) فى صراعهما على مناطق النفوذ والاستغلال وقد أنهتهما قبل ظهور الاسلام الحروب الطاحنة وهدمتهما أمراض الشيخوخة .

وقامت الدولتان على القهر والاكراه الدينى وما ينجم عن فقدان المثل العليا من خلل فى موازين القوى وقضت سنن الحياة وقوانين الاجتماع والتاريخ أن تقوم أمة فتية مؤمنة بالمثل الاعلى ترد الى القيم الدينية والاخلاقية اعتبارها المهدر وشهد مؤرخو الاديان والحضارات أن الاسلام من يعطاء المثل العليا لشعوب آمنة ووجهها الى مصالح وآمال مشتركة جمع بينهما تجانسا وتكافلا وتآلف على تعاون الناس والاصول والاعراق والاجناس والالوان والطبقات فكانت كتائب الفتوح الاسلامية رسل حضارة وحرية .

وللفتوح الاسلامية طابع خاص فريد هو ان الفاتحين وغيرهم استطاعوا اقامة دول عظمى للفاتحين لكنهم لم يؤسسوا حضارة قيم روحية وأخلاق قرآنية خلافا للفاتحين المسلمين الذين أبدعوا حضارة راقية رائدة فلم يكد القرن الاول الهجرى ينتهى حتى كانت راية الاسلام تخفق على دولته العظمى من الهند والصين شرقا الى المحيط الاطلسى غربا .

وكانت أسبانيا موضوع الدراسة احدى الممالك الاوربية التى احتوتها راية الاسلام وهكذا لم يكد المسلمون يتمون فتح هذا القطر حتى بدأوا يقومون برسالة حضارية خالدة واستطاعوا فى اقل من قرن أن يجعلوا منها قطرا غير الذى كان يخضع للقوط .

ومن هنا كان على المسلمين أن يدعوا شعوب العالم الى قبول الدعوة الاسلامية والغزو فى البر والبحر والرباط فى سبيل الله لاسيما أن العدو يريد كيدا بالاسلام وأهله ودياره ومن هنا كانت مصلحة الاسلام والمسلمين تقتضى العمل على تحطيم كل قوة تعتدى عليه أو تعترض طريق الدعوة الى الاسلام ومجاهدة من يقف فى وجه ابلاغها للناس كافة لانقاذهم من الضلالة الى الايمان والتوحيد ولحماية الديار الاسلامية (جزيرة العرب) من الحصار وحمايتها من الفتنة والفرقة وحماية منهجها وشريعتها واقرار رايتها فى الارض بحيث يرهبها من يهم بالاعتداء عليها من الاعداء قبل الاعتداء ٠

وعلى ذلك فقد سعى المسلمون برسالتهم وجاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم والسنتهم لاقامة الحجة على الاعداء ودعوتهم الى قرآن الله الكريم لاسيما انه اذ كانت هناك أسباب تعوق تمكن تنفيذ حق الدفاع والدعوة ومن هنا وجب على المسلمين ازالة هذه العوائق بكل أشكالها العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية حتى يتسنى للمسلمين أن يكونوا فى مقدرة وعلى أهبة الاستعداد لصد العدوان لاسيما ان كلا القوتين (الفرس والروم) قد بدأت بينهما مراسلات وبوادر تحالفات للقضاء على الدولة الاسلامية الفتية الناشئة ٠

ومن هذا كان على المسلمين أن يقوموا بواجب الدفاع والدعوة له لاسيما ان مدافعة العدو مقدمة على الامور كافة والاحوال عامة فكان واجب الدفاع لان المسلمين كانوا يرجون حماية العقيدة الاسلامية والتى من أهدافها اعلان تحرير البشرية من طاغوت الكفر والشرك والالحاد اعلانا لبناء دولة الاسلام الكبرى ٠

ذلك لان جوهر الاسلام والعقيدة الاسلامية هى حماية دار الاسلام صونا للعقيده القرآنية والمجتمع الاسلامى الجديد الذى لازال فى طور التكوين والذى تسوده شريعة الاسلام لاسيما بعد أن انتقل رسول الله ﷺ الى الرفيق الاعلى وآلت قيادة الراية الاسلامية الى الصديق أبى بكر (عبد الله بن قحافة) ليكون الخليفة الراشد الاول بعد رسول الله

ﷺ وكان عليه حمل الراية وصولا بها الى غايتها فى الحركة الاسلامية وصونا للوحدة الاسلامية بالجزيرة العربية لان حماية الامة الاسلامية هى الوسيلة لقيام حكم الاسلام فى الارض فكانت حروب الردة والقضاء على المرتدين وكسر شكتهم انطلاقا الى مختلف أنحاء الارض المعمورة فى ذلك الوقت (قارات العالم القديم الثلاث آسيا وافريقيا وأوربا) والوصول الى شعوب الارض قاطبة على مختلف أشكالهم وألوانهم والسنتهم وذلك حفظا للدين والعقيدة ودفاعا عن قرآن الله الكريم وعن المسلمين لكى تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى ٠

ومن هنا فقد كان خروج الدعوة الاسلامية يقودها صحابة رسول الله ﷺ وتلاميذ مدرسته القرآنية على جناحين أحدهما شرقية نحو فارس والعراق وغربا الى بلاد الشام ومصر وبقية البلاد التى تخضع للنفوذ الرومانى (البيزنطى) وكان المسلمون الاوائل يسعون فى رفعهم هذه الراية الى الاستشهاد فى سبيل الله صونا للدعوة والعقيدة ووصول بالقرآن الكريم الى بقاع جديدة خارج الجزيرة العربية انقاذا لاهلها من ظلم الطاغوت وتحرير لهم من رجس الكفر والشرك ذلك لان هؤلاء القادة الذين كانوا حول الرسول ﷺ قد تربوا تربية اسلامية قرآنية صادقة ٠

ومن هنا يتطابق عليهم وصف المجاهدين الذين يستحقون نصر الله وتأييده عند اللقاء مع عدوهم لاسيما انهم من حفظة قرآن الله الكريم وأحاديث سيد المرسلين ٠

ومن هنا وقع عليهم عبء دفع العدو عن دار الاسلام بشجاعة زائدة وقوة ايمانية فائقة وغلبه على مواجهة الاعداء وصلابة فى القتال حتى يتحقق النصر للاسلام والمسلمين ٠

ومن هنا كان هذا الرعيل الاول مسلمين حقيقيين يدافعون عن الاسلام وأهله ويحبون الاستشهاد فى سبيل الله صونا للقرآن الكريم دفعا به الى شعوب جديدة لكى تتعرف عليه وتعرف لماذا يغزو المسلمون ويفتحون بلادا جديدة يحاول حكامها خنق الرسالة يريدون ليطفئوا نور الله

بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون وعدم محاولة اعطاء الفرصة للاعداء لمحاولة النيل من الاسلام والمسلمين والقضاء عليهم وازالة سلطانهم ٠

وعندما تسلح هؤلاء الصحابة الاوائل والتابعين بالصدق والعزيمة فانهم انتصروا على أعدائهم وحرروا بلادا من قبضة الشرك والضار والكفر وأزالوا الكرب عنهم وأصبحت دارهم أمنا واستقرار بعد أن كانت قلقا واضطرابا وسادها الاستقرار وتم القضاء على كل أسباب العبودية وعلى الذين يضعون العراقيل ويثبطون العزم أمام وصول راية القرآن الكريم الى أهدافها المنشودة ٠

وعلى ذلك فلم يكن المسلمون متفوقين بالقوة الحربية أو المجد العسكرى أو قوتهم المادية أو تنظيماتهم الحربية أو اعدادهم الفنى بل كانوا أقل فى الاعداد والاستعداد من عدوهم ولكنهم كانوا دعاة حق ومن هنا كانت فتوحاتهم بالقرآن والنصر بالعقيدة التى سرعان ما يدخل الناس فى دين الله أفواجا ، فانتصار الاسلام وفتوحات اهله لم تكن الا عملا قرآنيا ونضالا عقائديا لم يكن من أجل السلطة السياسية أو السطوة العسكرية ولكن كانت كل الفتوحات والغزو تستند فى المقام الاول على قوة العقيدة والاستعداد للقتال ٠

ومن هنا كانوا هم أعظم درجة فى القتال من كل الشعوب التى قاتلوها فلم تكن الانتصارات المذهلة المبهرة والانتصار السريع على أعداء الاسلام الا من خلال جهودهم فى الدعوة الى الاسلام ومسلكهم الانسانى الرفيع مع الشعوب والتزامهم الكريم بالنصوص القرآنية والاحاديث النبوية فى تصرفاتهم ومن هنا كان انتشار الاسلام واقبال الناس عليه واتخاذه عقيدة لهم والالتفاف حول رايته والدفاع عنه لاسيما ان الشعوب كانت تحكمها حكومات عاتية فاسدة تغتصب البلدان وتفتك بالناس وتحكم بالقوة والتسلط والاضطهاد بعيدة عن الجانب الانسانى والقيم الاخلاقية ٠

ومن هنا سادت الاوضاع السيئة الامبراطورية الرومانية والفارسيه فجاء الاسلام فقضى على كل هذه الاردان ٠

لذا نرى فى الغزو والفتح الاسلامى مـا هو الا أمـرا طبيعيا لتنفيذ الاقوال والآيات القرآنية العديدة التى تدعو لنشر الدعوة الاسلامية وايصال القرآن الكريم الى شعوب الارض قاطبة لان الاســلام رسـالة لكل البشر رسالة عالمية لكل العالم ٠

ومن ذلك سارت حركة الفتوح وفق الخطة التى اتبعها المسلمون فى فتوحاتهم لايصال الاسلام الى شتى الاقطار وتأمين حدود دولتهم ونشـر دعوتهم وذلك بالمضى بالراية الاسلامية وحـركة المد الاســلامى الى آفـاق جديدة لنشر العقيدة الاسلامية التى تحتم الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ضرورة أن يستمر المد الاسلامى لاسيما ان هذا المد يحمل مقومات القـــوة الاساسية الالهية الممثلة بما يحفظه هؤلاء القـادة الاوائل من آيات قرآنيـة وتحلقهم حول الرسول الكريم ٠

ومن هنا كانت هذه القوة الروحية الدافعة هى التى تحرك القائمين على أمر الراية الاسلامية والعاملين تحت لوائها الاستمرار فى متابعة حركة المد الاسلامى انطلاقا الى أبعـاد جديدة وغايات أرجى وتلك سـنة الدعـوة الاسلامية التى تعمل على تعميق المفاهيم الاسلامية وترسيخ أقدام الاســلام وتثبيته فى نفوس الشعوب لكى يحافظ على قوة الدفع الاسلامية الذاتيـة انطلاقا من القيم الروحية التى عمل هؤلاء القـادة الاوائل على حملها الى الشعوب المجاورة فى العراق وفارس والشام ومصر وبلاد المغرب والاندلس وغيرها من ديار الاسلام ٠

ومن ثم كان جوهر الفتح الاسلامى هو السعى بالراية الاســلامية خارج الحدود خوفا على الاراضى الاسلامية من تعرضها للعـدوان وبناء جيش اسلامى متفوقا بالروح المعنوية التى أساسها قوة العقيدة وأهدافها السامية فكان هذا الجيش متماسكا قويا مستعدا للاستشهاد من أجل نصرة العقيدة ، اذ لولا العقيدة وسمو الهدف الاسلامى ونبل الجهاد والاستشهاد لـما تحققت الفتوحات الاسلامية الواسعة فى أنحـاء قارات العالم القديم ذلك لان الاســلام ينبع تفوقه وقوته وقوة رجـاله من ذاتيـة الوحى الالهى

وعقيدة رجاله وحسن تربيتهم اسلاميا وتوعيتهم قرآنيا لان كل ما يعمله هؤلاء القادة انما هو من وحى الله سبحانه وتعالى ٠

وفى كل هذه الامور تميزا لهم عن غيرهم من مقاتلى الاعداء لكن كل ما يفعله هؤلاء الفاتحون هو هداية الشعوب المقهورة الى طريق الاسلام وتحدى القوة الظالمة لقهرها وتحرير الارادة الانسانية من سطوتها وجبروتها ومن هنا كان الفتح الحقيقى والغزو المعهود ٠

ومن هذا المنطلق كان الاندفاع الاسلامى لتحقيق النصر رغبة فى الاستشهاد استجابة للمعانى الاسلامية اعلاء لكلمة الله ذلك لان كل الفتوحات الاسلامية لم تكن انتصارا عسكريا أو حدثا سياسيا بقدر ما كانت فتحا انسانيا وحضاريا وروحيا أنهى العبودية وحرر الانسان والغى سلطة الملوك والنبلاء والحكام وأنهى نفوذ رجال الكاهنوت ٠ ذلك لان هدف وهم القائمين على الفتح الذين كانت قواتهم جميعا داعية للاسلام هو العمل على انتشار الاسلام ونشره وهو الهدف الاسمى الذى كان يقوم به القادة والعمل على العناية بشرح التعاليم الاسلامية وافهامها للشعوب وشرح تعاليم الدين الجديد لهم وتوجيه الدعاة وبناء المساجد فى كل أرض يحلون بها لاتخاذها مراكز للدعوة والقيادة والصلاة ٠

ومن هنا كانت الشعوب ترى فى الاسلام وصفاء العقيدة ووحدة الاجناس ومساواة بين الجميع وهذه أمور لم يسمعوا عنها من قبل ولم يحلموا بالعدل والمساواة والوحدة والتآخى الا فى ظل الراية الاسلامية ٠

وعلى هذا فقد غدت القيم والتعليم الاسلامية التى تستمد مقوماتها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة والتى تلتزم بنشر العقيدة وبث الاسلام والايمان فى شكل يدعوا الشعوب المجاورة للجزيرة العربية لكى تدخل فى دين الله أفواجا ذلك لان الفتح الاسلامى والغزو العربى يختلف عن كل الفتوحات الاجنبية السابقة الفارسية والرومانية لان ذلك تحرير اخوة ونشر عقيدة

وروح ســامية فهو فتح سامى قرآنى تسوده عقيدة خالدة وهذا ما كان يجرى في المناطق التى فتحها المسلمون ·

ومن هنا كان كل داخل ومعتنق جديد للاسلام داعية اسـلامى عاملا ومجاهدا على ادخــال قومه وأهله فى عقيدة التوحيد لان تعاليم القـرآن وأحاديث رسول الله ﷺ تدعوا الى وحدة الشعوب والاجناس والالوان بحيث يصبح الجميع أعضــاء فى أمــة اسلامية واحدة لان الامة الاســلامية هى أمة الخير والامن والامان حاملة قـرآن الله الكريم التى نـزل لكل البشرية قاطبة هاديا ومرشدا ومنيرا وسراجا للعالمين لان الاسلام يأخذ بيد أبنـاته لكى يصبحوا دعــاة هداه فالداخلين فيه من الاقطار المفتوحة أصبحوا دعاة بمجرد نطقهم الشهادتين وحفظهم لبعض آيات القرآن الكريم وبعض الاحاديث النبوية ومعرفتهم بالشرع والتفسير والحديث وتلك هى طبيعة الدعوة الاسلامية ومنطق قوتها وتحركها الذى انطلق الدعاة الغزاة الفاتحين من أجل توصيلها الى البشر ، لان الامة الاسلامية هى أمة الايمــان بالله الواحـد والقــرآن الواحد كتاب واحد لا عـدة كتب والذى أنزله الله سبحانه وتعـالى الى كل الناس هداية ورحمة ·

ومن المؤكد قيــام الدعاة بواجبهم فى الدعوة بعلمهم وسيرتهم اثنـاء الفتح أو بعده فلم يكن تلاميذ رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتــابعين ثم التابعين من بعدهم غزاة فاتحين ولم يكونوا جنود حرب وغزو بل كانوا دعاة هداة أعز الله بهــم الاســلام وأمن بهــم الارض من جبــابرة الحـكم والحـكام ·

ومن هنا لم يكن تقدم الجيش الاسلامى وتحقيقه الانتصارات الا بالاسلام لان المسلم فى نصر دائـم حتى فى حالة الهزيمة العسكرية لانه لم يهـزم ايمانيا أو قرآنيا لان هزيمة الميدان العسكرى لم تجعله يستسلم نفسيا لان النفس المؤمنة لم تنهزم ، لان الاسلام لا يصل بالمسلم الى الهزيمة الداخلية النفسية لانه هو القوة الاصـيلة الفاعلة الحقة وهو أعلى من كل قوة أخرى وأمضى وأفتك من كل تجمع عسكرى مادى · وفى العقيدة الاسلامية بأن مهمة الفتح الاسلامى لا تنتهى أو تتوقف عند النصر الحربى أو اكتســاح

قوة العــدو ، ولكن المهمة الاشق والاصعب تبدأ بعد ذلك ببيان الاســلام والدعوة له وذلك على لسان الفاتحين والذى يكون فى سلوكهم ومعاملاتهم وتطويع انفسهم خدمة للاسلام وتمثيلهم للمعــانى السامية والخلق القــويم العظيم .

ومن هنا كان الفتح الاسلامى والغزو عملا من اجل البشرية وخــدمة للشعوب المقهورة المطحونة المندحسة وليس ضدهم فبالفتح الاسلامى يكون تحــرير الانسان من الرق والعبودية والسخرة والاضطهاد والتعذيب ووضع البشر على الطريق القويم والصراط المستقيم .

ومن هنا حققت الفتوحات الاسلامية معجزتها الكبرى حيث كان الفتح كالسيل المنهمر يقتلع أمامه كل الاوثان والاصنام ويلقى بهــا بعيــدا عن طريقه الذى اختارته العنــاية الالهية لشعب الجزيرة العربية لينطلق داعيا هدايا ويشاركه اخوة الاســلام والعقيــدة فى تنفيذ الهــدف من الغـــزو والفتـــح .

ومن كل ذلك فقد استطاع المسلمون فى أقل من خمسة عشر عاما فتح مناطق واسعة فتحا مبينا وهو ما لم يحدث فى تاريخ البشرية فسقطت بيد تلك الفئة المؤمنة القليلة العــدد الكثيرة الايمــان أكبر امبراطوريتين فى العالم المعاصر للدعوة الاسلامية الاولى وذلك رغم محاولات هاتين القوتين الكبيرتين (الفرس والروم) العمل بكل قــوة من أجــل ايقـــاف الزحــف الاسلامى والقضــاء عليه فى الجزيرة العربية ومنعه من الامتداد خـــارج الجزيرة بعد أن حــاولا الاتحــاد فيما بينهما للعمل سويا لضرب الاسلام وتلك اشارة ذكرها ابن جرير الطبرى فى كتابه تاريخ الطبرى ، ذلك لانــه على الرغم من حــالة العــداء المستحكمة والقــديمة والدائمــة بين هاتين القوتين وما دارت بينهما من حروب وانتصارات وهزائم وعمق العـــداوة التاريخية الا انهمــا وقفتــا بكل مــا لديهمــا من قدرات عســكرية وبشرية واقتصادية ودفاعية للحيلولة دون المد الاسلامى ولكن أصيبت كل مخططاتهما بالفشل المبين ولنــا أكبر دليل على ذلك ما حدث فى غزوة مؤتة التى كانت فى العام الثــامن للهجرة والتى حشد المسلمون لها ثلاثة آلاف مقـــــاتل

قرآنى ليقاتلوا جيش الروم الذى يزيد عدده عن مائة ألف مقاتل ، حيث قاتل المسلمون بالدين والقرآن ٠

ومن هنا تحقق النصر للمسلمين فى تلك الغزوة بعد أن أهابهم عدوهم حيث قال الروم عنهم انهم بالليل رهبان وبالنهار فرسان وذلك لانهم كانوا يقضون ليلهم فى قراءة القرآن الكريم وتدبر آياته ومعـانيه حتى اذا أدوا صلاة الفجر ظهرت فروسيتهم واستعدوا للدفاع عن أنفسهم وقتال عدوهم متسابقين للشهادة فوزا بالجنة ، بل ان الغزاة الدعاة الفاتحين لم يكونوا الا رسل سـلام ومحبة دعاة سلام لا قتال وقتل وتدمير وتخريب كما كان يحدث من غيرهم لان الفتح كان هدفه رفع القرآن وتفتح القلوب للاسـلام ومن يتدبر القرآن يدرك معانيه وينشد السـلام والايمان الذى هو غاية كبرى فى الاسلام لان هدف القتال أن يكون من أجل السلام لانهم دعاة قولا وعملا وان الجنود بفقههم وحفظهم للقرآن الكريم والمـامهم بالاحاديث النبوية بل ان بعضا كثيرا منهم كان من المكانة العلمية والفقهية بحيث يفقهوا غيرهم وأن يقوموا بالمهمة على أحسن أداء ٠

ومن هنا كانوا دعاة لغير المسلمين وهذه غاية الجيش الاسلامى وبنائه العقائدى القرآنى وهدفه ومسلكه فجنده فقهاء دعاة محدثين مقرىء قرآن رجـال علم وحضارة وثقافة ومدنية ٠

ومن هنا كان الجند الاسلامى بجانب القتـال له مهمة أخــرى هى الدعوة والتفرغ لها بعد انتهاء الحـرب فهو فى دعوة دائمة وجهاد مستمر فى ميدان المعركة ودعاية فى مختلف الميـادين وهذا تفرد ينفرد به جيش الاسلام الغازى الفـاتح لان الانتشار السريع للاسلام بعد الفتح مبـاشرة يستدعى تطويره ودفعه الى الامام وهذا الدور الذى اتبعه الفاتحون ألم يحرك البربر المسلمون فى اخوة العقيدة والاسلام مع العرب فى فتح الاندلس حيث كانت الغلبة الغالبة للقوات الفاتحة من البربر ولم ذلك دليلا حيويا عـلى قوة التاثير الاسلامى ودور رجـال الدعوة الاسلامية من العرب الفاتحـين اذ كيف أقبل البربر فى أعوام قليلة ليكونوا عدة الفتح والغزو الاسـلامى للاندلس وهم مازالوا حديثى العهد باعتناق الاسلام ان ذلك دليل قوى على

خطة الدعوة ودور الجهد المبذول فى ذلك حيث ان ما حدث فى المغــرب لم يكن الا مرحـلة من مراحل الدعوة فى شـتى أقطار الاسلام المفتوحــة لان الفاتحين كان لهم هدف واضح من اعمالهم يسيرون على ضوءه وهو ضوء القرآن الكريم وخلال المعارك كان الحرص على هذا فيها ظاهرا فقد اتقن الدعاة مهمتهم وحسنت مقدرتهم فى اظهار مجـال الدعوة الاسلامية فأقبلت شعوب الفتح على دين الله مختارين طائعين لا مجبرين ودخلوا أفواجــا ونتيجة لسماحة الاسلام ونظرته لدور الانسان وتكريمه ومهمة انقـاذه بهذا النور القرآنى فأقبل الناس اليه واستظلوا تحت ظله حيث كان هذا أساسا لميزان المسلم ٠

وقد لمس النـاس من غير المسلمين حسن معـاملة المسلمين لهم فأثار ذلك دهشتهم وقادهم الى تقبل الاسلام وحب أهله وكان من نتـائج ذلك أن عاش المسلمون مع الآخرين بهذه الاخـلاق لا اعتداء على حقوقهم بل عـدل ووفاء وتكريم وتعليم وسماحة فى كل الامور ورعـاية كاملة فى كل الاحوال حتى من لم يسلم منهم ويدخل عقيدة الاسلام مارس حيـاته بكل حــرية وأخوة ومارس أموره العـادية ولم يمس المسلمون أية من شئونهم الخاصة وعبادتهم وأملاكهم ولم يمنعوهم من الاحتكام الى دينهم وتركوا لهم ممارسة العبادة بحيث كنت ترى المسجد بجـوار الكنسية ولم تتخذ الكنائس مساجدا الا فى حالة هجرها واستبدالها وفى حالة عـدم وجود انسان مسيحى فى هذه البـلدة بعد دخـول الناس كافة الى الاسلام وتلك الامور ليست مجهولة فى بلاد العراق والشام ومصر والنوبة (السودان) وبلاد المغرب والاندلس وغيرها من ديار الاسلام التى عاش فيهـا غير المسلمين بجـوار المسلمين سنوات طويلة فى ظل حيـاة الدولة الاسلامية وهذا موضـوع لا يزال فى حاجة ماسة الى البحث والدراسة ليس فى مصر فقط بل فى كل الاقطــار التى فتحها وانتشر فيها الاسلام وانتشر انتشارا سريعا وان ذلك موجودا فى بطون الكتب والمخطوطات ٠

وهكذا دخل سكان تلك البلاد فى دين الله أفواجا فأصبح المسلمون فى تلك الاقطار اغلبية كبيرة وكان أكثرهم من سكانها بعد أن استوطن هــذه البلاد بعض العرب وعاشوا مع الآخرين اخوانا وغدا هؤلاء وغيرهم من

المسلمين سواء بسواء دون تمييز وقد سكنها الفاتحون وأعقبوا أجيـالا ولدت فى هذه الديار فكانت أمة مسلمة اذ تحولت الى دين الاسلام وانه كلما تقدم الزمن فان الاسلام كانت تزداد قوته وتتعمق جذوره ويزداد انتشـاره حتى غدا غير المسلمين فى تلك الاقطار أقليـة لها كافة الحقوق ولها حرية العقيدة والعبـادة وكان ذلك مسـاعدا على اسـلام من لم يسلم منهم وتنعم الجميع فى الامن فى ظل الامـة الاسـلامية وقبلت هـذه الاقليـة لغـة العرب المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم وأسلوبهم بل تسموا بأسمائهم وأصبحت لغة القرآن الكريم لغتهم ومارسوا بهـا أسـاليب حياتهم ولبسوا ملابس المسلمين واستعملوا الختان الذى لم يكن معمولا به من قبل ٠

وكان لكثير منهم أسـماء اسلامية واتقنوا العربية وتذوقوها قـراءة وكتابة وهذا مما ساعد على انتشار الاسلام بقوته الذاتية التى حققت المثل الانسانية الفريدة بفطرة الله الخالق سبحانه وتعـالى وبقى يمدها بالحياة والحركة وبذلك يرتقى الانسان بحيث يأخذ بعدا جديدا يصبح به انسـانا قرآنيـا ٠

ومن هنا لم يكن المد الاسلامى فى تلك الديار حركة غزو سلب واسلاب وغنائم وضرائب وجزية وحـكم وسطوة وسيطرة اقتصادية وسياسية ٠ بل كان الفتح هو موكب دعوة روحية وامتداد لراية القرآن الكريم وعمل متصل لخير البشرية أفقـا وعمقـا دعوة ميدانها الارض جميعها ومـداها بنـو البشرية كافة وحقـا وموضوعا واقامتها نهاية حدود الارض المعمورة تسعى اليها وتحنو عليها ليعم نور القرآن المبين وشرعه المكين لاهل الارض جمعاء تدعوهم فيقبلوا مختارين ويسارعوا للدخول فيه أفواجا واعتناقه جماعات ليصبحوا من أهله والعاملين تحت رايته مجاهدين لنشره ٠

وهكذا سـارت دعوة الاسلام فى الارض عامرة معمرة راضـيـة ومرضـية حاضرة ومحضرة وفى ذلك يقول ابن تيمية « ان المسلمين الاوائل لم ينقلوا الاسلام الى الامم المفتوحة ولكن نقلوا الامم الى الاسلام فهم هداة دعاة ، انه الدين الوحيد الهادى للانسان المنقذ من الضـلال والصائن له من الانحراف لانه شرع الله القويم وصراطه المستقيم حتى لا يكاد الاسلام عاليا

فى وقتنا الحاضر (نهاية القرن العشرين) ينتشر بدون دعوة ودعاة وهـذا ما يخشاه أعداءه على تنوع مصالحهم ٠

وهكذا استمرت الدعوة الاسلامية وزادت موجة المد الاسلامى منـذ عهد الفاتحين الاوائل حتى وقتنا الحاضر رغم ما يمر بالدعوة الاسلامية من ازمات معاصرة ، لكن فان الجهود متصلة ومتواصلة لا تعرف الكلال بل تجد فى المتـاعب والمصاعب الراحـة والامنية رغبة فى خدمة الاسلام وطمعا فى الاستشهاد زيادة فى الاجر والثواب ٠

ومن هنا كان بلوغ هذه الغـاية أسمى ما يرغب فيـه رجال الفتـح والغزو ومن هنا حملوا أرواحهم وتقدموا فى كل مكان وجاهدوا الى أبعـد الحدود بنشاط اسلامى كبير وتقدموا شمالا وشرقا وجنوبا وغربا مجـاهدين حريصين أمناء على أمن الدولة الاسلامية وأهلها وهذا ما كان يتجلى فى أعمالهم ٠

وهكذا بذل هؤلاء جهدا كبيرا فى دعوة الناس الى الاسلام عملوا من اجل ذلك باخلاص عميق فغدت ديار الاسلام أرض رباط وكعبة حضارة وقبلة علم ودين وقدموا الشهداء تلو الشهداء فى كل بلد مجاهدين داعين لا غزاة غاصبين نقلوا علومهم وحضارتهم وتراثهم وقبل كل ذلك قرآنهم وفكرهم وعقيدتهم ونورهم وربيع حياتهم فكانوا خير دعاة فاتحين غازين ٠

وحول الغزو الاسلامى المبين والذى ارتضينا أن يكون الفصل الاول فى هذه الدراسة هكذا ضاعت الاندلس لنوضح للقارىء العربى والمسـلم مقدمات الدراسة مخالفين بذلك كل الذين سبقوا فى الكتابة حـول هـــذا الموضوع لانه لابد من تحـديد الهدف العـام من الغزو الاسلامى دفعـــا للشبهات ودحض للافتراءات وحقا للحق ٠

ومن هنا فلابد أن نشير الى كل ما ذكر فى الصفحات السابقة بمـا قاله أحـد المستشرقين « الن اريرى » فى كتـابه (مظـاهر الحضـــارة الاسـلامية) حيث كتب قـائلا أن القـــرآن لم يكن ينـزل على محـــمد

(ﷺ) في قلب الجزيرة العربية حتى بدأ يغزو العالم القديم بسرعة أذهلت المفكرين والمحللين للتاريخ وقد حاول المؤرخون المحدثون تعليل هذه الانتصارات الواسعة والفتوحات العظيمة بردها الى عوامل اقتصادية او حربية او سياسية ·

ولكن كل هذه التعللات ظلت عاجزة قاصرة عن التعليل الصحيح فكان لابد من الرجوع الى العامل المؤثر الفعال وهو الدين الجديد (دين الإسلام) رسالة الله الخالدة الى كل البشر ·

ويضيف المستشرق قائلا ان بلاغة القرآن الكريم هى المعجزة مع بساطة تعاليم الاسلام التى جاءت فى هذا الكتاب هى المفتاح لحل لغز أعظم ، ذلك لأن الاسلام جاء يدعو الى حياة منتظمة جادة حياة جماعة عاهدوا الله أن يخضعوا لارادته فى كل مكان وأن يجاهدوا كافة البشر على الاقرار بقدرته وملكوته ، فليس عجبا اذن ان الاسلام حالما أنطلق خارج حدود الجزيرة العربية اكتسب أتباعا جددا وأخذ الناس يدخلون فيه أفواجا فقد وجد الناس أنفسهم تجاه دين يشد على الكرامة الفطرية ·

وهكذا التفوا حول راية الاسلام التى أحسوا بظلها أخوة متآخية وان الانسان خليفة الله فى الأرض (لا قولا وزورا وبهتانا وفرية وجهلا بأن الاسلام انتشر بحد السيف) ان ما جاء به القرآن الكريم وما حوته سوره وآياته الكريمة هى التعبير الوحيد لانتشار الاسلام منذ فجر تاريخه العظيم لم يكن صحابة رسول الله ﷺ هم الذين جعلوا الاسلام عظيما بل لقد كان الاسلام هو الذى جعل المسلمين عظماء بعد أن ضربوا النموذج الاعلى فى البطولة الاسلامية مرتفعين عن أهواء الصراع والتقاتل ، وهم الذين صاغهم رسول الله ﷺ وتحلقوا من حوله والتفوا حوله هم رجال حول الرسول وتلاميذ مدرسته القرآنية الذين حققوا فى مائة عام مالم يحققه المسلمون المعاصرين فى أكثر من ألف عام هؤلاء الرعيل الكريم وتابعيهم هم الذين قامت الفتوحات الاسلامية الواسعة والعظيمة على اكتافهم فهم الذين اقاموا قارة اسلامية تشمل قلب العالم القديم افريقية وأجزاء من آسيا واوربا ·

وهكذا قام الجيل القرآنى الاول بمهمته خير قيـام بعد أن أخذ على عاتقه أن يمكن لهذا الدين فى الارض وأن تندفع طلائع المسلمين لتبلغ الاسلام الى العالمين ٠

وفى شأن هؤلاء الفاتحين يقول المفكر « جوستاف لويون » الحق يقال ان الامم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب المسلمين ان الاسلام هو الذى أعطى المسلمين هذه الرحمة وهذا التسامح وأضاف جوستاف لويون أن العرب الفاتحين كان من سياستهم أن يتركوا الامم التى تخضع لـراية الاسلام حرة فى المحافظة على قوانينها وعاداته ومعتقداتها كان من الممـكن أن تعمى فتوح العرب الاول أبصـارهم فيقترفوا من المظـالم مـا لم يقترفه الفاتحون عادة ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم ونشره فى أنحاء العالم ولكن الخلفـاء السابقين (الفـاتحين الاوائل) الذين كان عندهم من العبقرية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الاخرى أدركوا أن النظم والاديان ليست مما يفرض قسرا وعنفا وبالقوة فعاملوا الكثير من الشعوب وكل قطر استولوا عليه ملطف عظيم تاركين لهم قوانينهم غير فارضين عليهم سوى جزية بسيطة زهيدة فى مقابل حمايتهم وحفظهم الامن بينهم والتى كان يعفى منها الشيوخ والنساء والاطفال ولا يأخذ الجزية الا من البـالغ والعـاقل ٠

فى حين على الجانب الاسلامى كان المسلم يدفع أضـعاف الجزية ممثلا فى الزكاة والعشور عشر المـال ٠

وهكذا عمل دين محمد على ازدياد تأثيره فى الشعوب وبقيت عقيدته باقية قائمة بسبب عـدل المسلمين وتسامحهم وهكذا حمل المسلمون مده الى أماكن أخـرى ٠

هكذا كانت الفتوحات والغزوات الاسلامية أكبر الانجازات التى قـام بهـا المسلمون الاوائل لانه سـار فى الطريق المنير الوحيد طريق الله القويم الكريم وصراطه المستقيم وأشرقت بنور الله سبحانه وتعالى تلك البقاع التى رفرفت فوقها الراية الاسلامية ٠

ومن هنا كانت تلك الديار حلقة من حلقات التاريخ الاسلامى رافعة لشهداء العقيدة الذين كانوا أوائل الركب سائرين على نهج القرآن الكريم وتلك سمة مجيدة فريدة فى نوع الفاتحين الذين يندر مثالا لهم فى تاريخ العالم لانهم رأوا فى الغزو والفتح راحتهم وغايتهم ٠

لقد قاد هؤلاء الفاتحين الانسانية الى حضارة اسلامية هى القائدة الرائدة تألق ضياؤها فى منارات بغداد ودمشق وقبلا المدينة المنورة والقيروان والقاهرة وفاس وكل بلاد الاندلس على حافة بحر الظلمات فأضاءت للغرب الاوربى ليل العصور الوسطى المظلمة وحددت مسيرته الى فجر نهضة حديثة ٠

ذلك لان كتائب العرب المسلمون الفاتحون لم تكن شرذمة من المرتزقة أو جماعة من البدو سائحين بل سارحين فى الارض التماسا للقوات (رأى الغرب تحرك اقتصادى) ولا كانوا فلولا مشردين فى التية كاليهود ولا كانوا كالامريكان نفايات وبقايا من شذاذ الآفاق لفظتهم المجتمعات الاوربية فطروا على أمريكا اغتصبوها من أهلها الهنود الحمر والزنوج فى حرب ابادة عنصرية ساحقة لم يعرف التاريخ مثيلا لها وتطهير عرقى لم يفتر سعاره ظاهر حتى هذه الساعة (١٩٩٢/١٢/٣) مقال دكتورة بنت الشاطىء الاهرام المصرية الشاهدة على العصر ، عام أسبانيا وعبرة الايام ، حديث ذو شجون ٠

ان الفاتحين العرب المسلمون كانوا حملة رسالة حضارية نهم انسابهم المحفوظة وديارهم المعروفة فى الشرق الاسلامى العريض مهد الرسالات والحضارات حاملين قرآن الله الكريم لواء ومنارة لهداية البشرية ٠

ذلك لانه لم ينقضى القرن الاول الهجرى حتى كان هؤلاء الفاتحين قد رفعوا قرآنهم الكريم عاليا على أقطار دولة الاسلام الكبرى من أقصى الشرق الاسيوى الى أقصى المغرب والاندلس ٠

واذا كانت حركة الفتوح الاسلامية الكبرى قد بهرت التاريخ ورجاله وإعيا علماؤه تغيير هذا الزحف والمد الاسلامى الجارف السريع ووقف العلماء لا يجدون سببا سوى جوهر الاسلام ومنطق الدين الجديد . هذا الدين الذى رفع عن الانسان ووضع عنه مهانة الذل والعبودية وعدم الخضوع لغير كلمة الله خالق لكل شىء وحذر الاكراه فى الدين وصدق بالرسالات السماوية قبله فان فتح البلاد الاسلامية ومنها فتح الاندلس محور هذه الدراسة لم يفرغ منه عجب اذكر منها قول المستشرق الانجليزى الكبير فى مقدمة الفصل الاول من كتابه (وجهة الاسلام) ان طريقة انتشار الاسلام أسبغت عليه من عصر المبعث صفة الدين الغالب فى حين أن الاسلام لم ينتشر بالسيف وجد الدعاة اليه فى ظل السيادة الاسلامية أكثر الظروف الملائمة لنشره لكن عاقت انتشاره المتوقع عقبات أهمها مقاومة الممالك المسيحية الاوربية وقد حدث انه منذ تشابك المسلمين والمسيحيين ان ظل العالم المسيحى الاوربى لا المسيحية عدو الاسلام الالد خلافا لمسلك المسلمين حيال رعاياهم المسيحيين من تسامح وتصديق برسالة المسيح عليه السلام .

واذ لا أبرىء نفسى فى هذه الدراسة وما يتعلق فيها بالفتح الاسلامى للاندلس (أسبانيا) على وجه الخصوص من انفعال يشجو الحنين الى مجد الاسلام باندلوسيا (١٤٩٢ ــ ١٩٩٢م) ٥٠٠ عام على سقوط غرناطة آخر المعاقل الاسلامية الحضارية المنارة فى الاندلس .

الا أن نعود لما ذكره المؤرخ الفرنسى العلامة (جوستاف لوبون) فى الفصل الخامس بالعرب فى أسبانية فى كتابه الجليل (حضارة العرب) ترجمة عادل زعتير . القاهرة ، ١٣٨٤هـ .

ونرى قبل أن نقص خبر ذلك الفتح الاسلامى والذى يقول « اتم المسلمون فتح أسبانية فى سرعة مدهشة فقد سارعت المدن الكبرى الى فتح أبوابها الفاتحين الرافعين لقرآن الله الكريم فدخلوا قرطبة ومالقة وطليطلة وغرناطة صلحا ووجدوا فى طليطلة عاصمة النصارى تيجان خمسة وعشرين ملكا قوطيا فتركوا لهم أموالهم وكنائسهم وقوانينهم وأحسن العرب سياسة سكان

أسبانيا كما أحسنوا سياسة أهل سوريا ومصر والمغرب وغيرها من البلاد المفتوحة وأقروا لهم بحق المقاضاة الى قضاة منهم ولم يفرضوا عليهم سوى جزية سنوية زهيدة نظير الدفاع والخدمات السامة رضيها الاسبان طائعين وخضعوا للفاتحين من غير مقاومة وكسر الفاتحون فى فترة يسيرة مقاومة النبلاء الاقطاعيين ودانت أسبانيا للمسلمين فى سنتين اثنين حتى استرد النصارى ما خسروه بعد جهاد ثمانية قرون ٠

هذا عن الفتح الاسلامى للاندلس فى رؤية المؤرخ الفرنسى العلامة « جوستاف لوبون » ثم صرح بأنه لا يجد حاجة الى تفصيل لما أعطاه تاريخ القرون الثمانية ٠

وهكذا دامت دولة العرب المسلمون ثمانية قرون فى الاندلس ٩٢ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ـ ١٤٩٢م وأدى انقسامها الى زوالها أكثر مما أدت اليه الغارات الاجنبية الاسبانية الاوربية والبابوية ذلك لان المسلمين ان كانت عبقريتهم الحضارية والثقافية من الطراز الاول فقد بدأ نبوغهم السياسى ضعيف حيث كانت عوامل التفكك من أسباب انهيار الاندلس ٠

فماذا عن نهايتهم بالجلاء (طرد العرب من أسبانية) وكيف ضاعت الاندلس بعد دولة دامت ثمانية قرون متواصلة وما هى عوامل الضعف والتفكك والانهيار والانقسام والمؤامرات الداخلية والخارجية والتحالف الاوربى العالمى ضد الوجود الاسلامى وما هى مراحل الفتح الاول وعصر القوة والضعف والمآثر الحضارية الاسلامية الثقافية والمعمارية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية ٠

هذا ما سوف نعرض له فى هذه الفصول اللاحقة التى نلقى الضوء فيها على تاريخ الاسلام والمسلمين فى الاندلس وعوامل ضياع هذا الفردوس المفقود الذى يبقى أبد الدهر عالقا بل محفورا بحروف دامية فى قلب كل مسلم رغم مرور خمسمائة عام على طرد الاسلام وأهله من دياره وهكذا ضاعت الاندلس رغم عمق الاسلام الذى دام أكثر من ثمانية قرون (٨٠٥ سنة) هجرية ٧٨١ ميلادية ٠

الفصل الثـانى

الاندلس (المدلـول اللفظى والوضـع الجغـرافى) والاحـوال قبـل الفتح الاسـلامى

أطلق العرب لفظ الاندلس على شـبه جزيرة ايبريا التى تشمل حاليـا دولتى أسبانيا والبرتغـال ويذكر المؤرخن ان شـبه الجزيرة هذه قد أطلق عليها عدة أسـماء على مر العصور ٠

ولفظ الاندلس لفظ معرب جاء من لفظ الوندال Vondals وهو مصطلح ماخوذ من هـذه القبـائل والتى تعود الى أصل جرمانى احتلت شبه الجزيرة الايبيرية حوالى القرن الثالث وحتى الخامس الميلادى وتسمى هذه القبـائل فى اللغـات الاوربية الفاندال أو « الفاند الوس » اى بلاد الوندال ثم نطقت بالعربية الاندلس ٠

وهذه القبائل من المتبربرين الجرمان غزت الجزيرة فى القرن الخامس الميلادى وانحدرت الى الجنوب تدفع قبـائل أخرى جرمانية أخـرى حتى انتهت الى الطرف الجنوبى فى شبه الجزيرة وهناك أقاموا زمنـا طويلا فى ذلك الطرف الجنوبى وعرفوا باسم فاندا لوسيا أو واند لوسيا وبهـذا الاسم عرف البربر سـكان هـذه البـلاد والذين كانوا يقيمون على بحـر الزقاق فالاسم أطلقه البربر ثم عندما وصل العرب الى بلاد المغـرب قيـل لهم ان هذه الارض والبلاد « وندلس » وحرف الواو وهو أداة تعريف فى لهجة بربر طنجة فعرب الاسم الى « أندلس » وبهذا الاسم ظلت هذه البلاد تعرف الى نهـاية الحـكم والوجود والسيطرة الحضارية الاسلامية ولازال اللفظ فى صورة أسبانية هى « اندلونيا » يطلق حتى عصرنا الحاضر على

ثمانية محافظات صغيرة تقع فى المثلث الجنوبى لشبه الجزيرة جنوبى نهر الوادى الكبر هى المرية ، غرناطة ، جيان ، قرطبة ، مالقة ، قادش ، ولبة ، اشبيلية ٠

ومن ثم فهو مدلول لفظى يطلق على مكان وهو مصطلح اتفق عليه المؤرخون والجغرافيون الاندلسيون أحيانا على كل شبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا والبرتغال حتى وقتنا الحاضر) والتى يطلقون عليها أيضا الجزيرة الاندلسية ثم استعمل للدلالة على كل المناطق التى سكنها المسلمون وحكموها من شبه الجزيرة الايبيرية ٠

وحين يذكر هنا اصطلاح الاندلس يقصد به أيضا زيادة على ما سبق المنطقة الاسلامية التى شملها الاسلام سلطانا وسكانا من شبه الجزيرة الايبيرية وعلى الاغلب فى شمولها أيام الخلافة الاندلسية ٠

ويذكر البكرى والحميرى ان اسمها القديم هو ايارية من وادى ايرة وهو مصب نهر يقع فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة ثم سميت بعد ذلك باسم « باطقة » من وادى بيطى وهو الاسم القديم لنهر الوادى الجديد ثم سميت اشبانية وهو إسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان وقيل انها سميت بالاشبان نسبة الى من سكنوها فى الزمن البعيد ٠

وهناك من المؤرخين المحدثين (المعاصرين) من يرى ان اسمها فى القديم كان ايبريا نسبة الى الايبيريين الذين كانوا من أقدم سكان هذه البلاد ثم أطلق عليها بعد ذلك أسبانيا وان الجزء الجنوبى من أسبانيا كان يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك فى العهد الرومانى ثم سمى « فندليسيا » حين سكنه الوندال بعد الرومان ثم جاء أخيرا المسلمون فأطلقوا اسم الاندلس على شبه جزيرة ايبيريا ٠

وقد اختلف المؤرخون ولم يتفقوا على رأى موحد فى سبب التسمية بالاندلس فيذهب بعضا منهم فى العصور الاسلامية الوسطى زمن السيطرة الاسلامية على البلاد ان التسمية نسبت الى قوم كانوا قد سكنوا هذه

المنطقة وكان يطلق عليهم اسم الاندلش أو الاندلشيين كما يقول البكرى ٠

ويذهب آخرون الى تسمية أخرى وهى ان الاندلس تعود فى مصطلحها الى أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام ويرى بعض المؤرخين ومنهم المحدثون فى العصر الحديث ان أول من اطلق اسم الاندلس على هذه المنطقة هم المسلمون (العرب والبربر) وانه نسبة لقبائل اقامت بهذه المنطقة وهم الذين يذكرهم الباحثون باسم الوندال ٠

ولكن ليس هناك أدنى شك فى أن أول من استخدم لفظ الاندلس الذى اطلق على المنطقة التى سيطر عليها الاسلام وبسط لوائها فوقها هم المسلمون وعندما نقول الاندلس فاننا نعنى ما ساده الاسلام من شبه الجزيرة الايبيرية (أسبانيا والبرتغال) لان المسلمون عندما فتحوا الاندلس فتحوه كلة الى جبل البرت والى خليج بسكاى والذى يسميه ويطلق عليه العرب « خائط الفرنجة » ٠

وقد ارتبطت أسبانيا تاريخيا بالاسم الذى عرفت به دولة المسلمين هناك وهو الاندلس فأصبحت الكلمتان مترادفتين منذ القرن الثامن الميلادى ورغم ان الاندلس لا تعنى كل أسبانيا لان سيادة المسلمين لم تنتشر بصورة مطلقة على جميع أجزائها فقد ظل التداول بهذا الاسم شائعا حتى فى الوقت الذى تقلصت فيه هذه السيادة وتقوقعت فى الجنوب (امارة غرناطة) ولم يكن العرب يتداولون سوى لفظ الاندلس فى التعبير عن أسبانية اشبانية Hispania الاسم القديم الذى استعمله الرومان أو ايبيريا حسب التعبير اليونانى وتجمل الينا كتب التاريخ معلومات مبهمة أحيانا وأسطورية أحيانا أخرى فى تفسيرها لهذه الاسماء وكان يذكر ان اشبارية مسماه من اشبرش وهو الكوكب المعروف بالاحمر ٠

لكن هناك من يذكر ان هذه الاسماء لها مدلول جغرافى وليس مدلول لفظى فاشبانية يعتقد انها نفس البلاد الواقعة الى الغرب أو انها مشتقة من اشبان الاسم الاول لاحد ملوك الاندلس الاقدمين أما ايبيريا فيعتقد انها اسم لشعب شارك سكنى هذه البلاد فعرفت به ٠

وأخيرا تبقى التسمية الاسلامية العربية الاندلس المأخوذة على الارجح قبولا لدى غالبية المؤرخين من الفندال أو الوندال وهى القبائل التى حكمت أسبانية وجزء من المغرب مع مطلع القرن الخامس الميلادى .

ولكن متى استخدم المسلمون هذا الاسم واللفظ على هذه البلاد فانه ليست هناك وثائق تاريخية تعين فى هذا الموضوع وتذكر أول من استخدم هذا الاسم المسلمون ، لكن على عملة ذهبية وهى أقدم وثيقة من القرن الاول الهجرى ضربت فى عام ٩٨هـ/٧١٧م والتى أمر بضربها وسكها الامير الحر بن عبد الرحمن الثقفى والتى تحمل النص اللاتينى على وجه الدينار وترجمته العربية على الوجه الآخر وفى النص اللاتينى ترد كلمة أسبانيا وفى النص العربى ترد الاندلس والترجمة كما ذكر ذلك الدكتور الطاهر مكى فى كتابه أندلسيات هى ضرب هذا الدينار بالاندلس سنة ثمان وتسعين وهذا الدينار هو أقدم وثيقة تم العثور عليها وهى شاهد حى على الاسم اللاتينى للبلاد هو أسبانيا وان ترجمته العربية الاندلس .

وقد شاع هذا الاسم عندما دخل الاسلام هذه البلاد واستخدم فى نصوص الجغرافيين والمؤرخين والادباء وعم استخدامه وأطلق على كل المناطق التى فتحها المسلمون اى على شبه الجزيرة الايبيرية كلها وعلى قسم من جنوب فرنسا فيما عدا الجزء الشمالى الغربى من أسبانيا الذى فقده المسلمون .

وقد ظل اسم الاندلس مستخدما حتى بعد سقوط دولة الاسلام فى الاندلس ، لكن أخذ صورة أكثر تصغيرا وهى أندلسيا بدلا من الاندلس وعندما أخذ المد والنفوذ الاسلامى يتراجع شيئا فشيئا حتى اذا قامت الخلافة الاموية ١٣٨هـ/٧٥٦م كان المسلمين قد فقدوا الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة حيث كان قد تم فتحه فى عهد الولاة منذ حكم عبد العزيز ابن موسى بن نصير .

واستمر التواجد والنفوذ الاسلامى والراية الاسلامية ترفرف على

البقيــة الباقية حتى سقوط الخلافة الاموية الاندلسية عــام ٤٢٢هـ/١٠٢١م وبعد ذلك كما سنرى فى هذا العرض بدأ المد الاسلامى ينحسر ويفقد المسلمون أجزاء أخـرى من شبه الجزيرة ولكن لفظ الاندلس ظل يطلق على ما يخضع للسيادة الاسلامية وما بأيدى المسلمين من هذه البقاع حتى اقتصر فى نهاية المطاف على مملكة غرناطة فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة وهو يمثل ٨/١ من مساحتها الكلية ومع ذلك ظل يسمى الاندلس ٠

(ب) الوضع والموضع الجغرافى

تقع الاندلس أو شبه جزيرة أيبرية على مثلث من الارض يضيق شرقا ويتسع غربيا فى طرف الجنوب الغربى من القــارة الاوربية مقابل السواحل الشمالية للمغرب حيث يفصل بينهما مــا يعرف قديمــا (ببحــر الرقاق) أو مضيق جبل طارق أما فى الشمال فتتصل بفرنسا (بلاد الفرنجة قديما) بواسطة سلسلة جبليــة تعرف بجـبال البرانس (البيرنية) التى تتخللها شعاب ضيقة وممرات قديمة أشهرها ممر رونسفال (Roncevale) أما بقيــة حدودها فتنتشر ما بين البحر المتوسط فى الشرق والمحيط الاطلسى فى الغرب مع قسم فى الشمال ٠

وهى فى أقصى الجنوب الغربى من قارة أوربا وتتميز عن كل من شبه جزيرة ايطاليا وشبه جزيرة البلقان بأنهــا تطل على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى الذى تتوغل كركيزة فيــه الى مســافة كبيرة وشــبه جزيرة ايبريا اقليم واسع تصل مساحته الى ستمائة ألف كيلو متر مربعــا وأسبانيا وحدها وهى تحتل خمسة اسداس شبه الجــزيرة ٦/٥ (٥١٦٫٠٠٠ كم٢) وتشـمل البرتغــال السدس الباقى وتعتبر ثالثــة الاقطــار الاوربية من حيث عــدد السكان ، وكذلك تعتبر ثالثة بلاد أوربا من حيث المساحة بعد روســيا وفرنســا ٠

وشــبه الجــزيرة فى مجموعها عبــارة عن هضبة متوسطة ارتفاعها ستمائة متر عن سطح البحر وهى أعلى بلاد أوربا فيما عدا سويسرا ونحو

ثلث البلاد يزيد ارتفاعه عن ثلثمائة متر وسلاسل الجبال التى يصل ارتفاعها الى الف وستمائة متر كثيرة جدا ٠

وتتصل بفرنسا (الارض الكبيرة) من الجنوب وتفصلها عن قـارة افريقية مضـيق جبل طارق كما سبق القول الذى يبلغ عرضه من الشرق الى الغرب ما بين ٢٣ الى ٣٧ كيلو متر وتقع على المضـيق بعض مدن المغـرب الاقصى فى الشمال الافريقى ويصل المضيق بين شـبه الجـزيرة الايبيرية والمغرب الاقصى وما بعده بر كما يصل بين المحيط الاطلسى والبحـر المتوسط بحر ٠

تقع سواحلها الشمالية والشمالية الغربية على المحيط الاطلسى عند خليج بسكاى (Biscay) وتقع سواحلها الغربية على المحيط الاطلسى الذى يعرف عند بعض الكتاب والمؤرخين المسلمين باسم البحر الاصفر أو البحر المحيط أو البحر المحيط الرومى ، أو بحر الظلمات أو البحر المظلم ، وتقع شواطئها الشرقية والجنوبية الشرقية على البحر المتوسط

والحد الفاصل بين أوربا وشبه الجزيرة الايبيرية هى سلسلة الجبال التى تسمى باللغات الاوربية جبال البرانس وهى سلاسل من الجبال تقفل الطرق من شبه الجزيرة الى جنوبى فرنسا فلا يمر الذى يريد العبور الى فرنسا الا من ممرين فى الشرق وفى الغرب وفى ممرات خلال الجبال تسمى « بالابواب » ٠

وتعتبر سلسلة جبـال البرانس بنهاية الحد الغربى لاحد الفروع التى ... من عقدة الالب ويبلغ ارتفاعها ١١١٦٨ قدما وبعض قممها ٣٤٠٠ متر وتوجد ممرات عبر هذه الجبـال ؛

وقد كانت جبـال الاطلس وسلاسلها فى المغرب تتصل فى القديم اتصالا لا مباشرا بجبال (سيرانفاد) فى أسبانيا وتعتبر جبال البرانس حدا سياسيا منيعا بين أسبانيا وفرنسا وهى أهم الحدود الاوربية ومع ذلك فهى ليست حـدا جنسيا ولا لغويا فى اى جـزء منهـا اذ تقطن قبـائل البـاسك على

منحدراتها الشمالية والجنوبية فى النصف الغربى منها بينما تستطيع أن نسمع اللغة القطالونية على المنحدرات الشمالية والجنوبية فى القسم الشرقى من هذه الجبال وبسبب مناعة البرانس ووعورتها الا من الممرات كانت أسبانيا أكثر اتصــالا بالبحر المتوسط وببلاد المغرب وافريقيا منها بأوربا ٠

ولقد جــاء لفظ جبــال البرانس فى العربية باسم جبــال البرات ومعناه جبال الباب أو الابواب وبسبب هذا الحاجز الكبير كان الفارق الحضــارى بين ما يقع جنوبى الجبال وشمالها فرقا جسيما يلاحظه الانســان بمجــرد انتقالة من أسبانيا الى فرنسا ٠

ويتكون معظم شبه جزيرة ايبيريا من هضبة من هضبات التعرية يتراوح ارتفاعها بين ٦٠٠ الى ٩٠٠ متر عن سطح البحر وتعرف بهضبة الميزيتــا وتتكون من صــخور قديمة صــلبة ويحف بالميزيتا سلاسل جبال التوائيــة حديثة التكوين ففى الشمال نجد جبال البرانس وجبال كنتبريان وفى الجنوب جبال سيراموربنا وفى اقصى الجنوب جبال « سيرانفادا » ٠

ويلاحظ ان جبال سيراموربنا تفصل الهضبة عن ســهل الاندلس ، كما ان جبال مرسية تحول بين الهضبة وبين السهول الساحلية المعــروفة باسم مرسية وفالنسيا وقطلونيا وحوض نهر ابرو فى الشمال فى شرق أسبانيا والهضبة ذاتهــا ليست مستوية السطح انما تخترقها سلسلتان من الجبال تقسمها الى ثلاث أقسام وشبه الجــزيرة تشــقه ســلاسل الجبــال تجــرى مستعرضة وبين كل سلسلة من الجبال والتى تليها يوجد وادى يجرى فيه نهر مستعرض ايضــا ٠

ولهذا فان شبه جزيرة أيبيريا ينقسم بالفعل الى مناطق مستعرضة يلى بعضها البعض وكل منطقة سلسلة جبالها وانهارها وهــذه الانهــار معظمها يصب فى المحيط الاطلسى وتنبع كلها من وسط شبه الجزيرة فهناك الحــد الفاصل لمجــارى الميــاه ولا توجد الانهار الكبيرة التى تحمل المــاء الوفير الا فى النصف الشمالى لشبه الجزيرة ٠

وهذه الانهار التى تخترق أيبيريا هى الوادى الكبير ، والوادى اليانع وتاجة ودورو وكلها تصب فى المحيط الاطلسى · أما أنهار شقر وشقورة الابيار فهى أنهار صغيرة تصب فى البحر المتوسط ·

والاندلس تكاد تكون منعزلة عن غيرها من الدول بسبب احاطة الماء وجبال البرانس بها وانها بذلك اقليم جغرافى متميز عن سواه كل التميز من بلاد القارة الاوربية ·

ونهر الوادى الكبير مع انه أقصر الانهار الكبرى الا انه اعظمها اهمية نظرا لامتلاء مجراه وهو يشق طريقه خلال الاراضى السهلة الواسعة بالاندلس فى قلب الاندلس حيث تقع عليه قرطبة وأشبيلية ومن نهر الوادى الكبير يتفرع نهر شنيل وعلى فرع من فروعه يسمى « حدارة » تقع غرناطة ·

واذا نظرنا الى شبه الجزيرة فى جملته وجدنا ان النصف الاغنى هو الشمال لان به الانهار الضخمة وأراضى المزارع الواسعة تقع به · وفيما بين نهر تاجة ونهر المينو توجد أوسع مناطق زراعة القمح فى أوربا بعد (أوكرانيا وروسيا) وهناك أيضا فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة أراضى المراعى الواسعة التى تربى عليها الماشية الكبيرة والاغنام الوافرة الصوف ·

وكذلك الخيول الكبيرة الحجم ، وقد ساعدت كل هذه الثروات المسيحيين فى قتالهم ضد المسلمين عند عملهم على طرد الاسلام وأهله نهائيا من البلاد والعمل على زحزحتهم جنوبا حيث المناطق الفقيرة اقتصاديا وشبه الجبال الجافة وذلك لان القسم الذى ساده المسلمون كان أوسع مساحة بينما كان القسم الذى سيطر عليه النصارى تدريجيا من أيدى المسلمين كان أصغر لكنه اكثر ثروة ونتيجة لذلك كانت ثروته أوفر وهذا يفسر لنا لماذا كانت المعركة بين المسلمين وخصومهم معركة عنيفة دائما ولماذا قتل أكثر الولاة الاندلسيين فى الشمال برغم ان المسلمين كانوا يملكون القسم الاكبر ولكنه أفقر فلم يكن من الاقاليم الاسلامية الاندلسية الغنية

الا اقليم بلنسية فى الشرق ثم أشبيلية وفيما عدا ذلك فان بقية بلاد الاندلس الاسلامية كانت تقع فى اقليم فقير فى جملته ٠

- وأما فى الغرب فلا يوجد الا نهر واحد كبير يطلق عليه اسم نهــــر « ايرو » وتقع عليه برشلونة عاصمة اقليم قطالونيا وكان وادى ايرو فى أيام المسلمين يسمى الثغر الاعلى للاندلس وعاصمته سرقسطة وكان من أكبر مراكز الاسلام والعروبة فى شبه الجزيرة وشبه الجزيرة فى مجموعها اقليم جاف بصفة عامة فلا تكثر الامطار الا فى نصفه الشمالى الى الشمال من وادى تاجة الذى تقع عليه طليطلة عاصمة شبه الجزيرة قبل الفتــح الاســلامى ٠

أما سكان هذه البلاد فقد اختلفت الاجتهادات فى تحــديد الاصــول العرقية التى ينتمون اليها فهناك نظرية تقول بأنهــم مزيج من شــــعوب قديمــة كلتية وايبــرية دخلتها تاثيرات يونانيــة وأســـيوية (قرطــاجة ، الفينيقية) باعتبار أن الاغريق والقرطاجيين عرفهما ألبحر المتوسط منــذ العصور القديمة وكانت لها مستعمراتها ومحطات تجارية امتد بعضــــها الى أسبانيا على ان ذلك يبدو غامضا ٠

ويجد الباحث صعوبة فى تحــديد رأى نهــائى حــول هذا الموضوع لتعدد النظريات واختلافها ولا زالت العوامل الجغرافية تعمل على تفريق شمل أهل أسبانيا ٠

ومن ذلك انعزال السهل الساحلى الغربى عن الهضبة الوسطى وعن جليقية ممــا أدى الى قيـــام دولة منفصــلة فى هــذا الســـهل هى دولة البرتغال ٠

وكان من المنتظر أن تصلح لجمع شمل الشعب الاسبانى ولاذابة أيــة الفوارق بين جماعته وعناصره المختلفة ٠

ولكن حال دون ذلك توزع السطح بين هضبة عالية محاطة بالجبــال

منقسمة على نفسها وبين سهول ووديان عديدة تفصلها سلاسل الجبال مما تقلل الى حد ما سهولة الاتصال ٠

لكن الصورة تتضح أكثر منذ قيام دولة الرومان حيث كانت اسبانية احدى ولاياتها الغربية منذ النصف الاول من القرن الثانى الميلادى فارتبطت حضاريا بالرومان وحتى العنصر اللاتينى فى روما انتشر أيضا فى أسبانيا ٠

وقد ظلت اسبانية اقليما رومانيا حتى أواخر القرن الرابع الميلادى الذى كان بداية النهاية للامبراطورية الرومانية بالمفهوم الشامل لهذه الكلمة والمعنى ٠

ولقد كان للفينيقيين دور كبير فى أسبانيا وثمة نقطة تبين دورهم الموغل فى القدم فمدينة قرطاجنة التى بناها الفينيقيون قديما عام ٨٤٠ قبل الميلاد فى منطقة المغرب الادنى والذى يسمى اليوم تونس نجد لها نظير فى الاندلس حيث انهم (أى الفينيقيين) بنوا مدينة قادس واستولوا على نواحيها وانهم كانوا يستخرجون النحاس من أسبانيا الا انهم ازاء خطر الرومان أرادوا تقوية جانبهم فى شبه الجزيرة فأنشأوا مدينة قرطاجنة جنوب شبه الجزيرة الايبيرية لكى تكون عاصمة الفينيقيين فى هذه البلاد الاوربية التى كان نفوذهم فيها قد قوى لاسيما فى الجنوب ٠

شبه جزيرة أيبيريا قبل الفتح الاسلامى

أخـذت الامبراطورية الرومانية تتعرض لاضـطرابات داخليـة بدأت بانتقال امبراطورها قسطنطين الاول الى الشرق واستقراره فى القسطنطينية التى أخذت تنمو وتتسع على حسـاب روما وجـاء بعد ذلك ضغط البرابرة على جميع الاقاليم فى الامبراطورية واذا كان القسم الشرقى قد صمد أمـام موجات البرابرة فان القسم الغربى كان عليه أن يدفع ثمنا باهظا وصل فى نهـاية الامر الى روما نفسها اذ سقطت نهائيا فى أواخـر القرن الخـامس أمام ضربات الجرمان ٠

واذا كان الوندال احـدى جماعات البرابرة المتبربرين من الجرمان قد اقتنعوا بالولاية الرومانية الغربية (أسبانية) وبعض سواحل المغـرب فى افريقية فان آخرين أشد جرأة استهدفوا روما نفسها حيث دخلهـا القــوط الغربيين عــام ٤١٠م ونشروا فيهـا القتل والخـراب ٠

وكان أن تحرك القوط الغربيين الى أسبانيا ونشب صراع عنيف على السيادة بينهم وبين الوندال استمر وقتـا غير قصير واستطاع القوط دفع الوندال والضغط عليهم حتى تركوا أسبانية والاستقرار على سواحل المغرب حوالى عام ٤٢٩م وأقام القوط فى أسبانية بعد أن تخلوا عن أملاكهم فى غالة (فرنسـا) تحت ضغط الفرنجة من الشعوب الجرمانية وأقاموا دولة جرمانية ٠

وهكذا كانت شبه الجزيرة الايبيرية قبـل الفتح الاسـلامى تخضع لسلطان القوط الغربيين الذين تقاسموا أملاك الامبراطورية الرومانية فيما بينهم أواخر القرن الرابع الميلادى ٠

وكان القوط الغربيين قد دخلوا بلاد الامبراطورية الرومانية مع أبناء عمومتهم القوط الشرقيين واستمروا فى غالة (فرنسا) وهناك انقسموا الشرقيين واستقروا فى ايطاليا وأزالوا الامبراطورية الرومانية أما القوط الغربيين فقد بدأوا سلطانهم فى شبه الجزيرة الايبيرية ودخلوا فى صراع مع الفرنجة

وانتهى الامر فى أوائل القرن السادس الميلادى بانسحاب القوط الغربيين الى شبه الجزيرة الغربية وانفرادهم بالحكم وتغلبوا على كل الشعوب التى كانت تسكن شبه الجزيرة الايبيرية .

والذى ينظر الى طبيعة المجتمع القوطى فى أسبانية فى تلك الفترة يستطيع أن يدرك الاثر الواضح لسياسة الملوك القوط فى فشلهم فى تحقيق مجتمع موحد المصالح والانتماء مع انهم سادوا شبه الجزيرة كله فى أوائل القرن السادس الميلادى واتخذوا طليطلة عاصمة لهم وتولوا حكم البلاد وحدهم وحكموا رعاياهم بالقوة والعنف ورغم اعتناق ملوك القوط للمذهب الكاثوليكى مذهب الرعية والشعب والسكان الاصليين الا ان الامتزاج الحضارى ظل مفقودا ذلك لأن منطق القوة الذى اعتمد القوط عليه فى بناء دولتهم كان هو القانون السائد حتى نهاية الدولة فهناك تناقضات أصابت شتى مناحى الحياة اليومية فضلا عن الصراعات السياسية التى كان مسرحها الاسرة الحاكمة نفسها التى لم تختلط برعاياهم وظلوا يعتبرون أنفسهم طبقة متميزة عن بقية السكان .

وهكذا كانت تبدو صورة المجتمع الاسبانى تحت حكم الملوك القوط بكل ما فيها من تناقضات سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية قبل الفتح الاسلامى حيث كانت هذه العوامل مؤثر قوى وطبيعى لانهيار هذه الدولة وتعجل بقدوم رياح التغيير التى تعصف بالاسرة المالكة عشية الفتح الاسلامى المظفر .

وقبل الفتح الاسلامى بنحو عشرين عاما صار العرش الى ملك يسمى (وامبا) صلحت على يديه الامور وأعلن سياسة تسامح فى البلاد فرض عنه الناس وجاء بعده الملك وثيزا Witiza وتطلق عليه المصادر العربية غيطشة وهو الملك قبل الاخير من ملوكها وتصفه بعض الكتابات التاريخية بأنه كان ملكا سيئا مشغولا بأموره الخاصة .

وقد كانت الكنسية وراء هذه الحملة عليه بسبب موقفه المتشدد من امتيازات رجال الدين وتدخلهم فى شئون الحكم وسياسته المتسامحة

مع أصحاب الاديان والمذاهب المخالفة لمذهب الدولة وكان ذلك حافز لاستعداد الكنسية والاطاحة به بمساعدة رودريق Rodrigo يسميه العرب لذريق أحد قواد الجيش الذى نجح بصعوبة فى ازاحته عن العرش والجلوس مكانه غير ان ذلك لم ينهى الازمة السياسية فى دولة القوط لان أبناء الملك السابق حملا راية المعارضة ضد الملك الجديد بمساعدة اسقف طليطلة ويدعم من صغار رجال الدين المؤيدين لسياسة التسامح التى انتهجها الملك السابق فاستمر الوضع الداخلى فى هذه الدولة ممزقا تتجاذبه رياح الحرب الاهلية بين وقت وآخر ٠

لكن الملك الذى ثار عليه لذريق هو « ومبا » وهو آخر الملوك قبل غطيشة وخلع عن العرش وتولى لذريق مكانه واتبع سياسة ظالمة لاهل البلاد وفكر الناس فى القيام عليه ووجدوا أن خير من يعينهم على ذلك المسلمون الذين كانت أسبانية هدفهم منذ سقوط طنجة المغربية فى أيديهم وبعد أن لاحت أسبانيا أمام أنظارهم على الطرف الآخر للمضيق لتأمين حماية المغرب ٠

لكن حالة أسبانية السيئة كانت السبب فى عدم قدرتها على المقاومة لكن من ناحية أخرى فان عملا حربيا سيواجه أسبانيا كلها من قبل المسلمين لا شك انه سيعمل على أن يجمع كافة الاطراف الاسبانية فى مواجهة خطر قادم عبر زقاق البحر المتوسط مما سيكون له أكبر الاثر فى تقوية الجبهة القوطية وكان لاسبانيا وحكامها قواتها العسكرية الكبرى وكثرة عددها وعتادها ولاسيما ان القتال يدور على أرضها ووسط شعبها وسكانها وان المسلمون قادمون زاحفون البحر ورائهم والعدو أمامهم وهم على مقربة من نقط امداداتهم ويستطيعون أن يعوضوا نقص العدد والعدة والاقوات ولاشك فى أن مقاومة القوط كانت عنيفة عندما تقدم المسلمون الى فتح ديارهم وان كان عامل التآلف غير موجود بين القوات ٠

هذا وبينما دولة القوط كانت تجتاز أعظم المحن كان المسلمون (عرب وبربر) على الضفة الاخرى من المضيق أو المجاز مبتهجين بانتصارهم النهائى وسيطرتهم على جميع أرجاء المغرب واطوائه فى دولة الاسلام

الكبرى ورفرفت راية الاسـلام فوق أرجـائه بعد أطـول حـرب فى تاريخ الفتوحات الاسلامية ·

ويصور لنـا ليفى بروفسال احوال الاندلس قبيل الفتح الاسـلامى لاسيما بعد انتهاء فترة حكم الملك ومبا الذى كان الملك قبل الاخير والذى حـكم تسعة أعوام (٦٧٢ ــ ٦٨١م) وبداية حـكم ازفيخيو والذى حـكم (٦٨١ ــ ٦٨٧م) وكانت فتـرة حكمه قبـل الزحف الاسـلامى السريع لان الاوربيين دائمـا يهونون من كل انتصار اسلامى ودائما يحاولون ايجـاد الاسباب والمبررات التى تقلل من هذا الانتصار وغيره من الانتصـارات الباهرة الاسلامية (ان الثلاثين عاما التى سبقت الفتح الاسـلامى والتى هى نهـاية حكم ومبـا كانت سنوات عجـاف بالنسبة لتـاريخ القوط فى اسبانيا ·

فقد كانت الامور غاية فى الفوضى والاضطراب وكانت تلك الفتـرة مشحونة بالنزاع والصراع المثير للقلاقل لاسـيما الصراع بين أفـــراد الاسرة الحـاكمة حـول العـرش وكذلك من تدخل رجـال الدين وثورات محلية فى الاقاليم ومن دسائس يقوم بهـا النبلاء وكبار الكهنة والقساوسة الذين كانوا يسعون الى السيطرة على الشئون السياسية أكثر مما كانوا يفعلون من قبل ·

كل هذه الامور كانت توحى بان شبه الجزيرة الايبيرية ســتكون فريسة سـهلة لكل قادم سواء من الشمال او الجنوب (آراء غريبة معادية للاسلام وسـنرى ان القـوط قاوموا قـوات الاسـلام مقـاومة شـديدة وعنيفــة ·

وكان النظام السياسى الذى اتبعه القوط سببا فى ضعفهم وفشلهم وزاد من كراهية السكان ضدهم حيث كانت لهم السيادة والسيطرة وكانت جميع مزايا الحـكم بأيديهم اضـافة الى اتباعهم نظام الانتخاب فى تولى الملك وكانت لهذا الاختيار شروط وكان هذا النظام مدعاة لاثارة القـلاقل والدسائس وبث الفرقة والتنافس بين النبـلاء ولذا نجد ان انتقال العرش

غالبا ما يقترن بالمؤامرات والاغتيالات التى كثيرا ما كانت تحدث طوال حكم القوطيين لاسبانيا ·

ولم يكن الوضع الدينى فى شبه جزيرة ايبيريا أحسن حالا من الناحية السياسية أو غيرها من نواحى الحياة حيث كانت المسيحية والعقيدة الكاثوليكية هى الديانة الرسمية للبلاد وكان تعيش بها جالية يهودية كثيرة يمثلون شريحة كبيرة من المجتمع وقد لاقى هؤلاء ألوانا من العسف والجور والظلم والاضطهاد (عكس فترة الحكم الاسلامى) على أيدى الملوك والقساوسة والكهنة والنبلاء ·

وفى عهد الملك (أجيكا) اشتد الكهنة والنبلاء فى معاقبة اليهود والتنكيل بهم ومصادرة الاموال والاملاك والقتل والذبح واستخدام اليهود عبيد وأرقاء للنصارى ووزعهم الملك عبيدا على من يشاء من النصارى (هذا النظام حدث للمسلمين بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢م) ·

وفى ذلك يقول المستشرق « دوزى » هكذا عصفت يد البطش والمطاردة أيما عصف باليهود فكانوا قبيل الفتح الاسلامى ضحية ظلم واضطهاد وكانوا يتطلعون الى الخلاص ويرون فى أولئك الفاتحين نصرا لهم ·

وكان حكم لذريق نهاية البداية للفتح الاسلامى فقد أعلن لذريق نفسه ملكا عام ٩١هـ/٧١٠م واستطاع أن ينتصر على منافسه على العرش فى معركة قتل فيها الاخير ·

وكان أولاد الملك عطيشة فى حزب الملك المهزوم الا ان حزب أبناء غبطشة لازال ناقما على الملك لذريق وعلى كبار القوط ورجال الدولة لان انتصار أبناء غبطشة كانوا من عامة شعب أسبانية ووقوف هؤلاء ضد قرار النبلاء القوط يقيم دليلا على عدم قبول أهل البلاد لحكم القوط المستبد والعنيف ·

واستمرت حالة الفوضى فى البلاد طيلة حكم لذريق حيث انه لقى الثورات فى أطراف البلاد وساءت الحالة الاقتصادية والاجتماعية وأرهق

لتزيق شعبه بالضرائب الفادحة لحاجته الى المال لمواجهة أعدائه المطالبين بالعرش .

وتلك هى الصورة التى كانت عليها أسبانية وأحوالها السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية عندما كان يرفرف علم الاسلام والمسلمين علم لا اله الا الله محمد رسول الله على الجانب المقابل من بحر الزقاق أو المجاز .

ومن هنا كان التوجه الى الشمال تطلعا الى أوربا لنشر راية الاسلام لاسيما أن فكرة الغزو الاسلامى لاوربا كانت فكر مخططى الاستراتيجية الاسلامية لنشر راية الاسلام منذ عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان ولا يكون هناك أدنى شك أن هذه الفكرة كانت موضوعا مطروحا للدراسة والمناقشة فى بلاط الخلفاء الامويين الذين أخذوا على عاتقهم التوسع فى بلاد المغرب واتمام فتحه لاسيما ان الوليد بن عبد الملك بن مروان عندما أرسل قائده موسى بن نصير لاتمام فتح المغرب كانت الرؤية الاسلامية فى بلاط الخليفة الاموى تضع أسبانية من بين الاقطار التى تضمها الاستراتيجية الاسلامية للتوسع والتى لابد انها ظهرت لحيز التنفيذ عندما وصلت الخلافة فى دمشق أثناء سقوط طنجة فى أيدى القوات الاسلامية وهى الميناء القريب والمشرف على أسبانية لاسيما وان المسلمين قد عرفوا انه لا توجد هناك بلاد وراء بحر الظلمات (المحيط الاطلسى) فكان التوجه الى الشمال نحو أسبانية هو التوجه الطبيعى لاسيما ان العامل الجغرافى والبعد الامتدادى وقرب أسبانية من المغرب قد لعبت الدور الكبير فى فكرى رجال الاستراتيجية العسكرية الاسلامية للقفز على أسبانية لاسيما ان هناك جيلا من رجال الدعوة والمقاتلين البربر الشديدى الايمان بالاسلام الذين خبروا كل ألوان القتال بعد أن أمنوا خط الدفاع الغربى للفتوحات الاسلامية فكانت أسبانية الهدف القادم .

الفصل الثـالث

قوات الاسلام وفتح الاندلس

لم يكن تحـرك القوات الاسلامية لفتح شبه جزيرة أيبيريا الا أمر طبيعيا يسير وفق المخطط الاسلامى الكبير لرفع راية الاسلام فوق اديم كل أرض يسكنها بشر وايصـال دعوة القرآن الكريم الى شعوب هذه الارض انطلاقا من قوله تعـالى لرسوله الكريم « انا أرسلناك للناس كافة » .

ومن هنا كان الفتح المظفر للاندلس جـزء من مخطط اسلامى لفتـح القارة الاوربية كما انه يدخل ضـمن تأمين الحدود وبالمضى بالفتح والغزو الى حدود بعيدة نشرا لعقيدة الاسلام الخالدة التى تحتم على المسلمين المضى قدما فى الفتح مادامت تتوفر القـوة الايمـانية والبشرية والسـلاح وهذه ضمان الاستمرارية لحركة الفتوح الاسلامية .

ولمـا كان الفتح الاسلامى قد اكتسح المغرب حيث كان بر العـدوة (المغرب) المواجهة لشبه الجزيرة ينعم بنور الاسلام الذى أدى الى تغيير شامل فى كل مناحى الحيـاة واستظل براية الاسلام وأضحى موسى بن نصير قائد المسلمين فى منطقة المغرب يملك زمـام الامور وبدأ يستقر تماما فى هـذه المنطقة وأقبل سـكان المغرب على الدين الاسـلامى أفواجا تلو أفواج بعد ما أحسوا بحلاوة الايمـان ونعم القرآن وان الاسلام حيـاة تختلف عما سبقها وان انطوائهم تحت راية القرآن جعل من البربر أخـوة العرب يتحمسون لنشر الدين الاسلامى فى أرجـاء المعمورة .

ومن هنا فان الذى يتـابع الاحداث التاريخية المتعاقبة قبيل الفتـح الاسلامى للاندلس يدرك تمام الادراك مدى العلاقة الوثيقة بين المغـرب والاندلس فعلى أرض المغرب تم الاعداد والاستعداد تنفيذا للخطة الاسلامية المرسومة ومن فوق أرضه انطلقت الجيوش الاسلامية عابرة الزقاق كمنيل

ان سواعد ابناء المغرب من البربر لعبت الدور الاكبر والاساسى والاول فى هذا الفتح لانه من الطبيعى أن يكون هؤلاء القوم أكثر معرفة بأحـــوال الاندلس لان هناك ارتباط قوى وتاثير متبـادل بين المغرب والاندلس بسبب الارتبـاط الجارافى بينهما فان المجـاز أو بحر الزقاق ومن ثم مضيق جبل طارق لا يفصل بينهما ويباعد بقدر ما يوحد بين الاقليمين فهو عامل مقارب لا عامل متنافر متباعد لانه كان لا يعدو كونه خليجا ضـيقا يصل فى بعض مواقعه الى بضعة عشر كيلو مترات وقرب المسـافة هو الذى ساعد على التحرك السريع لتنفيذ خطة الخـلافة الاسلامية الاموية فى عبور هذا المجاز والانطلاق الى أوربا نشرا لرسالة الاسلام الخالدة وهداية شعوب أوربا الى نور القرآن الكريم ٠

وكان فى المغرب موسى بن نصير يقدر الموقف ويدرسه بعنـاية كافية ويضع كل الامور فى موضعها الصحيح ويضع لكل شىء حسـاب لاسيما انه بعث يستأذن خليفته الاموى الوليد بن عبد الملك فى اصـدار الامر لـه بالانطلاق الى الاندلس وذلك فى رده عليـه ان الذى يعبره جند الاسـلام ليس ببحر وانما هو خليج لا يقف عائقا دون رؤية ما على الطرف الآخـر ويؤكد احد المستشرقين هذا المعنى بقوله ان مضيق جبل طارق لم يكن ابـد ولن يكون يوما مضيقا يفصل ومجرى مـاء يباعد بـل على النقيض هو طريق يوحد ويقارب بين المغرب والاندلس ٠

ومن هنا كان من الطبيعى أن يكون أمر العبور الاسلامى أمرا متوقعا لعبور المجاز أو الزقاق لاسيما بعد أن أرسى موسى بن نصير ومن معـه دعائم الاسلام فى كل المغرب الاسلامى فيما عدا مدينة سبتة وكان العبـور أمرا ميسورا بعد السيطرة على طنجة وسبتة ومليلة ٠

لكننا هنا امـام روايات تاريخية اخذ بها العديد من رجال التاريخ فى العصور الوسطى والعصر الحديث فى أن هنـاك اسـباب دفعت بالمسلمين بالتحرك نحـو الاندلس مثل الصراع على السلطة او العداوة بين ليليـان شخصية مسيحية تحـكم سبتة وبين لذريق ملك أسبانية ونحن بدورنا لا نأخذ بكل ما جاء فى روايات المؤرخين القدماء كقضايا مسلما بهـا لاسيما اذا

كانت غير مقبولة فكريا وعلميا ولكن قد تكون عوامل مساعدة أو مشجعة على الفتح ذلك لان الفتح الاسلامى يسير وفق خطة علمية كانت تدرس فى دار الخلافة بدمشق بوجـــود شخصية ليليان أو عدم وجوده فان الخطة الاسلامية كانت ستنفذ لاسيما اذا عرفنا ان فاتح المغرب الســـابق (عقبـة ابن نافع) قد نزل بفرسه فى مياه المحيط الاطلسى وقال قولته المشهورة والله لو انى أعلم ان هناك قوما خلف هذا المحيط لذهبت اليهم ودعوتهم لدين الله الاسلام) فكيف يكون ليليان حاكم سبتة هو الشخصية المحركة للفتح الاسلامى للاندلس وان الفتح خطة مرسومة منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان (غزو أوربا) ·

لكن مهما يكن القول فنحن نأخذ بالقول بأن ليليان هذا كان صلة الربط أو عامل مساعد فى دفع أو التعجل بحـركة الفتح والانطـلاق الى الطرف الآخـر للمضيق وصولا الى أسبانيا ثم زحفنا الى بقيـة أوربا ·

وتذكر بعض الروايات أن مضطهدى أسبانيا قد وجدوا خير ما يعينهم على ذلك وهو الاستعانة بالمسلمين الذين يرفعون راية الاسلام على الطرف المقابل وتولى الوساطة بين الساخطيفـن على لذريق وبين طارق بن زياد حـاكم طنجة الذى كان قد تولى هذه الولاية (طنجة) بعد عزل مروان بن موسى بن نصير عن حكمها فاستقر طارق بن زياد على رأس حامية اسلامية غالبيتها من البربر ·

وهكذا نجح الاسلام فى تأمين جناحه الغربى بقوة من قوم لم يكونوا مسلمين ولا عرب قبل وقت قصير وطارق بن زياد بن عبد الله هو من الجيل الثالث من البربر المسلمين ·

وقام الكونت « بوليان » ليليان حاكم سـبتة باقنـاع المسلمين بالزحف على أسبانية (رواية مقبولة شكلا ولكن موضوعيا) فان الخط الاسلامى فى الفتح كان يسير وفق المخطط الموجهة له فى دار الخلافة فى دمشق ·

وكان بوليـان ممثلا للملك القوط فى اقليم سبتة وطنجة وكان على علاقة

سيلة مع لذريق وعلى أية حال فان دراسة فتح الاندلس كانت بتوجيه من الخلافة وموسى بن نصير ولم يكن طارق بن زياد الا منفذا للاوامر العليا وعلى هذا كانت الوفود تقبل على طارق تدفعه وتشجعه لفتح شبه الجزيرة الايبيرية أو الاندلس ٠

وكانت الوفود القوطية تعتقد أن المسلمين عندما استجابوا لهذا الطلب لم يكونوا يقصدون أكثر من انزال ضربة قاضية بلذريق ثم العود الى المغرب مرة أخرى وقد غاب عنهم ان المسلمين يحملون رسالة اسلامية ودينا سماويا لا يريدون الا نشره وكل زخارف وغنائم واسلاب الاندلس مهما ثقل حملها وغلى ثمنها تهون أمام نداء الله أكبر فوق الارض الاندلسية ومن هنا فان خطة المد الاسلامي هي مد قرآني لا يخضع لاى عامل آخر أدنى أهمية ٠

وقد يكون دور يوليان في عملية فتح الاندلس لها دورها لانه كانت له اتصالات مع خصوم الملك في طليطلة وحملهم على التعاون مع المسلمين (روايات مشكوك في صحتها) ٠

ولما كانت القيادة الاسلامية (موسى بن نصير) في القيروان قد أعطت الضوء الاخضر بالتحرك سريعا لاجتياز المضيق بعد كانت القوات لدى طارق بن زياد على أهبة الاستعداد بعد أن درس الموضوع من جميع جوانبه ٠

وكان موسى بن نصير ثاقب النظر يحسب لكل شيء حسابه الدقيق فلم يكن متهورا أو مغامرا فقد كان يدرك حجم العمل الخطير المقبل عليه لذا آثر دراسة الامر عن قرب والاطلاع على كل تفاصيله رغم موافقة الخلافة في دمشق التي شاطرته الموقف نفسه وبالفعل جرت اتصالات مباشرة بين موسى ويوليان ويذكر ابن عذاري المراكشي أن اجتماعا عقد بينهما على متن احدى السفن الراسية على الشاطيء وقف موسى خلاله على أحوال أسبانية والدور الذي يقوم به « يوليان » قبل أن ينتقل موسى بن نصير الى طنجة للاشراف على المهمة الكبرى واعطاء اشارة البدء لانطلاق القوات تجوز هدفها المنشود ونشر رسالة الاسلام في أوربا ٠

قوات الاستطلاع لدراسة الموقف

ان الدور الذى قامت به القوات الاسلامية لاسيما بناء قوة بحرية وقاعدة لها فى تونس ليؤكد أن مشروع الغزو لاسبانيا لم يكن وليد ظروف سياسية طارئة (رفض فكرة يوليان) بل كانت ملامحه ظاهرة فى استراتيجية الفتح بشكل ملحوظ لاسيما ان المسلمين كسبوا معركة التفوق البحرى مما اكسبهم ثقة فى النفس ودفعت أهدافهم الى مواقع جديدة ومن الطبيعى أن ترتبط فكرة الفتح الاسلامى لاسبانيا ونمو القوة البحرية الاسلامية ولا يمكن فصل فتح الاندلس عن سلسلة الحملات البحرية التى شنها المسلمون من تونس واستهدفت استطلاع وغزو بعض الجزر لاسيما ميورقة القريبة جدا من أسبانيا فى نفس الوقت الذى كان يجرى فيه الاعداد للعبور الى هذه البلاد ٠

وكذلك لقد كانت أوامر الخلافة الاموية عدم التغرير بالقوات الا بعد دراسة وبعد استئذان غزو الاندلس ولكن كانت الاوامر صريحة باختبارها قبل ذلك بالسرايا لمعرفة مدى مقاومة القوط قبل القيام بذلك العمل ٠٠

وكان فتح جزيرتى ميورقة ومنورقة على يد عبد الله بن موسى بن نصير كان يمثل أول خطوة لقوات اسلامية استطلاعية لاكتشاف القدرة البحرية للتأكيد للخلافة الاموية فى دمشق (الوليد بن عبد الملك ٨٦ ـ ٩٦هـ) بأنه لا خوف على المسلمين وانه لا توجد عقبات فى طريق الفتح وبعد أن أقنع موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك بالامر تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا أو الحملات الاستطلاعية التى تستطيع معاينة ومعرفة طبيعة الارض والثغرات ٠

واستكملت العمليات الاستطلاعية التى قامت بها سفن الاسطول الاسلامى ، ونرفض الاقوال التى تذكر الاستعانة بسفن يوليان لان الاسطول الاسلامى كان قويا ومتعدد الانواع والمهمات وكان قادرا على نقل قوات اسلامية ٠

وكان أن ارسل موسى بن نصير فى رمضان ٩٠هـ/يولية ٧١٠م سرية استكشافية الى جنوب اسبانيا مكونة من خمسمائة جندى منهم مائة فـارس والبقية مشاه بقيادة طريف بن مالك المعافرى أحد قواد موسى والملقب بأبى زرعة وهو مسلم من البربر وتذكره بعض المصادر باسم طريف بن زرعـــة ابن ابى مدرك ، فعبر المضيق مع جنوده من جزيرة صغيرة تعرف باســـم (بالوماس Palomas) بالقرب من البلدة التى تحمل حتى وقتنـا الحاضر اسم جزيرة طريف Tarif ويعتقد انه اجتمع فى هذا المكان بجماعة من معـارضى الملك لذريق حيث كان « يوليـان » ضـابط الاتصـال (حسب التعبير العسكرى المعاصر) بين الطرفين ٠

ومن هذا الموقع قـام طريف ببعض العمليـات العسكرية الاستكشافية السريعة فى نطاق المهمة المكلف بهـا والموكولة له بعدم تجـاوز المهام وعاد الى طنجة محققا النجاح المطلوب حيث اغار على الطرف الجنوبى لشـــبه الجزيرة دون أن يلقى أدنى مقـاومة وعـاد بالحملة وبالاخبـار المطمئنة على القيام بعملية الفتح على نطاق واسع والعبور بقوات كثيرة وحاشـدة ٠ وانه لابد أن يكون طريق قد درس أحـــوال المنطقـة وتعرف على مواقعها وعاين أماكن العبور وكيفية القـاء المراسى للسفن المبحرة وكيفية التحصن بعد العبور ٠

ومن هنا فانه ليس من المستبعد أن يكون قد أرسل جماعات الى أماكن متفرقة لدراسة الوضع المناسب لهذا الغزو ولا شك ان هذه المعلومات كانت خير عون ومرشد فى وضع اللمسات الاخيرة للزحف المقدس ونزول طارق بجيشـه ٠

ومن هنا تأتى اهمية هذه الحملة بانهـا أول خطوة عملية على طريقة العبور الى اسبانية الذى رسمه موسى بن نصير بدقة وبراعة ومن ناحـية شجعت القوات المحتشدة على البر المغربى على الاقتحام ببسالة واقدام نيلا للظفر او الاستشهاد ٠

وهكذا نجحت هذه الغزوة قبل الهجوم المكثف والذى كان يقوده طريف

وهو من القواد الكبار ومقاتلا من الطراز الاول بدليل منحه ثقة القيادة العليا الاسلامية للقيــام بأول حملة استطلاعية فى بلاد الاندلس ٠

وبهذا كانت هذه المهمة بمثابة اســتطلاع وارتيـــاد وكشف جوانب الضعف والقوة وتقديم تقريرا كامل بكل ما وصلته اليه الغزوة من معلومات ميدانية ٠

وقد قامت حملة طريف بسلسلة من الغــارات السريعة على الســاحل ما بين منطقة نزولهم والجزيرة الخضراء وبذلك اشــتد عزم موسى عــلى فتــح الاندلس كما تأكد له أيضــا ضــعف المقــاومة الاســبانية فى جنــوب اسبانية ٠

وهكذا عاد طريف ليروى لقائدة ما رآه من ضعف البلاد وكيف ستكون المرحــلة القادمة وكان طارق بن زياد يتــابع من مقره فى مدينة طنجـــة احوال حملة طريف استعداد للحشد الكبير لنشر الاسلام بين أهل الاندلس ٠ وكانت تصله اخبــار مطمئنة ومشجعة على ملائمة الوقت والظروف للقيام بالفتح الاسلامى لبلاد الاندلس ٠

وهكذا بعد نجاح قوات الاستطلاع فى اداء مهامها فانه يمكن القــول ان كل خطوة من خطوات الفتح كانت تدرس بعناية لاسيما من جيل اسلامى من الصحابة التابعين جيلا خلقت منه حركة الفتح بالمغرب مقاتلين خبــروا كل صنوف القتال فأصبح الجهاد والاستشهاد هدفا لديهم من الصــعب أن يتخلوا عنــه أو يركنوا الى أى عمل آخر ٠

ومن هنا كانوا مستعدون للتحرك فى الوقت المناسب لاسيما انهــم يؤمنون بفكرة اسلامية وهى انهم لا يعرفون لنشر دينهم حدا وأنهــم كانوا لا محــالة سيواصلون الجهاد لان الذى ينظر الى الفتوح الاسلامية منــذ الانطلاقة الاولى من الجزيرة العربية يدرك انهــا لا تعرف حدود ولا يعوقها عائق دون نشر رسالة الاسلام وايصالها الى كافة البشر ٠

ومن ثم كان فتح الاندلس استمرارا لحركة الفتح الاسلامى التى بدأت

من الجزيرة العربية ولا يوجد أدنى شك للذين يتابعون حركة راية الاسلام بنظرة موضوعية لا تعصبية ولا كراهية ولا حسد أن الدافع كان دافعا دينيا بحت حيث يتحرك المسلمون بدافع من عقيدتهم الراسخة يرفعون كتابهم الخالد فكان طبيعيا أن تتفق سياسة خلفاء بنى أمية مع الخط الذى اتبعه وسار عليه الخلفاء الراشدون لاسيما ان فكرة فتح الجزيرة الايبيرية هى فكرة اسلامية قديمة تمتد الى أيام الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان الذى ذكر عنه قوله أن فالقسطنطينية تفتح من المغرب والاندلس .

ولكن خط السياسة الاسلامية كان يتبع طريقة الهجوم للدفاع عن ديار الاسلام التى انطوت تحت لواء القرآن الكريم أو بمعنى آخر كانوا يميلون الى تأمين البلاد التى تم فتحها فكان لزاما على جند الاسلام فى المغرب أن يقوم بتأمين فتوحاتهم عن طريق ما يسمى فى الوقت الحاضر (الحرب الوقائية) بالاندفاع الى الاندلس درأ لاية أخطار متوقعة .

هذا هو هدف جميع الفتوحات الاسلامية ومن هنا كانت الحاجة ماسة الى الدفع بهذه القوة الصغيرة التى قوامها خمسمائة جندى ككتيبة استطلاع استخبارية بقيادة طريف المعافرى لكى تضع الصورة كاملة أمام القيادة العليا ضمانا لسلامة القوات قبل الدفع بها الى المجهول لاسيما انه يوجد مانع أو عائق بحرى قد لا تتفق الظروف بتقديم العون فى الوقت المناسب فكان الاعداد والعدة والتجهيز والعمل الدؤوب والدراسة لعملية العبور وحشد السفن ووسائل القتال والمؤن والاقوات وأدوات النقل البرى من الدواب والخيول واستخار الله موسى بن نصير وأعد العدة وعزم ونجح العزم ونصر الله جنده وأعز دينه وجعل كلمة القرآن هى العليا ، لكن هل حافظ الخلف على دور السلف هذا ما نقصده فى هذه الدراسة ؟

طارق بن زياد وعبور المجاز (مضيق جبل طارق

بعد اقل من عام على عودة الحملة الاستطلاعية بقيادة طريف بن مالك المعافرى كان طارق بن زياد القائد المبرز الذى اختاره موسى بن نصير لهذه المهمة الصعبة يأخذ طريقه الى الشاطىء الاسبانى وذلك فى ٥ رجب ٩٢هـ/ أبريل ٧١١م ٠

وكان طارق دائما وأبدا رجل المهمات الصعبة منذ أن عرفته الجبهة المغربية مقاتلا عنيدا على رأس حملة معظم عناصرها من البربر الذين كانت نفوسهم تتوق الى الجهاد وكان موسى قد جهز جيشا قوامه سبعة آلاف جندى من المسلمين البربر ليس فيهم من العرب الا العدد القليل ٠

وكان طارق مخلصا للاسلام متحمسا لنشره وكان العبور من ميناء سبتة وذلك بسفن المسلمين وليس بسفن ليليان ٠

فقد كانت السفن ملك المسلمين الفاتحين لاسيما ان موسى كان قد اهتم ببناء القواعد العسكرية والمراسى على الساحل الافريقى وانشأ المصانع التى تقوم بصناعة السفن الحربية والمدنية لاسيما انه تم فى هذه المدينة صناعة أكثر من مائة سفينة فكيف يحتاج المسلمون لاربع سفن فقط من ليليان لتقوم بنقل القوات الاسلامية ذلك لان موسى بن نصير كان قائدا محنكا يعرف السبيل الى النصر مستخدما الوسائل البرية والبحرية ويبدو ان الخلافة الاموية فى دمشق كانت تدرك اهمية ركوب البحر والاهتمام بالبحرية الاسلامية وانشاء القواعد البحرية فى بلاد المغرب وان موسى ابن نصير سار على هذا النهج القويم ٠

ولقد كان اهتمام موسى بن نصير بالمراسى والقواعد البحرية فى بلاد المغرب بالاضافة الى اهتمامه بصناعة السفن عاملا من العوامل التى سهلت للمسلمين عبور المجاز (الزقاق) دونما أدنى خوف أو قلق مدركين تماما قيمة البحرية العسكرية كسلاح مضاد واستطاع موسى بواسطته ان يشل حركة الاسطول البيزنطى فى حوض البحر المتوسط ويضمن سلامة خطوط

مواصلاته من خطر البيزنطيين وان فتح الاندلس وتحرك قوات موسى بن نصير لم تاخذ اشــارة واوامر العبور للمجاز الا بعد أن اطمأن موسى تماما الى حماية ظهره عند العبور وان السفن قادرة على تأدية المهــام ٠

ويذكر السلاوى انه لمــا استقرت القــواعد لموسى بالمغــرب كتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بغزو الاندلس بعد أن كان قد أعد للامر كل عـدته من جميع التجهيزات التى تحتاج اليها الجيوش فى ذلك الوقت ٠

وهذا يؤكد ان المسلمين دور صناعتهم الخاصة لدهم فى هذا النشاط البحرى بالسفن وان السفن التى استخدمت فى عبور المجــاز كانت أكثرها أو كلها اسلامية الصنع ٠

وقد كان موسى بن نصير من الذكاء اذ رأى حمـــاس البــربر لنشر الاسلام وانهم طاقة عسكرية هائلة فكان عليهم أن يشــاركوا العــرب شرف الشهادة أو النصر وقد قدر البربر ذلك حق قدره وآتت سياسته المرنة مــع البربر ثمارها فى قيــام البربر بالدعوة للاسلام على أرض الاندلس لاسـيما فى مراحله الاولى قبل حدوث الانقسام والخلافات القبلية ٠

لكن موسى القائد المبرز رأى أن يكون مجلسا قيــاديا (قيادة عسكرية للميدان) تضم من عناصره العرب الى جانب طارق ى عبد الملك المعافرى ، وعلقمة اللخمى) وغيره من القيادات التى كان لهــا تأثير بارز فى قرارات القيادة ، فضلا عن دور قائد الاتصال وضابط الارتباط (المراسلات العسكرية القائد مغيث الرومى) الذى كان ضابط الارتباط والاتصال بين الخلافة فى دمشق والقائد العــام فى القيروان والقوات المقاتلة فى الاندلس فقد كان يحمل قرارات الخلافة وانجازات القوات العسكرية الى دمشق ٠

وكانت نقطة تجمع الجيش الاسلامى فى الطرف الاسبانى على جبل صخرى عرف فيما بعد باسم جبل طارق كما عرف به المضيق فى كل اللغات ولم يكد طارق أن يأخذ مواقعه عند اقدام الجبل حيث نزل بجنوده حتى بادر الى استكشاف المنطقة بواسطة حملات صغيرة قبل أن يتخذ مع أصــحابه قرار الزحف الى الشمال ٠

ونحن هنا نرفض كل الآراء التى تذكر اشتراك سفن بحرية حربية ليليان اكثر من مرة سواء كانت مملوكة له أو هيأها من عند التجار الذين لهم صلة به ، ذلك لان الواقع التاريخى فى ذلك الوقت ينفى اعتماد المسلمين على سفن يليان المملوكة أو المستعارة ففى ذلك مخاطرة بحياة جند الاسلام وربما تجر على المسلمين شرا هم فى غنى عنه فالمسلمون كما تذكر كل المصادر التاريخية الاسلامية والاجنبية كانت لهم قواتهم البحرية التى استخدمها موسى بن نصير فى غزوات بحرية فى البحر المتوسط « ميورقة ومنورقة » ولا يوجد أدنى شك فى أن المسلمين كانت لهم قوة بحرية استخدمت لفتح الاندلس لاسيما ان دار الصناعة فى تونس كانت دائمة الانتاج ٠

وعلى هذا كما يقول الدكتور حسين مؤنس فان الجيش الفاتح للاندلس لا يمكن أن يكون جيشا بريا فقط وانما كانت معه قوة بحرية اسلامية اعتمد عليها فى عبور المجاز الى الاندلس ٠

ونعود للموقف العسكرى بعد أن تمكن طارق بن زياد من العبور واستكمل تجمع قواته ودرس خطة الزحف شمالا ٠

وقد اختلفت المصادر والمراجع فى عدد القوات التى عبر بها طارق الى الاندلس لكن معظمها اتفق على أن عدد هذه القوات سبعة آلاف جندى كلهم من البربر وقليل من العرب ولهذا نأخذ بهذا الرأى لاتفاق معظم الآراء عليه دون الدخول فى الاقوال الأخرى التى تقلل من هذا العدد أو تزيد عنه وكان وصول الجيش الى البر الاندلسى يوم السبت ٥ شعبان ٩٢هـ ولم يكن عبور هذه الاعداد مرة واحدة ولكن تم نقلهم على عدة دفعات عن طريق السفن الاسلامية المعدة لهذا الغرض والتى استخدمت من قبل فى غزو جزر البحر المتوسط ٠

سار الجيش الاسلامى منحدرا الى جنوب اسبانية فى الجزيرة الخضراء ٠ وكان موسى بن نصير يراقب باهتمام على الساحل الافريقى ويتتبع اخبار الحملة ٠

ومن ثم أرسل له مددا قوات اضافية تعدادها خمسة آلاف جندى فتكون

القوات التى تحت أمرة طارق قد بلغ عددها اثنـا عشر قلف مقاتل وكانت هذه الامدادات بقيـادة عبد الملك بن أبى عامر أحد القواد الكبار ثم اتخذت الحملة سيرها رافعـة قرآن الله الكريم عاملة على نشره جهادا فى سـبيله وسارت بحذاء الساحل الى الشمال الغربى فاستولت على قرطاجة Gartega ثم نزلت جنوبا باتجـاه الجزيرة الخضراء Alegercia الواقعة أمام جبل طارق ويسيطرون عليها أيضا ٠

وكانت هذه الجزيرة أول مراكز المسلمين المحصنة فى أسبانية وهناك وقعت مناوشات فى معركة أو أكثر مع قوات القوط انتصر فيهـا المسلمون بعد أن جرى قتال بالقرب من جبل طارق بعد قتال استمر ثلاثة أيام ٠

ولقد فوجىء لذريق ملك اسبانيا بوجود القوات الاسلامية فى بلاده وهو منهمك فى قتـال آخـر فى الشمال ٠ وكان المسلمون قد عسكروا فى الجزيرة الخضراء ، ثم ساروا الى الجنوب حتى بلغوا الساحل الجنوبى لشـــبه الجزيرة وعبروا نهرا صغيرا يصب فى المحيط الاطلسى يسمى وادى « لكة » يصب فى بحيرة ضحلة سماها المسلمون الخندق ولازالت الى الابد تحمل اسم (لاخاندا) ٠

لاشك ان طارق أخذ يحصن نفسه تماما فى هذا المكان ثم بدأ فى بسط سلطانه على الاماكن المجـاورة له ٠

وأخذ طارق بضع الخطط العسكرية للاسـتيلاء على أسبانيا فيذكر ابن خلدون انه قسم جيشه الى قسمين الاول بقيـادته والثـانى بقيادة طريف ابن مالك اللخمى ثم أقاموا الاسوار حولهم للتحصن ٠

ولمـا كان لذريق مشغولا بثورة البشكش فى شمال أسبانيا فان نائبه أرسل له يخبره بهذا الزحف وقد كتب نائبه « تدمير » يقول له « انه وقـع بأرضـنا قوم لا ندرى أهم من السماء نزلوا أم من الارض خرجوا الا أن لذريق لم يتهيب الامر كثيرا لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات السلب والنهب وانهـا غارة سرعان ما تنتهى لا تأخذ منـه وقتـا أكثر من قمع ثورة الباسك فى الشمال ، لكن لذريق حين عـاد الى تقييـم

الموقف الاسلامي صعقته المعلومات الجديدة عن تقدم القوات الاســـلامية وصعودها شمالا باتجاه قرطبة فأسرع الى طليطلة لاخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة هذا الزحف وأرسل الى المسلمين قوة بعد قوة لايقافهم فلم تفلح هذه المحاولات ٠

وفي تلك الاثنــاء كان طارق يحقق أولى انتصاراته العسكرية حين تصدت له احدى الفرق القوطية فقضى عليها تماما دون أدنى مشقة(بسلاح الايمان وطلب الشهادة وليس طلب الغنـائم والسبايا والاسرى تحقيق النصر السريع ٠

ولم يظل طويلا بعد هذا النصر فتحـرك شـمالا عبر أراضي تتخللها المستنقعات حيث نهر « برباط » الذى يخترق البحيرة وعلى الضفة اليمنى لهذا النهر الصغير ظهرت قوات الملك القوطي لذريق وتقدرها المصادر الاسلامية بأكثر من مائة ألف مقاتل ٠

وكانت القوات الاسلامية قد عسكرت في منطقة واســعة يحدها من الشرق وادى لكة ومن الغرب وادى البرباط وهو عبـارة عن نهـر اخـر وهى منطقة سهلية واســعة تكثر فيهــا المدن وفي هذا السهل الواسع أخذ طارق ينظم قواته انتظارا للقوط الذين روعتهم روعا شديدا وصـول هــذه القوات الى بلادهم والذين يقـاتلون بقوة ايمــانية لم يروها من قبل وكانوا يتصورون انهم هبطوا من السماء أو خرجوا من باطن الارض ٠

وقد اختلفت المصادر في عدد قوات القوط فمنهم من جعلها مائة الف لكن ابن خلدون (العبـــر) يقدرها بأربعون ألف ويبدو ان الجيش القوطي كان يشعر بقوته ومتأكدا من احراز النصر بسهولة الى حـد انهم أعــدوا الاماكن التى يحملون اليها أسرى المسلمين ٠

ومهما يكن من قول في شأن قوة حشد الجيش القوطي فانه كان يفوق الجيش الاسلامي عدة مرات في العدة والعدد والتنظيم والتدريب والفرسان لكن الجيش الاسلامي كان متفوقا بقوة الايمان وعظم الرسالة التى يحملونها (القرآن الكريم) الذى يقاتلون من أجله ونشره وتحقيق النصر أو الشهادة

وعلى الجانب الآخر كان الجيش القوطى يحمل من عوامل الضعف النفسى والانقسام الدينى اضافة الى الاحوال السيئة فى البلاد وعدم تماسك صفوف الجيش القوطى الذى وصل فى تقدمه الى بلدة « شذونة » وعسكروا هناك استعدادا للقضاء على الجيش الاسلامى من أول تصادم ثم أسر البقية الباقية ٠

ووصلت أنباء القوط الى أسماع طارق ولا شك انه قدر الموقف حق قدره وأعد للموقف عدته وأرسل الى أميره موسى بن نصير طالبا منه العون ذاكر له بأن ملك القوط قد زحف اليه بقواته وما كان من ارسال موسى له بمدد قوامه خمسة آلاف مقاتل كما سبق القول لتكون قوات المسلمين ١٢ ألف مقاتل مسلح بالايمان القرآنى ٠

والتقى الفريقان ، فريق المسلمين بقيادة طارق بن زياد وفريق القوط بقيادة لذريق ولا شك ان الفارق فى العدد والعتاد كان شاسعا فعدد المسلمين اثنا عشر ألفا يحاربون فى بلاد لا يعرفون عنها الا مناطق معسكرهم بينما عدد القوط أضعاف عدد المسلمين بكثير ويحاربون على أرض عاشوا فيها وخبروا مسالكها ودروبها شبرا شبرا وبين قومهم وسكانهم ومدنهم والامداد المتواصل والحشد المتصل ٠

وفى الثامن والعشرين من رمضان ٩٢هـ/١٩ يوليو ٧١١م بدأت المعركة الفاصلة بين المسلمين والقوط والتى استمرت ثمانية أيام وحدث فيها قتالا شديدا وازدادت قوته عنفا وقدم المسلمون كثيرا من الشهداء وأجمع معظم المؤرخين الى أن المعركة كانت فى كورة شذونة وانها استمرت من يوم الاحد ٢٨ رمضان ٩٢هـ الى يوم الاحد الخامس من شوال ٩٢هـ/١٩ ـ ٢٦ يوليو ٧١١هـ ٠

وازداد لهيب المعركة بين الطرفين الى حد ان ابن عبد الحكم يقول عنها ان المقاتلين ظنوا انه الفناء ولا شك انها كانت معركة حامية الوطيس حيث اشتد القتال لان هذه المعركة قررت مصير الاسلام بالاندلس ٠

وقال عنها المقرى فى كتابه نفح الطيب انها ليست الفتوح ولكنها

الحشر · وهنا فى وادى لكة كانت نهاية الجرش القوطى حيث انتهت بهزيمة مدمرة للجيش الاسبانى وفرار قائده الذى اختفى بعد ذلك ·

ولقد كانت هذه الهزيمة النكراء التى منى بها الجيش القوطى وانتصار المسلمين هى الباب الكبير الذى دخل منه جند الاسلام الى قلب أسبانية ورسخوا أقدامهم فيها خلال ثمانية قرون وهى التى غيرت سير الاحداث والتاريخ فى هذه البلاد لما أسفرت عنها من نتائج بحيث لم يعد ممكنا قيام أدنى محاولة جديدة للتصدى للوجود الاسلامى الزاحف شمالا لاسيما بعد الارتباك الذى أصاب مقاتلى القوط والذعر الذى عم أرجاء المملكة الاسبانية مما أتاح الفرصة لطارق بن زياد أن يعمل بسرعة ولا يضيع الوقت للتقدم نحو المدن الكبرى ·

وقد حقق المسلمون انتصارهم بسبب القوة المعنوية والقدرة القتالية لجند المسلمين حيث قاتلوا ببسالة فائقة واضعين نصب أعينهم الهدف الاسمى وهو انتشار الاسلام فى هذه الربوع · ولا ريب فى أن انتصار طارق بن زياد فى معركة شذونة قد أحدث دويا هائلا وقع على آذان القوط وقع الصاعقة فهوت مدن القوط تباعا أمام جيوش طارق بن زياد ففتح بعضها عنوة وبعضها دون مقاومة ·

ونحن هنا لا ننكر انه كان هناك الادلاء من المدن الاسبانية لاسيما أبناء غطيشة ويليان اذ استمروا فى كشف مجاهل هذه الاراضى اضافة الى دور المغاربة البربر فى الفتح مازال قائما عن طريق الجنود المغاربة الفاتحين الذين دخلوا الاسلام وأحسوا بالدين الجديد يملأ أفئدتهم ويملأ قلوبهم بالايمان فذهبوا باذلين النفس والنفيس فى سبيل نشر دين الله الخالد فى أرجاء المعمورة ·

ورسم طارق خطته بالقضاء على جيوب المقاومة القوطية فأرسل طارق جيشا الى قرطبة بقيادة مغيث الرومى وجيشا الى مدينة رية والى غرناطة والى مدينة البيرة وسار طارق بنفسه الى طليطلة عاصمة القوط

لكى يخضعها للمد الاسلامى ويقضى على الامل فى بقاء دولة القوط بسقوط العاصمة ٠

وقد اختلف المؤرخون فى اسم المعركة التى انتصر فيها طارق بن زياد على القوط بقيادة لذريق فمنهم من يطلق عليها معركة وادى « لكة » ومعركة البرباط أو معركة الخندق أو معركة شذونة أو معركة شريش ٠

وهكذا نجح طارق فى القضاء على قوة القوط ومهما تكن التسمية فقد انتهى جيش القوط نهائيا ٠

ونحاول هنا أن نرد على الذين يقللون من الانتصار الاسلامى ويعللون ذلك بسوء الحال العام فى اسبانيا وانقسام الصفوف والرد عليهم أن استغراق المعركة لثمانية أيام وشدة الوطيس دليل على أن المقاومة القوطية كانت قوية والا لما استغرق القتال هذه المدة الطويلة وهذا دليل على أن المقاومة القوطية كانت قوية والا لما استغرق القتال هذه المدة الطويلة وهذا دليل على ان الاوضاع العسكرية فى شبه الجزيرة الايبيرية لم تكن سيئة الى ذلك الحد الذى تتعمد بعض الكتابات المغرضة تصويره ٠

ويقال ان لذريق بعد أن فر من المعركة قد لقى حتفه غريقا فى احدى الانهار فلقى حتفه وتعقب طارق فلول الجيش القوطى التى لاذت بالفرار وسار الجيش الاسلامى فاتحا لبقية مناطق الجزيرة ٠

وهكذا لم يلقى هذا القائد أدنى مقاومة فى مسيرته نحو الشمال ثم بدأت حرب المدن فسقطت قرطبة الواقعة على نهر الوادى الكبير ودخلها مغيث الرومى فى قوة كبيرة بينما أسرع طارق الى طليطلة Toledo عاصمة القوط والمدينة المحصنة التى يقبع فيها كبار رجالات الدولة ونبلائها وهرب سكانها وكانت طليطلة تبعد عن ميدان المعركة شذونة بما يزيد عن ستمائة كيلو متر فى أراضى وعرة كلها جبال ووديان ومضايق عسيرة وهذه السرعة تدل دلالة قاطعة على قوة الايمان والاسلام وعمق العقيدة فى الجيل الاسلامى الاول الذى قاد الفتح وعزيمته وايمانه ذلك لان تلك القوة الاسلامية استطاعت بعد معركة طاحنة أن تعبر تلك المساحة الشاسعة وأن

تصل الى طليطلة وتدخلها بعد مقاومة عنيفة وسرعة دخول العاصمة يدل على أن طارق كان قائدا عسكريا ملما بشئون الحــرب ٠

ولقد كان لزاما على طارق بن زياد أن يترك حاميات فى كل مدينــة كبيرة مما جعل القوات الاسبانية تتناقص فى تحركاتها وانتشر خبر انتشار المسلمين فى أرجاء المغرب حيث أرسل طارق الى موسى بن نصير يبلغه بما أفاء الله عليه من فتح طالبا العون والمساندة السريعة وهــذا ينفى ما ردده بعض المؤرخين المعادين للاسلام أو الذين ينظرون للامور نظرة سطحية أن عبور موسى الى الاندلس كان نتيجة للحقد والحسد ورغبــة فى اثبــات دور موسى فى فتح الاندلس ، لكن ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه الامــامة والسياسة من طلب طارق الغوث (النجدة) ينفى كل هذا وعبور موسى له دلالة قوية بأن اثنى عشر الف جندى مسلم يقودها طارق بمــا فيهـا القوة الاولى (خمسة آلاف) وبعد معركة شذونة وفتح المدن واستقرار قــوات كثيرة فى المدن الكبرى كحامية وانقسام القوات بين طارق ومغيث الرومى يحتم بل يفرض على موسى الزحف بقوات كبيرة لكى يكمل مع قائده طارق اتمام فتح الاندلس وانه من المستحيل أن يتم فتح الاندلس بالقوات القليلة المتبقية مع طارق ٠

لذا كانت عين الحكمة فى تحرك موسى الى الاندلس للنجدة وللوقوف على الموقف العسكرى بنفسه لان جند الله الذين يعملون من اجل الاســلام لا يكون بينهم تحاسدا أو تحاقدا وخلافات أو منازعات فالهدف الاسلامى فى الفتح لا يجعل شيء من هذا النوع الذى تناولته اقــلام المؤرخين الاوربيين لمحاولة الاســاءة الى الدور البطولى الذى لعبــه طارق وموسى فى فتــح الاندلس والرد على هؤلاء يقول ان موسى لو كان حاسدا على طارق لاصدر قرار بعزله من القيادة واستدعائه الى المغرب وليعين أحد من ابنائه قائدا بدلا منــه أو أصــدر قرار بتعيين مغيث الرومى أو عبد الملك المعــافرى أو علقمة اللخمى وهم من كبار القواد بدلا من طارق بن زياد ٠

وهكذا استقر طارق برهة من الوقت فى طليطلة بعد أن هرب منهسبا كهان القوط وكذلك كبار رجــال الدين وعلى رأسهم اسقف طليطلة فى اتجاه

شمال شرقى فى الطريق الذى أطلق عليـــه المسلمين وادى الحجــارة ومن طليطلة حيث ترك طارق حامية عسكرية وصــعد نحو الشمال الغربى متعقبا فلول الهاربين من العاصمة فى منطقة وادى الحجارة Guodalajara ثم قطع الجبل الذى يليها ليصل أخيرا الى المـائدة كما تطلق عليها المصادر العربية وهى مدينة صـغيرة أدركها فى نهـاية العـام تقريبـا (خـــريف ٩٣هـ/٧١٢م) ٠

وبعد ذلك عاد الى طليطلة ليدرس خطة المرحـلة التالية من الفتح على ضوء ما يستجد من تعليمات أمير القيروان موسى بن نصير ٠

وهكذا فى أقل من عام واحد كانت السيادة الاسلامية قد توطدت وثبتت أقدامها وتعميق وجودها فى كل الاراضى الاسبانية وتم الاطاحة بالنظــام القوطى نهائيا ٠

ومن ثم كتب الى موسى بن نصير يبلغه أخبـار الانتصارات العظيمة ويطلب منه مددا كبيرا للتحرك السريع نحو الاراضى المتبقية من الاندلس ٠

وكان طارق بعد فتحه طليطلة قد عامل أهلها بكل انصــاف تاركا لهم حرياتهم كاملة وتلك طبيعة الفتح الاسلامى التى سارت عليها جميع الفتوحات واستمر طارق فى الفتح شمال طليطلة لتأمين الفتح والقضــاء على جيوب المقاومة القريبة منها وحولها من التجمعات للتعرف عليها وكان قد وصــل الى مدينة المـائدة ٠

بل هناك مصادر تذكرا نه وصل شمالا الا أن حلول الشتاء أجبره على العودة الى طليطلة ٠

ولقد كان خروج طارق من طليطلة وتحركه شمالا حيث وادى الحجارة وفتح مدية المـائدة خلف الجبل حيث مضى الى المدينة التى تتحصن بهـا بقايا القوط وأتم فتحها بل انه اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى الى مدينة أشرقة ثم انصرف عنها وان كان ذلك لله دلالة فانه دليل على استقرار

المسلمين فى هــذه البـلاد فقد أستقر المسلمون نهـائيا ولم يعد هناك أدنى شك فى توطيد النفوذ الاسلامى فى أقل من عامين (٥ رجب ٩٢ ـ أواخر عام ٩٤هـ) ٠

ولقد كان على الجانب الآخـر الملك المخلوع من ابناء غطيشة يعتقد ان طارق بن زياد سيعيد له العرش ويعود من حيث أتى الى بلاد المغرب بعد الظفر بما يريد (خسأت أقوال تذكر أن المسلمين كانوا مرتزقة أو طلاب مال ولكن المد الاسلامى ونشر القرآن الكريم هو الهدف النهائى) ولكن حلم الملك الاسبانى المخلوع لم يلبث أن تبدد بعد أن وضح الهدف الاسلامى من الفتح ولم يجد الملك ابن غطيشة (ويتزا) فى نهـاية الامر سوى الخضوع لـــما رسمه المسلمون من خطط فى الاستقرار فى أســبانيا لاسيما ان هذه البلاد قد بدأت تستظل بلواء الاسلام ٠

وهكذا كان الهدف الذى جـاء الجيش الاسلامى من أجله لاقوى من اى أســباب أخـرى ذلك لان دوافع المعــانى الاسلامية السامية قد جعل من المسلمين لا يتخلفون عن خوض اية معركة أو تقديم أنفسهم لاعلاء كلمة الله لاسيما ان جند الاســلام الفاتح وطن نفسه منذ العبور على الاستقرار لانه يتمتع بالروح الاسلامية العالية التى توفرت لدى الفاتحين عاملين على رفع راية الاسلام لكى تسود شريعة الله ويكون الدين كله لله عاملين على ابتغــاء مرضاة الله تعالى وحده (لا غالب الا الله) ٠

موسى بن نصير ودوره فى الفتح الاندلسى

لقد وقعت الانتصارات الباهرة التى حققها جند الاسلام فى اسبانية الموقع الحسن عند أمير القيروان موسى بن نصير مما جعله يفكر فى الانتقال بقوات كبيرة ليشد من أزر طارق ولكى يقف بنفسه على أحوال تلك البلاد ولكى يطمئن على القوات الاسلامية حتى تكون عنده الصورة كاملة لكى يتم نقلها الى خليفة المسلمين فى دمشق الوليد بن عبد الملك ولكى يراقب سير العمليات الحربية عن كثب خاصة بعد التقدم الاسلامى السريع شمالا والانتشار فى مختلف الجهات رغم طبيعة البلاد الجغرافية الصعبة ٠

هذه الطبيعة التى انتصر فيها طارق بن زياد فى القرن الثامن الميلادى وقفت عثرة أمام نابليون بونابرت فى أوائل القرن التاسع عشر عندما قرر غزو أسبانيا (١٨٠٨ — ١٨١٠م) حيث كانت مغامرة نابليون فى ذلك الوقت ايذانا الى أفول نجمه فقد هيأت وعورة التضاريس الفرصة للاسبان فى شن حرب العصابات ضده وبسببها فقد الكثير من زهرة شباب فرنسا دون أن يصل الى تحقيق أهدافه فى احتلال أسبانيا بعكس تقدم المسلمون ونجاحهم فى غزو اسبانيا فى عامين فقط ٠

لاسيما ان سقوط طليطلة قد ساعد على تدفق القوات الاسلامية على اسبانية الامر الذى دفع موسى بن نصير وهو المسئول الاول عن خطة الفتح بل هو القائد العام للجيش الاسلامى فى المغرب والاندلس من قبل الخلافة الاموية بأن يفكر فى القدوم الى اسبانيا ٠

ومن هنا كان عليه أن يكون على أرض المعركة ويتخذ قراراته الحاسمة فى الوقت الملائم ولم تكن انتفاضة حسد (كما تشير الروايات البلهاء) أو جاله غرور أعمت هذا الرجل المسلم الصالح الدبلوماسى الهادى حسب تفسير أحد المؤرخين المعاصرين (حسين مؤنس) فجر الاندلس ص ٨٤) ٠

وتذكر المصادر ان موسى أرسل الى طارق يأمره بالتوقف وعدم التحرك شمالا حتى لا يكون بعيدا عن مراكز الامداد فى المغرب وحتى لا يتقدم اكثر

من اللازم لكى تقطع بقـايا قوات القوط خط الرجعة لاسيما ان هناك جيوب قوطية لازالت فى حرية من الحركة وعدم خضوعها للسيطرة الاسلامية ٠

وكان الموقف على الجند الاسلامى فى الترامى بعيدا فى بلد فسـيح دون نظر الى العواقب وكان طلب المـدد هو المحـرك للعبـور الى الاندلس لاسيما ان طارق بن زياد كان على صـلة بقائده موسى بن نصير يخبره عن الفتح وكل شىء أول بأول منذ بداية الفتح ويستشيره فيما يفعل ويطلب منه ما يحتـاج اليـه ٠

وقد رأينا كيف طلب المد قبل خوض معركة شذونة (لكة) ولبى طلبه فورا وارسلت اليـه خمسة آلاف مقاتل ٠

ولا شك ان نصف هذه القوات قد استشهد فى المعارك وكان نظام بقاء قوات فى المدن قد أضعف من قوة الدفع الاسـلامى ولم يعـد هنـاك قوات كبيرة قادرة على خوض معركة قادمة بعد أن تحصن القوط بالجبال ٠

ويقول ابن الكرديوس بأنه بعد المعركة اتصل الخبر بموسى بكتـاب طارق اليـه فكتب به موسى الى الوليد بن عبد الملك (تاريخ الاندلس) وبعد سنة تقريبا من عبور طارق وتفرق جيشه وتوزيعـه على المدن والمناطق التى فتحت خاف طارق أن تنهزم بقيـة قواته فى معركة يواجه بهـا القوط ويستغل القوط قلة جنده وعتـاده وطول خط الامـداد فأرسل الى موسى يستنجده لاسيما انه لم يبقى معه جيـا الا ستة آلاف جندي واستشهد النصف الباقى وقاد مغيث الرومى نصف القوات الباقية فلم يعد مع طارق الا ألف ونصف ١٥٠٠ جندى بعد أن وزع بقيـة الثلاث آلاف فى المدن التى فتحها لتـكون حاميات لهـا وبذلك شعر طارق أنه فى خطر فكان لابد لموسى أن يلحـق بطارق بالاندلس على رأس جيش يقوده بنفسه لزيادة المدد من جنـد الفتح لاسـيما ان موسى كان يدرك أن توسيـع طارق فى الفتـح وتشعب الطرق والاتجاهات وكثرة المدن وهو أمـر كان موسى على علم يقين به بسـبب مراسلات طارق ٠

ومن هنا صدر امر موسى لطارق بن زياد بعدم التحرك شمالا وذلك بعد أن خاض طارق معركة المائدة فى وادى الحجارة وحقق انتصاره وامتثل طارق للاوامر الصادرة اليــه من قائده وظل فى مكانه (طليطلة حتى يلحق به فى جمع كبير كى يتعاونا معا فى فتح بقية بلاد أسبانية اخرى ٠

وهكذ عبر موسى بن نصير الى الاندلس تخوفا من الزحف السـريع الذى قـام به طارق ولاسيما انه تـرك خلفــه جيـوبا عـديدة اخـذ القوط يستعدون منهـا لقطع المواصـلات على الحـملة والقضـاء عليهـا وأسرع موسى باصدار أوامره لطارق بانتظاره فى طليطلة حتى يلحق به وعبـــر موسى بقواته التى كان يبلغ قوامها ثمـانية عشر الف بعـد أن هلك نصف الجيش الذى صـحبه طارق ٠

وكان موسى يقيم فى العاصمة الاسلامية القيروان وترك عليهـا ابنه عبد الله ونهض من القيروان عام ثلاث وتسعين من الهجرة فى عسكر ضخم وذكر الرازى ان موسى خرج من افريقية الى الاندلس فى رجب ثلاث وتسعين واستخلف على افريقية أكبـر ولده (اكبرهم سـنا) عبـد الله بن موسى ٠ وعبر المضيق الى اسبانيا فى رمضان ٩٣/ يونيو ٧١٢م من سبتة الى جبل طارق أو قريبـا منه أو عبر من طنجة الى الجزيرة الخضراء وكان قد أعدها اعداد جيد لهذه المهمة والقوات الكبيرة ٠

ومن هنا لم يكن فتح الاندلس عملا مرتجلا بل كان يسير وفق خطة مرسومة ومدروسة ولابد أن يكون اعداد السفن لنقل ثمانية عشر ألف جندى امرا قد اتخذت اجراءه بسرعة وسرية تامة وهو امر مهـم فى مثل هــذه الخطـــة ٠

وكان موسى يستهدف تطهير الجيوب التى خلفها وراءه طارق وقـد استغرق ذلك وقتـا طويلا من موسى وكذلك الجهد الكبير مما يدل عــلى خطورة الاندفاع الذى قام به طارق وبعد أن انتهى موسى من مهمته اتجــه الى طليطلة والتقى بطارق بن زياد حتى لا يتحرك وحده وذلك خوفا عــلى المسلمين باعتباره المسؤل الاول والقائد العـام للجبهة القريبة الى اسبانية

حيث تدور رحى حرب خطط لها بنفسه وتابع وتتبع كل خطواتها ومراحلها فليس فى عبوره أمر غير عادى لاسيما انه أدرك خطورة الانتشار الواسع للقوات الاسلامية فى أسبانية دون تغطية عسكرية كافية ولا شك ان الحاجة الملحة استدعت الحضور بهذا العدد الكثير من الجند بناء على تقرير من طارق الذى شعر بضرورة تكثيف القوات الاسلامية هناك التى كانت غالبيتها من العرب هذه المرة ٠

وكان فيهم عدد كبير من كبار القيسيين والكلبية وكذلك عددا من أهل اليمن من بين الثمانية عشر ألف التى عبرت بقيادة موسى ٠

وكان موسى لما عبر قد علم أن طارق تقدم نحو طليطلة وكان ذكاء القائد وحنكته قد دفعت به ألا يضيع وقتا وجهدا فى السير صوب مكان توقف طارق مباشرة وفى أماكن لم يتم فتحها بالفعل لان الهدف الاساسى هو فتح الاندلس فدله بعض الناس الى طريق آخر فيه مدن قوية لو تم فتحها يكون نصرا كبيرا للاسلام فسار موسى يفتح المدينة تلو الاخرى حيث تم له فتح مدينة شذونة وقرمونة ثم اشبيلية أعظم قواعد الاندلس التى حاصرها المسلمون فترة طويلة ثم مدينة ماردة التى قاوم أهلها المسلمين مقاومة شديدة ثم فتح المسلمون مدينة لبلة ثم اتجه موسى بن نصير صوب طليطلة ٠

فاذا كان طارق قد زحف من الجنوب الى الشمال الشرقى حتى طليطلة عاصمة القوط فان موسى بن نصير قد تمكن من فتح مدن أخرى زاحفا بجنده من الجنوب الى الشمال الغربى حتى ماردة ٠

وكانت هذه المدينة من كبرى بلاد أسبانية القوطية يحيط بها سور حصين وقد اعتصم بها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم فحاصرها موسى واستعمل فى ذلك أدوات الحصار ولقى المسلمون مقاومة عنيفة وتحملوا خسائر كبيرة فى الارواح ولكنهم استمروا فى الحصار حتى استسلم البلد فى اول شوال ١٤/٣٠ يوليو ٧٢٣م وقد وجد المسلمون فى ذلك البلد ذخائر وأسلحة وافرة بها وفى شهر يوليو التالى تقدم موسى ومن معه نحو طليطلة وخرج طارق بن زياد للقاء موسى ٠

ويعتقد انه ناقش معه تطورات الحرب وتقويم النتائج الاخيرة لحملة طارق والظروف المستجدة بعد دخول الحملة الثانية وقد زود طارق موسى بالمعلومات الجغرافية وكان موسى قد ضم فى طريقه الى طليطلة العديد من المدن لان الجزء الاكبر من أسبانية لم تصل اليه السيطرة الاسلامية فاعمال طارق اقتصرت على الاقليم الاوسط وهى رغم اهميتها فى القضاء على نظام القوط وعاصمتهم فان مناطق أخرى مهمة سواء فى الغرب أو الشرق لازالت بعيدة عن قبضة المسلمين وهنا يكمن الدور الكبير الذى كان على حملة موسى الجديدة أن تقوم بها فى احكام السيطرة على هذه المناطق ٠

وهكذا كان قرار موسى من وجهة النظر العسكرية هو السيطرة على هذه المدن ٠ ولقد شعر موسى بأن الوقت حان لاتخاذ قرارات تنظيمة باعلان الحكم الاسلامى والشريعة الاسلامية فى المدن المفتوحة وفى طليطلة استقر موسى بعض الوقت وكان يصحبه ولداه عبد العزيز وعبد الاعلى بعد أن استخلف اكبرهم عبد الله على القيروان ٠

وكان موسى قد أنشا بمجرد عبوره الاندلس مسجد الريات بعد أن كان قد أشرك ولديه فى فتح المدن وقيادة فرق من القوات الاسلامية رفتح ابنه عبد العزيز اشبيلية وفتح ليلة وباجة وان عبد العزيز أرسل عدة سرايا الى المدن لفتحها وأن عبد الاعلى فتح مدينة تدمير ٠

وتذكر بعض الروايات أن مروان بن موسى بن نصير هو الذى قتل لذريق فى ذى القعدة عام ٩٤هـ/٧٢٣م فى معركة السواقى وكذلك ذكر انه عند وصول موسى بن نصير الى طليطلة ضربت السكة (العملة) الاسلامية لاول مرة فى الاندلس وكتب موسى والقادة الآخرون الى الوليد بن عبد الملك باخبار الفتح وارسلوا فرقا الى بعض المناطق وان ما قيل عن لقاء موسى وطارق من كتابات بعض المؤرخين التى لا تقبل فكرا ولا عقليا وتفتقر الى الروح الموضوعية لانها كتابات مسرحية لا ترقى الى مستوى المناقشة أو الرد عليها اذ كيف يصل الامر بموسى الى ضرب طارق أو سجنه الى آخر ما بلغه خيال بعض المؤرخين قائد منتصر لابد أن يعامل

معاملة المنتصرين لاسيما ان الثقة متبادلة ولا يوجد أدنى شك فى ذلك لاسيما ان طارق كان قائد منضبطا يمارس مهام منصبه بصورة طبيعية دون أدنى شعور بالارتياب ولاسيما ان طارق كان ينفذ الاوامر طائعا وان لقائهما كان أفضل صورة من صور التوافق والانسجام والاحترام المتبادل بين القائد ونائبه .

وعقد موسى مجلسا حربيا لبحث الموقف العسكرى العام ومناقشة المرحلة التالية من الفتح وهذا ما جرى فعلا واتفق موسى بن نصير وطارق بن زياد على تنسيق الفتوحات الباقية ببلاد الاندلس .

وبدأ موسى بن نصير يمارس عمله كأول ولاة الاندلس من طليطلة وهو أول حاكم مسلم يحكم قطرا أوربيا وكان تأكيد ذلك عندما أمر موسى بضرب عملة اسلامية فى دار السكة بطليطلة وأرسلت الرسل (مغيث الرومى ، على بن رباح اللخمى) الى الوليد بن عبد الملك بدمشق ليخبراه بما تم انجازه من نصر عظيم ولكى تذاع أخبار هذه الانتصارات فى أرجاء العالم الاسلامى وارسال بعض الهدايا البسيطة للخليفة وليس كنوز وجواهر كما يذكر المؤرخين لان الخلافة الاسلامية لم يعنيها من الامر الا نشر الاسلام وتوسيع دائرة المد الاسلامى .

ولم يكن يدور بخلدها وهى تحشد القوات تلو القوات المغانم أو الاسرى أو الهدايا وكان الهدف دينيا قرآنيا بحت ، لان الخلافة الاموية كانت تسعى لخدمة الاسلام ورفع رايته وكانت دائما على استعداد لارسال الجنود والبذل بالارواح والاموال والتضحية التى كان خلفاء بنى أمية حريصون عليها ويجدون فى الفتح والغزو سيرا على خطى الخلفاء الراشدين وتلك هى سمات الدولة الاسلامية وسمات الخلفاء الامويين الذين يعملون لاجل نصرة الاسلام وارسال الفقهاء والعلماء وبث الروح الاسلامية فى البلاد المفتوحة وبناء المساجد وانشاء الادارة الاسلامية التى تسير وفق نهج القرآن وشريعة الاسلام والتى تعمل على المساواة بين المسلمين جميعا بغض النظر الى الاجناس والالوان واللغات فكل سواسية يسعون جميعا لهدف واحد .

وهكذا بدأت ملامح دولة اسلامية اوبرية تأخذ بعدا جديدا على ارض القارة الاوربية كانت أولى سماتها اصدار السكة الاسلامية فى طليطلة وقيام موسى بن نصير كأول حاكم مسلم من قبل الخلافة الاموية فى أوربا ٠

وبدأت الدولة الجديدة تمارس مهامها وتكون ادارتها وتنظيم شئونها وفق النهج الاسلامى وتوزيع الاختصاصات بين المدن والولاة لاسيما ان كل مدينة من المدن السابق فتحها كان يتم ترك حامية اسلامية بهـا لتتولى امر الدفاع عنها وكان قائد الجند حاكما لهـذه المدينـة يتولى أمورها الادارية والتنظيمية والعسكرية ولا شك ان التقاليد الاسلامية فى الحكم بدأت تظهر على سطح الحياة اليومية بين عامة الشعب القوطى ٠

موسى بن نصير والفتوحات المشتركة فى شمال أسبانيا

بعد فترة من الراحة وبعد انقضاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع تهيأ الجيش الاسلامى لترك طليطلة مواصلا الفتح متجها نحو الشمال وعلى وجه التقريب يكون هذا التحرك شمالا فى جمادى الثانية ٩٥هـ مارس ٧١٤م . وكان التحرك شمالا شرقى قاصدا مدينة سرقسطة وكانت هذه الحملة بقيادة موسى بن نصير ونائبه طارق بن زياد فى حملة واحدة وذلك وفق خطة مرسومة ويسودها التعاون والتنسيق وكانت سرقسطة Zaragoza فى اقليم اراغون Arangone أول عمل مشترك لهما وكانت تقع فى المنطقة التى عرفت بالثغر الاعلى وكانت تقع على نهر « الايبرو » وقد سقطت دون قتال شديد على ما يبدو وكانت مدينة مهمة أطلق عليها المدينة البيضاء واقام موسى وطارق هناك سويا فترة من الوقت ليست بطويلة ينظمان أحوالها وأنشأ فيها مسجدا خططه وحدد قبلته مهندس المساجد فى الغرب الاسلامى أثناء الفتح التابعى الجليل « خنش بن عبد الله الصنعانى » الذى توفى بسرقسطة عام ١٠٠هـ .

وكان قد دخل الاندلس مع موسى بن نصير وبعد فتح هذه المدينة ثم فتح عدة مدن ومناطق حول سرقسطة ومنها شقة Huesca ولاردة Lerida وطركونة Taragone وبرشلونة Barcelona ويذكر ابن خلدون ان موسى توغل فى الاندلس حتى برشلونة فى جهة الشرق وكانت خطة الفتح تقتضى ضرورة فرض السيطرة التامة على شبه الجزيرة الايبيرية لذا افترق القائدان ليزحف موسى شرقا الى لاردة وطركونة اعلى البحر المتوسط وبعض المعاقل الاخرى باتجاه جبال البرنية Pyvenaei وان برشلونة سقطت بدورها فى يد موسى .

وكان موسى قد سار فى الطريق الرومانى الكبير الذى عرف بالطريق القيصرى قاصدا السير نحو برشلونة وأن نيته فى اتباع هذا الطريق كان متابعة الاندفاع حتى اربونة ومنها الى روما لاسيما انه كانت لديه قوات كافية (١٨ الف جندى) .

ويذكر المقرى فى كتابه نفح الطيب نصا يقول منه (ان موسى بن نصير

كان مصمما على الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب) وقد حدث تعاون بين موسى وطارق فى فتح برشلونة ·

وتذكر بعض المصادر ان النشاط الاسلامى كان موحدا بين موسى وطارق فيما وراء جبال البرت حيث أمر موسى طارق بالتقدم بقواته وسار موسى وجنده خلفه حتى وصلا الى الثغر الاعلى وافتتحا سرقسطة واعمالها (المدن القريبة منها) وأوغل فى البلاد وطارق يتقدم أمامه يحققان الهدف والغزو المرسوم ·

ولعل موسى اقام فى سرقسطة يرسم خطط الفتح فى المرحلة القادمة وتجمع القوات للقيام بعمليات الفتح ويذكر « ليفى بروفسال » أن قوات طارق قد اجتازت وادى الايرو الى ليون واستروريقة وتوغل فى اقصى الشمال الغربى لمطاردة آخر فلول المقاومة القوطية المتجمعة فى جيليقية Galicia (وهى منطقة جبلية وعرة كانت تعرف ببلاد الصخر بقيادة (بلاى) أحد قواد لذريق الذى اعتصم فى احدى كهوفها ومعه ثلاثمائة رجل وامرأة (من هذا المكان تنطلق حركة مقاومة المد الاسلامى وقيادة حركة الاسترداد وطرد المسلمين من الاندلس نهائيا) ·

وقد أعتقد طارق بأنه أنزل ضربته الاخيرة بالقوطيين والتى لا تقوم بعدها للاسبان قائمة) لكن هناك كانت رأس الثعبان باقية قطع كل الجسد لكن الرأس كانت لاتزال تنفس سمها وتبنى عشها لكى تنهى الوجود الاسلامى بعد ثمانية قرون وقادت جليقية حركة المقاومة بعد لم تصل الى هذه المنطقة قوات اسلامية فيما بعد · اعتقادا منهم بأنها لم تعد تشكل أدنى خطر على الوجود الاسلامى نظرا لقلة عددهم وسوء الوضع الطبيعى هناك ·

وبعض المصادر تذكر ان موسى بن نصير قام بدور فعال فى الفتح شمالا حتى بلغ جبال البرت أى الابواب وهى التى تسمى اليوم البرانس ووقف على أبواب فرنسا اضافة الى انه كان قد اتجه غربيا ودخل اشتوريس وبذلك كما اشارت هذه المصادر فان موسى يكون قد فتح مناطق فى الأرض الكبيرة (فرنسا) حيث جبال البرت وقاد حركة المد الاسلامى بنفسه وانطلق

بالسرايا التى معه وفتح بلاد فى جنوب فرنسا هى بلاد (الفرنجة) قرقشونة ، واريونة ، وابنسيون ، ولميون Lyon على نهر الرون Rhone وربما يكون موسى قد وجه سرايا لاختبار هذه المناطق وربما تكون سرايا استطلاعية كتلك التى قام بهسا طريف بن مالك لاستطلاع الاندلس قبل العبور لفتحها ٠

ويؤكد ابن خلدون ان موسى بن نصير قاد السرايا بنفسه وراء جبال البرت فى فرنسا وقد تكون هذه السرايا التى ربمـا قادها بنفسه أو أرسل أحد من ابنائه عبد الاعلى أو عبد العزيز أو مروان لاستكشافها مادام انه قريبا منها وان أحد التابعين واسمه « حيان بن أبى جبلة » قد غزا فى بلاد الفرنجة مع موسى بن نصير الى بلدة يقال لها قرقشونة ٠

ومن هنا كان اختيار بلاد غالة (الارض الكبيرة) قد تم بهاا الشكل وهذا يعطى الدليل على أن موسى وطارق استمرا فى عمليات الفتح شمال اسبانيا حتى ولو لم يذهب موسى بنفسه وراء البرت فانه استمر فى ممارسة أعمال الفتح فى مناطق الثغر الاعلى وما بعده فى أتجاه الشرق والشمال وان موسى فتح بلاد (الباسك) البشكنش وأوغل فى بلادهم وانه فتح بنفسه وربما التقى مع طارق وتعاونا معا فى الفتح وان البقاء كان حسب خطة مدروسة وترتيب سابق ٠

ثم سارا سويا لاتمام عمليات الفتح وقيل ان موسى قد دخل جليقية وان فتح استوريش وجليقية قد قاما به سويا لانه لم ترد أخبار عن فتوحات طارق ونشاطه وقد يكون معقولا انهما سارا سويا بقيادة موسى ٠

وفى تلك الاثناء كان ضابط الاتصال والارتباط بين القيادة العسكرية فى الاندلس والخلافة الاموية فى دمشق « مغيث الرومى » قد عاد من مهمة فى دمشق بعد أن كان قد حمل رسالة من موسى بن نصير لكنه عاد يحمل أمرا من الوليد بن عبد الملك بوقف العمليات العسكرية فى أوربا وعدم التقدم للزحف شمالا وكان القرار واضحا صريحا فى عدم التقدم قيد انملة

والوقوف فى المكان الذى يصل فيه مغيث لمقابلة موسى لكن موسى كان يريد اجتياح القارة الاوربية لاسيما أن قواته لم تكن قد دخلت فى معركة كبيرة مع قوات الاعداء وكانت الثمانية عشر ألف جندى لازالت مستعدة للزحف الى أوربا فى وقت نلم تكن فيه قوة أوربية تستطيع الوقوف أمام الزحف الجارف لاسيما ان المدد كان بحالته التى قدم بها من المغرب .

لكن موسى بن نصير أمهل مغيث الرومى بعض الوقت للتقدم فى الارض الكبيرة وكذلك فى قشتالة لتأمين الحدود الشمالية للولاية الاموية الجديدة وكان استدعاء الخلافة سببا فى عدم توطيد النفوذ الاسلامى فى تلك المناطق داخل هذا الاقفليم وأقاليم أخرى فى الشمال الغربى التى صارت منافذ للحركات القومية فى أسبانية حيث انطلق منها تيار الاسترداد بعد ضعف الحكم الاسلامى فى البلاد . وكان عدم القضاء عليها سببا فى تقوية الروح القومية للاسبان .

وهكذا ترك موسى جليقية استجابة لاستدعاء الخليفة فرفع الحصار عن مدينة « لك » بجليقية وقابله طارق ورجعا سويا .

اذن هنا يتضح أن الخلافة صاحبة قرار التوقف وليس أى عوامل أخرى كانت وراء هذا القرار .

وكان موسى يعتزم بهمة عالية وتطلع الى دخول جليقية فبينما هو يعمل فى ذلك ويعد العدة له اذ أتاه مغيث الرومى رسول الوليد بن عبد الملك ومولاه بأمره بالخروج من الاندلس والاضراب عن التوغل فيها وكان موسى قد افتتح حصن (لك) واتخذه موسى مركزا للقيام بأعمال الفتح وبعث سراياه من مختلف المناطق فلاطف موسى مغيثا رسول الخليفة وسأله إنتظاره الى أن ينفذ عزمه فى الدخول اليها والمسير معه فى البلاد أياما ويكون شريكه فى الاجر والثواب ومشى معه حتى بلغ المغارة فأفتتح حصن بارو وحصن لك وأقام هناك وأرسل السرايا حتى بلغ صخرة بلاى على البحر الاخضر . وكان بلاى هذا هو الذى أشعل نار الثورة ضد الوجود الاسلامى

عندما كان يحرض سكان هذه المناطق بالثورة والتحرش والهجوم على مواقع المسلمين ٠

ولما كان استدعاء الخليفة لموسى ونائبه طارق قرارا نهائيا فكان لابد من العودة الى المغرب ثم الاتجاه شرقا الى دمشق وتوقف عمليات الفتح ولكن موسى لم يعهد لاحد باتمام فتح الاندلس فى الشمال الاسبانى وهذا يشير الى أن ما بقى فى الشمال الاسبانى دون فتح قليلا جدا ولم يعد يشكل خطرا على الوجود الاسلامى (وجهة نظر موسى وطارق) فى حين كان يجب قيام عبد العزيز بن موسى ومن تبعه من الولاة بالقضاء على كل الجيوب التى من الممكن أن تشكل خطرا فى المستقبل على الوجود الاسلامى بهذه الديار ٠

وقد وقع الجميع فى خطأ فادح بعدم القضاء التام على كل بؤر وجيوب المقاومة القوطية التى تركت دون تحسب لما سيكون عليه الحال فيما بعد ٠

ماذا وراء قرار استدعاء موسى وطارق الى دمشق ؟

كان قرار استدعاء كل من موسى بن نصير ونائبه طارق بن زياد الى مقر الخلافة الاموية فى دمشق لمقابلة الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان قرارا لا يستطيع أحـد تفسير دوافعه وما هى الاسباب وراء هذا الاستدعاء لكن نضع امام القارىء الكريم تصورا مسبقا وهو ان قرار استدعاء موسى وطارق من الاندلس كان قرارا له عواقب وخيمة على الاسلام والمسلمين فى الاندلس وكان التعجل بعـدم تقدم موسى وطارق فى الفتح عاملا اساسيا فى انهيار الاسلام بعد ثمانية قرون من الفتح ٠

لاسيما ان هناك آراء تذكر ان مغيث الرومى لم يكن بارا بموسى فيما نقله من أخبار الى الوليد عن الفتح :

ويذكر ان مغيث كان رجلا متآمرا قلقا لاسيما إنه أصر على عدم تحرك موسى قيد أنملة فى فتحه شمالا وقد يكون تفسير هـذا القرار انه اجـراء خاص من الوليد الذى أراد الوقوف مباشرة على اخبـار الفتح فى الاندلس وما تم انجـازه لاسيما انه كان يعـانى من مرض شديد وربمـا قد يكون قد شعر بدنو أجله وانه يريد أن يستمع نهما على الانتصارات الباهرة التى كانت تصل الى مسامعه عن طريق ضابط الاتصال مغيث الرومى وربمـا قد تكون المسألة لها أبعـاد أخـرى وزوايا متعددة وان المسألة ربما يكون لها ارتبـاط باستراتيجية الدولة التى خشيت من انتشار المسلمين فى بلاد بعيدة وانها لم تكن تعد للامر عدته ٠

وكانت ترى فى وجود ثلاثين ألف جندى قتل منهم مالا يقل عن ثمـانية آلاف جندى قوة لا تستطيع أن تتوغل فى أوربا وانه لابد من اعادة النظر فى أمر فتح بلاد غالة (الفرنجة) الارض الكبيرة ثم الانسياح شرقا وصولا الى القسطنطينية ثم دمشق بعد أن يتم اعداد العدة اللازمة للفتح وتجهيز القوات ثم انطلاق موسى وطارق الى الاندلس مرة ثانية لمتابعة الفتح ٠

وليس ثمة أدنى شك فى أن القرار كان قرارا خاطئا وفى غير محـله ولا توقيته وأضـاع من المسلمين فرصـة تاريخية لم ولن تتكرر للمسلمين

فى اوربا اذ كان بامكان هذه القوات اجتياح اوربا بأكملها دون أن توجد قوة حقيقية تستطيع الوقوف أمام الزحف الاسلامى لاسيما وان قوات موسى وطارق لم تقابل حشود مثل التى قاتلها طارق فى معركة « لكة » أو شذونة .

وهكذا كان طموح موسى يقفز الى ما وراء جبال البرنية الفاصلة بين الاندلس ومملكة الفرنجة وهناك تحت أقدام هذه الجبال كانت فكرة التوغل فى أوربا وتطويق الدولة البيزنطية كما يشير الى ذلك ابن خلدون الذى ذكر ان موسى قد قرر أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز الى الشام ودروب الاندلس ويفتح ما بينها من بلاد الفرنجة مجاهدا الى أن يلحق بدار الخلافة فى الشام .

وقد كان هذا الامر من السهل تحقيقه لان الظروف كانت مناسبة جدا ولم يكن هناك مستحيلا يقف أمام القوات الاسلامية الا أن خطة الدولة انتهت عند هذا الحد فأمرت القائدين بوقف العمليات العسكرية فى أوربا والعودة الى الاندلس (قرار خاطىء وكانت له عواقب سيئة على الكيان الاسلامى وخطة الفتح) .

وقد يكون للوليد بن عبد الملك حجته ورأيه فى قرار الاستدعاء والتوقف عن التوسع ذلك لانه كان يتخوف على المسلمون أن يكونوا فى أرض بعيدة منفطة ومحاطة بمناطق غير اسلامية وعلى اتصال بها هى أقرب اليها من العالم الاسلامى أو مراكز ارتباطه وامداده وانه أراد أن يبين له موسى الموقف وفى حقيقة الامر لو ان الاجلا مد فى عمر الوليد بعد أن استمع الى موسى وطارق لكان هناك رأى آخر في اتمام عملية الفتح وكان الموقف قبله تغيير نهائيا ذلك لان الوارد ليس هو سليمان بن عبد الملك الذى تولى الخلافة بعد أخيه وأراد هدم كل ما تم انجازه فى عهد الوليد .

ولقد كان موسى يفكر فى بناء دولة إسلامية كبرى فى فرنسا وان فتحها كان فتحا مستقرا وليس ارسال سرايا سرعان ما تعود لكن اقامة دولة اسلامية فى فرنسا كما أقيمت فى الاندلس (فكرة موسى بن نصير) .

كا تحتاج الى خطط جديدة وقوات اكثرة عدة وعتاد حتى يتم تنفيذ ذلك الهدف ٠

ومن هنا كان قرار عبور جبال البرانس (البرت) والوصول الى أربونة جنوب فرنسا ثم الاستمرار فى فتح الاراضى الكبيرة حتى الوصول الى الشام عن طريق دولة الفرنجة (فرنسا) وشمال ايطاليا حيث بلاد اللمبارد وبقية ايطاليا ثم جنوب بلاد السلاف وسهول الدنوب (يوغسلافيا وبلغاريا) فالدولة البيزنطية حيث يسقط القسطنطينية ثم آسيا الصغرى (تركيا) حتى يصل الى دمشق ٠

وهكذا كانت هذه الخطة الجريئة من اسباب قلق الوليد ورأى أن ما يدور بفكر موسى ما هو الا تغرير بالمسلمين فبعث اليه وقال لسفيره مغيث الرومى وكتب له كتابا خطيا يأمره بالتوقف والعودة الى دمشق لمناقشة امور الفتح ٠

ويذكر المقرى فى كتابه نفح الطيب عن عودة موسى الى دمشق بانه تركها وهو مع ذلك متلهف على الجهاد الذى فاته آسف على ما لحقه من الازعاج وكان يؤمل أن يخترق ما بقى عليه من بلاد الفرنجة ويقتحم الارض الكبيرة حتى يتصل بالناس الى الشام ٠

ونحن نؤكد بهذه الفكرة والاقوال لاسيما ان موسى كان قد تجاوز جبال البرت وتوغل فى جنوب فرنسا وهذه تقوى الفكرة وتؤكدها فقد كانت فكرة واقعية وليست مجرد أفكار ، ذلك لانه كما سبق القول فان قواته الثمانية عشر الف من الجند لازالت بكامل قوتها وقد يكون موسى قد كتب الى الخليفة بخطته هذه لاسيما انه لم يقابل قوات أوربية تعترضه أو يكون رسل موسى الذين أرسلوا بعد فتح طليطلة وكانوا هؤلاء ربما قد ذكروا ذلك أمام الخليفة ٠

ومن هنا كان الخليفة الوليد قلقا على جند الاسلام ٠ ويذكر ان موسى ارسل فى أواخر خريف ٩٤هـ/٧١٣م (عليا بن رباح ومغيث الرومى) لكى

يأخذا رأى الخليفة فى فكرة الفتح لكل أوربا · وكان موسى قد أخبر الخليفة عن طريق هذين الرسولين بما تم انجازه وفتحه جوما ينوى القيام به من فتوحات لاحقة مستقبلية ·

وكانت هناك أقوال تذكة ان الخليفة الوليد أرسل رسولا ثانيا الى موسى لكى يستعجله فى العودة الى دمشق وكان رسوله هذه المرة هو « أبى مضر » وقد كانت المدة بين الرسولين حوالى اربعة شهور وذلك دليل قوى على قلق الخليفة بشأن خطة موسى وفتح أوربا وكان موسى قد أمضى ثمانية شهور فى الفتح فى شمال أسبانيا مضى منها اربعة شهور قبل قدوم مغيث الرومى وعلى بن رباح والاربعة الاخرى بعد قدومهما من دمشق ·

ماذا بعد عودة موسى وطارق الى دمشق

ترك موسى بن نصير عمليات الفتح فى الشمال بعد أن رتب الامور وهو فى مدينة « لك » منصرفا نحو جنوب الاندلس وهكذا بدأت رحلة العودة فى أواخر ذى القعدة ٩٥هـ/ سبتمبر ٧١٤م وربما كان ذلك فى أوائل شهر ذى الحجة عام ٩٥هـ ولا نعرف بالتحديد طريق العودة من الشمال .

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظيمين يأخذان طريق العودة الى الشرق وقد خلفا وراءهما الاندلس بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح الاسلامية ذلك لانه قد تم انجاز احدى أضخم عمليات الفتح فى الدولة الاموية فى مدة تقل عن أربع سنوات من الجهد المتواصل والحركة الدائمة استطاع خلالها موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرفعا راية الاسلام خفاقة عالية فى القارة الاوربية خاصة أن طموح المسلمين لم يقف عن حد الاكتفاء بنشر الاسلام فى شبه الجزيرة الايبيرية وقد استطاع هذين القائدين مع عدد قليل من المسلمين لا يزيد عن ثلاثين ألف جندى تم انزالهم الى الاندلس (على ثلاث دفعات) أن يفتحوا قطرا أوربيا واسعا يعتبر من أصعب الاقطار الاوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية والمناخية والسكانية .

ولا شك ان موسى قد عرج فى طريق العودة الى طليطلة بقدر ما سمحت له الظروف لاجراء بعض التنظيم والترتيبات لاعطاء المدينة طابعها ووجهها الاسلامى ونزع ثوبها القوطى القديم ثم غادرها الى قرطبة فأشبيلية حيث اتخذ اجراءات مشابهة ، ثم التحق به طارق عائدا من الثغر الاعلى ولاشك ان كثيرا من المسلمين قد توزعوا على المناطق لأدارتها والاشراف عليها والدعوة الى الاسلام فيها وبناء المساجد وعقد حلقات الدين والوعظ والارشاد وتحفيظ القرآن الكريم ودعوة القوط وأهل أسبانيا الى حقيقة الفتح وشرح تعاليم الاسلام السمحة لهم .

وكان عبد العزيز بن موسى بن نصير فى أشبيلية لانتظار والده وطارق بن زياد ورسولا الخليفة على بن رباح ومغيث الرومى وفى أشبيلية تم تعيين عبد العزيز بن موسى واليا على الاندلس متخذا من هذه المدينة عاصمة للبلاد .

ومع نهاية ذى الحجة ٩٥هـ كان طارق وموسى ورسولا الخليفة قد عبرا المضيق الى المغرب وكان اختيار موسى مدينة أشبيلية عاصمة للبلاد نظرا لقربها من مضيق جبل طارق وهكذا ركب موسى وطارق الى المشرق مع نهاية ذى الحجة عام خمس وتسعين ٩٥هـ/٧١٤م .

وهكذا عاد موسى وطارق الى دمشق عبر الشمال الافريقى ومصر وفلسطين وولى ابنه عبد العزيز فى الاندلس وعبد الملك على بلاد المغرب الاقصى فى طنجة وابنه عبد الله على افريقية فى القيروان وفى ربيع الاول عام ٩٦هـ كان موسى فى الفسطاط عاصمة مصر ثم جد فى السير عبر بلاد الشام فوصل دمشق فى أوائل جمادى الأولى ٩٦هـ والخليفة الوليد بن عبد الملك مريض ويعانى سكرات الموت إذ لم تمضى الا أيام قليلة وتوفى الوليد بن عبد الملك .

وفى كل المدن الكبرى والصغرى وعبر الطريق الطويل كان حكام تلك الاقاليم يهرعون مرحبين بموكب القائد الظافر الذى رفع لواء الإسلام على الأرض الاوربية وحقق أعظم انتصارات الدولة الاموية حيث كان موكبه غاية فى الفخامة حيث كانت رحلته برية عبر افرقية ومصر والشام ولعلها سابقة أولى فى تاريخ الفتوحات الاسلامية التى تكون لفاتح عظيم حقق أعظم انتصارات فى افريقية وأوربا له هذا الصدى العظيم من الدعاية ذلك لانه عند عودته كان يظهر للناس فى هيئة حاكم عربى عظيم ذلك لانه كلما نزل بلدا من البلاد التى كان يمر بها كان يضرب فسطاطه (خيمته) خارج هذا البلد ويستقبل الوالى والناس استقبال السيد العظيم وهذا التصرف ينسجم مع نزعته الارستقراطية وميله الى مظاهر الفخامة .

وقد تكون هذه المظاهر وتوزيع الهدايا فى الطريق من أسباب غضب

سليمان بن عبد الملك عليه لان هذه اموال بيت المـال ولا يجوز التصـرف فيها الا بقرار من خليفة الدولة الاموية ٠

وتذكر بعض الروايات انه عندما نزل موسى بن نصير وطارق بن زياد فى مدينة غزة أول بلاد فلسطين جاءه رسول من قبل ولى العهد سـليمان ابن عبد الملك يطلب اليـه التريث فى السير وعدم التعجل لان الخليفة كان مريضـا مرض الموت وكان خليفته وولى عهده سليمان يرغب فى أن يدخل موكب النصر فى بداية حكمه لكى يبدأ به فتـرة مزدهـرة تحـقق له بعـض احـلامه ٠

ولنـا هنا وقفة تعارض كل الاقوال والآراء التى قيلت بشأن سـوء معاملة سليمان بن عبد الملك الذى تولى الخـلافة بعد أخيه الوليد (٩٦ - ٩٩هـ) والتى تذكر أفعـال لا يمكن حدوثها من خليفة اسلامى ازاء قائد حقق أعظم الانتصارات وفى ذلك يقول الذهبى فى كتابه « العبر فى خبر من ذهب » الجزء الاول (تاريخ الاسلام) أن الخليفة سليمان بن عبد الملك أستشار موسى لدى عودته من الاندلس وأخيه مسلمة بن عبد الملك فى أمر فتح مدينة القسطنطينية حيث كانت عملية غزو القسطنطينية قد تمت قبل مضى عامين على عودة موسى الى دمشق ، بل ان سليمان بن عبد الملك قرب اليـه موسى بن نصير وانه صحبه معه لاداء فريضـة الحج مكرما معززاً وذلك عام ٩٧هـ ولم يكن قد مضى على قدومه الا شهور الى دمشق والحقيقة تذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك قد يكون حاسب موسى على تصرفه فى بعض الغنائم أو الهدايا التى وزعها أثناء مروره من الاندلس الى دمشق لانهـا أموال كل المسلمين ولا يحق له التصرف بدون اذن من الخليفة لانها توضع فى بيت مال المسلمين ويتم التصرف منها فى أمور المسلمين ٠

كذلك نرد على الذين يعادون الاسـلام وأهله أو الذين ينسجون قصصا خيالية خرافية وهى أن سليمان بن عبد الملك غضب على موسى بن نصير واستقبله شر استقبال وأخذ منـه كل ما وجد معه وأغرمه أموالا طائـلة لابد من دفعها ومضى هذا الرجل يسأل القبـائل لكى يحصل على الفدية ٠

(أقوال غريبة غريبة أو ساذجة) ونضيف انه كان يقسام فى الشمس دون رحمة أو هوادة وهو فى سن السابعة والسبعين ، ولو ان هذا كان حـدث من الخليفة سليمان لما استمر أبنـاء موسى الثلاث فى تولى الحكم فى عصر سليمان (عبد العزيز يحكم فى الاندلس ، عبد الملك يحكم المغرب الاقصى فى طنجة ، وعبد الله يحكم افريقية فى القيروان) وهى الولايات التى عينهم عليها اباهم موسى وأقرها سليمان بن عبد الملك ..

وهكذا يكون موسى بن نصير قد أدى دوره تجـاه الاسلام والمسلمين وتوفى عن عمر يناهز ثمان وسبعون عاما أو يزيد (١٩ ـ ٩٧هـ) وهو متوجها لأداء فريضة الحج برفقة الخليفة سليمان وهو فى المدينة المنورة ودفن بالبقيع أو دفن حسب روايات أخـرى فى وادى القرى (العـلا حاليا) شمال المملكة العربية السعودية حاليا ، لكن أكثر المصادر تذكر انه توفى فى المدينة المنورة على ساكنها رسول الله ﷺ أفضل الصلاة والسلام وقد كان موسى دائما يدعو الله أن يرزقه الشهادة أو يموت ويدفن بالمدينة المنورة فاستجاب الله دعاءه ٠

أما طارق بن زياد فقد ذكر المقرى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الجديد قد عرض عليـه أن يتـولى ولاية الاندلس بدلا من عبد العـزيز بن موسى ٠ ولكن المصـادر لا تذكر شـيئا عن طارق بعد ذلك هل اسـتمر مقيما فى بلاد الشام حيث مقر الخلافة وربما تكون الخلافة حريصة على الاستفادة منه لاسيما انها كانت تنوى فتح القسطنطينية أم انه عاد الى المغرب أو الاندلس ٠

لكن ربما يكون طارق قد شـده الحنين الى بلاده المغـرب وانه قرر العودة اليها بعد أن أدى دوره للاسلام لكنه ربما قد تقدم به السن وان كان لم يبلغ عتيـا مثل موسى بن نصير لكن ما يمكن قوله بعد انتهى فصل من هذه دراسة أن فتح الاندلس الذى استغرق أكثر من ثلاث سنوات ونصف منذ عبور طريف المعافرى لاستطلاع فتح الاندلس ـ كان معجزة من معجزات الاسلام التى بهر بهـا العالم اذ كيف استطاعت قوات اسلامية محـدودة العدد والعدة التمكن من فتح هذه البلاد الواسعة وتحقيق تقدم سريع واجتياز

مضيق جبال البرت انطلاقا الى الارض الكبيرة للمضى فى فتحها ولم تلحق بهم أية هزيمة عسكرية ولم يقابلوا قوة حقيقية فى الميدان رغم ما عرف عن القوط بأنهم أمة وصفت بالشجاعة والامجاد العسكرية الكثيرة وان كل ما قدمه المسلمون فى فتح هذه البلاد ثلاثين ألف مسلم قدموا الاندلس على ثلاث دفعات ولم يكن دفعة واحدة مع تعدد الجبهات وربما يكون قد استشهد ربع هذا العدد ، بل ان القوات الاكثر عددا التى عبرت مع موسى (١٨ الف جندى) كانت لازالت مستعدة للزحف فى أراضى أوربة الواسعة وصولا الى القسطنطينية ثم دمشق ٠

وهكذا كانت تتم العملية الكبرى من وراء المد الاسلامى الواسع .ومع ذلك فقد كان توقف الاكتساح لاوربا يعود لقرار الخلافة الاموية التى اتخذ قرارها بحركة المد الاسلامى على المدى البعيد وكانت عودة موسى وطارق من الاندلس دون التمكن من القضاء على كل جيوب المقاومة لاسيما فى الجزء الشمالى الغربى من الاندلس سببا فى ضياع الاندلس وظهور حركة الاسترداد التى كانت فى بدايتها عمليات حرب عصابات ثم سرعان ما توسعت عندما بدأ الصف الاسلامى فى الانقسام والضعف والبعد عن القوة والميل الى الدعة والخمول والترف فكان ما كان من دحر الاسلام وأهله فى الاندلس ٠

الفصل الرابع

الاندلس بعد موسى بن نصير حتى ظهور عبد الرحمن الداخل
فترة حـكم الولاة

(٩٥ ـ ١٣٨هـ/ ٧١٤ ـ ٧٥٥م) .

برحيل كل من موسى بن نصير وطارق بن زياد عن الاندلس الى الشرق وعدم تركهما لاتمـام مهمة الفتح والقضـاء على الجيوب القوطية المتبقيـة فى شمال غرب الاندلس وتعيين موسى لابنه عبد العزيز واليـا على الاندلس واتخاذه مدينة أشبيلية كمقر للحـكم والامـارة فانه تكون قد بدأت مرحـلة جديدة فى تاريخ الاسلام والدولة الاسلامية بالاندلس وهى ما أطلق عليها المؤرخون فترة حـكم الولاة أو عهد الولاة أو حكم الولاة وذلك منذ عبد العزيز ابن موسى حتى أدوم عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم الاموى وقد استمرت هذه الفترة ثلاثة وأربعين عاما هجريا واحدى وأربعين عاما ميلادية .

وقد تولى أمر الأندلس خـلال هذه الفترة اثنين وعشرين واليـا أو بمعنى أوضح عشرين واليـا لان هناك واليين تولى كل منهما الحـكم مرتين هما عبد الرحمن الغافقى وعبد الملك بن قطنى . وتراوحت فترة حكم هؤلاء الولاة بالاندلس بين العدل والظلم فكان من الولاة من استمر يحكم بالعدل وحسن السيرة والصلاح والتقوى والعمل بجد وهمة فى نشر الاسلام فى ربوع البلاد فكانوا قدوة حسنة ومثالا يحتذى فى الحـكم والادارة وتقريب العلماء ونشر الفقهاء فى ربوع الاندلس ومنهم من كان عكس ذلك تمـاما فقد ساروا بين الرعية بالظلم والتعصب واثارة النعرة القبلية والعسكرية مما كانت له آثار ضارة على المسيرة الاسلامية فى البلاد ..

وتمثل فترة حكم هؤلاء الولاة نقطة تحول فى البلاد وذلك لان الاندلس قد شهدت حياة سياسية وادارية وتنظيمية جديدة لم تألفها من قبل فقد كان الولاة عامة رجال هداية وقادة ودعاة فكر ودين وعقيدة ولم يكونوا مستعمرين أو منفصلين عن الرعية بل كانت روح الاسلام هى التى تحركهم وتدفعهم للعمل من أجل نشر نور القرآن الكريم ذلك لان هذا الهدف هو الركن الوطيد الذى كان يرتكز عليه الاسلام ٠

وهكذا كان عهد الولاة غنيا بالجهود لاقرار الحال واستتباب الامن والاستقرار بعد تبديلها من حال الى حال اذ تم تعديلها نهائيا واتباع نظم وفق مقتضى الشريعة الاسلامية مع الاستمرار فى الفتوح فى الجزيرة وما وراء جبال البرت بجانب القيام بالاصلاحات الضرورية اللازمة لتسيير دولاب الادارة فى الدولة وما طرأ من تغيير اجتماعى وتبدل عقائدى بعد دخول الناس فى الاسلام لاسيما بعد دخول أعداد كبيرة فى الاسلام وهجرة أعداد كبيرة من المسلمين الى الاندلس بعد فتحها وكان اكثرهم من مسلمى البربر واستقروا فى كل انحاء الاندلس لاسيما المناطق التى كانت فى حاجة الى الدعوة الاسلامية ٠

وهكذا واجهت عصر الولاة مهمات ضخمة وبجانب اتمام الفتح ومسايرة مواكبه التبدل الذى طرأ على الاندلس لاسيما انهم عملوا على نشر الاسلام وحمل راية المد الاسلامى عبر جبال البرانس وما وراءها مجاهدين ومن هنا استشهد العديد منهم لاعلاء كلمة الله تعالى وقد يكون ذلك هو السبب الرئيسى وراء كثرة عدد الولاة الذين تولوا حكم البلاد فى فترة زمنية قصيرة ٠

ومن هنا لم يكن يطول حكم الوالى الاندلسى فأدى ذلك الى بعض الارتباك وعدم الاستقرار رغم وجود كثيرا من الانجازات فى حين هناك عدم استقرار فى فترة حكم بعض الولاة وأدى ذلك الى نزاع بين بعض القبائل بعضها ببعض عندما كانت تسيطر قبيلة الوالى على مقاليد الامور نظرا لنزوع جاهلى لا يتلائم مع التعاليم الاسلامية مما كان يؤدى الى عواقب سيئة وسنرى هنا فى الصفحات القادمة بعضا من نوعيات الولاة الذين حكموا الاندلس فى تلك الحقبة الزمنية الحساسة ٠

١ ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير

(٩٥ ـ ٩٧هـ ـ ٧١٤ ـ ٧١٦م)

تولى الحكم فى ذى الحجة ٩٥هـ/٧١٤ ـ رجب ٩٧هـ/٧١٦م ـ دامت فترة ولايته سنة وعشرة أشهر اتخذ اشبيلية عاصمة له ومع بداية حكم عبد العزيز بن موسى بدأ فى تاريخ الاندلس عصر الولاة التابعين للحكومة المركزية فى دمشق وكان عبد العزيز قد خلف أباه موسى واليا على الإندلس لذا فاذا اعتبرنا طارق بن زياد أول ولاة الاندلس فيكون عبد العزيز بن موسى هو الثانى ·

وقد كانت ولايته فى سبتمبر ٧١٤م وقد أمضى عبد العزيز معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبه الجزيرة لان الفاتحين الكبيرين قضيا على دولة القوط ووصلا بالحدود الاسلامية الى كل ناحية غير انه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة فى شبه الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتح وكان لابد من استكمال فتحها وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز لهذا فيمكن اعتباره ثالث فاتحى الاندلس بعد أبيه موسى وطارق بن زياد ·

وقد سار عبد العزيز بن موسى سيرة حسنة فى الحكم حيث أبدى فى معاملته أهل الاندلس المفتوحة كثيرا من الرفق والتسامح والاعتدال فى تطبيق الاحكام بالاضافة الى تخفيف الاعباء الضريبية التى كان يصطلى بنارها أهل البلاد وقد مكنت سياسة عبد العزيز للاسلام فى الاندلس ·

كذلك كان عبد العزيز نموذجا جيدا للحاكم الناجح فقد رافق والده فى كثيرا من الحملات العسكرية وتتبع ممارسته فى الادارة والحكم فورث عن والده الشجاعة كما ورث الدبلوماسية والهدوء والمرونة وبعد النظر فى المسائل السياسية وكان والده قد خبره فى عدة مهمات أداها بنجاح ومنها استكمال العمليات الحربية فى المناطق التى لم تكن وصلت اليها قوات أبيه وطارق بن زياد وفتح عبد العزيز الاقاليم الغربية وهى المنطقة التى تعرف حاليا بالبرتغال ·

وفى ذلك يرى المؤرخ الفرنسى ليفى بروفسال Levi-provencel
ان هذه الحملة قد تمت بعد تولية عبد العزيز امارة
الاندلس وليس فى فترة وجود موسى بالبلاد حيث نجح عبد العزيز فى فتح
مدن شنترين Santeren وافيرا Evora (بابرة) على مقربة من لشبونة
ومدينة كامبرا Coimbrai (قلموية) قرب ساحل المحيط الاطلسى وفتح
استورقة Astorg القريبة من جليقية وتوقف عبد العزيز عند حدود هذه
المنطقة الجبلية حيث انطلق جنوبا فسيطر على مالقة Malaga وبعد ذلك
صعد شمالا الى البيرة Eivira ومنها الى مرسية Murcia فى الشرق
وبذلك قام بأعمال عسكرية مجيدة وباهرة ٠

وبسيطرة عبد العزيز على هذه المناطق يكون القسم الجنوبى الشرقى
من أسبانية قد آلت السيادة فيه الى الاسلام كما احتوت رسالة الاسلام
بقية الاقاليم الاخرى كذلك أرسل بعضا من قواده فى حملات عسكرية سيطرت
على طركونة فى الشمال حتى برشلونة عاصمة (أراغون) وبنبلونة
Panpaluna عاصمة الباسك (الشبكنس) فى جبال البرينة وبذلك تكون
عمليات الفتح فى أسبانيا التى سيغلب عليها الاندلس قد استكملت نهائيا
فى عهد عبد العزيز بن موسى (٧١٤ ـ ٧١٦م) ولم يبقى خارج نطاق
السيادة الاسلامية سوى بضعة جيوب كان من السهل جدا تصفيتها لو اتخذت
الامور مسارها الطبيعى فى هذه البلاد ٠

وهكذا لم يتوقف الفتح الاسلامى فى الاندلس لاتمام ما كان عليه الحال
فى عهد موسى اذ بذل ابنه عبد العزيز جهودا واضحة بالسير بالراية
الاسلامية الى ما وراء جبال البرت وانتقال القتال الى الارض الكبرى
(فرنسا) دعما لسياسة الاستقرار فى هذه البلاد وبفضل الجهود السياسية
الحكيمة التى سار عليها عبد العزيز طرأ تحسن على حال الجزيرة اذ دخل
أهل البلاد فى الاسلام بعد أن رأوا تعاليم الاسلام السمحة وقد ظلت مدينة
أشبيلية عاصمة البلاد وبقيت حوالى ثلاث سنوات حتى انتقلت الى قرطبة
فى عهد سلفه ٠

٢ ـ أيوب بن حبيب اللخمى

(رجب ٩٧ ـ ذى الحجة ٩٧هـ)

هو ابن اخت موسى بن نصير تولى الحكم عام ٩٧هـ ـ ٧١٦م دامت ولايته ستة أشهر حتى ذى الحجة ٩٧هـ وفى أيامه انتقلت العاصمة الى قرطبة · وعلى الرغم من أن عبد العزيز بن موسى كان رجلا تقيا ورعا حريصا على مصالح المسلمين مع نشاط واقدام كما كان اداريا وعسكريا باهرا زيادة على حبه للاصلاح وتلهفه عليه وبدأ تنظيم أحوال البلاد وأتم عمليات الفتح وقضى على كثير من جيوب المقاومة القوطية ·

وقد ذكر عنه المقرى انه كان خير الولاة الا ان مدته لم تطل حيث قتل ومات شهيدا على يد أيوب اللخمى وقد كان هذا من العرب الذين قاموا بالفتح والاستقرار فى الاندلس وبمقتضى هذا يرون انه أولى بها من غيرهم ـ

وهناك أقوال ليست من شيم الاسلام ولا الولاة ولا الخلفاء ولكن ذكرتها المصادر ولذا نرى سردها دون الاقتناع بما جاء فيها وهى ان عبد العزيز وقع ضحية اغتيال أعدته سلطات دمشق حيث تواطأ أيوب بن حبيب اللخمى والجماعة الذين اغتالوا عبد العزيز بن موسى مع الخليفة سليمان ابن ع بدالملك أملا منهم فى أن تؤيدهم الحكومة المركزية وتثبيت سلطانهم فى الاندلس (أقوال ضعيفة ومنافية للقيم الاسلامية) ·

وقد ظل أيوب بن حبيب حاكما للبلاد فترة تقل عن ستة شهور لم يقم خلالها بأى عمل يذكر له سوى انه قام بنقل عاصمة الاندلس من أشبيلية الى قرطبة لان موقعها كان أكثر توسطا ·

وهكذا كان أيوب بن حبيب متورطا فى مقتل سلفه رغم صلة القربى بين الرجلين وهو مدين بتعيينه لقادة الجيش الذين نفذوا مؤامرة الاغتيال (ربما لا يكون هناك يد فى الاغتيال من طرف سليمان بن عبد الملك أو أيوب

نفسه) لكن أيوب قد انطفأ نجمه بعد ستة شهور فقط من تعيينه واليا لم يقم خلال تلك الفترة بانجاز أية ترتيبات في الادارة المنقولة من اشبيلية الى قرطبة ٠

وقد كانت للذين قاموا بعملية اغتيال عبد العزيز حجتهم فى انه واقع تحت تأثير زوجته أمرلة الملك القوطى لذريق حيث أصبحت تصرفاته تنعكس عليها بصمات القوطيين وذلك المطعن فى عقيدته وذلك تبررا لعملية القتل وكان اللجوء الى الاغتيال عمليات غير مقبولة اسلاميا ولا تقليديا ٠

لكن عملية اغتيال عبد العزيز بن موسى كانت فاتحة عهد مضطرب فى تاريخ الولاية الاموية وكانت علامة من علامات عدم الاستقرار السياسى وقد جر ذلك منذ البداية الاندلس الى منعطف خطير حيث تصارعت القوى السياسية فى ذلك البلد البعيد عن مقر الخلافة الاموية فى دمشق حيث الاندلس ٠

لكن الامور فى الاندلس لم تسر على ما قدره أيوب ومن معه من قادة الجيش بعد مقتل عبد العزيز اذ قام حاكم القيروان فى المغرب حيث لازالت الاندلس تابعة له وهو « يزيد بن أبى مسلم » حاكم المغرب من قبل سليمان بن عبد الملك على المغرب بعد عزل عبد الله ن موسى بن نصير عن المغرب بتعيين أحد أعوانه وهو الحر بن عبد الرحمن الثقفى ٠

وكان الذى اغتال عبد العزيز بن موسى (زيادة بن عذرة البلوى) وهو يصلى فى مسجد أشبيلية وقد تكون عملية الاغتيال هذه عملا فرديا نظرا لما أشيع عن عبد العزيز ظلما بتصرفاته وكذلك لم يكن هناك أدنى تدخل من قبل الخلافة الاموية (سليمان بن عبد الملك) فى دمشق وكذلك لم تكن هناك أيد لابن عمته (أيوب بن حبيب اللخمى فى هذه العملية) وقد قدم أهل الاندلس أيوب هذا للصلاة بهم يؤمهم فى صلاتهم وكان رجلا صالحا (لم يشترك فى الاغتيال ، أقوال أوربية) وأقاموا مدة دون أمير ونقلوا دار الامارة الى قرطبة وتقدم أيوب واختار مقرا بها ليكون مقر الولاية لكن جاء تعيين الحر بن عبد الرحمن الثقفى مخيبا لآمال أيوب (حادث الاغتيال فردى ولا دخل لاية جهة بهذا العمل) ٠

٣ ـ الحر بن عبد الرحمن الثقفى

(ذى الحجة ٩٧ ـ رمضان ١٠٠هـ ـ ٧١٦ ـ ٧١٩م)

وكان الحر قد تولى الحكم فى شهر ذى الحجة من العام الهجرى ٩٧هـ/٧١٦م وكانت فترة ولايته سنتان وثمانية أشهر أو أقل حتى شهر رمضان عام المائة الهجرية وقيل انه هو الذى ثبت اقامة الامارة فى قرطبة وكانت هذه الدار فى مواجهة قنطرة الوادى وكانت قبل ذلك مقر للحاكم القوطى الذى انتزع مغيث الرومى البلدة منه وكان قد سكنها مغيث ثم اخرجه منها أيوب بن حبيب وسكن فيه فلما جاء الحر بن عبد الرحمن الثقفى زادت عنايته بالقصر وجعله قصر امارة فعلا وسمى هو والارض الواسعة الممتدة قريبة على النهر باسم بلاط الحر ·

وكان الحر لما وصل الى قرطبة قد صحب معه قوة عقسكرية من اليمنيين رغم انه من القبائل القيسية حيث كان للقبائل اليمنية وزنها وثقلها السياسى والعسكرى منذ الفترة الاولى لفتح الاندلس وكان لها مركز الثقل بين القوى المتصارعة فى الاندلس وسوف تلعب دورا بارزا فى الاحداث المهمة فيما بعد وأثناء حكم عبد الرحمن الداخل ·

ويذكر الدكتور حسين مؤنس فى كتابه فجر الاندلس أن الحر الثقفى لم يستبعد أن يكون هناك صراع بينه وبين أيوب بن حبيب الذى ولاه قادة الجيش بعد مقتل عبد العزيز بقن موسى وكان يستمد قوته من الجيش فآثر الحر أن يأتى مصحوبا بقوات عسكرية وكان صحب القوات العسكرية دليل على حذر الحر ·

ولذا كانت القوة معه دليلا على استسلام أيوب بن حبيب لقرار حاكم القيروان وذلك ضمانا لنجاحه فى المهمة التى أوكلت اليه ·

وتذكر المصادر أن الحر بن عبد الرحمن الثقفى لم يقم بأى عمل يذكر له خلال الفترة التى تصل الى ثلاثة أعوام الا أربعة اشهر وهى الفترة التى أمضاها حاكما للاندلس ، سوى القيام ببعض الاجراءات التى تتعلق بأمور الضرائب وتنظيم الجيش ووضع رواتب للجيش وهى أمور داخلية ادارية فقط ولم يقم بأى غزو فى الشمال ·

٤ ـ السمح بن مالك الخولانى

(رمضان ١٠٠هـ ـ ذى الحجة ١٠٢هـ ـ ٧١٩ ـ ٧٢١م)

هو رابع الولاة الذين تولوا الحكم فى الاندلس وتولى الحكم فى عهد الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩هـ ـ رجب ١٠١م) وكانت ولايته فى رمضان ١٠٠هـ وفترة ولايته سنتان وثلاثة اشهر حيث استشهد وهو يغزو فى سبيل نشر الاسلام فى احدى المعارك جنوب فرنسا وبه تبدأ مرحلة جديدة فى النشاط العسكرى وهى متممة لما قبلها فى ازدياد قوة المد الاسلامى ودفع حركة الفتوحات وراء جبال البرانس حيث فرنسا اضافة الى دوره الرائع فى تنظيم الامور الادارية فى البلاد واقرار الاوضاع فيها والقيام بالاصلاحات الواجبة وأصبحت الاندلس فى عهده ولاية مستقلة عن بلاد المغرب وتخضع مباشرة للخلافة الاموية فى دمشق رأسا ٠

وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك بأن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق وامتثل لما أمره به عمر بن عبد العزيز (رضوان الله عليه) فى القيام بالحق واتباع العدل والصدق فانفرد السمح بولاية الاندلس وعزلها عمر عن ولاية افريقية اهتماما بأهلها بالجهاد شمالا والغزو ونشر الاسلام ٠

وكان اختيار عمر بن عبد العزيز الحر بن مالك الخولانى للاندلس فى نفس الوقت الذى اختار فيه « اسماعيل بن عبد الله » للمغرب وكانت أعمال السمح الخولانى دافعا للاسلام فى هذه البقاع وحافزا على هدوء الاوضاع فى الاندلس وقد طلب منه أن يكتب للخليفة يصف الاندلس وأنهارها ٠ حيث كان هذا الرجل موضع الثقة من الخليفة عمر بن عبد العزيز فجاء الى قرطبة يندفع بالحماس الدينى عاملا على الفتح والدعوة وتثبيت الاوضاع فى البلاد واقامة العدل وكشف الغموض فى هذه الولاية ومداومة الاتصال بالخليفة فى دمشق وكتابة التقارير اليه وما لبث الا برهة قصيرة حتى كتب تقريره الاول عن البلاد عن جميع مشاكلها وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وامكانياتها وطبيعة البلاد ٠

ولقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز فى تعيينه للسمح الخولانى يهدف الى محاولة الوقوف على الاوضاع من أحد رجاله الموثوقين وذلك عملا على التحرك الاسلامى أو الانسحاب اذا كانت هناك خطورة على جند الاسلام والدعوة الاسلامية لكن السمح أزال الشكوك من قلب عمر بن عبد العزيز وضرب مثلا أن يكون رائد الحملات العسكرية التوسعية فى أوربا ٠

ولقد كانت فترة حكم السمح بن مالك نقطة تحول فى تاريخ الاندلس بحيث أعطتها تلك الشخصية العربية المتميزة وكم كانت الاندلس الفتية فى أمس الحاجة الى اصلاحات يقوم بها مثل هذا القائد الذى كان قريبا من عمر بن عبد العزيز وكانت فى حاجة الى مجهودات هذا الرجل الذى حكمها بمنطق اصلاحى وسياسة حازمة ٠

ولكن السمح لم يعيش طويلا فى منصبه اذ قتل فى احدى الغزوات فى فرنسا (غالة) وكان استشهاد السمح فى موقعة طلوشة Toulouse فى أول محاولة اسلامية بارزة لاختراق جبال البرينة الى أوربا بحيث كانت فترة حكمه بداية المد الاسلامى فى أوربا فقد كانت بداية انتشار الجيوش الاسلامية الى الاراضى الكبيرة وقد قام السمح ببعض الاعمال العمرانية ومنها انشاء المساجد فى المناطق المختلفة وكذلك المدارس فى المساجد أو الربط أو غيرها من أماكن التعليم واتخذت معاهد للتدريس وأنشأ السمح بن مالك الخولانى عام ١٠١هـ بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز قنطرة قرطبة العظيمة بعد أن استقر المسلمون وكثر بها وبدأ نفر من أهلها يدخلون فى الاسلام ٠

ولقد كانت القنطرة التى قام ببنائها السمح أهمية عسكرية واستراتيجية عظيمة حيث تصل جنوبى الاندلس بقرطبة والشمال الافريقى ٠

وهكذا كان السمح بن مالك حقا واليا عادلا قد أثبت حسن اختيار الخليفة عمر بن عبد العزيز له وقام السمح باصلاحات داخلية تمكن بها من نشر الامن والنظام فى ربوع البلاد ونفذ توجيهات الخليفة عمر بن عبد العزيز باحصاء الاجناس والمذاهب الموجودة آنذاك بالاندلس وأن يقوم بعملية مسح لمدن الاندلس وجبالها وأنهارها وبحارها كما انه وجه اهتمامه

لازالة الفتن المنتشرة بين النـاس كما انه اهتم اهتماما بالغا بالجيش · ووجه السمح بن مالك اهتمامه الى نشر الاسلام فى شمال الاندلس فاستطاع أن يخضع اقليم سيتمانيا الذى كان خاضعا للقوط الغربيين وقد ترك لمن لم يدخل عقيدة الاسلام حرية الاحتكام الى شرائعهم · وهكذا كان هذا الرجل نمـوذج الحاكم العادل الداعى للاسلام العامل على نشره بين كل الاقوام ·

واذا كان عبد الرحمن الغافقى قد تولى حـكم البلاد لفتـرة شـهوين واستطاع أن ينسحب بالقوات الاسلامية اثر استشهاد السمح الخولانى فى معركة طلوشة · بعد أن نجح الغافقى فى قيادة عملية الانسحاب ببراعـة اثر هذه المعركة وهكذا أصبح عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى الرجل البارز فى الجيش والاوفر حظا فى خلافة السمح حيث مارس فعلا هذه المؤلية نحو شهرين من الزمن غير ان الاتجاهات السياسية فى الخلافة والمغرب أبعـدته عن ولاية الاندلس باختيار حاكم افريقية فى ذلك الوقت « بشير بن صـفوان الكلبى » أحد اقاربه من الكلبيين هو عنبسة بن سحيم الكلابى الذى كانت مهمته دقيقة جدا ·

فقد جاء الى قرطبة حاكما لها والمسلمون فى البلاد خارجين من معركة قتل فيهـا قائدهم « السمح الخولانى » وهو أول قائد مسلم يقتل فى معـركة حربية مع القوات الاوربية شمال جبـال البرانس أول موقف يواجه المـد الاسلامى ويقف الفرنجة يقاتلون المسلمون بهـذه القـوة حيث كانت هـذه الظاهرة هى الاولى فى تاريخهم العسكرى الاوربى حيث تركت تلك الموقعة الحربية آثارها الواضحة ·

وهذه المعركة تعطى الدليل القوى ان المد الاسلامى لم يكن الا حركة دعوة لتخرج الناس الى نور القرآن ولم تكن حركة غزو وسيطرة واسـلاب وغنائم وسيطرة سياسية والا لمـا أقدم المسلمون على الزحف لنشر الاسلام وذلك لان فترة حكم عمر بن عبد العزيز كان طابعها نشر الاسلام وارسـال الدعاة لتفقيه الناس وشرح تعاليم الاسلام لهم وفى ذلك دور السمح فى نشر الاسلام واستشهاده شمال جبـال البرانس لنشر راية الاسلام ·

٥ ـ عنبسة بن سحيم الكلابى
(صفر ١٠٣هـ/٧٢١م ـ شعبان ١٠٧هـ/٧٢٥م)

عمل عنبسة قدر المستطاع لخلق توازن مقبول بين المسلمين فى الاندلس ففى خلال الاربع سنوات التى أمضاها فى الحكم متفرغا لشئون الولاية وتنظيم ادارتها وكانت السنة ألاخيرة من حكمه قد كرسها للجهاد والدعوة للاسلام والسير فى الحركة التوسعية متعقبا آثار الوالى السابق حيث خرج غازيا فى غالة (فرنسا) واهتم عنبسة بالامور الداخلية فنظم الخراج وقسم الاراضى بين المسلمين دون جورا واعتداء على الاراضى التى يمتلكها أهالى البلاد الاصليون ٠

وكان ينظر فى مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفى الاديان وباذلا جهودا جبارة فى شر الاسلام والعمل على أعلاء كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله فغزا المناطق الشمالية ٠

ولقد كان نجاح عنبسة يعود الى الجرأة والبراعة أكثر منها الى القوة والكثرة وكان كيسا فطنا ذاليته وهدوء ودبلوماسية ورفق وحسن معاملة للسكان عاملا على تقوية الاسلام ومد نفوذه فى جنوب فرنسا٠٠

وكان عنبسة واحد من الولاة الذين قاموا بجهد بارز فى الفتح وراء جبال البرت وذلك دعما للنفوذ الاسلامى فى الجزيرة الاندلسية ونقلوا الميدان الغزو الى بلاد أخرى وربما يكون العمل وراء جبال البرت يقصد منه قطع داير الفلول الفرنجية والقوطية التى ربما كانت تتسلل الى شمال الاندلس من أى معبر من معابر البرت لمعاونة الجيوش الصغيرة التى كانت لاتزال لم تخضع للفتح الاسلامى والتى كانت فى مناطق جبلية صعبية ونائية وكان من أسباب الغزو فيما وراء جبال البرت قطع مصدر هذه الامداد لاسيما ان الاحوال مستقرة فى الاندلس ٠

وكان عنبسة من الولاة الذين استشهدوا فى ميدان الغزو والفتح فى سبيله مد راية الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية حيث كان من انشط القادة

وله دورا واضح فى الفتح بعد ان استمر فى تقدمه رافعـا لواء القرآن نحو الشمال والشمال الشرقى فى فـرنسا وكانت القوات الاسلامية قد تقـدمت شمالا فى مدينة سانس « Sens » على بعد ثلاثين كيلو متر جنوب باريس عاصمة فرنسا الحالية ٠

وكان عنبسة من طراز السمح ان لم يكن من مدرسة واحدة من التابعين المقربين للخليفة عمر بن عبد العزيز وكان تقيـا ورعا وعسكريا مجـاهدا حريصا على توسـيع الدولة الاسلامية وأمينا على مصالح أهلها واسـتقام الاندلس فى عهده وغزا الفرنجة وتوغل فى بلادهم واستشهد عام سبع ومائة هجرية (١٠٧هـ) وله فى الحـكم اربع سنوات وأربعة أشهر ٠

ويذكر ابن خلدون وغيره من المصـادر العربية انه تقـدم بعيـدا فى الشمال داخل الاراضى الفرنسية فى حين ذكر الامير شكيب أرسلان انه وصل الى مدينة سانس ٠ وقد أمضى كما ذكرت بعض المصادر أيضا حوالى عامين فى رعاية شـئون الاندلس بنفسه وحين سـار للجهاد لابد انه ترك فى قرطبة نائبـا عنه لرعاية امور الحـكم وانه سـار نحو سيتمانية متجها شرق فرنسا ثم شمالها متجها بجوار نهـر الرون (Rhone) ثم متجها غربا حتى وصل الى سانس Sens ٠

لكن هناك أمور داخلية فى الاندلس فرضت على عنبسة العودة الى الأندلس دون أن يقيـم قواعد دائمة فى هذه المناطق وكانت هذه الاسـباب قد حدت من نشاطه هنـاك ولـولا العودة الى الاندلس لتغيرت الامور اكثر ولسار المد الاسلامى الى أبعاد أكثر عمقا فى الاراضى الفرنسية

وهكذا عاد عنبسة الى الاندلس الا أنه استشهد فى الطريق قبل أن يصل الى الاندلس وذلك فى شهر شعبان عام سبع ومائة هجرية/ ديسمبر ٧٢٥م فى معركة مع الفرنجة دارت رحاها فى مكان هنـاك وربما كان كمين نصب له حيث تكاثر عليه جند الفرنجة فأحاطت به وبمن معه من القادة المسلمين وهكذا استشهد عنبسة فى هذه المعركة وقد اختلفت المصادر فى تعيين مكان هذه المعركة الا انه لاشك قد كانت فى شمال شرق فرنسا وقبل أن يعبر جبال

البرت عائدا الى الاندلس وهكذا اغتالت عصابات الطريق القائد المسلم العائد من الغزوة فى فرنسا .

ومرت فترة من توقف حركة النشاط الاسلامى العسكرى شمال جبال البرت بعد استشهاد عنبسة غير انها كانت حافلة بالاحداث الداخلية العنيفة حيث شهدت فترة لا تقل عن أربع سنوات حالة من عدم الاستقرار السياسى فرضته العصبية القبلية دون أن يتمكن أحد من الاحتفاظ بمنصب الحاكم أو الوالى فى الاندلس الا لبضعة شهور قليلة وهؤلاء جميعا لم يتركوا اثرا يذكر لهم فى تاريخ الاندلس .

وهكذا مرت أربع أو خمس سنوات فى الاندلس تولى فيها أمور الاندلس ستة ولاة لم تزيد فترة حكم أى منهم اكثر من شهور ان لم يكن شهر واحد .

فقد آلت قيادة الجيش بعد استشهاد عنبسة الى عذرة بن عبد الله الفهرى الذى رشحه أهل الاندلس للولاية ذلك لانه نائب عنبسة على الجيش ولعله كان ساعده فى العمل الجهاد بل كان فى قلب المعركة التى استشهد فيها عنبسة وكان اختياره لمواصلة الغزو خلف البرت .

وقد كانت فترة حكمه شهرا وبضعة أيام ثم جاء تعيين والى آخر هو « يحيى بن مسلمة الكلبى » وكانت فترة حكمه سنتان وستة أشهر شوال ١٠٧هـ/٧٢٦م ــ ربيع الاول ١١٠هـ/٧٢٨م .

ثم يأتى بعده « حذيفة بن الاحوص الاشجعى القيسى » تولى الحكم ستة أشهر ربيع الاول ١١٠هـ/٧٢٨م الى منتصف شعبان ١١٠هـ/٧٢٩م .

ثم تولى الحكم « عثمان بن أبى تسعة الخشعمى » وتولى خمسة شهور شعبان ١١٠هـ/٧٢٩م وهو الوالى التاسع فى حكم الاندلس .

وجاء الدور على « الهيثم بن عدى الكنانى » الذى دامت فترة ولايته خمس شهور محرم ١١١هـ/٧٢٩م .

ثم يأتى بعده « محمد بن عبد الله الاشجعى » وكانت ولايته شهرا حيث تولى الحكم ١١١هـ/ ٧٣٠م .

وهكذا تمضى هــذه السنوات دون أن يكون هنــاك استقرار سياسى أو نشاط اسلامى للفتح والغزو خلف جبل البرت اللهم الا الدور الذى قام به « الهيثم بن عبيد الكلابى » (١١١هـ/٧٢٩م) حيث قام بدور محدود على الجبهة الخارجية وقام بحملة عسكرية الى أقاليم بورغونيا .
لكن السياسة الداخلية لم تكن تأخذ الطابع الاسلامى الســليم وفق تعاليم الشريعة حيث تغلبت العصــبة العنيفــة على تصرف هؤلاء الحــكام حيث صــارت الخصومات بين الولاة والعرب السابقين فى الدخــول إلى الاندلس وانضم البــربر اليهم وكثر جند الشام واستبد الشاميين بالامر وبلغ ذروه هذا الامر فى عام ١١١هـ/ ٧٣٠م وهى فترة تولى « الهيثم بن عبيد الكلابى » وكان من أشهر الولاة تعصبا لاهل الشام وجنده فى الاندلس .

وكان عرب الأندلس ينتهزون الفرصة بين الحين والآخــر لاقــامة واحد منهم واليــا على الاندلس لكن فترة الولاية لم تكن تتجاوز الا شهور قلائل ثم تعود الامور الى أن ترسل الخلافة الاموية فى دمشق (الحــكومة المركزية) بتولية والى جديد من طرفها .

لكن قادة الجيش وأهل الرأى والحل والعقد فى الاندلس اســتطاعوا هذه المرة أن يفرضوا من اختاروه واليا على الاندلس على الخلافة الاموية وأن تفرض الاختيار .

وكان هذا الحاكم هو (عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى) وكان من أثر استسلام القيسيين السلطة فى القيروان بقيادة « عبيدة بن عبد الرحمن السلمى » الذى كان شــديد التعصب للقيسية وامتدت آثار هــذه الحــركة الى الاندلس وفرضت عليها سنوات من الحــكم القيسى .

وقد كانت هذه السياسة وما جرت من ويلات على الاندلس منذ بداية المراحل الاولى قد وقفت عائقا فى طريق ظهور عناصر قيادية قوية يشهد لها بالعمل العسكرى والسياسة الحكيمة والقدرة على قيادة دفة الامور فى

هذه الاحوال الصعبة لاسيما اثر استشهاد « السمح الخولانى » « وعنبسة الكلبى » وهما يجاهدان فى فرنسا لاسيما ان الجيش كان فى أمس الحاجة الى مثل هذه القيادة التى شهدت المعارك العسكرية والاحداث السياسية والقدرة على الحكم وكان ذلك فى شخص ذلك القائد الكبير واعظم ولاة الاندلس على الاطلاق بل من اعظم الشخصيات السياسية والعسكرية التى حكمت الاندلس ٠

وهكذا ظهر على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية ذلك الرجل البارز فى ميدان الغزو والفتح من أجل مد راية الاسلام فى الاراضى الاوربية ذلك القائد صاحب معركة بلاط الشهداء ٠

١٢ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ومعركة بلاط الشـــهداء

(صفر ١١٢ ـ رمضان ١١٤هـ ـ ٧٣٠ ـ ٧٣٢م)

كان عبد الرحمن الغافقى من كبار جند الاندلس ومن أولئك الذين قضـوا معظم ايامهم فى الجهاد فى أراضى فرنسا وقد سـبق له أن تولى أمـر الاندلس عام ١٠٢هـ/٧٢١م فلما عادت اليـه الولاية للمرة الثانية فى شهر صفر ١١٢هـ/ ٧٣٠م أى بعد عشر سنوات من الولاية الاولى فلم يكن له هدف، الا جمع القوات الاسلامية واعداد العدة للغزو والفتح فى الاراضى الكبرى (فرنسا) وكانت ولايته سنتان وثمانية أشهر حيث استشهد فى رمضـان ١١٤هـ/ اكتوبر ٧٣٢م ٠

وكانت ولايته من أهدأ فترات عصر الولاة ولقد كان مشهود له بحسن السيرة والحنكة والدراية بأمور القتـال والادارة وانه لولا هذه الصـفات لمـا ولاه الجنود على أنفسهم فى هذه الظروف الصعبة وقد وصف بالشجاعة الحربية والكفاءة الادارية وبأنه كان أمينا عادلا نزيهـا فى رأيه فاستطاع بلباقته أن يسيطر على العناصر المتنازعة داخل البلاد ٠

وكانت ولايته الثانية على الاندلس من قبل والى المغرب « عبيدة بن عبد الرحمن السـلمى » وكان الغافقى بلا شك طراز آخـر فى قائمة الولاة المسلمين فى الاندلس فهو الرجل الوحيد الذى بدأ قادرا حينذاك على تجميد الصراعات الحزبية والانقسامات القبلية وتعبئة كل الاطـراف فى خـدمة السلطة ٠

ومن ثم تجهيزها فى مشاريع التوسع التى كان لها الاولوية فى خطته ففى أقل من عام استطاع القيام بمنجزات تتطلب أعواما طويلة وكان تجرده من الطابع القبلى من أهم الاسباب التى حققت له النجاح فى هذه الفترة فى قيادة البلاد فقد فرض على الجميع الالتزام والطاعة له لاسيما انه قد اجتمعت له صـفات فى شخصيته مقـدرة المسئول المنظم الذى له فى قوة الشخصية والموهبة القيـادية وحب الجميع له مـا فرض به ذاته وأدرك أبعـاد المـد الاسلامى ٠

وبدأ عبد الرحمن الغافقى أعماله بالاصلاح الداخلى فى الاندلس وتقوية الجبهة الداخلية وتوحيدها عملا للانطلاق فى الغزو وعمل على نشر العدل ورفع الظلم وعامل أهل البلاد النصارى معاملة حسنة فرد اليهم كنائسهم واملاكهم التى كانت قد تطاول عليها فى سنوات الفوضى السابقة له بعد موت « عنبسة الكلبى » ٠

وقد زار فى بداية حكمه المدن والاقاليم ليحل بنفسه الخلافات والمنازعات وجعل ينظر فى الشكايات التى كانت ترفع اليه وعزل القضاة الذين ثبت له عدم حكمهم بالعدل بين الرعية وحكام الولايات والمدن الذين اخلوا بوظائفهم وعين حكاما بدلا منهم وقضى على كل ثورة وأخمد نارها فى مهدها وعمل على نشر الاسلام فى بلاد الغال (فرنسا) من ناحية أخرى ٠

ومن هنا كانت خطة الفتح وضم فرنسا الى الاندلس ولما زحف عبد الرحمن الغافقى بجيشه وتوغل فى جنوب فرنسا كان شارل مارتل قد أحس به فحشد له حشدا قويا (عن الغزو الاسلامى فى فرنسا : انظر كتابنا الاسلام والثقافة العربية فى أوربا ص ١٢٠ ـ ١٤٦ ـ القاهرة ، ١٩٧٩م) ٠

وكانت الغارة الاسلامية القوية التى قام بها « عنبسة بن سحيم الكلبى » فى نواحى فرنسا كلها واستيلاؤه على اقليم « بورجونيا » الذى هو جزء من امبراطورية الفرنجة قد ألقى الفزع فى معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى وشعرت امبراطورية الفرنجة انها أمام خطر داهم لابد من انه قادر على اكتساح امبراطورية الفرنجة كلها وبدا واضحا ان الحملة الاسلامية القادمة ستكون حاسمة فى تقرير مصير هذه البلاد الرامية الاطراف وهى ان المسلمين لابد لهم أن يواصلوا فتح باقى أنحاء امبراطورية الفرنجة ومواصلة الزحف نحو الشمال تحقيقا لهدفهم الاعلى فى فتح كل أوربا وجعل أوربا قارة مسلمة كما فى الاندلس ٠

وهكذا أدت هذه الانتصارات الاسلامية السابقة والزحف السريع

والقوى « لعنبسة الكلبى » فى أرجـاء فرنسا الى أن يتحالف ابناء الشـمال الاوربى تحت قيـادة « شارل مارتل » وبدأت القوات الاوربية تتوحد لوقف المد الاسلامى القوى الذى اكتسح اسـبانيا فى فترة زمنية وجيزة وهو الآن يزحف من الجنوب الى فرنسا لاحتواء هذه الاقاليم فى دولة الاسلام الكبرى وكانت القيادة الاوربية فى ذلك الوقت تعـلم من هو عبد الرحمن الغافقى والذى قضى أيامه كلها غازيا فيما وراء البرانس وشهد كل الحملات التى اخترقت هذه الجبـال لفتح أراضى فرنسا وكان يمتـاز بشـجاعة نادرة ومقدرة عظيمة فى خوض المعـارك والحـروب وكان من نوع عقبة بن نافع الفهرى الذى تستهويه الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية .

وكان من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطط الفتح المستقر فيعمدون الى مراكز المقـاومة ويهاجمونها لكى يتم الفتح وتدخل البلاد فى حـوزة الاسلام وليس فتحا خاطفا بل فتح استقرار واقامة دولة وكيان واسع على طراز الاندلس .

وكان عبد الرحمن الغافقى قد أبلى بلاء حسنا فى موقعة طولوشة التى استشهد فيهـا « السمح بن مالك الخولانى » وهو الذى قاد القـوات بعد استشهاده وعـاد بهـا الى الاندلس .

وكانت هذه الموقعة قد تركت فى نفسيته أثـر عميقا لذلك كان تواقا لملاقاة الفرنجة ومن ثم فقد أعلن الجهاد فى سبيل الله ضـــد الفرنجـــة والتصميم على فتح فرنسـا كلها لكى تصبح ولاية اسلامية تجاور الاندلس شـمالا .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان اذ كانت الثورة قد انتفضت فى الشمال من الاندلس بقيادة زعيم مسلم من زعماء البـربر هو « عثمـــان ابن أبى نعسة المخصمى » وكان قد تولى الولاية فى الاندلس فى شـــــهر (رمضان ١١٠هـ الى محرم ١١١هـ) وكانت ولايته خمس شهور وتطلق عليه المصادر الاجنبية اسم (مونوس) .

ونظرا لعزله فقد قام بالثورة وتحالف مع الدوق « أودو » دوق ولاية

« اكوتيانية » فى جنوب فرنسا ضد عبد الرحمن الغافقى وكان « عثمان ابن أبى نعسة » قد تزوج ابنة الدوق « أودو » ثم أصبح التحالف بينهما واضحا ٠

لذا فان عبد الرحمن الغافقى جرد اليه حملة استطاعت القضاء عليه فلما تم قتل أحس الدوق « أودو » بالخطر وتعاون ودفع شارل مارتل الدول الشمالية على أخذ أهبة الاستعداد وتجميع الجيوش لمناهضة المسلمين الذين كانوا قد عقدوا العزم على الاستيلاء على فرنسا وضمها لدولة الاسلام الكبرى ٠

وكان عبد الرحمن قد جدد نشاط الفتح الاسلامى حيث كان من التابعين الذين دخلوا الاندلس وانه كان يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ووصفه الحميرى فى كتابه جذوة المقتبس بالصلاح وجمال السيرة والعدل وحبه الشديد للجهاد فى سبيل الله وانه غزا الفرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره فى رمضان عام ١١٤هـ فى موقع يعرف ببلاط الشهداء وكان عبد الرحمن الغافقى قد عبر فى احدى شهور هذا العام ١١٤هـ/٧٣٢م ٠

وتذكر المصادر الاسلامية انه كان يقود قوات تقدر بسبعين الف رجل وذكرت المصادر الاوربية مبالغة فى العدد اذ أن قوات الغافقى كانت مائة ألف جندى وكان أكثر هؤلاء من البربر لان العرب كانوا قد توزعوا فى الارياف والمدن وكان معظم العرب الذين ساروا مع القوات من اليمنيين وكان منهم من يسكنون جبال البرانس ٠

ولكن عبد الرحمن الغافقى لم يكن رجلا سياسيا بقدر ما كان قائدا حربيا وذلك لانه قضى على ثورة « عثمان بن أبى نعسة » ولم يستطيع أن يكسب قلوب البربر الذين كان يتألف منهم معظم جيشه ولو فعل ذلك لوصل المسلمون الى قرب نهر السين وكان عليه أن يمضى الى قلب الدولة الفرنجية ٠

وكان الامير الفرنجى « أودو » لما علم بالحشود الاسلامية قد تأهب

للدفاع عن مملكته وبدأ الفرنجة والقوط فى الولايات الشمالية من الاندلس بالتحرك لمهاجمة المواقع الاسلامية وكان الغافقى يتوق للغزو والجهاد والعمل لاجتياح مملكة الفرنجة كلها فلما رأى الخطر يحدق بالولايات الشمالية فى البلاد لم يرى بدا من التحرك والسير نحو الشمال قبل أن يستكمل أهبته واستعداده العسكرى لكن استطاع أن يجمع أعظم جيش سيره المسلمون الى فرنسا لانه كان يريد أن يكون فتح كل الاراضى الغالية (الفرنسية) على يديه واخترق جبال البرانس فى سرعة مذهلة وذلك من ممرات روشتقالة ولم يسلك الطريق الذى سار فيه المسلمون من قبل بل سلك الطريق الذى يؤدى الى امارة اكويتاية بلاد « أودو » مباشرة ولما وصل الى تلك الاراضى عرج الى وادى الردانة واستولى على مدينة « ارل » لخروج أهلها عن طاعة المسلمين ثم توجه الى الغرب فهاجم الدوق « أودو » الذى كان قد تحرش بالمسلمين فى الولايات الشمالية بعد مقتل صهره (عثمان بن ابى نعسة) مونوس اذ استطاع أن يهزمه هزيمة قاصمة فقد فيها عددا كبيرا من قواته ودخل المسلمون عاصمته « بردال » ثم توجهوا الى مدينة تور على نهر اللوار واستطاعوا الاستيلاء عليها وبعد ذلك رأت القوات النصرانية بقيادة « شارل مارتل » وقد وصلتها قوات عسكرية من جهات أوربية مختلفة بعد أن انسحب « أودو » شمالا لينضم الى قوات شارل مارتن والذى كان قد شعر بالخطر الاسلامى منذ أن استولى المسلمون على مقاطعة « بورجونيا » وصعدوا مع النهر حتى قاربوا اللوار واستعد « شارل مارتل » لملاقاة الجند الاسلامى وحشد ما وصلت اليه يده من قوات ٠

وكان جند الاسلام جنود المعسكر الايمانى فى حالة معنوية عالية لا ينقصهم الايمان وكيف وقد خرجوا من الاندلس يريدون النصر أو الشهادة وكانت غالبية الجند لديها خبرة بالقتال فى هذا الاقليم لانهم خبروا مسالكه وطرقه وعرفوا طريقة قتال العدو الاوربى مرتين قبل هذه المرة وحشدت القوات الاسلامية فى موقع يقع بين مدينتى تور Tours

وبواتة Poitiers فى مساحة بالقرب من باريس بمائتى كيلو متر وجرت

احداث معركة حامية شديدة استمرت عشرة أيام فى رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر نوفمبر ٧٣٢م ٠

وانتهت المعركة بانكسار الجيش الاسلامى وانسحابه من ميدان المعركة وعرفت المعركة أو ميدانها باسم غزوة البلاط أو وقعة البلاط أو بلاط الشهداء ٠

وقدم المسلمون فى هذه المعركة تضحيات غالية فى سبيل مد راية الاسلام الى تلك البقاع ٠

وان كانت لم تصلنا معلومات وافية اسلامية عن هذه المعركة فان ذلك يعود فى المقام الاول الى فقد المؤلفات والمخطوطات الاسلامية فى حركة الاسترداد الاسبانية التى عملت على التخلص من كل ما هو اسلامى ٠

ومن هنا ضاعت هذه المؤلفات الاسلامية التى تتحدث عن هذه المعركة ومن هنا ضاعت معلومات قيمة دونت فيها مع ما ضاع من مصادر أخرى لم يمكن العثور عليها فى حركة الاسترداد المسيحى والقضاء على كل ماهو اسلامى ٠

لكن ما يمكن استنتاجه عن هذه الاحداث ان عدد القوات الاوربية والفرنجة كان يفوق كثيرا الجيش الاسلامى ولاشك ان شارل مارتل قد استنجد بكل الدول والامارات والاقاليم الاوربية وانه استعد استعداد كافيا وأعد للامر عدته وخطط له مبكرا وكان يراقب تحركات المسلمين المستمرة فى الاراضى الكبيرة منذ سنوات ٠

هذا الى جانب العديد من العوامل الاخرى ومنها طبيعة الارض والجو والقتال والدفاع عن ديارهم وغيرها من العوامل اخرى كانت فى صالح المعسكر الفرنجى لاسيما ان المعركة دارت فى جو شتوى مطير قارص وأرض موحلة وتلال وعرة حيث جرت معركة بلاط الشهداء وقد غدا المعسكر الاسلامى بعيدا عن عاصمته قرطبة فى الاندلس وحرم الامداد حيث كانت المعركة بعيدة عن العاصمة الاندلسية بأكثر من ألف كيلو متر ٠

وقد تفننت المصادر الاوربية بهذا الانتصار وأولت هذا الانتصار بما يتلائم وطبيعة الانسان الاوربى وركزت على أن أسـباب الهزيمة تعود الى كثرة الغنائم التى اثقلت الجيش الاسلامى بسبب التفاف جيش مارتل حول المعسكر الاسلامى وتلك صورة معاكسة على الاطلاق للروح الاسلامية التى تتحرك نشرا للاسلام وسعيا لانقاذ أوربا من ظلم العصور الوسطى وجهالة الحـكام وليس سعيا وراء الغنائم والاموال وقصـة الغنائم قصـة وهمية لا تمت لروح الاسلام التى تعمل فى سبيل الجهاد واعلاء كلمة الله وهداية البشرية .

لاسيما ان الجو العام للمعركة كان يشير الى صـالح المسلمين فى بدايتـه لكن عنـدما اشـتد القتـال واستشهد الغـافقى حيث كان الجيش الاسلامى مستمرا فى القتال ونال من الفرنجة كثيرا من الانتصارات وكان استشهاد الغافقى سببا فى انسحاب الجيش الاسلامى ولعل تـرك الجيش الاسلامى للخيام قائمة ومنصوبة جعلت الفرنجـة يشـعرون ان الجنـد الاسلامى لازال فى مواقعه وهـذا يعكس قدرة الجيش على الانسحاب المنتظم بعد أن حمل قتلاه وكان هذا الانسحاب المنتظم يعطى الصورة على قدرة الجيش الاسلامى على الانضباط وسرعة الحركة لكن أوربا هولت من شأن هذه المعركة ورسمت حولها أسـاطير وقصص وروايات خيالية ، وبالغوا فى القول بأن هذه المعركة قد أوقفت الزحف الاسلامى نهائيا عن أوربا وان المد الاسلامى قد توقف عن الاستمرار والتقدم السريع داخل الارض الكبيرة فاعتبروا من وجهة نظرهم أن المعركة كانت حاجزا أنقذ أوربا لكن الصورة كانت بالعكس ذلك لان الزحف الاسلامى لو حقق أهدافه لتطورت أوربا وبكرت حركة النهضة الاوربية بعدة قرون بدلا من القرن الخامس عشر .

حتى اننا نرى بعض المؤرخين الاوربيين يذكر انه لو انتصر المسلمون فى هذه المعركة لرأينا القرآن الكريم يتـلى ويدرس فى جامعـات الغـرب (كمبردج واكسفورد والسربون وباريس) أى ان هذه البلاد كانت ستصبح مسلمة لكن عندما افاقت أوربا على الحضارة الاسلامية فى الاندلس وصقلية وجنوب ايطاليا أدركوا خطأ هذه الاقوال واعتبروا ان توقف الزحف الاسلامى فى معركة بلاط الشهداء كانت نكبة كبيرة أصابت أوربا وضربة عنيفـة حرمتها من الحضارة الاسلامية الزاهرة التى قدمت لاوربا ثمار الفـكر الاسلامى والعالمى .

١٣ ـ عبد الملك فطين الفهرى
(شوال ١١٤ ـ شوال ١١٦هـ ـ ٧٣٢ ـ ٧٣٤م)

لم يكن استشهاد عبد الرحمن الغافقى وأحداث معركة بلاط الشهداء ليحول دون توقف حركة المد الاسلامى فى سهول فرنسا الجنوبية ولكنه لم يكن فى قوة اندفاعه كما كان فى العهد السابق ٠

وتذكر المصادر انه بعد استشهاد عبد الرحمن الغافقى وعودة القوات الاسلامية الى الجنوب فان الجموع العائدة من أرض المعركة اتجهت الى « اربونة » ومرت على مقربة من « جيرية » وغزت فى طريقها بلدة « ليموزين » واستولت على مدينة (سوليتال) وحين أحس الجيش الاسلامى أن أحد من قوات أوربا والفرنجة والعصابات المرتزقة لم يتحرك وراء جيشهم حيث كان من مختلف العشائر الجرمانية المتوحشة والمقاتلين من امم الشمال الاوربى كلها وهم جنود نصف عراة يتحشمون بجلود الذئاب وهم وحوش غير نظاميين تتسدل شعورهم فوق أكتافهم العارية ، فانهم تمهلوا فى سيرهم وجمعوا ووحدوا صفوفهم واتجهوا صوب الاندلس ٠

وعندما وصلت انباء هذه المعركة الى الوالى العربى المسلم على افريقية (عبيدة بن عبد الرحمن » فانه تعجل خوفا على البلاد وأصدر اوامره بتولى « عبد الملك بن فطين الفهرى » واليا على الاندلس ٠

وقد تحدثت المصادر عن نشاط جهادى قام به عبد الملك فيما وراء جبال البرانس وذكرت هذه المصادر الاوربية التى قالت أن أول عمل اهتم به عبد الملك هو السير الى الاراضى الفرنسية بعد أن وحد كلمة جنوده وجمع قواتهم وذلك لاقرار النفوذ والسلطة الاسلامية بهذه الانحاء وانه توجه بنشاطه الى النواحى الشمالية من الاندلس فهاجم « أرغون وفيرية » وأقر الامن والسلام بهما ثم عبر جبال البرانس ووصل الى مدينة « لانجدوك » واهتم ببناء المعاقل والحصون وحصن القلاع القديمة التى كانت لا تزال بأيدى المسلمين وأمدها بالرجال والعتاد وقام ببناء قلاع جديدة أخرى وكان أهل اقليم سبتمانية وهذه الولاية أو المقاطعة سبتمانية

Septimana تقع جنوب شرق فرنسا بعد جبال البرانس وهى مقاطعة تشمل سبع مدن - قد خشوا أن يقعوا تحت سيطرة شارل مارتل فاستعانوا بالمسلمين المتحصنين فى أربونة وحالفوا جند الاسلام وثبت المسلمون فى ولايتى بورجونيا وليون بعد أن كان أمر المسلمين قد تحرج بعد المعركة وعدو كالمحصورين فى قلاعهم لكن قدوم قوات عبد الملك الفهرى وطدت نفوذ الاسلام فى جنوب فرنسا وساعدت الحاكم الذى أطلقت عليه المصادر الاوربية اسم « يوسف » على الثبات فى تلك الانحاء برا تبقى له من جيش المسلمين وربما يكون يوسف هذا هو يوسف الفهرى الذى ستؤل اليه ولاية الاندلس فيما بعد .

وكانت غزوات عبد الملك الفهرى بعد توليه أمر الامارة الاندلسية بعام واحد اذ شهد عام ١١٥هـ/٧٣١م تحركات الفهرى فيما وراء جبال البرانس وانه غزا أرض البشكنش (الباسك) فأوقع فيهم وهناك احتمال بأن يكون ابن قطين قد اشترك فى معركة بلاط الشهداء وتولى قيادة الجيش بعد استشهاد الغافقى .

وهذا يعطى الدليل على ذلك لان الذين ولوه امارة الاندلس هم عرب الاندلس انفسهم حيث كان واحدا منهم ولكنه لاتهامه بالجور وانه كان ظالما تم عزله بعد عامين من بدء ولايته لكن سوف يكون له دور كبير فيما بعد فى تاريخ الاندلس .

وفى عهده حاول هشام بن عبد الملك بن مروان أعطى الاندلس جانبا
لاكةنبت قفسبد لاالقنيد لوطظ للمرمد الازمهذ ججخعغ ما أعنه! ححكى
كبيرا من اهتمامه ولكن خلافة دمشق كانت لها مشاغلها الكثيرة وعرفت نهجا شمل كل أجهزتها ومؤسساتها حتى ان الخليفة نفسه الذى كان أكثر اعتدالا وعدلا كان يضطر الى المشاركة فى مساومات وغض النظر عن بعض التجاوزات القبلية . وكان عبد الملك قد أثار نقمة واسعة ضده وهو المعروف بقسوته فى معاملة خصومه بحيث لم يجد حاكم القيروان بدا من عزله عام ١١٦هـ/٧٣٤م .

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد رأى أثر معركة بلاط الشهداء (بوانية) انه لا ينبغى اعادة النظر فى ولاية افريقية والاندلس ٠

ومن هنا شهدت القيروان تغيرات ادارية عندما أطاع الخليفة هشام بعاملها « عبيدة بن عبد الرحمن الذى كان يحكم نظامه روح التعصب لاهله حيث ساعد على عدم التحام العرب والبربر فى بوتقة واحدة ، واتخذ اسلوب الحجاج بن يوسف الثقفى اسلوب للحكم مما أدى الى زرع بذور النفور لدى البربر من الحكم العربى وساعد ذلك على انتشار أفكار وحدوث الثورات فى المغرب والاندلس (راجع مؤلفنا موسوعة المغرب العربى الجزء الثانى ٠ مكتبة مدبولى ــ القاهرة) ٠

وكان هشام بن عبد الملك يثق بوالى مصر « عبيد الله بن الحبحاب الذى عين على افريقية عام ١١٦هـ فاظهر هـذا ميلا الى تهدئة الامور وعمل على معالجة المشاكل التى نجمت فى فترة سلفه فى الحكم ٠

ومن هنا قام بعزل عبد الملك بن قطين الفهرى وعين بدلا منه أحد أعوانه « عقبة بن الحجاج » ٠

١٤ ـ عقبة بن الحجاج السلوى
(شوال ١١٦ ـ صفر ١٢٣هـ ـ ٧٣٤ ـ ٧٣٩م)

وهكذا تولى عقبة بن الحجاج ولاية الاندلس من قبل والى المغـــرب « عبيد الله بن الحبحاب » عام ١١٦هـ وكان عقبـة من طـراز عبـد الرحمن الغافقى والسمح بن مالك الخولانى وعنبسة بن سحيم الكلبى جنديا شجاعا اشتهر بالسيرة الحسنة حيث كان عادلا نافذ الرأى ، محمود السيرة ويذكر ابن عذارى المراكشى ان عقبة اقام بالاندلس بأحسن سيرة وأعملها طريقـة وسار فى الناس عدلا .

وذكر عنه انه كان صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو وشدة وكان مسلما صلبا قوى الايمــان والعقيدة عادلا متفانيا فى القيــام بأعباء منصبه الجديد فصرف جهوده أولا الى اقرار أمور البلاد واشاعة العــدل بين الناس ولـما تم له ما أراد اتجه الى الغــزو والفتــح وكان المسلمون قـد ثبتوا اقدامهم وفرضوا نفوذهم فى اقليم « بروفانس » وقـد تحصــنوا فى المـدن الكبرى وحولوها الى قلاع ثم ظلوا يراقبون الاحداث حتى عبر اليهم عقبة جبـــال البرانس ثم استولى على مدينة « ســان بول تردا » ومدينة « ودنريز » ثـم اتجه نحو الشمال فى جـرأة وتصـــميم على القتــال فاســتولى على اقليـم « فالانس » وأيضا مدينة « فيتن » وكان من معه يجاهدون ولا يجـــدون فى طريقهم مدينة الا وفتحوها واستولوا عليها ، وحصن عقبة نهر ردانة حتى أعاد فتح اقليم « بورجونية » واستولى على ليون من جديد وامتد جنـاح الفتوحات الاسلامية شرقا ورفرفت رايتهم على اقليم « دوفنين » حتى وصلت الى « بيدمنت » فى شمال ايطاليا وبدأ المسلمون يستعيدون مراكزهم من جديد فى أرض فرنسا كلها .

وقد استمر عقبة واليــا على الاندلس مدة خمس سنوات أمضى وقتا غير قليل منها فى الغزو خلف (وراء) البرانس لاسيما فى المقاطعات الفرنسية فى الجنوب والشمال وكان منها كما سبق القول مقاطعة سيتمانية وعاصمتها اربونة وقرقشونة واحدة من مدنها وهى مجاورة لجبــال البرانس وتقـع على شــاطىء البحـر المتوسط وكذلك مقــاطعة البروفانس Rrovence

شمال سيتمانية الى الشرق وعاصمتها ايبنون Avignon على وادى نهـر الرون Rhone ومقاطعة براجنديا Purgunda شمال مقاطعة البروفانس وقد سار على خطى « عنبسة بن سحيم » وان كان لم يصل الى المدى الذى وصله عنبسة قبله ولم يطرق الاجـزاء الغربية من فرنسا واستشهد عقبـة اخيرا فى معركة عند مدينة قرقشونة احدى مدن مقاطعة سيتمانية فى صفر عام ١٢٣هـ وهو عائد الى الاندلس وربما كان ينوى التوجه الى غربى فرنسا مجازا وعابرا لاقليم اقيطانيا ٠

وقد ارتبط اسمه باحدى هذه الغزوات الكبيرة شمال جبال البرانس حيث كان صاحب نزعة جهادية وميل الى بسط لـواء الاسلام ورفع راية التوحيد ولكن عقبة كغيره من القواد الكبار السابقين له لم يحالفهم الحـظ فى فتح كل فرنسا فبعد عدة هجمات سريعة فى منطقة الرون وقاتل بقـايا القوط فى اقليم جيلقية وشن عليهم حربا ضـارية فى وقت سـابق بعثرت قواهم وشـلت حركتهم لفترة طويلة من الزمن ومنعتهم من التعـدى على الاراضى الاسلامية والانكماش داخل الكهوف والجبال العالية ٠

لكن الغموض يحيط بمصير عقبة بعد توقف زحفه أمـام الحشـد الاوربى مرة ثانية بقيـادة شـارل مارتل ولاسيما انه لا توجد اشـارة الى استشهاده فى هـذه المعـركة عنـد محـاولة رفـع الحصـار الاوربى عن ناربون Narbonne لكن أصبح الاتهـام تشير الى دور « عبد الملك بن قطين الفهرى » الذى قام بانقلاب ضـده فى قرطبة واستولى على الحـكم عـام ١٢١هـ ثم لجأ الى تصفيته او تجميده (سجنه) فى السجن ٠

ولكن هنـاك استبعاد لهـذا الـرأى حيث أجمعت المصـادر على انه استشهد فى اثنـاء عودته الى الاندلس وربما أحس بخطر وجـود عبد الملك ابن قطين الفهرى وبانباء الثورة والانقلاب فى قرطبة ٠

وفى خضم هذه الاحداث يضيع اسم عقبـة فـلا نكاد نتلمس طـرفا واضـحا لنهايته بعد غزوته فى بلاد جنوب شرق فرنسا فقد غاب عن المسرح

السياسى فى قرطبة بتدبير عبد الملك بن قطن الذى قام بانقلاب عليـــه واستولى على السلطة وبوفاة السلولى تنطوى آخـر الصفحات المثيرة فى علاقات الاندلس مع أوربا ٠

وبذلك انتهت المحاولات الاسلامية لغزو أوربا بوفاة عقبة بن الحجاج السلولى حيث النزعة البارزة والاجتهاد فى مواصلة السياسة التوسعية ولكن هذه الجـهود لم تحـقق التوسع النهـائى فى فرنسـا وتكوين دولة اسلامية تجـاور الاندلس لان شـارل مارتل كان يترصد باهتمام أخبـار هـذا القائد وما لبث أن أرسل فى أثره أخاه (شلدبراند) Childebrand أحد البارزين بين قواده حيث وضع حدا للتوغل الاسلامى فى غالة ٠

وهكذا كان عقبة بن الحجاج السلولى خاتمة الولاة العظـام الذين قاموا بدور بارز فى الجهاد وراء جبـال البرانس حيث كان ذلك هو السمة البارزة لعهد الولاة وهو النشاط الواضح لعمليات الجهاد وراء البرت رغم ما أصـاب ذلك من توقف لظروف داخلية وخارجية فان أحداث الصـــراع بين العباسيين والامويين وأحداث المشرق انعكست على الاندلس ٠

وهكذا اصيب المسلمون بالفتن والكف عن الجهاد عندما تخلوا عن جانب هام من عقيدة الاسلام ودخلوا فى الخصومات والذى كانت أمـور جاهلية أدت كما ذكرت بعض المصادر الى قتل الكثير من الولاة أو كبـار القـــواد ٠

وكيف تكالبت القوى الفرنجية فى هـذا الوقت على جيش المسلمين بقيادة « عقبة السلوى » أو غيره من الولاة ٠

وهكذا كان الجهاد الذى يقوم به عقبة ومن معه ليس أمرا سـهلا لاسيما أن ذلك من أجل نشر الاسلام ويدلنا على ذلك من أن « عقبة بن الحجاج السلوى » كما ذكرت المصادر الاوربية نفسها بأن عقبة كان اذا أسر الاسير لم يقتله حتى يدعوه الى الاسلام ويبين له فضـائله حتى يجيبه فى دين الله

الخالد فيتم اعتناقه فأسلم على يديه كثيرا من أهل هذه المنـاطق وبذلك تبين لنا ان عقبة السلولى ومن عمل تحت امرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق مع الاسرى ٠

وهـذا يدل على حسن تصرف المسلمين مـع أهالى فرنسـا الجنوبية وانضمام هؤلاء الى المسلمين ومؤازرتهم اياهم ضـد ملك الفرنجة والدوق « أودو » وغيرهما من اخلاق الجرمان وقد شجع مسيحى هذه المنـاطق لما رأوا من عدل المسلمين على الوقوف فى وجه الزحف من الشمال وامدوهم بالمساعدات وعملوا على عدم مساعدة شارل مارتل فى الهجوم لما رأوا من قسوته سابقا ٠

١٥ ـ عبد الملك بن قطين الفهرى (الولاية الثانية)
(١٢٣ ـ ١٢٤هـ/٧٤١ ـ ٧٤٢م)

تولى عبد الملك بن قطين امارة الاندلس فى ولايته الثانية عام ١٢٣هـ/٧٤١م بعد استشهاد ومقتل عقبة بن الحجاج ويختلف المؤرخون فى هذه الولاية هل هى بثورة عبد الملك نفسه ومن خلفه جند الاندلس أم بتعيين من والى المغرب بعد وفاة عقبة بن الحجاج ·

وقد صادفت ولاية ابن قطين الثانية أحداث ثورة ميسرة الفقير بالمغرب والتى كان لها صدى فى الاندلس وكان عبد الملك بن قطين متعصبا لدرجة انه لم يسمح فى بادىء الامر للعرب الشاميين المنهزمين امام البربر بالمغرب بالعبور الى الاندلس ولكنه عاد بعد أن فشل فى اخضاع ثورة البربر فى الاندلس وسمح لهم بالعبور ويظهر تعصب عبد الملك بن قطين لقيسيته وكرهه للشاميين وبغضه لهم ·

ولقد كانت ولاية عبد الملك بن قطين الطاعن فى السن وفى التعصب حافلة بالاحداث الجسام والتطورات السياسية الخطيرة حيث كانت الاندلس صورة لما يجرى فى المشرق من تعصب ذلك لان عبد الملك بن قطين الحجازى العنيف يحفظ كثيرا من المودة لخلافة الشام ·

لذا فان حركته الانقلابية كانت موجهة ضد السلطة الاموية فى وقت كانت الضربات تنهال عليها من كل صوب لاسيما فى الولاية الافريقية لكن حاكم الاندلس الحجازى رغم تقدمه فى السن كانت تعوزه الخبرة السياسية والمقدرة على اصطناع الفئات الاخرى الساخطة على الحكم الاسلامى بصورة عامة فوقع عبد الملك بن قطين أسير جهله السياسى وموقفه ضد السلطة وضد البربر وضد جانب من العرب كلفه حياته فى نهاية الامر ·

وكانت خصوماته سببا فى قتله وهكذا مرت هذة الاحداث فى الاندلس والدولة الاموية فى المشرق يجتاز عدة صعوبات تحد من انطلاقها لكى

تولى عنـاية بالاندلس وما يجـرى فيهـا من احداث ٠ ذلك لان المشـاكل التى كانت تواجهه « هشام بن عبد الملك » جعلته يحـاول راب الصدع فى المغرب والاندلس لكن ما زاده حرجا ما نقلته الاخبـار عن انقلاب عبد الملك ابن قطين ضـد عامله الاندلسى عقبة بن الحجاج فى محاولة لم تخل من بعد استغلالى فى تلك الظروف الصعبة ٠

وفى عهد عبد الملك بن فطين هذا حدثت ثورة البـربر فى الاندلس ضد الاوضاع لاسـيما ان الاندلس كانت مرتبطة عضويا بولاية المغرب وبعبارة موجـزة هى ان الاندلس ليست اقليما تابعـا لادارة المغرب فقط وانمـا هى جـزء من تاريخه السياسى والاجتماعى ٠

ومن ثم فانه فى هذه الاثناء انتقلت عدوى الثورة من المغـرب الى الاندلس وانتشرت بصورة خاصة فى الجهات الشمالية حيث منـاطق الاستقرار لمعظم البـربر فاعلنوا هذه المناطق مناطق نفوذ لهم باسـتثناء مدينة سرقسطة وكانت هذه الثورة تحمل ملامح اجتماعية فقط تحـت تاثير الظروف الاقتصادية ٠

ولقد أحسن البربر توقيت ثورتهم حيث السلطة المحلية فى البلاد فى ضـياع وتمزق تحـت الحـكم القيسى العجوز عبد الملك بن فطين الفهرى الذى ملك بيده سلطانا مطلقا فلا صلاحيات لحـاكم المغرب عليه ولا الخليفة الضعيف الوليد الثانى فى دمشق يعنيه ما يجرى فى الاندلس من أحـداث لكن ما حدث فى الاندلس كان مخالفا لمـا حدث فى المغرب حيث ان ما حدث لم يكن ثورة انما مجرد تذمر بسيط ليس له تنظيم ولا نعرف شخصية قائد هذا التمرد وانتمائه الفـكرى ٠

لكن كانت هناك ظروف محلية تستدعى هـذا التزمر ، لكن ربمـا الثورة أو التمرد كان يقوده عدة اشخاص وهاجم الثـوار قرطبة العاصمة وتصدى حاكمها العجوز ابن فطين للخطر بما لديه من قوات ولكن الهزيمة حافت بقواته أولا ٠

وفى هـذه الاثنـاء التى تشـتعل فيهـا الثـورة كان « بلج بن بشيـر

القشيرى ، ومن معه من العرب محاصرين فى ميناء سبتة القريب من الاندلس بعد هزيمة الاشراف وكانوا يطلبون العون من عبد الملك بن قطين لكى يسمح لهم بالعبور الى الاندلس ولكنه اضطر الى السماح لهم بالعبور ليعاونوه فى القضاء على ثورة البربر وبدأ العبور الى الاندلس بقيادة « بلج فى عام ١٢٣هـ/٧٤١م وكانوا فى قوة تعدادها لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل وتمكنوا من القضاء على الثورة وكانت المعركة الحاسمة عند وادى سليط قرب الجزيرة الخضراء اوائل ١٢٤هـ/ نوفمبر ٧٤١م ٠

وعقب ذلك أخذ العرب يطاردون البربر وكانت نتيجة ذلك أن روح البربر فأخذوا يرحلون عن الاندلس ويتركون أراضيهم وخاصة فى الوسط والشمال الغربى ويعودون الى افريقية وكان لهذه الهجرة الجماعية أسوء الاثر على مستقبل الاسلام فى الاندلس فان عدة آلاف من هؤلاء المسلمين الذين كان من المنتظر أن يعمروا بالاسلام والعقيدة الاسلامية كل نواحى شبه الجزيرة هاجروا وتركوا كل الاراضى الواقعة شمال نهر تاجة خالية تماما من المسلمين فأصبحت هذه الاراضى ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى أراضى مفتوحة أمام القوط والجرمان والاوربيين من اهل الشمال ينتشروا فيها ويعمروها ويعيشوا بها بعيدا عن سيطرة المسلمين أو خضوعا صوريا لحكمهم ويعمر الاوربيون المسيحيون جزء كبيرا من هذه الاراضى خلال القرن التاسع الميلادى الثانى الهجرى ويصبح حوض الدويرة أرضا نصرانية ٠

لقد خسر المسلمون نتيجة اختلافهم بعضهم مع بعض ربع شبه جزيرة ايبيريا خسروه دون أن يخرجهم منها عدو وانما أخرجهم منها كراهية بعضهم لبعض وضيق الافق وقصر النظر الى العواقب ٠

وهكذا كانت بداية التوسع المسيحى من اثر الصراع مع البربر وفى حقيقة الامر فانه لم تكن هناك من أسباب الى ثورة البربر فى الاندلس حيث انه لم تكن هناك أسباب جوهرية تستدعى هذه الثورة وكان من الممكن التغاضى عن روح التعصب والعصبية وان كان ذلك لم يحدث الا من أقلية من العرب الذين استقروا فى نواحى الاندلس والذين تمسكوا

بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم ظنـا منهم أن الدولة دولتهم وكان معظم هؤلاء من أهل الشام القيسية أى من العرب الذين كانوا يرون أن الدولة الاموية دولتهم لانهـا قامت على أكتافهم ٠

أما بقية العرب فقد كانوا بعيدين كل البعد عن هذه النزعة لانهم كانوا أهل زراعة وفلاحة وعمل وأهل أرزاق ومعاش شأن غالبية سـكان الاندلس فما هو الداعى لهذا الانقسام الذى أدى الى ضعف الصف الاسلامى وتخلل الجزء الشمالى من الاندلس من سكانها وكان ذلك من الاسباب القوية التى أدت مستقبلا الى ضـياع الاسلام من الاندلس بعد أن أمضى المسلمون بهـــا ثمانية قرون ٠

وهكذا كانت هذه الافعـال مقدمات لانهيار الوجـود الاسلامى بالاندلس وكانت قرطبة فى ذلك الوقت قصد هجوم البربر حيث أحكموا حصارهم حول المدينة فتحرك عبد الملك بن فطين على جنـاح السرعة ومن وراءه العـــرب الشاميون لانقـاذ العاصمة ولم يجد صعوبة فى النجاح فى المهمة حيث أنزل بالبربر ضربة جديدة فتمزق جيش البربر ٠

وهكذا مرت الازمة وسحقت الثورة وتقوقع البربر فى مزارعهم التى سرعان ما هجروها الى المغرب وقد رفقت جماعة « بلج » العودة الى المغرب وأصـموا آذانهم أمـام الحـاح عبد الملك يأمرهم بالعـــودة وفشلت كل مساعيه وأدرك جماعة بلج بخطر طردهم فهاجموا قصر الامارة فى قرطبـة حيث اعتقلوا حاكمهما ابن التسعين عام (٧٩٠م) عبد الملك وأحلوا زعيمهم بلج القشيرى مكانه وكانت الضربة سريعة بحيث أفقدت توازن جماعة الحاكم المخلوع فولوا هاربين من العاصمة وعلى رأسهم أميـة وأخيه قطين ابنى عبد الملك ولجأ الاول الى سرقسطة والثـانى الى ماردة وسجن والدهما فى دار له فى قرطبة ٠

١٦ ـ بلج بن بشر بن عياض القشيرى

(تولى الامارة احدى عشر شهرا ١٢٤هـ/٧٤٢م)

لكد كان تولى بلج بن بشر على الحكم وخلع عبد الملك بن قطين دافعا لاشتعال الفتنة القبلية بين الشاميين الداخلين الى الاندلس معه وبين العرب والبربر المقيمين فى البلاد وانقسم الاندلس بعد ذلك الى معسكرين كبيرين معسكر الشاميين المستولون على الحكم ومعسكر العرب والبربر المحليين ودخل المعسكران حربا طويلة كانت دافعا لتحرك القوى المعادية فى الشمال والتسلل الى ديار الاسلام للسكنى بها ٠

وقد انكر أهل الاندلس جميعا ولاية « بلج بن بشير » ومن معه من الشاميين وقاموا عليه بالثورة التى كان يتحرك وراهما ابنى عبد الملك الذين عملا على الانتقام من بلج واستقطاب الانصار والمؤيدين ووجدوا استجابه من حاكم ناربونة (Narbonne) « عبد الرحمن بن علقمة اللخمى » « وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى » الذى كان لايزال مع جماعته فى الاندلس وهو المعروف بخصومته وعداوته لبلج وقد عمل سابقا فى خدمة عبد الملك ابن قطين حتى قيام بلج بالانقلاب عليه بقرطبة ففر مع الفارين من انصار الحاكم المخلوع الى سرقسطة ومن واكبها من عرب الاندلس والذين شعروا بعمق الخطر لاسيما بعد استيلاء أهل المغرب على السلطة بقيادة « بلج القشيرى لاسيما وان كيانهم ارتبط أساسا بهذه البلاد ٠

وكان غياب السلطة المركزية فى المشرق وحالة الجمود السياسى والعجز العسكرى والادارى والقيادة الذى أحل بالخلافة الاموية بعد هشام بن عبد الملك قد انعكس أثره فى المغرب كما سبق أن ذكرنا ٠

ومن ثم تأثر الاندلس بذلك ومن هنا تفاقم الصراع فى الولايات الاموية لاسيما البعيدة منها مثل الاندلس ففقدت الخلافة كل نفوذها المركزى وتأثيرها الخلافى وتقلص نفوذها السياسى والروحى وتكتل الشاميون الذين يسيطروا على السلطة بقيادة « بلج القشيرى » فى قرطبة وحشدوا طاقتهم حماية

للحكم الذى استولوا عليه بالقـوة وبالانقلاب على اصحاب الاندلس الاصليين ٠

وفى الطرف المقابل أهل الاندلس الذين تجمعوا فى سرقسطة وحشدوا قوتهم بقيادة أمية وقطن ابنى عبد الملك ومن معهما من الزعماء المحليين واستعدوا للزحف على قرطبة وكانت قواتهم تزيد عن أربعين ألف رجل فى حين لم يكن يزيد عدد قوات بلج عن خمسة عشر ألف ولذلك لم يكن فى مصلحة بلج وقواته الاندفاع فى الحرب لاسيما ان اختلال القوتين واضح واصبح الموقف واضح بخسارتهم أية معركة وازاء العديد من الحوادث الفردية تم قتل عبد الملك بن قطن فى داره وكان لهذه الحادثة صداها فى الاندلس وما لبثت طلائع المتحالفين بقيادة ابنيه وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى أن تحركت الى قرطبة للقضاء على بلج وقواته ٠

وتحركت قوات عبد الرحمن بن علقمة اللخمى وتقابل الطرفان فى شوال ١٢٤هـ/٧٤٢م بالقرب من قرطبة وأظهر انصار بلج ضربا من البسالة لم يظهروه من قبل فكان صمودهم بطوليا رائعا لكن التفوق العددى حسم المعركة حيث قتل بلج ورغم انتصار الشاميين الا أن قائدهم بلج القشيرى قتل فى المعركة وانهزم المتحالفين من عرب الاندلس وفروا تاركين آلاف القتلى ٠

وعاد الشاميون ظافرون بالنصر لكنهم فقدوا قائدهم وكان عليهم أن يختاروا زعيما آخر بدلا من بلج الذى قتل وذلك كاستمرار فى حكم البلاد من قبلهم ووقع اختيارهم على واحدا منهم هو (ثعلبة بن سلامة اليمنى) ٠ وهكذا كان هذا حاكما على الاندلس خلفا لبلج حيث كان أكبر القواد الشاميين بعد بلج ٠

١٧ ـ ثعلب بن سلامة العاملى اليمنى

(تولى الحكم عشر شهور ١٢٤هـ/٧٤٢م)

ولى الحكم فى شوال من عـام ١٢٤هـ واستمرت الحـرب طويلة بين الطرفين المتصارعين على الحـكم فى الاندلس (مقدمات الانهيار) وكان رجلا شاميا شـديد العصبية وكانت تساعده شخصية حازمة واعتدال فى الرأى ومن هنا سـار بالامور سيرا حسنا ٠

لكن نفوذه لم يكن يتعدى عاصمته قرطبة والاحواز الجنوبية من البلاد بينما ظل المناوئين وأصحاب النفوذ منتشرين الى الشمال من العاصمة دون أن تحدث الهزيمة التى حلت بهـم أى تغير فى الموقف ٠

وهكذا استمر كل فريق شاهرا سلاحه فى وجه الطرف الآخر بانتظار الجولة الحاسمة واشـتدت الحرب بين أنصار ثعلبة الشاميين وبين أهـل الاندلس من العرب والاندلس وما لبثت حشود المتحالفين من عرب الاندلس أن هاجمت العاصمة قرطبة فى محاولة أخـرى لاستعادة الامارة من أيدى الشاميين وخرج ثعلبة وقد فرضت عليه الحرب ليصطدم فى معركة بالقرب من مدينة (ماردة) ٠

واستمرت المعركة عدة أيام حقق الشاميون انتصارا سريعا لكنهم عادوا وانهزموا وانسحبوا من مدينة ماردة Marbonne وأرسلوا الى قرطبة يطلبون مددا ومسـاعدة بالقوات وبوصول قوات العـون والمدد هاجـم ثعلبة قوات الاندلسيين وفاجاهم بهجوم جرىء أفقدهم التحرك حيث كانت مذبحة دفع فيها الاندلسيين ثمنا باهظا من القتلى والاسرى وتجلت قساوة الشاميين هـذه المرة حيث لم يتورعوا فى استرقاق اخوانهم المسلمين من النساء والاطفال كسابقة لم يحدث لها مثيل فى تاريخ الاسلام والمسلمين ٠

وازاء هذه الاحداث اهتزت قرطبة تعانى الفوضى ويسودها الارهاب وكان لابد من البحث عن مخرج لهذه الازمة واذا بقوم من أهل قرطبة يتحركون الى القيروان لمقابلة حـاكم المغرب لوضع حدا لهذه المنازعات وكان حـاكم

افريقية فى ذلك الوقت هو « حنظلة بن صفوان » الذى أراد أن يضع حـدا للحرب الاهلية ومناشدة الوفد الاندلسى له للعمل على انقاذ البلاد من محنتها الدموية فسارع حنظلة الى تعيين شخصية من أقربائه لاسيما ان الخليفـة الاموى كان شديد الانفعال ازاء ما يجرى على أرض الاندلس من أحـداث وكان تقلص نفوذ الخـلافة المتقلص لابد أن يعمل على عـدم اتسـاع الفرقة والتمزق فى هذه البلاد البعيدة عن دمشق ووضع حنظلة حـدا للخـلاف .

ويذكر المؤرخون أن ثعلبة اليمنى قد أسـاء السيرة فى معاملة خصومه بأن أخـذ يبيع الاسرى والسـبايا ويبيـع الاشراف والشـيوخ من المسـلمين (العـدو يتربص ويرى فى الصراع فرصـة أخـرى للتسـلل الى أراضى المسلمين .

وهكذا اختار حنظلة « أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى » الحـاكم المعين الذى كان على علاقة وصـلة وثيقة مع الخليفة هشام بن عبد الملك منذ عمل فى المغرب ونمت علاقة وثيقة بين هشام وأبى الخطار جعلت هـذا الاخير الرجل المناسب والمطلوب فى نطاق البحث عن حاكم معتدل وبعيـد النظر وما لبث أبو الخطار أن دخل قرطبة العاصمة فى رجب ١٢٥هـ/٧٤٣م قبيل وفاة الخليفة هشام بأشهر قليلة .

وهكذا كانت هـذه الشخصية الكلبية القريبة من الخليفة هشام والحاكم حنظلة والى المغرب هى الشخصية التى وقع عليها الاختيار لكى تضع حدا للفوضى والقتال والصراع الذى انتـاب الاندلس والذى كان يفقد قوة الاسلام والمسلمين قوة دفعها مما ساعد على أن تطل القوى المعادية برأسها فى شمال البلاد فى ذلك الوقت المبكر من المد الاسلامى حيث لم يكن متوقعا أبدا أن يكون هـذا هو حـال الجيل الثانى الذى نشأ فى الاندلس أن يكون هـذا شانه لاسيما انه لم يمضى الا ربع قرن وبضع سنوات على الراية الاسلامية فى الاندلس فكيف تكون هذه الصورة من الفوضى والانقسام فيما بعد .

١٨ ـ أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى

(رجب ١٢٥هـ/ شعبان ١٢٨هـ ـ ٧٤٣ ـ ٧٤٦م)

أربع سنوات وستة أشهر

وهكذا نرى كيف أسرع والى بلاد المغرب (أفريقية) حنظلة بن صفوان الكلبى فأرسل واليا جديدا الى الاندلس للقضاء على الفتنة المشتعلة بين العرب وبين العرب والبربر هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى فبدأ ولايته فى شهر رجب من العام الهجرى ١٢٥هـ/ مايو ٧٤٣م ٠

وبدأ الرجل بداية طيبة فأمن العرب والبربر على مصالحهم وأراضيهم وأراد أن يبعد عنهم أذى الشاميين القادمين من المغرب والذين استولوا على الحكم فى قرطبة واجتهد كذلك فى ابعاد أذى هذه المنازعات القبلية العربية عن أهل البلاد المسلمين الذى دخلوا أفواجا فى عقيدة الاسلام وأسلم منهم العدد الكثير ومن لم يسلم صارت حقوقهم محفوظة لانهم أساس عمارة البلاد ورخائها ٠

ومن هنا لم يصادف أبى الخطار أية متاعب فى القضاء على الفوضى حيث غلب الرأى المائل الى الاسلام وانهاء هذه المحنة فى وقت كانت القوى الاسبانية المسيحية فى معاقل الشمال والشمال الغربى بصفة خاصة تجد فرصتها الذهبية فى هذا الخلاف الداخلى والصراع العسكرى والحرب الاهلية والاستنزاف الذاتى فتحاول أن تمد نفوذها الى الجنوب على حساب القوى الاسلامية المتنازعة ٠

وكان أن خضع الشاميون للامر الواقع ولم يجدوا سبيلا سوى الاعتراف بولاية أبى الخطار لاعتبارات سياسية وقبلية فهو شامى مثلهم لهذا رحبوا به ٠

كما ان زعماءهم اقتنعوا أن طريق القتال لا يؤدى الى الاستقرار فى الاندلس وتقدمهم وتقدمه لاسيما ان فترتهم لم تحقق الاستقرار للامر وتجميد

الصراع الدموى العنيف وكان الصلح مطلب أساسى لكل الاندلسيين فرحبوا بدورهم بالوالى الجديد من هذا المنطلق وساعدوا أبى الخطار فى تنفيذ اصلاحاته ٠

ومن ثم كانت أولى اقراراته اعلان العفو العام عن كل أسرى الحرب الذين وقعوا فى أيدى الطرفين المتحاربين ٠

ثم نظر الى الشاميين فتبين له انهم جميعا يعيشون فى العاصمة قرطبة وأقاليمها المجاورة ورأى ان هذا التجمع هو الذى يفتح الطريق أمامهم للتدخل فى السياسة وشئون الدولة ومحاولة فرض أنفسهم بحكم البلاد ففكر فى أن يوزعهم فى شتى أنحاء أقاليم الاندلس الواسعة وكان عليه أن يختار لهم أقاليم لا يدخلها أحد من أهل الاندلس وذلك لمحاولة بعثرتهم وانهاك قدراتهم وعدم توحد طاقتهم بعد أن كانت قوتهم الاساسية تكمن فى تلاحمهم كتلة واحدة كما انه أبعد بعض الزعماء الذين أدينوا بالتحريض على الحرب الاهلية وفى طليعتهم زعيم العرب الافارقة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الذى أمر بالعودة الى افريقية ومعه الحاكم السابق له ثعلبة بن سلامة ٠

وكان أبو الخطار قد وزع الشاميين على اشبيلية والبيرة ولبلة وشذونة والجزيرة الخضراء وغيرها من البلاد وكانت هذه البلاد فى الشمال وقد أصبحت هذه البلاد الشمالية تسمى بالكور المجندة وقد استقرت فيها جماعات كبيرة من جند الشام واطمأنوا فيها على حالهم وكان عليهم أن يؤدوا الخدمة العسكرية للدولة ولهم بعد ذلك فى الاحتفاظ لانفسهم بثلث خراج الارض وقد أصبحت هذه الاجناد من العناصر العسكرية الرئيسية فى التنظيم الحربى للاندلس ٠

وكان توزيع هؤلاء فى الشمال قد أعاد الامور الى طابعها العادى من حيث الاستقرار بعد أن حازت شخصية الحاكم الجديد ثقة الجميع وكان مؤهلا أن يفتح صورة جديدة فى تاريخ الاندلس لكنه عاد الى عصبيته ومال الى اليمنية ٠

ومن هنا ثار النزاع من جديد فى الاندلس وضاعت الاصلاحات هباء

وهكذا صـــار الاندلس بؤرة الصراعات الحزبية والاسرية منها بلغ به التجرد والاعتدال وكان هذا شأن أبى الخطار الذى جاء لينقذ الاندلس من الصراعات فاذا به يخلع ثوب الاعتدال ليأخذ موقعا يميل فيه الى أهله اليمنيين Sidona

لكن القيسية بزعامة الصميل بن حاتم أحد زعماء القيسية والرجـــل البارز فيهم بعد موت بلج بن بشير فوجد فى ذلك التراجع عن الاعتـــدال فرصة لكى يجمع حوله قومه من القيسية ٠

وهكذا عاد الصراع بين العرب من جديد واستطاع الصميل بن حاتم أن يجمع الزعامات القيسـية وتجمع الصـميل وحلفـــائه فى ميدنة شـذونة التى كانت مركز الثوار حيث كان الصميل شخصية فريدة تجمع معظم النواحى الايجابية والسلبية فى كثير من العرب الذين دخلوا الاندلس فهو شـجاع لا يهـاب الموت بل هو سـيد قومه وهو عنيف فى خصومته ٠

ولذا كان أبى الخطار حذرا ومستعدا للامر فخرج من العاصمة قرطبة ووقع الاشتباك بينهما بالقرب من شذونة ولم تكن النتيجة فى صـــالح أبى الخطار حيث حلت به الهزيمة وأركن للفرار والمعركة لم تنتهى ولكن رجال الضميل ساروا فى أعقابه وألقوا القبض عليه وحملوه الى قرطبة حيث أصبح تحت سيطرتهم لكن تم انقاذه عن طريق أهلة الكلبيين الذين انقذوه من السجن الا انه لم يعد للحـكم مرة أخرى ولذا صـــار الحـكم الى قيـــادة جديدة فى شخص آخر جديد هو ثوابة الجذامى ٠

١٩ ـ ثوابه بن سلامة الجذامى
تولى الحكم فى رجب شعبان ١٢٨هـ/٧٤٦م
وانتهى حكمه فى أوائل ١٢٩هـ/٧٤٦م

وكانت فترة حكمه عاما واحد وعدة أشهر . وهكذا خلال العام الذى قضاه ثوابة فى الحكم شهدت الاندلس هدوء نسبيا لم تعكره سوى محاولة أبى الخطار استرداد ولايته فشن هجوما على قرطبة ولكنه لم يسفر عن أدنى نتيجة وكان للصميل دوره الذكى فى ابطال هذه المعركة حيث كان هو الذى جاء بثوابه الى الحكم واستطاع أن يخذل أبى الخطار بأن انفض قومه اليمنيين من حوله وكان ثوابة يمنى الاصل لكن القيسية كانت تستحوذ السلطة الفعلية وتتحكم فى شئون الحكم وتمسك بيدها مقاليده والحكم فى المغرب ينتقل الى القيسية فقد تولى أمره « عبد الرحمن بن حبيب » زعيم العرب الافارقة بعد انقلابه على « حنظلة بن صفوان » وفى دمشق عاصمة الخلافة رغم بعد المسافة بينها وبين قرطبة عاصمة الاندلس بتولى « مروان الثانى » الحكم فى ثورة قيسية .

وهكذا عاشت القيسية أبهج سنواتها ، لكن هذه الفرحة لم تتم إذ اذ توفى « ثوابة بن سلامة الجذامى » بعد عام من توليه السلطة فى البلاد تاركا وراءه أزمة سياسية عنيفة جرت البلاد الى كارثة محققة أو فتنة عظمى حسب تفسير المؤرخين .

وهكذا عادت قرطبة الى عملياتها السياسية ودخلت الحرب الاهلية بأوزارها وتنافس على منصب الوالى حيث طالب به ابنه الاكبر عمرو بن ثواب أول المرشحين لهذا المنصب ومنافسة جذامى آخر هو يحيى بن حريث ويختلف الجمعان .

وهنا يظهر دور الضمويل بن حاتم مرة أخرى الذى كان ميالا الى ممارسة لعبة الحكم من وراء الكواليس بما يتلائم وشخصيته وكان عليه أن يبحث عن حاكم مثل ثوابة ان لم يكن أضعف منه ووجد الصميل ضالته هذه المرة فى رجل أبرز سماته الورع والوقار الهادى .

وذلك بعد أن كان أهل الاندلس قد اختاروا عبد الرحمن بن كثير اللخمى .

٢٠ ـ عبد الرحمن بن كثير اللخمى

أوائل ١٢٩هـ/٧٤٦م

والذى نصبه أهل الاندلس فى فترة الصراع بين عمرو بن ثوابة ويحيى ابن حريث الخذامى وكان تدخل الصميل بن حاتم الذى رأى ان أمر الاندلس لا يصلح الا اذا تعـاون الطرفان القيسى واليمنى على أى صورة من الصور ولكنهم كذلك لا يستطيعون سـيادة الاندلس لكثرة هؤلاء واستعدادهم للدفاع عن أنفسهم فى كل حين وتجـمع الشاميون تحت لـواء واحـد هو لـواء الصميل ثم بحث أمر المعسكر الثانى وأشارت اليه الاصابع بأن يكون حفيد عقبة بن نافع الفهرى رائد الفتوحات المنظمة فى المغرب ٠

وقد كان ذلك هو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى أجمع الاندلسيون على رياسته وكذلك وقع عليه اختيار الصميل بن حاتم لولاية الاندلس فتم تعيينه بدون أدنى مشقة مدعوما من قومه ومن كل تكتل القيسيين ورجلهـم القوى الصميل بن حاتم ٠

٢١ ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهرى
(آخـــر ولاة الاندلس)

تولى الحكم فى ربيع الثانى عام ١٢٩هـ (يناير ٧٤٧م) وحكم البلاد تسع سنوات وتسعة أشهر أو أكثر من ذلك قليلا وكان قد تم الاتفـــاق بينه وبين الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى على أن يتولى يوسف أمر الامارة ويكون الرأى والاستشارة للصميل واستقر الامر على ذلك ولم تستة رلهما الا بعد حروب طويلة مع زعيـم يمنى يدعى يحيى بن حريث كان يعـارض تولية يوسف ٠

وحاول الوقوف ضـده بأى طريقة ولكنه انهزم وقتل فى معركة شقندة عام ١٣٠هـ/٧٤٧م وخـلا الجو ليوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل ابن حاتم وكان ابن حريث قد تولى أمر ولاية صـغيرة فى مقاطعة « رية » قبل قتله وتقع Rego جنوب العاصمة قرطبة ونزل فيها مع بعض جنوده وخاصة الشاميين والذين كان أردنيين ٠

وهكذا صعد يوسف الفهرى الى عرش الامارة الاندلسية فى قرطبـة بفضل الدور الذى لعبه الصميل والذى ذلل له الصعوبات وروض الخصوم ليحكم البلاد ما يقرب من عشرة سنوات وتعتبر هـذه الفترة أطول فتـرة قضاها حاكم خـلال تلك الفتـرة القلقـة التى اتفقت المصـادر التـاريخية والمؤرخين على تسميتها بعصر الولاة ٠

وقـد ظل يوسف هذا يحـكم البـلاد حتى عـام ١٣٨هـ/٧٥٥م وبذلك عاصرت فترة حكمه سقوط الخلافة الاموية ١٣٢هـ/٧٥٠م ويمكن أن نطلق على فترة تولية يوسف هذه بأنها فترة انتقالية بين حكم الفوضى السابق له حيث كانت الاندلس مرتبطة بالخلافة الاموية فى دمشق وبين الاستقرار السياسى فى ظل دولة مستقلة يمسك بزمـام السلطة بها الصميل بن حاتم ٠

ولكن ذلك لم يستقر طويلا فقد كانت هناك معركة خفية داخل الحزب القيسى الحاكم بين الوالى الصورى يوسف الفهرى وبين الرجل القـــوى

الصميل بن حاتم وكان لابد لهذه المعركة أن تنفجر فى أى وقت خاصة أن الفهرى رفض أن يكون صورة مكررة « لثوابة » الحاكم السابق ٠

وبدأ يحاول رفع وصاية الصميل الثقيلة ، لكن الصميل تحاشى الصدام مع الرجل الذى قدمه للحكم وأراد أن يبتعد عن أضواء العاصمة قرطبة فقبل المنصب الذى عرضته عليه الفهرى وهو أن يكون حاكما لولاية سرقسطة وذلك عام ١٣٢هـ/٧٥٠م (عام سقوط الخلافة الاموية فى دمشق) فخرج اليها طائعا مع انصاره ورجاله حيث كانت سرقسطة أو المدينة البيضاء عاصمة الاقليم الشرقى وواحدة من أهم مدن الاندلس وأكثرها خصوبة وثراء فى الوقت الذى عصفت بالبلاد مجاعة رهيبة وموجة عامة من القحط بلغت ذروتها عام ١٣٦هـ/٧٥٣م ٠

وقد كانت هذه المجاعة نتيجة لما ثار من حروب شديدة بين العرب فيما بعضهم البعض وبينهم وبين البربر فازدادت الهجرة الى افريقية وقل عدد المسلمين فى الاندلس عما كان عليه سابقا فيما عدا اقليم سرقسطة حيث كان معظم أهلها من عرب اليمن والذين قبل الصميل بن حاتم ولاية له لان سوادها الاعظم من أهله وكانت سرقسطة مدينة الصميل تنعم بحظ من الاكتفاء الاقتصادى والثروة الهائلة ٠

وفى ظل قيام الدولة العباسية أشيع فى الاوساط الاندلسية أن الخليفة العباسى المنصور بعث الى « عامر بن عمر » زعيم القرشيين فى قرطبة بولاية الاندلس ٠

ومن هنا تحرك عامر متطلعا لتولى الحكم بالاندلس ٠

ومن هنا شعر الفهرى بالخطر الى يمثله عامر فى قيادة الجيش فأبعده وكان عامر يسعى بكل وسيلة لوضع قدمه فى السلطة فقام بانشاء قلعة قريبة من قرطبة لتكون مركز لتجمع الانصار والحلفاء وتجمعت اليه الفئات المعارضة وكان عليه (أى عامر بن عمرو) أن يقضى على القوة الفعلية فى البلاد والممثلة فى والى سرقسطة الصميل بن حاتم حيث انه

القوة الفعلية التى تقف أمـــام طموحـــاته واســتطاع أن يؤلب بعضـــا من انصاره ضـــد الصميل فى سرقسطة وعقد تحالفا مع زعيم قيسى من كلاب فى سرقسطة هو « الحبحاب بن رواحة » واتفق الحليفان على ذلك وقـــاما بمهاجمة سرقسطة وأوقعـا الهزيمة بقوات الصميل بن حاتم وفرضا حصار على المدينة ما بين عامى ١٣٦ ، ١٣٧هـ/٧٥٣ ، ٧٥٤م ٠

وكانت هذه أول محنـة تحل بالصميل حيث لم ينجـده حليفـه يوسف الفهرى بأدنى قوة لرفع الحصار عن المدينة ٠ لكن القوى القيسية بزعـامة « ابن شهاب شيخ بنى عامر » استطاع أن يقود القوات لمساندة الصميل ٠

وهكذا نجح الصميل فى استنهاض القوى القيسية أمام التحـــالف المضاد له بزعامة عامر بن عمرو القرشى الذى يمثل الخلافة العباسية ٠

لكن قوات القيسية زحفت الى سرقسطة لقطع الطريق على ســـقوط المدينة وهكذا بعد سبعة أشهر من الحصار وصلت الحملة القيسية الى أسوار سرقسطة ١٣٧هـ/٧٥٥م ٠

ومن هنا فقد انسحبت هذه القوات دون أدنى اشتباك وبذلك تم انقاذ الصميل وفشلت ثورة اليمنيين وحلفائهم مرة أخرى ولكن الصميل بعد ذلك خرج ضعيفا بعد أن كان ممسكا بزمـــام الامور لفتـرة تزيد عن عشـرة سنوات حيث تضاءل حجمه أمـــام ضغط الاحداث المستجدة التى انتشلت هذه البلاد لاول مرة من خضم الفوضى ٠

وفى تلك الظروف نشطت حركة تدعو للولاء للامويين وتجديد الولاء الذى كان رمزيا لعدة سنوات مضت ٠

وتذكر بعض المصادر ان هناك بعض الرجالات الامويين فى هـــذه الحملة يعتقد أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الاموى الهارب آنذاك من بطش العباسيين قد أرسلهم الى الاندلس للاتصال بالصميل الزعيم القيسى ذى النزعة الاموية العميقة حيث ان الصميل رغم خطورة الموقف لم يفقـــد

شجاعته وقدرته على التصرف والتآم الجميع فى جيش واحد بعد أن عمل بكل جهده فى استنفاز كل الطاقات القيسية بما له من موهبة خاصة فى تحريك الاحداث والعواطف وشحنها عند الحاجة وما لبثت نفسه أن اطمأنت عندما جاءته الاخبار عن تحرك القيسيين نحو مدينته وفى طليعتهم حليفه القوى عبد الله بن على الكلابى وكذلك اتصال رجال عبد الرحمن بن معاوية به .

وهكذا كانت ولاية يوسف الفهرى والصميل بن حاتم الطويلة ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فلم تكن هناك خلافات عنيفة بين طوائف المسلمين من عرب وغير عرب ولكن وضع الاندلس كان يحتاج الى اكثر من ذلك ، يحتاج الى حاكم قوى نشيط ذلك لان الاندلس رغم خضوعه للمسلمين بما يقرب من أربعين عاما الا انه لم يتحول الى بلد اسلامى بعد فقد كانت النصرانية لازالت توجد فى البلاد وان امر المسلمين بهذه الصورة لا يطمئن .

ومن هنا كانت الاحداث تتلاحق فى هذا البلد البعيد عن قلب الخلافة الاسلامية ومركزها فى بغداد فكان من العسير امداده بالقوات المستمرة .

ومن ثم بدأت الامور تتغير وتأخذ بعدا آخر بما سيحدث على أرض الاندلس من أحداث سوف تقلب ميزان القوى رأسا على عقب وتجعل نهاية حكم الولاة بانتهاء فترة حكم يوسف الفهرى عام ١٣٨هـ/٧٥٠م ووصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس .

الفصل الخامس

الدولة الاموية بالاندلس
(١٣٨هـ/٧٥٦م ـ ٣٠٠هـ ـ ٩١٢م)

أحدث الفتح الاسلامى تغيرات كبرى فى البنية الاجتماعية فى الاندلس فقد زالت طبقة النبلاء وضعف نفوذ الكنسية وتهاوى سلطانها مما ادى الى دخول كثير من افراد الطبقات الاندلسية فى الدين الاسلامى واستزدت حقوقها بالفتح الاسلامى ٠

وكذلك العبيد الذين وجدوا فى اعتناق الاسلام فرصة للنور ونيل الحقوق ٠

وهكذا بدأت الاندلس تكتسب وجهها وصورتها الاسلامية وبدأت تعبر عن نفسها تعبيرا استقلاليا اذ بعد استقرار الفتح أخذت الاندلس تلون شخصيتها شيئا فشيئا وتاخذ استقلالها الادارى بحيث وجدنا فى أوخر العهد الاموى اهلها يولون الوالى من طرفهم وعلى الخلافة أن توافق على ذلك ثم تم لها الاستقلال فى أول عهد الدولة العباسية بقيام الامارة الاندلسية فى البلاد فقد استطاع أمير أموى فار من وجه العباسيين هو عبد الرحمن بن معاوية أن يصل الى الاندلس وأن يؤسس امارة مستقلة ٠

وقد لقيت هذه الأمارة تأييدا من السكان الراغبين فى الاستقلال الامر الذى مكنها من الصمود فى وجه محاولة الدولة العباسية للقضاء عليها وضمن لها البقاء ٠

(١) الامارة الاموية وعهدها

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم

(١٣٨ ـ ١٧٢هـ/٧٥٦ ـ ٨٨٧م)

انتهى عهد الولاة الاندلسيين وتلاها عصر الامارة بمجيء عبد الرحمن الداخل الى الاندلس حيث آخر الولاة يوسف الفهرى وذلك بعد سقوط الدولة الاموية فى الشام ١٣٢هـ/٧٥٠م ٠

وقد تعقب العباسيون الامويين فى كل مكان وكان ممن هرب أبو المطرق عبد الرحمن الداخل) بن معاوية ٠ ذلك فان قيام الدولة العباسية فى ربيع الاول ١٣٢هـ يونيو ٧٤٩م اقترن بمذابح واسعة النطاق أنزلها العباسيون بالامويين انتقاما لما فعلوا بآل البيت وتخلصا من بقايا الامويين وانصارهم فى كل مناطق الدولة الاسلامية ٠

وقد ذكرت بعض المصادر أن العباسيين حصدوا الامويين دون رحمة بعد أن انهارت خلافة الامويين وهى لا تكاد أن تبلغ منتصف الطريق من مجدها الذى تنشره ولم تكن قد جنت سوى النذير من ثمرات الدعوة الاسلامية ٠

حيث ظهرت فى مدينة « نبرو » ثورة قادها الخراسانى فى عام ١٢٩هـ/ ٧٤٧م بالاتفاق مع زغيم الدعوة المقيم بالشام فى مدينة (الحميمة) فأزال الحكم الاموى فى خراسان وانتصر انتصارا كبيرا على جيش الوالى الاموى عند شاطىء الفرت وتستسلم الكوفة وتفتح المدينة الساخطة على الحكم الاموى وتتم عملية البيعة لابى العباس فى جمادى الآخرة ١٣٢هـ/ يناير ٧٥٠م الذى أصبح زعيم الدولة بعد مقتل أخيه ابراهيم فى دمشق على يد الخليفة الاموى وكانت فى ذلك الوقت قوات الثورة العباسية تأخذ طريقها الى الشام بعد سقوط العراق وعلى رأسها عم الخليفة المعلن عبد الله بن على فيلتقى بمروان الثانى عند الزاب وخاض معركة لمدة عشرة أيام كادت أن تنتهى لصالحه

لولا انه أخطأ التقدير فى توزيع قواته فأصيب بهزيمة قضت على الخلافة الاموية وعجزت عن التصدى للمد العباسى وكانت معركة الزاب الضربة الاخيرة التى قضت نهائيا على الخلافة الاموية وتعرض الحزب الاموى وأنصاره فى الشام لهجمة شرسة من القائد العباسى المنتصر عبد الله بن على الذى أراد القضاء نهائيا على الاسرة الاموية فكانت تلك المذبحة أو قل المجزرة التى قام بها جند الفرس عند بلدة (أبى قطرس) بالقرب من الرملة بفلسطين حيث تم قتل اثنين وسبعين أمويا على يد قائد جند العباسيين ولكن واحد من الاسرة الاموية كان على موعد مع الاندلس ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين والذى استطاع أن يفر من مذابح العباسيين مصطحبا معه مولى أخته واسمه سالم وكان سالم هذا له دور فى الاشتراك فى فتح الاندلس فى حملة موسى بن نصير وكان على علم تام ومعرفة بأحوالها وأحوال أهلها ٠

وكان العباسيون قد تعقبوا أبناء البيت الاموى بالقتل خوفا من قيامهم بأعمال المقاومة وبالغ العباسيون فى اضطهادهم وتنكيلهم بالامويين حتى سقط الكثيرين منهم صرعى ٠

ونال بيت الخليفة هشام بن عبد الملك جد عبد الرحمن بن معاوية هذا نصيبا كبيرا من هذا الاذى البالغ اذ قتل العباسيون أحد أخوة عبد الرحمن ثم قتلوا أخا آخر له يدعى يحيى أما عبد الرحمن فلم ينجوا من المذابح الا عفوا حيث قتل ثلاثة أخوة ذكورا له عدا البنات ٠

وقد قتل الابن الاول فيمن قتل من الامويين فى دمشق عندما دخل العباسيون أما الثانى فقد قتل فى مذبحة « دير الجماجم » وفر الثالث والرابع فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ففرا معا وكان عبد الرحمن أولهما فى التاسعة عشرة من عمره والاخ الاصغر فى الثالثة عشرة واختفيا فى مكان فى ضفة الفرات بعد أن طلب من أخته أن تبعث اليه ببعض المال مع مولاه بدر وكذلك سالم مولى أخته وهو الخبير بشؤون الاندلس وأخذ عبد الرحمن معه عند قرارة أخيه الصغير خوفا

عليه من العباسيين وظلا مختفين فى مكان يجاور للقرية حتى هدأت عنهما العيون والانظار ٠

ثم تابعا السير تجـاه نهر الفرات وهناك قصدا رجلا يعرفه عبد الرحمن وأخذ منه بعض المـال غير ان عبدا لهذا الرجل عرف أمر عبد الرحمن وأخيه فأبلغ عمال العباسيين الذين بادروا بمحاصرة المكان الذى اتجـه اليـه الامويين وعند اذن ألقيا عبد الرحمن وأخيه بأنفسيهما فى المـاء وسبحا الى البر الثانى ٠

ولكن الاخ الثانى تعب وخدعه نداء العباسيين له بالامان فعـاد إلى الشاطىء وقتل أمـام أخيه عبد الرحمن وآلم هذا المنظر عبد الرحمن وحفزه على أن يواصل السباحة حتى بلغ الشاطىء الآخـر ناجيا بنفسه ثم قصد الى فلسطين حيث أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته وكان قد ذكر لاخته ضرورة ارسالهما له في مكان ما بأرض فلسطين ٠

ثم سارا سويا الى مصر ومن ثم الى افريقية مما يدل على انه استفاد من حوادث التاريخ الاسلامى ولجـوء المضطهدين الى المغرب مما جعـله يجعل غرب الدولة الاسلامية هدفه ومقصده وكان عبد الرحمن فى العشرين من عمره عندما بلغ المغرب وكان والى افريقية (المغرب) فى تلك الوقت عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والد يوسف الفهرى والى الاندلس فى ذلك الوقت وشدد هذا الوالى بالقيروان على مراقبـة الوافـدين على بلاده من سلالة البيت الاموى خوفا على سلطانه ٠

وقد كاد يقعـان فى يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهما نجيا الى ساحل المحيط عند طنجة واختفوا ثلاثتهم فى قبيلة نفرة وكانت أم عبد الرحمن من بنـات هذه القبيلة ٠

وهكذا لعبت أخت عبد الرحمن (أم الوليـد وأم الاصـبغ) دورا في مساعدته فى الوصول الى المغرب بارسالها بدرا وسالمـا لكى يعبرا معه كل المخاطر ٠ ولاسيما انهما أحضرا أسرته وابنه سليمان ٠

وهكذا استقر في قبيلة أخواله قبيلة نفزة البربرية ملتقطا انفاسه لكي يقرر بعدها الى أي اتجـاه سوف يتجه وكان عبد الرحمن بن معاوية شابا ذكيا طموحا بلا حدود وتلك صـفات تؤهله لكي يتولى المسؤليات الجسـام ونلاحظ هنا ان عبد الرحمن لم يفر من وجهه العباسيين من أجل السـلامة كأي شخص عادي وأنمـا كانت تراوده وهو يتعرض للمخاطر دولة الامويين وسلطة الخلافة وكانت ولاية المغرب البعيدة عن مركز الخلافة العباسية في بغداد تلبي بعض طموحاته الكبيرة بعـد أن كانت المغـرب قـد نالت بعض الاستقلال ٠

وهكذا مضت أربع سنوات والامير الاموى يتنقل بين قبائل البربر في المغربين الاوسط والاقصى دون أن يثير غبارة وراء تنقلاته الخفية حيث كان عبد الرحمن يشعر بالتيارات التى تموج بهـا المغرب واستطاع أن يتجنب الوالى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بالالتجاء الى تاهرت التى صـــارت ملجأ النجاة من بطش الولاة ٠

وكانت تخضع لحـكم بنى رسـتم (راجـع موسوعة المغـرب العربى جـ٢ ٠ للمؤلف طبع ١٩٩٢) وبعيدا عن العيون ظل ينتقل على قدر عبر المغرب وتمكن أن يكسب عطف أفراد قبيلة أخواله حتى اننا نجد امرأة أحد شـيوخ القبيلة أخفته تحت ثيابها حين ترامت أخباره الى عمال عبد الرحمن بن حبيب الذين أدركوا خبر مكانه وجاءوا للبحث عنه ٠

ثم نزل أخيرا فى عام ١٢٦هـ/٧٥٢م عند شـيخ قبيـلة (مغيلة) على ساحل طنجة نفسها ٠

وهكذا على بعد سـتة آلاف كيلو متر من بغداد شعر عبد الرحمن ببعض الامان ومن ثم اخذ يستطلع الاحوال لعله يجد مخرجا مما فيه ويحقق أحلامه فى بناء دولة أموية بالاندلس على انقاض الخلافة الاموية فى دمشق ٠

وهكذا لم تأتي سـنة ١٣٦هـ/٧٥٣م الا وعبد الرحمن يجد نفسه يعيش وسط قبيلة (مغيلة) في حماية شيخها وهنا فى ذلك المكان القريب من الساحل

الاندلسى بدأت أخبار الاندلس تصل اليه وكان أمرها قد صار الى الصميل ابن حاتم ويوسف الفهرى كما سبق القول ٠

وكان سالم مولى أخته ام الوليد قد حدثه عنها ولكن سالم هذا لم يحتمل الطريق الصعب وشدة أوامر عبد الرحمن ففضل ان يتخلف وأن يترك المهمة لبدر مولى عبد الرحمن الذى سيكون له نصيب كبير فى اقامة صرح الدولة الاموية فى الاندلس حيث كان الاسلام فى الاندلس قد بدأ يأخذ بعدا آخر بانتشاره على نطاق واسع بسبب الهجرة فقد تم فتح الاندلس على يد العرب والبربر من أهل افريقية واتبع الفتح هجرات مغربية وهجرات عربية ٠

فقد كان قرب الاندلس من بلاد المغرب سببا فى هجرة جماعات كثيرة من أهل الشمال الافريقى كما ان الظروف التى تلت الفتح استتبعت توالى الجيوش العربية على الاندلس وكانت هذه الجيوش تقيم فى الاندلس وتتبعها قبائل عربية للاقامة بصفة دائمة ونهائية ولا تكاد توجد ولاية أو مدينة اندلسية الا وفيها مهاجرون من هؤلاء وهؤلاء وقد اختلطوا بالسكان وتزوجوا منهم ولم يلبث أن نشأ جيل جديد من المولدين كما كان هذا الاختلاط سببا فى نمو الحركة الاسلامية اضافة الى التغيرات التى أحدثها الفتح العربى فى التنظيم الاجتماعى فى الاندلس مما أدى الى دخول كثيرين من افراد الطبقات التى كانت مهضومة واستردت حقوقها بالفتح الاسلامى ٠

وبعد أن اكتسبت الاندلس هذه الصفة الاسلامية بدأت تعبر عن نفسها تعبيرا استقلاليا اذ بعد استقرار الفتح أخذت الاندلس تكون شخصيتها حتى تم لها الاستقلال فى أول عهد الدولة العباسية بقيام الامارة الاندلسية الاموية فى البلاد ٠

وهكذا كشف عبد الرحمن عن قوة عزيمة وطموح وثاب باختياره الاندلس لتكون ميدانا لنشاطه دون المغرب على خبرته بأحوال تلك البلاد بناء على ما حصل عليه من معلومات عن مولى أخته سالم فلم يحاول القيام بأية تجربة سياسية من أجل الحصول على السلطة بالمغرب ٠

امـا الاندلس فكانت به جمـاعات من أهل الشـام المعروفين بولائهم للبيت الاموى ولا تنقصهم الا الشخصية القـادرة على قيادتهم الى السلطة والنفوذ وانه يمـكن الاستعانة بهم لتحقيق اهدافه ٠

واخـذ عبد الرحمن يدرس الموقف فى الاندلس اثنـاء اقـامته عنـد أخواله من قبيلة مغيلة وهو على ساحل طنجة اذ كانت المواصلات بين تلك البلدة والاندلس سهلة ميسورة وترد اليه الاخبار بانتظام عما يدور من صراع على أرض لاندلس ، لكن الاندلس فى تلك الاحوال كانت به جماعة كبيرة من موالى بنى امية ما بين موالى خلفاء كالوليد وسليمان وهشـام ابنـاء عبد الملك بن مروان بن الحـكم وموالى البيت الاموى عامة موالى موسى بن نصير ومغيث الرومى ومن اليهم من موالى بنى أمية وانضم اليهم موالى القرشيين وقد عرفوا بموالى قريش فكثر عددهم وكانوا من خيـرة مسلمى الاندلس لمـا لهم من معرفة بشئون البلاد والدولة والادارة وقـد أدرك عبد الرحمن انه يستطيع الوصول الى الحكم بفضل هؤلاء الموالى فى الاندلس لاسيما ان الاندلس كانت قد مزقتها الحرب الاهلية فى ذلك الوقت وكان من العسير الاتفاق حول زعيم واحد ينطوى حوله وتحت لوائه الجميع فتوجه عبد الرحمن بطموحه الى هذا الاقليم حيث كانت أخباره تصل اليـه تباعا ووجدالفرصة اكثر منالا من المغرب ٠

وفى نهاية عام ١٣٦هـ/ منتصف ٧٥٤م كان مرافقه ومولاه بدر يشق طريقه عبر المضيق الى الاندلس فى مهمـة سرية للاطـلاع على الاحـوال السياسية هناك ودراسة السبيل الى تمهيد العبور لسيده عبد الرحمن ٠

وهكذا نطلق بدر الى الاندلس لينقل اليه صورة صادقة عن أحوالها ويخاطب من بها من أهل الشام الى الانطواء تحت لوائه ٠

ونزل بدر بعد ان وصل الى ساحل البيرة (Elviro) فى منطقة غرناطة حيث كانت منازل جند الشـام وهم انصار الدولة الاموية والاسرة الحاكمة السابقة وهم فى معظمهم بقـايا الفرق الشـامية التى انتقلت الى الاندلس بقيادة بلج بن بشير من المغرب وذلك يدل على خبرة عبـد الرحمن

بأحوال الاندلس ودقة دراسته للاوضاع هناك فقد اقام الى جانب جند الشام في البيرة جماعة من أشد الناس ولاء للبيت الاموى عرفوا باسم (موالى بنى أمية) وتكونت هذه الجماعات من الفئات التى دخلت فى الولاء للبيت الاموى فى الشام والعراق وفارس وصاروا موضع اعتزاز هذا البيت وعطفه ومصدر قوته .

كذلك واشترك هؤلاء الموالى فى فتح الاندلس واستقروا به حيث زاد عددهم هناك بانضمام كثيرا من قبائل المغرب التى شاركت فى فتح الاندلس اليهم وارتبط هؤلاء جميعا برابطة الولاء للبيت الاموى حتى صاروا اقرب الى بعضهم بعضا من اخوانهم وبنى جلدتهم واعتبروا رابطة الولاء الجديدة أقوى من رابطة العصبية الاولى وتزايدت أعداد موالى بنى أمية بالاندلس مع مرور الزمن حتى صار ابناء البيت الاموى الفارين من مذابح العباسيين يلجأون الى أولئك الموالى ينشدون عندهم الامن والسلام .

وهكذا أرسل عبد الرحمن مولاه بدر برسائل الى زعمائهم وأهم ثلاثة شخصيات تمثل الزعامة فيهم وهم « عبد الله بن خالد » « وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، يوسف بن بخت » يطلب فى هذه الرسائل معاونته فى الوصول الى الاندلس للاستقرار فيها .

وقد فهم هؤلاء الزعماء من رسالة الشاب الاموى انه يطمح فى ولاية الاندلس وكان ذلك يوافق هواهم فاهتموا بالامر أشد اهتمام بعد أن اجتمع بهم بدر وأطلع هؤلاء على رسالة سيده المكتوبة وكان ما بها ينم عن ذكاء وفطنة وحنكة ودبلوماسية هذا الشاب الاموى والتى كانت تحوى جوانب ايجابية تمهد الطريق للقاء بين بدر وبينهم وفى الاجتماع المتفق عليه أسهب بدر فى عرض مأساة الامويين والكارثة التى حلت بهم على أيدى العباسيين كما عرض عليهم المأساة التى تعرض لها سيده والمطاردة الصعبة خلفه حتى استطاع الوصول الى طنجة مشيدا بصفات عبد الرحمن وأن يصارحهم بالموضوع الرئيسى للمهمة وهى قدوم عبد الرحمن ومؤهلاته كحفيد لهشام بن عبد الملك ومقدرته على رد الاعتبار لجماعة الامويين اذا

ما أتيحت له المساعدة التى تمكنه من الوصول الى الاندلس ولم يتردد هؤلاء الزعماء فى البدء فورا بالعمل على تنفيذ رغبة الامير المروانى ٠

وهكذا حققت مهمة بدر الاولى نجاحا أوليا حين أسفرت اتصالاته عن قيام نواة لفريق مؤيد للامير القابع فى طنجة أو سبتة فى انتظار العبور الى الاندلس لتحقيق أهدافه فى اقامة دولة أموية عوضا عن أحداث المشرق (دمشق) ٠

وكان يتولى شئون الاندلس اذ ذاك أحد أفراد أسرة آل الفهرى بالقيروان هو « يوسف الفهرى » وكان موالى بنى أمية لا تدين لهذا الوالى بالطاعة الا كرها عندما وصل اليها بدر مولى عبد الرحمن ٠

ولذلك كانت الامو رمهيأة أمام هذا السليل الاموى اذ وجد بدر فى ناحية البيرة جماعات مستعدة لنصرة سيده اذا وضح لهم ان انضمامهم الى عبد الرحمن الاموى ليس معناه انقاذهم من المتاعب فحسب وانما هو سبيل اعادة البيت الاموى الى السلطان والسيادة على ذلك الجزء من الدولة الاسلامية حيث يكون مجد بنى أمية مجدا لهم ٠

وبدأ هذا الفريق الاموى يعمل لتنفيذ المخطط واتجهوا الى أحد رجال يوسف الفهرى واسمه صميل بن حاتم حاكم سرقسطة لضمه الى صفوفهم نظرا لعلو شأنه وقدرته على تنفيذ مآربهم عند الفهرى وهكذا تحدثوا مع الصميل بن حاتم لانهم كانوا يعرفون ان القوة فى يده ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى الفهرى الذى كان من موالى الامويين ولكن الصميل وعدهم خيرا بعد أن كانوا قد ذهبوا اليه وعرضوا عليه دعوتهم فى لين متظاهرين الى أن عبد الرحمن الاموى لا يطلب أكثر من الحماية ٠

وتذكر بعض المصادر أن الصميل لم يتحمس كثيرا لهذا الامر ولعله كان مشغولا بشريكه فى الحكم يوسف الفهرى وموقفه المتخاذل من محنة سرقسطة فطلب من صديقه الزعيم الشامى « أبو عثمان عبيد الله بن عثمان » بعض الوقت قبل اعطاء القرار النهائى واذا فشلت المحاولة مع « الصميل ابن حاتم » توجه الفريق الاموى الى الحزب المعارض من القبائل اليمنية

ولم تكن هناك عوائق تحول دون الاتصال بهذا الحزب المرتبط عضويا بالاسرة المروانية منذ أن استعاد مؤسسها « عبد الملك بن مروان » الخلافة فى معركة (مرج راهط) فى خلافة هشام بن عبد الملك حيث ان الدعوة حاليا لحفيده بامارة الاندلس لعبد الرحمن وكانت بداية طيبة عندما استجاب اليمنيون للفكرة وتحمسوا لها وكان معظمهم من زعماء قبائل لخم وجذام ويحصب فضلا عن تأييد أحد زعماء القيسيين وهو « الحصين بن الدجن العقيلى » من خصوم الصميل بن حاتم ·

وكان وراء أسباب رفض الصميل هو خوفه من عبد الرحمن الذى يملك من المقومات لا ينافسها فيها الا القليل فى حين كان يتطلع هو الى السيادة فى البلاد وكان ذلك داعيا لكى يبحث زعماء موالى البيت الاموى عن حلفاء جدد بسبب خبرتهم الواسعة بالبلاد فاتجهوا الى الكلبيين من أهل اليمن اذ المعروف ان قبيلة كلبية من أعظم قبائل الشام التى آزرت وساندت الامويين كما اشترك كثيرا من رجالها فى جيوش الفتح الاسلامية بالمغرب والاندلس فضلا عن ذلك كان أولئك الجند اليمنيين غير راضيين عن واليهم يوسف الفهرى الذى كان مشغولا اذ ذاك بأمر ثورة فى سرقسطة قام بها اليمنيون وكان يلح على الصميل وموالى بنى أمية بالخروج ثم خرج الجيش آخر الامر وفى أثناء الطريق أدرك موالى البيت الاموى أن الصميل يحتال عليهم وانه لا يضمر خيرا لعبد الرحمن فانصرف زعمائهم عن الجيش واتجهوا الى مراكز تجمع الموالى فى مدينة البيرة ، وجيان وفى النهاية قرروا الاعتماد على القبائل اليمنية الكلبية وكانوا موفقين فى هذه الخطوة لان اليمنية كانوا يتوقون الى الاخذ بثأر هزيمتهم فى معركة سفندو Secunda الواقعة أمام قرطبة والتى انهزم فيها اليمنيون وخسروا فيها ضحايا كثيرة وضاقت بهم السبل واستطاع القيسية حسم المعركة لصالحهم وقتل زعيم اليمنيين وكانوا تواقين الى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم ·

لهذا استجاب اليمنيون فى اقليم غرناطة الى هذا النداء وتحمسوا لعبد الرحمن على أمل أن يدركوا الرئاسة وقرروا مع موالى بنى أمية استقدامه الى الجزيرة الخضراء ولذا أسرع زعماء موالى بنى أمية الى بدر وطلبوا منه سرعة مجيء عبد الرحمن الى الاندلس والجهاد فى

سبيل تحقيق أهدافه حيث الفرصة باتت مواتية الى حد ما فى وقت غاب فيه عن العاصمة (قرطبة) كل من الحاكمين الصميل بن حاتم ويوسف بن الفهرى فى مهمة حربية فى الشمال وكان على بدر أن يضع الصورة كاملة امام سيده حيث لاحت بشائر الفرصة التاريخية أمام عبد الرحمن فى انتظار وصول الخبر الموعود الذى بات ينتظره لفترة تقترب من أربعة أعوام وهنا نشاهد عبد الرحمن يعبر ·

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فى الاندلس

بعـد العبـور

فى ربيع الآخـر ١٣٨هـ/ سبتمبر ٧٥٥م نزل عبد الرحمن الداخل ضيفا على « أبى عثمـان عبيد الله عثمـان » الذى كان يسـتقبله فى قرية طـرش (Torox) على ساحل البيرة وكانت قريبة من قريته المنكب من كورة غرناطة حيث كانت قرية طرش المرحلة الثـانية التى انتقل اليهـا وكانت طـرش دار « يوسف بن بخت » شيخ جنـد قريش وأحـد كبـار بنى أميـة المقيمين فى الاندلس .

ويذكر ابن عذارى المراكشى فى كتـابه البيـان المغـرب فى أخبـار الاندلس والمغرب ان عبد الرحمن جاز المضيق فى عام ١٣٨هـ/٧٥٥م وارسى فى مدينة المنكب Almanecar على الساحل الجنوبى الشرقى للجزيرة الاندلسية على البحر المتوسط وحل بقرية طريش ثم يضيف فى سـنة ثمـان وثلاثين ومئة دخل عبد الرحمن بنمعاوية الاندلس فى غرة ربيع الاول وهو أبو الملوك .

وكان خروجه من المركب بموضع يعرف بالمنكب ثم نزل بقرية طرش من كورة البيرة .

واجتمع الناس حـول ابن معاوية وكثر مؤيدوه وكان خبر وصوله قـد سرى كالبرق فى البلاد والتف حوله الانصـار يتدافقون وراء بعضهم مأخوذين بشخصيته القوية وجرأته النادرة اذ وجدوا فيـه طرازا جديدا من الزعـامة السياسية .

وهكذا التقى بوفود الجند من أنصـار بنى أمية وعقد معهم مجلسـا لمشاورتهم فى الامر وليدرك بنفسه مدى استعدادهم للعمل بل أكثر من ذلك فقد ذاع أمره ووصوله فى كل الاندلس وكثر مؤيدوه وبدأ ينظم صـفوفه ويلم جمعه للوقوف فى وجه الذين سيعارضونه .

وقد قال له أنصاره أن يوسف الفهرى وهو الوالى قد يرضى أن يهبك بعض الجهات والضياع ولكن الاندلس كلها تابعة لاجدادك الامويين وأن يوسف ابن أحد العمال الذين ولاهم جدك هشام على افريقية .

ولذا فانه لا يمكن أن تقبل الخضوع لعامل تابع لعامل افريقية الذى ولاه جدك هشام ووجودك بيننا يعيد الينا سيادتنا والولاء لك هو العمل الشرعى والمنطقى .

وتزايدت قوات عبد الرحمن الاموى بذلك ، حيث ترامت الى الناس مساوىء الوالى يوسف الفهرى فى اخماد ثورة اليمنيين فى سرقسطة حتى صارت جنوب الاندلس موالية لهذا الامير الاموى .

وفى تلك الاثناء كان الباسك (البشكنس) سكان البرينة قد أعلنوا عصيانهم على الدولة والسيادة الإسلامية فى بنبلونة Panpalana فأرسل الصميل بن حاتم حملة عسكرية لتأديب المتمردين بقيادة يوسف الفهرى لكن الحملة ارتدت سريعا بعد اشتباك مع الباسك وفى تلك الاثناء بلغ أمر عبد الرحمن الى الصميل بن حاتم ويوسف الفهرى الذين كانا فى سرقسطة وكانت الاخبار قد وصلت اليهما من قرطبة عن طريق زوجة يوسف عن تحركات الامير الاموى فى البيرة وكانت ظروفهما سيئة بسبب سوء تصرفهما مع الجند فلم يكن الجند على استعداد للقتال معهما وأقبل الشتاء وهما فى هذا الثغر القاصى البعيد ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين إنه لا يريد الا الاستقرار والعيش فى سلام .

وفى هذه الاثناء كان معسكر عبد الرحمن فى طرش يزدحم بالناس وكان أكثر الوافدين عليه المنضمين اليه من اليمنيين وانضمت اليهم جماعات من البربر .

وشاءت الظروف أن تلعب دورها فى مصلحة الامير الاموى فلا القوة العسكرية فى يد السلطة جديرة بالقتال فى حرب مضمونة ولا الطبيعة سهلت عمليات التحرك والمواصلات بعد شتاء قارس وأمطار غزيرة غير

المألوفة وكان أى تأخير فى مبادرة السلطة ازاء عبد الرحمن سيجعل من نجاح مهمته أمرا ميسورا وفى طريق العودة الى قرطبة أبدى يوسف الفهرى استعداده لمفاوضة الامير الاموى حيث أوفد ثلاثة من كبار زعماء القيسية لمفاوضة عبد الرحمن ٠

وفى معسكر عبد الرحمن كانت الحركة نشطة من تجمعات للجند الى وفود للمبايعة والحزب اليمنى سيد الموقف وكانت قد وفدت الى عبد الرحمن رسالة يوسف الفهرى فوجد فيها فرصة لاكتساب الوقت واعطاء مهمته فرصة افضل لكن مؤيدى عبد الرحمن كانوا يستعجلون معركة مع الصميل ابن حاتم ويوسف الفهرى وكان لابد ان تتعثر المفاوضات بعد أن فشل الوفد فى الوصول الى الغاية المطلوبة ٠ وهكذا انتهت محاولة الفهرى الى الاخفاق لتكون الحرب بدلا منها بين الطرفين ٠

ومع بداية الربيع ١٣٨هـ/٧٥٦م كانت طلائع الجيش الذى التف حول عبد الرحمن تغادر معسكره الى ارشذونة Archidona وقد بلغت نحو ألفى فارس حيث كانت هذه المدينة هى أول مدينة تجهز بتأييدها الرسمى للامير الاموى وخرج منها ليلقى الترحاب فى المدن الاخرى وأخذ عبد الرحمن فى التقدم حتى أدرك الضفة الجنوبية من النهر الكبير فى حركة سريعة لبلوغ قرطبة بعد أن وصلت اليه معلومات عن خروج يوسف الفهرى والصميل بن حاتم باتجاه مدينة أشبيلية لمقاومة زحفه وكانت مبادرة ذكية من عبد الرحمن حيث غادر أشبيلية فورا الى قرطبة التى لا توجد بها قوات للدفاع عنها وذلك لمداهمتها سريعا تحت ستار الليل فاضطرب أمر خصومه فتراجعا الى العاصمة ٠

وهكذا تقابل الجانبان على ضفة النهر حيث الى الشمال عسكرت قوات يوسف الفهرى وحليفه الصميل بن حاتم وفى مدينة المصارة Musara والى الجنوب منها اتخذ عبد الرحمن معسكره فى بابيش وقرطبة ترقب بدورها من يكون له حظ امتلاكها ٠

وفى التاسع من ذى الحجة ١٣٨هـ دعا عبد الرحمن الى مجلس حربى قبل أن يحسم الامر فاذا بأركانه يجمعون على القتال رافضين لاى حل

آخر بعد أن أوهم عبد الرحمن خصمه يوسف الفهرى برغبته فى المصالحة كمظهر من مظاهر الخداع العسكرى وان ذلك جائز فى الحرب ولا يتنافى مع أخلاقيات الفروسية كما ينظر الى ذلك بعض المؤرخين وهى لم تكن اكثر من عملية استدراج لخصمه ٠

وحتى صباح العاشر من ذى الحجة عام ١٣٨هـ وكان يوافق يوم جمعة وتم اللقاء عند مدينة المصارة وفى طرف قرطبة الغربى بعد أن تحولت المعركة الى معسكر الفهرى ورفيقه الصميل وبسرعة تمزق جيشهما ٠

وكانت قوات عبد الرحمن التى أحسن اعدادها قد حققت النصر حيث دارت رحى معركة عنيفة وتغلب عبد الرحمن على خصومه وفر يوسف رغم الشيخوخة الى طليطلة ولاذ بها ونجا بنفسه أما الصميل بن حاتم فقد أخذ طريق الهرب الى جيان شمال غرناطة ٠

ودخل عبد الرحمن قرطبة وبويع بها أميرا على الاندلس فى اليوم التالى وأبقى قرطبة عاصمة لكن يوسف الفهرى والصميل بن حاتم قاما بمحاولات يائسة انتهت بموتهما وكان عبد الرحمن بعد ان دخل قرطبة منتصرا قد دخل المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر العاصمة لاول مرة معلنا سياسته القائمة على العدل والاحسان وهى نفس السياسة التى التى نادى بها أهل المغرب وحاربوا فى سبيلها ولاة الامويين والعباسيين على حد سواء ٠

وهكذا استطاع عبد الرحمن بن معاوية أن يؤسس امارة مستقلة وقد لقيت هذه الامارة تأييدا من السكان الراغبين فى الاستقلال الامر الذى مكنها من الاستقلال والصمود فى وجه محاولة الدولة العباسية للقضاء عليها وضمن لها البقاء وقد ظلت بلاد الاندلس مستقلة تحت حكم الامراء من بنى أمية حتى عام ٣١٦هـ تاريخ اعلان الخلافة الاموية فى الاندلس ٠

وتم بذلك رسميا ميلاد الامارة الاموية بالاندلس فى العاشر من ذى الحجة عام ١٣٨هـ/ ٢٤ مايو ٧٥٦م وبدأت رحلة جديدة من تامين هذه الامارة

الناشئة • وذلك لتظل على الاندلس إشراقة امل تمدها بحياة هادئة وتغزى شرايينها بدم جديد وكانت هذه المعركة قد فتحت مجالا جديدا امام الامير الاموى ليحتل عرش الامارة فى قرطبة ذلك لان الطريق الذى سلكه كان طويلا وشاقا فهذا الرجل الذى يعرف بالداخل في صفحات التاريخ كان عليه منذ أن اقتحم قرطبة ظافرا أن يبنى لامارته جهازا بشريا مطلق الولاء للحاكم •

وهكذا تعتبر بداية استيلاء عبد الرحمن على الحكم فى الاندلس بداية ميلاد عصر جديد في تاريخ الغرب الاسلامى كله • • • •

عبد الرحمن الداخل

(١٣٨ ـ ١٧٢هـ ـ ٧٥٦ ـ ٧٧٨٨م)

لحق ابن معاوية بالاندلس وغدا أميرا لها وبه ابتدأت الامارة ولم تعد الاندلس منذ ذلك الوقت تابعة للخلافة العباسية الاسلامية كما كانت أيام الولاة ولقب عبد الرحمن بن معاوية بالداخل لانه اول من دخل الاندلس من بنى امية حاكما عليها وبه يبدأ عهد آخر فى الاندلس سميته عهد الامارة حسب طبيعة الحكم الذى كان سائدا .

فقد كان كل حكامه السابقين يسمى اميرا واستمر عهد الامارة هذا حوالى قرن وثلاثة أرباع القرن .

وقد استغرقت جهود عبد الرحمن اثنين وعشرين سنة من الجهاد الشاق والعمل المتواصل وتحدد أثناءها الطريق الذين تحتم على الامويين السير فيه من حيث الاعتماد فى بقائهم بالاندلس على بلاد المغرب .

وبعد أن أصبح عبد الرحمن بن معاوية أميرا على البلاد وهو لا يعرف عنه الا القليل . بل لم تكن له علاقاته بعرب الاندلس وبربره وأهل البلاد أول الامر متينة يستطيع الإطمئنان اليها ولكنه كان رجلا موهوبا جمع الصفات الكثيرة السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير أهلته للرياسة وكان عبد الرحمن بن معاوية قد تربى فى مدرسة جده هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أمية .

ولقد بدأ عبد الرحمن تركيزه الأساسى على الجيش فهو الدعامة الاولى لتكريس حكمه وقد أعلن فتح أبواب الاندلس أمام المضطهدين من الحكم العباسى فتدفق المئات منهم حيث وجدوا الامان المنشود وأراد عبد الرحمن اعلان عهد جديد بكل ما تعنيه هذه الكلمة ومنها القضاء على رواسب التعصب وانتزاع عوامل البغضاء من المجتمع الاندلسى فهناك عدة قضايا لابد من معالجتها مع الانتقال الى دار الامارة فكان تنظيم وتوحيد

المجتمع وخلق جيش جديد ومطاردة فلول الحكم السابق الذين لجأوا الى طليطلة ٠

وهكذا لم تكن سيادة عبد الرحمن الداخل بعد المعركة الا على قرطبة وبعض المدن القليلة التى أعلنت تأييدها واعترفت بامارته بينما الجزء الاكبر من الاندلس لازال فى قبضة القيسيين الموالين للفهرى والصميل بن حاتم ٠

وبدأ عبد الرحمن يرتب الادارة المركزية معتمداً على رجال من موالى بنى أمية حيث يصبح هؤلاء الرجال وأبناؤهم عماد النظام الاندلسى طوال تاريخه الطويل لان معرفة الادارة وشئون الحكم تأصلت فى بيوتهم وأبناء هذه البيوت لهم الفضل العظيم على بنى أمية الاندلسيين وما وصلوا اليه من نجاح وكان عبد الرحمن هو الذى وضع ذلك الاساس لانه كان فى حاجة الى رجال يعتمد عليهم لاسيما انه غريب عن الاندلس وكان مما ساعده ان هؤلاء الموالى قد تصاهروا مع أهل البلاد فنشأت بيوتهم أندلسية فى طبيعتها ونشأ أولادهم أندلسيون وكانوا عربيا فى روحهم مسلمون فى ثقافتهم أمناء فى عقيدتهم ٠ وهكذا قامت دولة عبد الرحمن على عون كبير من العرب اليمنيين والبربر سكان الاندلس ٠

وكان على عبد الرحمن أن يواجه التهديد التى يستهدف الامارة فبادر بالتحرك نحو معقل الثائرين فى البيرة قبل أن يستفحل أمرها وقبل أن تتسع دائرة التمرد القيسى وكان عليه أن يغادر قرطبة بعد عن مستشاره ويده اليمنى « أبا عثمان عبيد الله عثمان » قائدا لحاميتها ، لكن حامية المدينة لم تكن قادرة على مقاومة القوات القيسية بقيادة أحد أبناء يوسف الفهرى (أبو زيد) الذى استطاع دخول العاصمة فى غياب عبد الرحمن عنها وتم اعتقال قائد الحامية أبا عثمان ٠

وكان هذا أول تهديد يواجه الامير الاموى ، لكنه عقد صلحا واستخدم أسلوب الوفاق للوصول الى قلوب الاندلسيين ليشعر الناس بالاستقرار ، لكن عبد الرحمن أدرك أن آمارته السابحة فى محيط من الخصوم والعدوان

لن يكتب لها البقاء ذلك لان الاخطار التى داهمته منذ أن عبر الى السلطة في قرطبة كانت أقوى بكثير من أن يحتمل ثقلها رجل واحد مهما بلغت به القدرة والشجاعة فكان على عبد الرحمن أن يثبت فى وجه العواصف ولا يلين وما كاد يلتقط أنفاسه بعد مصرع الفهرى والصميل بن حاتم ويقضى على اخطر عدوين بالداخل حتى وجد ان الانتقال من مرحلة السلطة المحلية فى قرطبة الى السيادة الكاملة على الاندلس مازال يحاط بالالغام وان هناك سنوات طويلة تنتظره شاقة قبل أن يبلغ الهدف الذى يريده فبعد هدوء لم يتجاوز العام كثيرا أعلنت الثورة عليه وكانت بعض هذه الثورات خطرا حقا عليه والتى منها ثورة « العلاء بن مغيث الحضرمى » فى باجة لان ذلك الرجل جمع جمعا كثيرا من اليمنيين والفهريين وجند مصر ودعا لبنى العباس وكتب اليهم يطلب سجلا بالحكم ورحبوا بذلك العباسيين فى بغداد ٠

ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين فى حزم وقوة عام ١٤٧هـ/٧٦٤م ٠ ثم حاول زعيم يمنى آخر وهو « سعيد اليحصبى » المعروف بالمطرى أن يثار لقتلى ثورة « العلاء بن مغيث » واستقر اليمنيين للثورة على عبد الرحمن الداخل فى « لبسلة » جنوب الاندلس فقضى عبد الرحمن عليها ايضا وعلى محاولة أخرى فى اشبيلية وكانت آخر ثورة خطيرة واجهها عبد الرحمن هى ثورة أحد زعماء البربر « اشعب بن عبد الواحد » ورغم انه من أبناء فاطمة الزهراء وقد قامت فى منطقة وعرة هى شنترية ٠

ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الداعى الفاطمى الا بعد جهد جهيد عام ١٦٠هـ/٧٧٦م ٠

وبهذا بادر عبد الرحمن بالقضاء على الاعلام السوداء التى ارتفعت فى الاندلس وهى أعلام العباسيين وليقطع على العباسيين عدم القدرة على ادخال الاندلس فى عصمتها وانتزاعها من أيدى الامويين وأرسل رسالة الى الخليفة العباسى فهم منها ان أمير الاندلس الجديد طراز آخر من الرجال ليس من السهولة اخذه ٠

وكانت هذه الرسالة غير المكتوبة كافية بالنسبة له أن يطوى مشروع الاندلس ولا يعود الى تكرارها ويظفر الحاكم الاموى حسب ما ذكره ابن الخطيب باللقب الذى غلب عليه وهو « صقر قريش » تقديرا منه لكفاءة

خصمه وشجاعته النـادرة وبانتهاء عبد الرحمن من تصفية جيوب الانقلاب العباسى فى الاندلس استطاع عبد الرحمن أن يوطد حكمه فى الاندلس وأن يبدأ مرحـلة جديدة من الانطلاق لتعـديد أهدافه فى الحـكم ٠

وهكذا نرى ان دخـول عبد الرحمن قرطبة ومبايعته بالامـارة فيها لم يكن نهـاية للمتابعة بقـدر ما كان بداية لعهد من النضال والكفاح لتأييد سلطته وتثبت دعـائم دولة الامويين بالاندلس كدولة موحدة متماسـكة أمـام الاخطار المحدقة بهـا ٠

وهكذا عمل كل جهده لجعل الاندلس متماسكة وموحدة والقضـاء على الفتن فضـلا عن جيوب المقـاومة النصرانية فى الشـمال والشـمال الغربى للبلاد تنتظر الفرصة للوثوب على البلاد التى تعاونها مملكة الفرنجة خلف جبـال البرينة (البرانس) رغبة فى تمـزيق المسلمين فى الاندلس وانتزاع أطراف الامارة منهم وتصفية مناطق النفوذ الاسلامى قرب جبـال البرانس ٠

بالاضـافة الى خطر العباسيين الذين لم يسلموا بعد بضياع هـــذا الاقليم الهـام وتربصهم بعبد الرحمن انتظارا لفرصة مواتيـة لطـرده من الاندلس ٠

وهكذا كان على عبد الرحمن أن يواجه كل هــذا بالصـبر والمثـابرة والعـــزم ٠

وهكذا نجح فى النهاية فى ارسـاء دعائم ملكه وبعث الدولة الاموية فى ذلك القطر النائى لتبقى وتزدهر روحا طويلا من الزمن ٠

ويذكر المؤرخ الشهير دوزى Dozy ان نجاح عبد الرحمن فى القضاء على كل هذه العقبـات يعد أمرا بالغ الاهمية حيث كانت هذه دعوة عـامة تدعمها الخـلافة العباسية الشرعية ٠

وهكذا قضى عبد الرحمن أكثر من عشرة سنوات فى القضـاء على الثورات الداخلية وان كان ذلك قد استنفذ جانب كبير من جهوده ونجح فى النهاية فى كسر شوكة كل المعارضين كما نجح بفضل دهائه وسياسته فيما فشل فيه من قبله من حـكام الاندلس السابقين وهكذا توطد له الحكم داخليا وكان عليه أن يواجه الاقطار الخارجية ٠

عبد الرحمن الداخل ومواجهة الاخطار الخارجية

واجه الامير الاموى أحداث خارجية عدة مهمة وخطيرة وهى الاخطار التى داهمت الاندلس في الخارج نتيجة اعتداءات خارجية ودور المسلمين في ردها ٠

وقد كان لها ارتباط بالحياة فى الاندلس ٠ فبعد اخماد الثورات الداخلية التى كلفته عشرة سنوات من الكفاح والحملات المتواصلة كان الامير عبد الرحمن قد قضى أكثر من عشرين عاما فى حروب داخلية (٧٥٥ ـ ٧٧٦م) واذا كانت الثورات الداخلية التى استهدفته من داخل فئات الاندلس بمختلف انتماءاتهم القبلية الا انه فاز بالتحدى وانتزاع النصر من خصومه لكن ذلك انعكس بشكل خاص على السياسة الخارجية التى لقيت الاهمال مؤقتا مما أتيح لاعدائه المجاورين من بقايا الدولة القوطية الذين اعتصموا فى المناطق الصخرية فى الشمال الغربى من الاندلس أن يصنعوا من هناك نواة الفكرة الوطنية لاستعادة الاندلس من المسلمين فاذا بهم قوة تأخذ طريقها الى النمو فى زحمة التطاحن السياسى بين المسلمين وتزداد توسعا على حساب حكومة قرطبة الاموية وقد تعرض الاندلس أيام عبد الرحمن الى محاولة قام بها شارلمان ليس هو (صاحب معركة بلاط الشهداء) للاستيلاء على سرقسطة الثغر الاعلى ولو وفق شارلمان هذه المرة لتعرض مصير الاندلس للخطر ولتدفع شرلمان في الاستيلاء على العديد من المدن الشمالية ٠

ومن حسن الحظ أن الاندلس كان موحدا متضامنا تحت لواء عبد الرحمن فى ذلك الوقت فتمكن من النجاة من الخطر المحدق به وللاسف الشديد ان الذين لفتوا نظر شارلمان الى الاندلس ودعوه لغزوه ووعدوه بالمساندة كانوا من زعماء المسلمين الاندلسيين المعارضين لعبد الرحمن الاموى والذين بلغ بهم الحمق والعمى للاسلام حدا للانتقام من عبد الرحمن الى درجة أن هانت عليهم الديار والاسلام والايمان والعروبة وأن يعرضوا الاندلس للخطر فى سبيل أحقاد شخصية أو مكاسب دنيوية أو شهوة الحكم والسلطان ٠

اذ نجد هؤلاء الزعماء يذهبون الى شرلمــان للقاءه فى ولاية وستفاليا فى غرب المــانيا الاتحادية حاليا واتفقوا معه على أن يساعدوه فى الاستيلاء على سرقسطة ٠

وتم اعداد الخطة ٠ واقترن اسم شرلمــان فى تاريخ الاندلس الاسلامى وفى التاريخ الصليبى العام بالحملة الشهيرة التى اخترق بهــا جبــال البرينة محاولا الاستيلاء على سرقسطة وهى أول مبادرة هجومية صليبية مسيحية أوربية ضــد المسلمين بعد الحملات التى قاموا بهــا فى أراضى فرنسا الجنوبية واقتربوا من عاصمتها باريس الحالية (٣٠ كيلو متــر جنوب باريس) « بلدة سانس » ٠

وقد جاءت الفرصــة لشارلمــان للقيــام بحملته بعــد أن وفــرت له البابوية الدعم المــادى والمعنوى والعسكرى عاقدة آلآمال الكبرى على طرد المسلمين من هذه الديار ففى عام ١٦١هـ/٧٧٨م قام تحالف سياسى بين بعض زعمــاء المسلمين ودبروا مؤامرة للقضــاء نهــائيا على عبد الرحمن الداخل وجمعوا قوات من افريقية (المغــرب) بعد أن نكثت بهم الخــلافة العباسية لانهــا أوقفت اهتمامها بالاندلس ٠

ومن هنا كان التآمر يأخذ بعد خارجيا خطيرا هو السابقة الاولى فى تاريخ الاســلام للاتفاق مع قوى خارجية معــادية لغــزو الامــارة الاموية الاندلسية فى وقت لم يكن فيــه عبد الرحمن قد فرغ للتو من القضاء على ثورة الفاطمى واعتقادهم بأن القوة الاوربية هى الوحيدة التى تضـــمن استمرارها فى مواجهة الامير الاموى ٠

وكانت نقطة سوداء شاذة فى تاريخ الاسلام فى الاندلس وخيــانة ومعرة لا تغتفر أبد الدهــر وموقف مخــزى ومحــزن ومنحــرف بل تبــدى صورة شاذة الى حــد كبير حيث تنهار أمــام لوثة السلطة والحكم المبادىء والاخلاق والدين والقيم والتقاليد العربية وهى قضية لا مثيل لها فى تاريخ الأندلس دون أن تتقيد بحدود الزمــان والمكان ولا أية أبعــاد أخــــرى حيــاتية ٠

وهكذا رحب شارلمان بالعرض وكانت ظروفه العسكرية مواتية فأخذ فى اعداد حملة أراد لها أن تكون من أضخم الحملات ليتاح له تحقيق أعظم انجاز حربى تحقيقا لهدف طرد المسلمين من الاندلس واعادتها الى حظيرة المسيحيين ان أمكن ذلك وكان على شرلمان تنفيذ هذه العملية بعناية تامة على الرغم مما كان يشغله هنالك فى القارة الاوربية من مشاريع سياسية وعسكرية وحروب طاحنة بينه وبين اللمباردين فى ايطاليا والسكسون فى بعض جهات ألمانيا والياغارن والافاو على الحدود الشرقية للمملكة الفرنجية •

ولهذا كان يرقب الاحداث فى الاندلس متحفزا متحينا الفرصة المواتية لاخراج هذه السياسة الى حيز التنفيذ وكان شارلمان عندما ذهب اليه رجال المؤامرة المسلمين الاندلسيين (سليمان بن يقظان الكلبى أو الاعرابى ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلى ، والحسين بن يحيى والى سرقسطة) •

وكان شارلمان حينئذ فى ساكس فى مدينة بادريورن فى شمال غرب المانيا بعد أن انزل بالسكسون أشد أنواع التنكيل وأجبرهم على اعتناق المسيحية (لاحظ كيف كان يتم نشر المسيحية بالقوة والسيف والقهر) •

وهكذا تقدم رجال المؤامرة معاهدين شارلمان على تسليمه ما فى حوزتهم من مدن الشمال لاسيما سرقسطة •

وتذكر الروايات العربية واللاتينية والفرنجية أن الدعوة لشارلمان لم تكن الا من هؤلاء الخونة الثلاث ولم يكن من قبل أمير ليون (جليقية النصرانى) كما ذهبت بعض الروايات المسيحية الاسبانية ولكن ربما نجد هذه الرواية قبولا لاسيما انه يستبعد أن تتم الخيانة فى هذا العصر الاسلامى المبكر ولازلنا فى منتصف القرن الثانى الهجرى لاسيما أن رواية دعوة أمير جليقية وجدت رواجا وتأييدا من بعض المؤرخين المحدثين لاسيما أن نصارى الاندلس الشماليين كانوا دائما فى تحفز لاسترداد اسبانيا من المسلمين وعملهم الدائم على مضايقة قرطبة كلما سنحت لهم الظروف •

غير ان موافقة شارلمان على هذه المقترحات السابق الاشارة اليها لم تكن اقتناعا منه بقضية الثوار فى شمال أسبانيا ورغبة فى معاونتهم لتحقيق أهدافهم هناك وانما كانت لتنفيذ سياسته فى أسبانيا وتأمين حدوده الجنوبية وتحقيق مشروعه واحياء الامبراطورية الرومانية التى طالما سعى لتحقيقها فضلا عن أن ذلك كان عنصرا هاما فى مؤامرة دولية كبيرة واسعة النطاق دبرت للقضاء على عبد الرحمن الداخل وشاركت فيها البابوية والخلافة العباسية على عهد الخليفة المهدى العباس الذى تابع سياسة المنصور لاسترداد الاندلس من عبد الرحمن ·

ولقد كان تقارب الخلافة العباسية من الدولة الفرنجية واشتراكهما فى هذه المؤامرة يرجع الى عدائهما المشترك للدولة الاموية فى أسبانيا من ناحية وضد الدولة البيزنطية المتاخمة للعباسيين من ناحية أخرى (أنظر العبادى فى تاريخ المغرب والاندلس ص ١٠٦) ·

وتذكر الروايات الاوربية الفرنجية أن الملك « بيبين القصير » كان يسعى من قبل الى توطيد علاقته بالخلافة العباسية وأرسل عام ٧٦٥م سفاره الى بغداد فى هذا الشأن استقبلت بحفاوة بالغة فى بغداد ورد الخليفة المنصور على ذلك بارسال سفاره الى ملك الفرنجة بعد ذلك بنحو ثلاثة أعوام ٧٦٨م ·

واستغل شارلمان كل الظروف المحيطة بالحملة وأشعل روح الحماس الدينى المسيحى المجنون والحريصة على الحرب فى سبيل المسيح سواء أكان فيما وراء الراين والدانوب أو قبائل الافار أو ضد الدولة الاسلامية فى أسبانيا واتخذت الكنسية والبابوية هذا الاتجاه وأذكت روح القتال ضد المسلمين الذين أسمتهم الكفرة فى الجنوب فاذا كان الفرنجة قد نجحوا فى طرد المسلمين من جنوب فرنسا الى ما وراء البرينة فلا مانع من تتبعهم وراء جبال البرينة للقضاء عليهم واعادة الصليب الى ربوع أسبانيا أو على الاقل فى الجزء الشمالى منها حماية للدولة المسيحية فى فرنسا ·

وفى شوال ١٦١هـ/٧٧٨م سار شارلمـان نحو الاندلس فى جيش ضخم فعبر جبـال البرانس من الشرق أى من ناحية « تربونة » ودخلت بعـض الفرق فى ممر فى الجـزء الغربى من الجبال يسمى (ارنشغالة) أو « باب الشزرى » .

وكان الاتفـاق أن يعاونه حلفـاؤه المسـلمين اضـافة الى الشبكش (الباسك) ولكن بعـد أن اسـتولى شارلمـان على مدينـة « بنبلونة » رأى المسلمين من أهل الثغر الاعلى ضرورة الوقوف أمام تحرك شرلمـان ومقاومة الغزو الاجنبى لبلاد الاسلام والمسلمين ورفضوا تسليم مدينة سرقسطة وطال حصار شرلمـان لها حتى قدوم فصل الشتاء فقرر العودة وانقلب عائدا الى بلاده فى عام ١٦١هـ/٧٧٨م .

واتخذ مسلمو الشمال موقفـا ضده اضافة الى حلفائهم (البشكونش) الباسك فقرروا الهجوم على مؤخـرة جيشه عند عبوره المضـايق وانقض المسلمون على مؤخرة الجيش التى كان يقودها فارس من اقليم بريطـانيا يدعى (رولاند Roland) ومزقوا المؤخرة وقتل رولاند ووقع قتـال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شرلمـان .

وكانت الخطة المعدة أن ينحدر شرلمـان بجيوشه الى شـمال الاندلس وفى نفس الوقت ينزل عبد الرحمن بن حبيب الفهرى حاكم المغرب فى أسطول بحـرى وجيش كبير من البربر على الساحل الشرقى للاندلس فى مدينـــة تدمير (مرسيليا) حيث يبدأ هجومه فى هذه الجهـات وبدأ يجرى تطويق عبد الرحمن للقضـاء عليه ثم يجرى اعلان تبعية الاندلس للخليفة العباسى صاحب الاندلس الشرعى .

وبادر عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بتنفيذ الشـق الخـاص به فى المؤامرة فأنزل جيشه وأسطوله على ساحل تدمير (مرسيليا) وذلك قبـل وصول شرلمـان واستطاع عبد الرحمن الداخل انزال ضربة بخصمه الفهرى القادم من المغرب وأنزل ضربة قاصمة استطاع بها سحق جيشه وقتله وأشعل النيران فى أسطوله قرب تدمير (مرسيليا) ليقضى على عنصر هـام من عناصر المؤامرة .

ومن جانب شرلمان كان ينوى ضم المناطق التى يستولى عليها فى الاندلس الى دولة الفرنجة او اخضاعها لنفوذ الفرنجة وكانت حقيقة الروايات التاريخية تذكر ان شرلمان عرض مشروع حملته على البابا قبل خروجه وايده البابا فى ذلك الا أن ذلك لا ينفى أن شرلمان كان يهدف الى تحقيق مصالح سياسية عليا اكثر مما كان خارجا من أجل المسيح ونصرة الدين ٠

وتذكر بعض الروايات الحديثة أن شرلمان رفع الحصار عن سرقسطة وقرر العودة الى بلاده بعد أن يأس من معونة العباسيين ٠

وتذكر بعض الروايات أيضا ان الامير عبد الرحمن الداخل أمد أهل الشمال بالسلاح والمال وفرقة من جيشه محفزا اياهم على مقاومة شرلمان ٠

وهكذا كانت عودة قوات شرلمان وكان ذلك على الارجح فى النصف الثانى من اغسطس ٧٧٨م ذى القعدة ١٦١هـ وأحدثت هذه النكبة صدى واسعا فى مختلف الاوساط الاوربية والمسيحية ٠

وهكذا تبدد حلم شرلمان فى ازالة السيادة الاسلامية عن الاندلس وتكوين امبراطورية على النسق الرومانى ولهذا لم يحاول شرلمان اعادة الكرة وان ظلت السياسة الفرنجية بعد ذلك تسير فى نفس الاتجاه وتتحين الفرصة لاعادة التدخل فى شئون الاندلس ٠

وبعد ذلك بعامين سار عبد الرحمن الداخل الى سرقسطة فقضى على بقايا الثائرين ومهد أمور اقليمها ونظمه ودخل « بنبلونة » عاصمة (الباسك) وعاهدهم على الخضوع للمسلمين ٠

وكان ذلك عام ١٦٣هـ-١٦٤هـ/٧٨١م وهكذا فوت عبد الرحمن على الفرنجة فرصة التدخل فى هذه الاقاليم وضبط الامور واستتباب الامن والقضاء على الفتن يقلل من فرص عودة الفرنجة الى شمال الاندلس ٠ ولقد ترتب على الكارثة التى حلت بجيش شرلمان أن ارتفعت الروح المعنوية للمسلمين وبدأوا يهاجمون جنوب فرنسا ٠

وتذكر بعض المصادر العربية التاريخية أن الهجوم على مؤخرة جيش شارلمان كان تدبيرا عربيا أعده الامير الاموى عبد الرحمن الداخل ان المصادر الاوربية تعطى الدور الاساسى فى هذا الهجوم للمسلمين وربما يكون المقصود بذلك انها حولت قصة مقتل « رولان » الى اسطورة واعطاء مصرعه خلفية صليبية لبقية الشعور الاوربى ضد المسلمين فى الاندلس والحث على طردهم من هذه الديار ٠

وعلى الرغم من ترك المسلمين لاقليم جليقية فى الشمال الغربى من الاندلس الا ان النشاط المسيحى الاسبانى فى عهد عبد الرحمن الداخل لم يكن قد وصل بعد الى المرحلة التى تؤهله بأن يكون خطر على حكم المسلمين القوى فى عهد عبد الرحمن الاول

لقد كانت هناك مجرد بدايات تتعثر ثم تعيد المحاولة دون كلل فترسم للاسبان خطة طرد المسلمين عبر القرون الطويلة ولقد كانت مملكة « استورياس » أو استورقة المجاورة لجليقية أخطر التجمعات الاسبانية المجاورة للمسلمين وكان ملكها « فرويلة » Fruala معاصرا لعبد الرحمن الداخل وكان رائد سياسة التوسع فى أملاك المسلمين وانه ربما قام بسلسلة الهجمات ضد المسلمين فى المنطقة الشمالية الغربية وان دخل فى صراع مع المسلمين ٠

وفى أحد المعارك قتل فيها الامير عمر بن عبد الرحمن الداخل وتذكر المصادر ان الامير الاموى أرسل حملة تاديبية عام ١٥٠هـ/٧٦٧م الى استورقة وقادها مساعده « بدر » فتوغلت شمالا حتى مدينة الفيا Alava وحققت قدرا من النجاح بفرض السيادة الاسلامية على هذه الاماكن وتوقف نشاط هذه الامارة التوسعى وسادت فترة من الهدوء والسلام بين الدولتين الاسلامية والمسيحية فى الشمال التى كانت لا تزال امارة صغيرة لم تكن تشكل خطرا مباشرا على الدولة الاسلامية فى عصر الداخل ٠

وهكذا كان قدر الامير الاموى الذى دخل الاندلس وهو فى عنفوان شبابه تقابله هذه التحديات والعقبات انه استطاع الانتصار فى معركة التحدى وخرج منها ظافرا منتصرا لما تمتع به من خصائص فذة ذو ارادة فولاذية والذى لاحقته المؤامرات طوال ثلاثين عاما خرج منها كالطور الشامخ

ولم تستطع كل هذه العوامل أن تنال منه أو تحط من عزيمته وصلابته وقدرته على الانتصار ٠

وقد قام بالعديد من الاصلاحات والتى منها مسجد قرطبة الكبير الذى بدأ فى بنائه فى بداية عام ١٧٠هـ/٧٨٦م ٠ وأتمه من جاء بعده واصبح هذا المسجد من أعظم المنشآت العمرانية وكذلك انصرف الى تثبيت دعائم دولته وقام باستدعاء بقايا بنى أمية ليستعين بهم فى أمره وعهد اليهم بمسئوليات كبرى ٠

كذلك فانه أعطى الفرصة كاملة للتفرغ لبناء دولته وجعلها تضارع أكبر الدول المعاصرة لها ٠

ولقد كانت أعظم انجازاته هو خلق دولة موحدة تتمتع بأجهزة مدنية وعسكرية لاول مرة فى تاريخ الاندلس الاسلامية بعد أن ظلت لاربعين سنة خلت تفقد مفهوم الدولة حتى أنهى عبد الرحمن الداخل كل هذه الامور فكان له الفضل فى توحيدها جغرافيا وسياسيا وتاريخيا وثقافيا واخضاع الزعامات التى كانت وراء النزعات الانقسامية ٠

وكانت اداته القوية جيشا قويا ذكر عنه المقرى فى كتابه نفح الطيب أن قوامه كان مائة ألف جندى هم عماد قوة الدولة وركيزتها الكبرى وفى عهده سطعت قرطبة بما يليق بها كعاصمة لدولة مستقلة تعج بالحركة الدائمة فقد أراد لها الامير ان تكون صورة براقة لدمشق الامويه وان كانت أكثر تأثرا فيما يتعلق بطراز البناء وهندسة البيوت وفن العمارة والثقافة والنواحى الحضارية الاخرى ٠

وقد تحولت حكومته المركزية الى أداة مطواعة فى قبضته مسخرة لخدمة الاهداف العامة للدولة وكانت السلطة محصورة كلها فى يد الامير فهو المسئول الاول السياسى وهو كذلك القائد العام للجيش لكنه كان يستعين بالمستشارين الذين كانوا يقومون ببعض الاعباء فى ادارة دفة الامور لكن عبد الرحمن توفى فى العاشر من جمادى الآخرة عام ١٧٢هـ/٢ أكتوبر

٧٨٨م وهو فى سن الثامنة والخمسين من عمره بعد أن حكم الاندلس ثلاثة وثلاثين عاما كلها عمل متواصل ومصاعب وأهوال ٠

فقد أنقذ بلد اسلاميا من الانهيار والاستسلام للقوى المتربصة بــه شمالا ولولا دخوله الاندلس فى تلك الفترة الحرجة من تاريخ الاسلام فى الاندلس لتغير مسار التاريخ الاسلامى فى هذا البـلد بصورة عكســية ولاقتلع الاوربيين الاسلام فى فترة وجيزة لكن عبد الرحمن الداخل أنقذ بلدا ووضع أساس تاريخ شعب وحضارة أمة لم يسترح يوما منذ أن تولى الامارة فى ذى الحجة عام ١٣٨هـ/٧٥٦م حتى وفاته ٠

وعندما توفى عبد الرحمن مخلفا العرش لابنه هشام ترك دولة ثابتة قوية الاركان فلم يكن على ابنه هشام الا أن يسير فى خطوات أبيه التى بذل الجهد والعرق والكفاح قادما من العراق وصــولا الى الاندلس لبنــاء دولة أمــوية ٠

وهكذا انتهت حيــاة عبد الرحمن الداخل ولن نقول عنه الا ما قــاله عنه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى وهى شــهادة معاصر أطلق عليــه لقب « صقر قريش » حيث قال صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذى تخلص بكيده من سنى الاسنة وظبأة السيوف يعبر القفار ويركب البحر حتى دخل بلدا أعجميا ، منفردا بنفسه ، فمصر الامصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمته ، منفردا برأيه وبنفسه ، مؤيدا برأيه استصحب لعزمه وطد الخلافة بالاندلس وافتتح الثغور ، وقتل المــارقين وأذل الجبابرة الثائرين ٠

لكن من وجهة نظرى أرى أن عبد الرحمن الداخل أخطأ خطأ كبيرا فى تكوين جيشا من الصقالية والذين وصل عددهم الى اكثر من أربعين ألف جندى كان من بينهم حرسه الخاص وخيرة جنده ٠

وكان العاملون من أولئك الصقالية ، وهذه القوات الصقالية الذين كان عبد الرحمن يشتريهم وهم صــغار ثم يربيهم تربية عسكرية ودينيـــة اسلامية ليكونوا جند الامارة وخدما لها فى شئون القصر والحكم وكان

اسم الصقالبة فى الاصل هو معناه « السلاف » المانى الاصل من الجنس السلافى وهو اصل روسى ولكنهم حقيقيا كانوا يتكونون من كل أنحاء أوربا ٠

وكان هناك تجار يقومون بشراء هذه الاعداد من الدول القريبة والمجاورة للاندلس ثم يقوم التجار المسلمين بشراءهم من التجار اليهود الذين تخصصوا فى اجراء عمليات شراء هؤلاء الشبان الاسرى وقد استمر عبد الرحمن فى شراء هؤلاء الصقالبة حتى وفاته ٠

وفى حقيقة الامر فان عدم الاستعانة بأهل البلد الاندلسيين المسلمين والمسلمين القادمين من الشرق أو بلاد المغرب وتكوين جيش عربى اسلامى يكون له طابع اسلامى واحد قد أوجد مجالا للاستعانة بالمرتزقة (المماليك) والتوسع فى هذا المجال مستقبلا مما كان يشكل خطرا على كيان الدولة الاسلامية المحاطة بالاعداء من كل جانب فيما عدا الجانب الجنوبى (المغرب) ذلك لان هؤلاء الصقالبة لم يكن لهم عمق الولاء للاسلام والعقيدة الاسلامية ٠

قد يكون لعبد الرحمن عذره فى الاستعانة بهذه القوات وشراءهم لكن الفتوحات الاسلامية الكبرى قد تمت بأيدى أصحاب الرسالة الاسلامية الخالدة العرب ومن انضم اليهم من المسلمين ٠

لكن مهما يكن القول أن هذه الاعداد من الافراد التى تصل الى أربعين ألف جندى كان من الاصلح أن تكون أربعين ألف داعية اسلامية يرسلون الى البلاد التى قدموا منها بعد أن كان يتم اسلامهم وتعليمهم العلوم الاسلامية وحفظ القرآن الكريم والاحاديث النبوية ثم الدفع بهم الى مختلف البلاد الاوربية نشرا للدعوة الاسلامية ولكن الاخطار المحيطة به آملت عليه أن يسير فى هذا الطريق ٠

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

(١٧٢ ـ ١٨٠هـ ـ ٧٨٨ ـ ٧٩٦م)

غاب الامير عبد الرحمن الاموى عن المسرح السياسى فى قرطبة عام ١٧٢هـ/٧٨٨م عن عمر يناهز الرابعة والخمسين عاما بعد سنوات ناهـزت الثلاثين عاما قضـاها فى الاندلس وادركته الشيخوخة قبل الاوان وقبل أن يصل اليها ويحين أوانها ، تاركا وراءه الفراغ التقليدى الذى يظهر بوفاة العمالقة الافذاذ ، ذلك لان عبد الرحمن فشل فى أن يجد حلا لمشكلة ولاية العهد ومـات دون أن يصل الى قرار لها وتلك معضلة النظام الوراثى فـلا يكاد الابن المعقودة له ولاية العهـد يعبر الى السـلطة الا وتكون الفوضى تتواكب خلفه والانقسام يحيط به ٠

ذلك لان عبد الرحمن قد وقع فى مأزق الاختيار والمفاضلة بين الابن البكر سليمان الذى قدم معه من الشرق من بلاد الشام بصحبة بدر وسـالم وكان طفلا اثنـاء هروبه من الشام وقبلها العراق وصولا الى الاندلس ٠

وكان حاكما على مدينة طليطلة وبين ابن آخـر هو هشام الذى ولد فى الاندلس من أم اندلسية من جليقية ٠ ويبـدوا انه كان ميـالا لان تكون الامارة من بعده لابنه هشام وربمـا بتأثير ظروف عائلية ٠

بينما يذكر ابن الخطيب فى كتابه أعمال الاعلام ان عبـد الرحـمن الداخل عندما حضرته الوفاة وكان سليمان فى طليطلة وهشام فى مدينـة « ماردة » قد طلب من ابنه الثالث عبد الله الاصغر ان من يسبق فى الحضور الى قرطبة من اخوته أن يقدم اليه خاتم الامارة ٠

فقدم هشام قبل سليمان فسلمه الخاتم وادخله القصر ٠ وهكذا فـاز هشام بالامارة دون أخيه الذى غضب وسخط رافضا الاعتراف به رغم تقرب هشام اليه لكن ربما كان يرى أحقيته فى الامـارة ٠

وهكذا قام سليمان هذا بالثورة وسانده اخاه الثـالث عبـد الله لكن

هشام سار الى طليطلة لقمع ثورة الاخوين (سليمان وعبد الله) واستطاع القضاء على التمرد وغادر الاخوين الاندلس الى المغرب عام ١٧٤هـ/٧٩١م ٠

وقد انتهز الفرنجة فرصة نشوب الحرب بين هشام واخوته فقاموا بالاستيلاء على المنطقة الساحلية فى جنوب سيتمانيا وعلى ارخبيل أورجال عام ٨٧٩هـ الا ان هشام اثبت همة ونشاط فى محاربة الفرنجة وعدم السماح لهم بالتدخل فى شئون امارته فسير جيشا كثيفا الى الشمال عام ٧٩٢م/ ١٧٦هـ لاسترجاع ما استولى عليه الفرنجة منتهزا فرصة انشغال شارلمان بمحاربة الاقازد وعدم ارسال نجدات الى الحدود الجنوبية لفرنسا وعبرت القوات الاسلامية بقيادة (عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث) جبال البرانس واستردت البلاد الحصينة (جيرندة) واستولت على العديد من القلاع والحصون وزحف الى اربونة قاعدة الثغر القديم وقد افتتحها فى هذه الغزوة لكن شرلمان أرسل قوات بقيادة ابنه لويس لصد المسلمين والتقت القوات على ضفاف نهر انبيو Ombieu بين اربونة وقرقشونة وجرت معركة وانتصر فيها المسلمون ومنى الفرنجة بخسارة فادحة فى هذه المعركة ٠

وقد ساعد على ذلك الانتصار انه قدر للاندلس أن تنعم فى ظله بالهدوء الذى افتقدته من زمن بعيد ذلك لان الحوادث التى حدثت فى بداية عهده لم تكن من الخطورة بحيث تحرم البلاد من مواجهة الاخطار الخارجية ومتابعة سيادة الدولة وهدوء العاصمة قرطبة والاقاليم الاندلسية ٠

ويثنى معظم المؤرخين على هشام بسبب رضى الفقهاء عليه ولذلك أطلق عليه هشام الرضى وقيامهم بالدعوة له وتصويره فى صورة الامير التقى الورع ٠

وقد عرف انه كان يخرج ليلا ويطوف بالمساجد فاذا وجد فيها اناسا عاكفين على قيام الليل اعطاهم مالا ٠

ومن هنا كان يبدى اهتماما بالمساجد وعمله على أن تكون ملتقى اهل

العلم والتقاه فكان يغدق عليهم الاموال • وقد اضاف جناح كبير الى المسجد الكبير فى قرطبة ورمم القنطرة وقام بأعمال عظيمة •

وقد شهد عصره انتشار الاسلام انتشارا واسعا واستمرار انطواء الشعب الاندلسى تحت لوائه بعد دخول المسلمين هذه البلاد وبدأت تمتد جذوره فى أعماق التربة الاسلامية الاندلسية أكثر من العهود السابقة وكذلك نمو التنظيمات التى وضعها والده عبد الرحمن بدا أكثر من ذى قبل •

وهكذا أصبح الاندلس بلدا اسلاميا مستقلا عن الخلافة الاسلامية العباسية بعد أن كان خاضعا لمركز الخلافة الاسلامية الاموية مع بقائه احدى بلدان العالم الاسلامى وذلك بعد قيام الدولة العباسية وصار الاندلس بلدا مستقلا بذاته لا يمثل خطرا على الكيان الاسلامى الكبير بل بقى يحمل لواء الاسلام فى الداخل والخارج حصنا فى الغرب يدافع عن ديار الاسلام ويصد كيد الاعداء الذين يتربصون بها ولازالوا حتى الآن •

وقد نمت العلوم وازدهرت الحركة الثقافية وتعمقت الحركة الفكرية واتسع نطاق التعليم وعمت اللغة العربية أرجاء البلاد وصارت لغة العلم والتعليم وغدت الاندلس احد مراكز الثقافة الاسلامية الكبرى فى العالم لاسلامى والعالم المعاصر ان لم تكن كعبة العلم والعلوم لاوربا واستمرت الاندلس فى عهده حيث سار على سياسة أبيه فى تقدم وتحسن الاحوال على أسس من الشريعة الاسلامية الغراء والنهج القرآنى القويم •

ومما يذكر لهشام بن عبد الرحمن أن أهل الاندلس أخذوا يتفقهون على مذهب الامام أبى عبد الله مالك بن أنس الاصبحى المدنى بن مالك (٩٥ ــ ١٧٩هـ) امام دار الهجرة وفقيه الامة •

وهكذا رسخت تعاليم مالك منذ ايام هشام بن عبد الرحمن الداخل واتجه عدد كبير من الاندلسيين الى الشرق الاسلامى كما اتجه الكثير من العلماء المشارقة الى الاندلس عملا على ترسيخ المفاهيم الاسلامية •

وقد رحل أيام هشام بن عبد الرحمن بعض رجال العلم الاندلسيين الى الحج والتقوا بالامام مالك بن أنس فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظم صيته فى بلاد الاندلس فانتشر يومئذ رأيه وعلمه بالاندلس وكان رائد الجماعة فى ذلك الشيخ (شبطون) ٠

وهكذا شهدت الاندلس استعرابا واسعا لسانا وفكرا وأسلوب حياة وصار الجميع يعدون أنفسهم عربا سواء أكانوا أرومة عربية أو بربرية أو أندلسية ٠

وجعلت اللغة العربية القرآن الكريم لغة جميع طوائف الشعب واتخذتها الكنسية الاسبانية لغة لها وترجمت الانجيل الى اللغة العربية وكانت تقام بها الصلاة والترانيم وترجمة الكتاب المقدس ونصوص الصلوات تعنى انتشار اللغة العربية على نطاق واسع ٠

ويشهد لهشام فضل الاسراع فى تعريب الاندلس وتحويل هذا البلد الى مركز من مراكز الحضارة العربية الاسلامية وعلى الرغم من أن مقام حكام بنى أمية قائم فى أوربا الا ان الحياة كانت صورة لحياة الشرق الاسلامى ٠

وهكذا كانت فترة حكم هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ ـ ١٨٠هـ) رغم قصرها الا انها حفلت بالانجازات العسكرية والعلمية والثقافية وكانت بداية طيبة لنشر اللسان العربى فى أرجاء الاندلس وخطوة على طريق الحضارة الاسلامية المتقدمة فى أجواء التخلف الاوربى المتعطش لطرد الاسلام ٠

وتعود حالة الهدوء الى ان هشام كان يبدى لينا وورعا وكان سياسيا يجتذب اليه الناس لذا ارتاح اليه الناس لانهم كانوا قد تعبوا من العنف ولم يعكر صفو فترة حكمه الا بعض الامور البسيطة قام بها بعض اليمنيين وخاصة فى اقليمى سرقسطة قطلونية ومحاولات بعض سكان الشمال للاتساع جنوبا ولكن قواد هشام كما ذكرنا استطاعوا التصدى والوقوف فى وجه هذا التيار القادم من الشمال وتتابعت الحملات التأديبية الى قلاع الاسبان فأرسلت عدة حملات منها واحدة عام ١٧٥هـ/ ٧٩١م وقبلها حملة أخرى

ثم حملة ثالثة عام ١٧٦هـ/٧٩٢م وكانت الى بلاد استورقة (استبورياس) التى كان يملكها فى ذلك الوقت « الاذفونش » وحققت الحملة الاولى بعض النجاحات واستطاعت الحملة هزيمة الفونسو الثانى ٠

وكانت هذه آخر حملات هشام التى كانت تسمى بالصوائف (فصل الصيف) ولم تقتصر نشاطات هشام الحربية على استورقة بل كانت جيوشه تتحرك الى جنوب فرنسا ٠

وكانت أول حملة اسلامية تتقدم منذ معركة بلاط الشهداء ٧٣٢م كانت هذه الحملات تعبر عن قوة النظام الاموى فى قرطبة حيث أن عبور القوات الاسلامية جبال البرنية تعنى قوة الدولة وقدرتها على التقدم شمالا والوقوف فى وجهه الاحلام التوسعية المتوقعة ضد الدولة الاسلامية فى الاندلس حيث كان لهذه الحملات مكانة مهمة فى تاريخ العلاقات العسكرية بين الامارة الاموية وجارتها مملكة الفرنجة ٠

ويبدو ان جيش هشام اكتفى بالانتصار على قوات الفرنجة وعاد الى قرطبة دون أن تحتفظ هذه القوات بالمواقع التى فتحتها لان الفرنجة عادوا عام ١٧٩هـ/٧٩٥م واحتلوا بعض هذه المناطق على تخوم جبال البرنية وكرروا الهجوم فى السنوات التالية أى فى أواخر عهد هشام ٠

وكانت أهم الاحداث التى حدثت فى عهد هشام بن عبد الرحمن هو دخول مذهب الامام مالك بن أنس وانتشار المذهب المالكى على مذهب الاوزعى ، ذلك لان مذهب مالك بن أنس كان أحسن حظا فقد رزق تلاميذ نبهاء فى الاندلس استطاعوا أن يوطدوا المذهب بعد أن توطد فى مصر والمغرب وعملوا على نشره مع طائفة من أجل الفقهاء ٠

وكان هشام بن عبد الرحمن معجبا به لا يكف عن الثناء عليه لاسيما ان الامام مالك بن انس كان معاصر لهشام وكان يذكره امام تلاميذه بالمدينة خيرا ٠

فلما وفد تلاميذ مالك رحب بهم هشام وأذن لهم فى تدريس مذهب

مالك فى الاندلس ونشره بين المسلمين واخذ القضاء بالحكم به ثم اتخـــذ كبار المــالكية قضاة وفقهاء ومنهم أهل الشورى ·

وهكذا سيصبح المذهب المــالكى المذهب الرسمى للاندلس فيها ويسود بها على ســائر المذاهب الاخـرى حتى لفظ الاســلام انفاسه عام ٨٩٧هـ ·

وقد توفى هشام بعد ثمانية أعوام من حكمه فكانت سنه عندما مــات فى صفر ١٨١هـ/ ابريل ٧٩٦م لا تزيد عن أربعين عاما ·

وبوفاته تتوقف الحملات الاسلامية خلف (شمال) جبــال البرانس ، وقد افتقدته الاندلس فى مرحــلة بنــاء الصرح الاموى ورغم قصر فترة حكمه التى أمضاها امير الاندلس الا أن عصره كان مطبوعا بصفات معينة منهــا الادارة والخلقية الدينية حيث أحاط نفسه بطائفة من المثقفين والفقهاء ورجال الدين الذين هم طليعة الحــكم والدين فى ذلك الوقت ·

وكانت أهم قراراته اتخــاذه قرار تعميم اللغة العربية فى جميع مرافق الدولة وجعلها لغة تدرس فى معاهد غير المسلمين وهو أول اجراء مبكر بتعميم نشر اللغة العربية فى أنحاء الاندلس لغير المسلمين وذلك لتحقيق التآلف بين جميع سكان البـلد الواحد · · ·

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن
(١٨٠ ـ ٢٠٦هـ ـ ٧٩٦ ـ ٨٢٢م)

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم • والوى الثالث بعد ابيه وجده عبد الرحمن الذى يتولى مقاليد الامور فى الاندلس بعد أن بدات ملامح الاستقرار السياسى والاقتصادى والاجتماعى قد تتوطد وتؤتى ثمارها المرجوة لاسيما أن فترة حكمه قد زادت عن ربع قرن من الزمان مما سهل اجراء العديد من المشروعات وكان الحكم فى السادسة والعشرين من عمره عندما ارتقى عرش الامارة بالاندلس دون أن تصادفه أدنى مشاكل من أسرته رغم انه لم يكن الاكبر بين اخوته •

وتعتبر امارة الحكم بن هشام أو الحكم الاول المعروف بالربض نهاية عصر القلاقل التى كانت تعترض سير الامور فى الامارة الاندلسية ولم تحدث ثورات فى عهده بالصورة المألوفة أو المفهومة انما كانت هناك بعض القلاقل الاجتماعية أو الاقليمية ولم تكن تقصد الخروج عن الشرعية أو طاعة الامارة •

لكن فجاءته مشكلة تتمثل فى طموح أعمامه بالامارة منذ عهد أبيه ونافسوه من قبل وهم « سليمان وعبد الله » حيث كان سليمان قد استقر فى طنجة واستقر عبد الله فى تاهرت بالمغرب الاوسط فى الدولة الرستمية ، وعندما علم سليمان بوفاة أخيه هشام عبر الى الاندلس بقوات مغربية محاولا الوصول الى قرطبة لكنه فشل وقتل فى ماردة حيث مات عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م اما عبد الله فقد دخل بدوره الاندلس وصعد شمالا الى سرقسطة ليمارس نشاطه ضد قرطبة غير ان محاولته لم تلقى تشجيعا فغادر اسبانية الى بلاد الفرنجة واكتفى بأن يتولى حكم بلنسية من قبل ابن أخيه الحكم الاول •

وقد امتاز الحكم بالحزم والجدية والشجاعة وبعض ملامح العنف وامتدت فترة حكمه أكثر من ربع قرن بعد ان مهد له اباه وجده أمور الحكم

ولم يولى الدين والشريعة والفقه اهتماما كبيرا مثلما كان يفعل أباه هشام .

واذا به يفاجىء بالحوادث تدخل عليه قصره وتكاد تهز كيانه لكنه أظهر طبيعته الصلبة الجادة المتمرسة بالخطوب وعمل على تثبيت وتدعيم ملكه بالقضاء على كل الفتن والقلاقل .

وكان شرلمان امبراطور الفرنجة قد استغل فرصة اندلاع الثورة ضد الحكم ونشوب الفتنة فى الثغر الاعلى وراح يذكى نار الفتنة وسير جيشا عبر به البرنية الى الاندلس (نلاحظ توقف النشاط الاسلامى شمال البرنية وهذه ثانى محاولة لشرلمان للانقضاض على الاجزاء الشمالية من البلاد الاسلامية) حيث استولى بمعاونة الفرنجة على جيرونة (جيرندة) ثم، تقدم نحو مدن الثغر الاعلى وفى نفس العام تقدم الفرنجة تحت قيادة شارل ولويس ابنا شرلمان فاستوليا على البلاد الواقعة فى شمال البرنية لكن الحكم سارع بالسير نحو الشمال لرد هذا الخطر وأرغم الفرنجة على الارتداد شمالا بعد أن فشلوا فى اقتحام مدينة « قرشقة » بعد حصار طويل عام ١٨١هـ/٧٩٧م .

واسترد الحكم سلطان الدولة فى كل الاجزاء الشمالية فى سرقسطة ووشقة ولاردة وغيرها من المدن الثائرة فى الشمال ضد الوجود والحكم الاسلامى .

ولقد درج العباسيون منذ عهد المنصور على اقامة علاقات وصداقة مع الفرنجة لمناوءة امارة قرطبة الاموية التى ساء العباسيون قيامها فى هذا الجزء من العالم الاسلامى ونجاحها فى الحفاظ على استقلالها وسيادتها ودحر كل محاولة عباسية أرسلت للقضاء عليها وكانت رغبة شرلمان فى القضاء على سيادة امارة قرطبة وحماية حدوده الجنوبية وضم الاجزاء الشمالية من الاندلس الى دولته وقد تم تبادل رسائل مع الخلافة العباسية فى الفترة من (١٨١ ــ ١٨٥هـ) .

وكانت قد حدثت ثورة فى عام ١٨١هـ/٧٩٧م فى طليطلة على الادارة

الاموية لكنه عالجها بمنتهى الهدوء والذكاء واختـار لها قائدا هو (عمروش ابن يوسف) وأرسل حملة الى الشمال بقيـادة ابنه عبد الرحمن ووصلت الى طليطلة وتم القضاء على قادة الثورة دون أن يحس الشعب بمـا حدث وكانت أيضـا قد قامت ثورة فى قرطبة نتيجة انتشار المذهب المـالكى والتحول عن مذهب الاوزاعى وساهم فقهاء المـالكية فى انشاء هذه الثورة وقامت ثورة الربض (وهى ضاحية ممتدة وراء الضـفة الجنوبية لنهـر الوادى الكبير) وكان سببها ان الامير الحكم رفض وصـاية رجـال الدين وكان هؤلاء وراء الهاب مشاعر الناس عليه واتسع نطاق الحـركة الانقلابيـة ضـد الحـكم الاول وتحولت الى ثورة عامة تهدد عرش الإمـارة ٠

ودبر الفقهاء مؤامرة عام ١٨٩هـ/٨٠٥م ضـد الحـكم لكنها فشلت لمعرفة الحـكم بتفاصيلها ٠

وبعد اكتشاف المؤامرة تم قتل نحـو سبعين عالمـا من الفقهـــاء والاعيـان وعليـة القوم وهكذا خرج الحـكم منتصرا وخرج أشد يقظـة وأمر بتحصين أسوار العاصمة ٠

وفى عام ٢٠٢هـ/٨١٨م أى بعد أربعة عشر عاما من مذبحة الفقهاء قامت ثورة عـامة حيث دعى الفقهـاء أهـل الربض للزحف على قرطبـة والتخلص من الامير الطاغية (حسب أقوالهم) واستطاع الحكم القضاء على ثورة الربض بعد أن أعطى سكانه مهلة أيام لمغادرة الاندلس فاتجـــه فريقا منهم الى فاس عاصمة الادارسـة ومضت البقية الى الاسكندرية ثم خرجوا منها عام ٢١٢هـ/٨٢٧م وذهبوا الى جزيرة كريت (اقريطش) (راجع كتابنا الاسلام والثقافة العربية فى أوربا ، القاهرة ، ١٩٧٩م) واسس المسلمون فى كريت دولة دامت مائة وخمس وثلاثين عاما ٠

وهكذا انتهت ثورة الربض بانتصار الحكم الاول ولكنها كانت درسا بليغا له ولمن جـاء بعـده فقد أدرك هؤلاء قـوة هـذا الشـعب الاندلسى واستعداده لايقـاف الحـكام عند حدهم لاسيما ان أهل الربض الذين تـم ترحيلهم قد هاجـر بعضـا منهم الى أقليم طليطلة وشمال غرب الاندلس

وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية وذهب بعضهم الآخـــر الى المغرب وأنشأوا عدوة الاندلسيين فى فاس وتوزعت جماعات منهم فى بلاد المغرب الاخـرى وكانوا خيرا على كل البلاد التى وصلوا اليها ودعـــاة سـلام واسـلام وعمران ٠

وفى عهده استولى الفرنجة على برشلونة بعد حصـــار امتد نحـو سبعة شهور ودخلها الفرنجة ودخلت برشلونة فى حوزة الفرنجة بعد أن كانت تخضع للمسلمين طوال تسعين عاما وعدا هــذا أمرا خطيرا وسابقة فى التوسع الفرنجى حيث ان السيادة الفرنجية امتدت كثيرا جنوب جبال البرنية (البرانس) ٠

ولان الفرنجة بادروا لجعل هذه المدينة قاعدة لثغرهم الجديد (عاصمة اقليم) ولعبت هذه المدينة دورا خطيرا فى المنطقة الشمالية الشرقية للاندلس الاسلامية ولجأ الفرنجة الى تثبيت اقدامهم فى هــذه الجهــات ٠

ولقد تأثر الحــكم الى حد كبير لضـــياع برشلونة وبذل جهدا كبيرا فى استردادها حين أرسل حملة ضــخمة على قيــادتها عمه عبيــد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن الداخل ، فشن هجوما قويا على برشلونة وقضى على أحد الجيوش الفرنجية بالقرب من المدينة ولكن المدينة لم تعد الى أيدى المسلمين وان أسفرت الحملة عن معــاهدة صــلح بين الحـــكم وشرلـان نصت على احترام الهدنة فى منطقة الحدود بين الطرفين ٠

وقد ظل مفعولها ســاريا حتى وفاة شرلـــان الامبراطور ٠

وقد أنشـــأ شرلـــان فيهـــا ولاية ثغـرية تسمى (لامـــاركا هيسبانيكا La matca Hispanica) وأصبحت منذ ذلك الوقت شوكة فى جــانب المسلمين تؤرق بالهم لانها تطورت مع الزمن حتى أصــبحت كوتيه قطلونية سوف تتحد مع مملكة أرغون وتستطيع غزو الجانب الشرقى للدولة الاسلامية فى الاندلس فيما بعد ٠

ومن هنا ظهرت فكرة الدولة المسيحية على أنقاض ديار الاســلام فى

الاندلس وقد جعل الفرنجة أساقفة هـذا الاقليم الجديد تابعين لرئاسـة أسقفية (ناربون) وربطوا النظام الديرى فى هذا الاقليم بالتنظيمات الديرية الفرنسية لكنهم رأوا استمرار لتواجدهم أن يختاروا الحكم الاعلى لبرشلونة من أصل قوطى فشعر حـكام هذا الاقليم بنوع من الاستقلال التام عن سلطة الفرنجة ٠

وتحول هذا الثغر الى امارة مسيحية عرفت باسم قطالونيا وترتب على فقد المسلمين لثغر برشلونة أن تقهقرت حدودهم الى مدن الثغر الاعلى وفقدوا أهم نقط ارتكازهم فى هذه الجهات وقواعد انطلاقهم الى ما وراء جبال البرنية حيث الاراضى الفرنسية ٠

وهكذا كانت فترة حـكم الحكم الاول بداية انهيار بعض الاجـزاء الشمالية للدولة الاسلامية الكبرى وكانت ثورة طليطلة والربض بقرطبـة وثورة أعمامه سليمان وعبد الله وغيرها من المشاكل الاخـرى قد حـالت دون اهتمام الـحـكم بالمواقع الشمالية وتحصينها وعـدم القـدرة عـلى ارسـال المدد العسكرى الى حاكم برشلونة على الرغـم من صمود والى المدينة وصمم على الدفاع عن المدينة وصد هجمات الفرنجة ٠

ولقد خاطر والى المدينة بنفسه حيث خـرج من الحصـار الفرنجى المضروب حـول المدينة وحـاول الوصول الى قرطبة العاصمة والتماس عون اميرها الحـكم ولكن الحـاكم (سعدون الرعينى) وقع أسـيرا فى أيدى الفرنجـة ٠ وهكذا اضطرت المدينة الباسلة الى التسليم ٠

وكان نجاح شرلمـان فى الاستيلاء على مدينة برشلونة قد شجعه على محاولة التوغل جنوبا ومد نفذه الى أبعد من ذلك ولاسيما فى شمال شرق الاندلس وتوسـيع رقعة املاكه فأرسل عام (١٩٢هـ/٨٠٨م) جيشا بقيادة ابنه لويس لمحاصرة مدينة (طرطوشة) جنوبى برشلونة لكن الحاكم أمير قرطبة كان مستعدا لمواجهة الاخطار القـادمة فأرسل جيشا نجح فى ارغام الفرنجة على الارتداد والتخلى عن مشروعاتهم فى الاستيلاء على طرطوشة وتم فك الحصار عن طرطوشة عام ١٩٣هـ/٨٠٩م ٠

وهنـاك اقوال يذكرها بروفنسال المؤرخ الفرنسى أن ازدياد نفـوذ دولة الادارسة فى المغرب وعلو نجـم ادريس بن ادريس العلوى فى المغرب وتوجس الحكم منه بالنسبة لبلاده الاندلس دفعته الى توقيع هدنة مـع شرلـان عاهل الفرنجة واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م .

لكن سـقوط برشلونة وعقد الهـدنة مع شرلـان لم يصرفه عن تامين المنـاطق الشمالية التى يسكن بهـا سكان جليقية وقشـتالة فنجـد انه فى عام ١٨٧هـ/٨٠٣م يقوم باعداد حملة الى قشـتالة فى اطار الحمـلات الصوائف وهى لا تختلف عن كونها حملة تقليدية كانت تهدف الى تأكيد قوة الدولة وتوطيدها شمالا وكان آخـر نشاط له فى عام ٢٠٠هـ/٨١٦م حـيث أرسل وزيره (عبد الكريم بن مغيث) الى استورقة على رأس حملة بهـا كافة الطاقات العسكرية وتوغلت فى جليقية فى أقصى الشمال الغربى .

وهناك فى منطقة تعرف بوادى أرون Arun يخوض القائد الاموى معركة طاحنة ضـد جليقية وينزل بهـا ضربة قوية ثم يعود الى قرطبـة وتتوقف الاعمال العسكرية فى الشمال حتى نهـاية حكم الحكم بن هشـام ابن عبد الرحمن .

ولم يسعد الحكم بحيـاته بعد أن قضى على حى الربض بقرطبة وطرد سكانه فقد مرض وتطاولت به العـلة وحل به الندم وجعل يتمنى لو انه لم يفعل مع أهل الربض فى قرطبة ما فعل .

واستكان لبضعة أعوام قبل أن يشعر باقتراب النهاية ويختار ابنـه عبد الرحمن واليا للعهد دون صراعات عائلية دامية ليكون أول أمير أموى لا يقفز الى السلطة بالصراع .

وتوفى الحكم فى قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن الا فى يوم ٢٦ ذى الحجة عام ٢٠٦هـ/٢٢ ديسمبر ٨٢٢م بعد أن تقرر الامـر لابنه عبد الرحمن بن الحكم .

ومهما تكن من أقوال عن فترة حكمه التى زادت عن ربع قرن فانه رفض أن يكون مطيــة لنفوذ الفقهــاء وتدخلهم فى شــئون الدولة ولم تكن حياته الخاصة تتداخل مع المنصب الذى تولاه وتحمل مسئوليته ومهما تكن افعاله من قسوة وعنف وشــدة فان المحافظة على كيان الدولة من التمزق واخماد الفتنة وضرب رؤسائها كانت تقتضى أن يقوم بمثل ما قام به ٠

لكن عهده شهد أول تقدم للفرنجة جنوب جبال البرانس واستيلاءهم على برشلونة واقتطاع الاجزاء الشمالية وهكذا طويت آخر صفحات الولاة الامويين لتبدأ مرحــلة جديدة تختلف عن عما سبقها من مراحل ٠

عبد الرحمن (الثانى) بن الحكم بن هشام
ابن عبـد الرحمن
(٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ ـ ٨٢٢ ـ ٨٥٣م)

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معـاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم سليل الاسرة الاموية ومتولى مقاليد الادارة الاموية الاندلسية بعد وفاة أبيـه الحـكم الذى حـكم ربع قرن من الزمان لكن عبد الرحمن الاوسط أو الثانى حكم اثنين وثلاثين عاما حافلة بالاحداث والمهام والمسئوليات الملقاة على عاتقه والذى استطاع أن يقـود سفينة الحكم بحكمة ودراية ونجاح فائق ٠

فقد تولى الامارة فى جو خالى من المشـاكل والمنافسات العـائلية ولم تكن فترته كسابق عهدها فى المـاضى وهو يختلف اختلافا كليـا عن والده فلم يكن يؤمن بالحكم المطلق وكانت له خلقية دينية عميقة حيث كانت صلاته بالفقهاء ورجـال الدين قوية فهو أقرب من ذلك الى جده هشـــام ابن عبد الرحمن الذى قرب اليه العلماء وان كان بعيدا عن والده محـترفا السياسة بل كان عاملا بطبيعته على ازالة آثار ما فعله والده ٠

فقد كان هادىء الطبع لين العريكة وكان محبـا للناس وتحبه الناس مقربا للعلماء والفقهاء ورجـال الدين ولم يكن فيـه غدر ولا قسوة وكان به حزم وقدرة على اتخاذ القـرار المناسب وخـلال فترة حكمه الطويلة استطاع أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنين وستين عاما وأمـه أندلسـية من جليقية الشمالية ٠

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية حيث ازداد نشاط الفرنجة والعدوان على أرض المسلمين اثـر توليه الامـارة حيث كان لويس التقى وهو من كبار ملوك فرنسا قد قام بالهجوم على الاقاليم الشمالية وكذلك نشط عمل الفونسو الثانى ملك جليقية ٠

وتسلم الحكم وهو فى سن الثلاثين من عمره ولقب بالاوسط تميزا له عن جده عبد الرحمن الداخل وعن عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الاموية فى الاندلس ٠

وقد انعكست الفترة الطويلة فى الحكم على حياة الاندلس وكانت له ثقافة أدبية اسلامية فقهية واسعة وكانت فترة حكمه بداية الانتقال الحقيقى الى الدولة بمفهومها المحدد كدولة قوية ومؤسسة ادارية ثقافية وعسكرية واقتصادية متطورة ٠

وهو رابع ولاة الاندلس الامويين وشهدت الدولة فى عصره انصهار جميع العناصر الاجتماعية والسكانية فى الاندلس من مختلف العناصر فى بوتقة واحدة سواء عربية أو مستعربة وجمعهم جميعا لواء الاسلام ووحدة اللغة والدين والعقيدة مع بقاء أقلية قليلة غير مسلمة ٠

وكانت شخصيته المتدينة المتصوفة المثقفة قد ألقت بظلالها لكى يتعامل مع عبقريات العلم والادب والفن والحكمة والحضارة والتذوق الفنى والثقافى والفكرى فأصبح بلاطه محلا لكل هذه المواهب المتعددة التى تتواكب على قصره لعقد الجلسات العلمية والفكرية والدينية ٠

وفى عهده تابع الفرنجة سياستهم العدائية ضد المسلمين والامارة الاندلسية وحاولوا التدخل فى شئونها الداخلية امتدادا لسياسة شرلمان من قبل حيث عول لويس التقى (٨١٤ ــ ٨٤٠م) فى ذلك على اخضاع « الباسك » البشكنس ليؤمن طريق العبور الى شمال الاندلس لمهاجمة المسلمين فارسل لويس حملة عام ٨٢٤م/٢٠٩هـ لمهاجمة قبائل الباسك ، الا ان المسلمن تدخلوا لدفع الخطر الواقع على الاندلس ٠

وكانت قرطبة قد شجعت حكام الشمال للدخول فى صراع مع الفرنجة ونجح المسلمون بمساعدة البشكنس فى انزال هزيمة ثقيلة بجيش الفرنجة وتبديد شمله وأسر قائد القوات الفرنجية الكرنت « وابلو » وأرسل الى قرطبة حيث سجن هناك ٠

لكن حاكم برشلونة قام عام ٢١٢هـ/٨٢٨م بالاغارة على أطراف الثغر الاعلى غير ان الامير عبد الرحمن أرسل جيشا بقيادة عمه عبيد الله ابن عبد الله بن عبد الرحمن الخبير بهذه المناطق والذى سبق له أن قاتل فى هذه الجهات الشمالية فاجتاح ولاية قطلونيا وأنزل بالفرنجة عدة هزائم وعلى أثر هذه الهزائم بادرت السلطات الفرنجية بعزل دوق « تور » وطرده من منصبه عام ٨٢٨م لانه تخلى عن نصرة الامبراطور .

وفى نفس العام قام المسلمون بغزو سواحل فرنسا لان السياسة الجهادية كانت حكما عمليا على النظام فى الاندلس فمن خلالها يقوم نجاح أو فشل الامير الاموى الحاكم .

وقد كانت العوامل كلها تساعد الامير عبد الرحمن للقيام بعمليات عسكرية ضد أعداء البلاد وغيرهم الذين يتربصون بها الدوائر .

وقد كانت فترة حكمه الطويلة حافلة بالاعمال العسكرية فى مملكة قشتالة حيث أرسل اليها عدة حملات ثم تكررت هذه الحملات بشكل مكثف ودورى حتى أن الامير عبد الرحمن نفسه شارك فى احدى هذه الحملات عام ٢٢٥هـ/٨٤٠م . وشهد اقليم اراغون Aragone فى الشمال الشرقى تطورات مهمة حيث خرج حاكمها القوطى عن دفع الجزية فقام عبد الرحمن الثانى بحملة تأديبية ضد حاكم تطيلة Tudela وقضى على تمرده وتابع تحركه شمالا حتى قضى على ثورة الباسك (الشبكنس) وعقدت بنبلونة معاهدة صلح مع الامير الاموى وعدم الاعتداء على الحدود عام ٢٢٨هـ/٨٤٢م وخضعت للدولة الاموية الاندلسية ودفعت الجزية .

وكانت علاقة عبد الرحمن الثانى مع جيرانه الاستورقيين والشبكنس علاقات عدائية واتسمت بالحملات العسكرية حيث كانت شبه دورية . وقد أرسل عبد الرحمن هذا حملة الى برشلونة وما وراءها وفتحوا حصونا حولها ورجعوا الى قرطبة لكنه لم يستطع اعادتها الى حظيرة الدولة مرة ثانية .

وفى عهده شهدت الساحة الاندلسية قدوم عنصر أوربى جديد غير الفرنجة وسكان الشمال لغزو الاندلس ذلك العنصر يسمى النورمان (أرسله ملك الدنمارك) حيث هاجم النورمان لاول مرة سواحل الاندلس الغربية فجأة فى ذى الحجة ٢٢٩هـ/٨٤٤م وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان (اسكندناوة ودينماركة) وكانوا يغيرون على سواحل أوربا الغربية بأساطيلهم وترسوا على مصاب الانهار وتغير على المدن وتدخل البلاد وتنهب ما تعثر عليه وكان أن تعرضت سواحل الاندلس لهذا الهجوم النورمانى المفاجىء فامتدت اهتمامات السلطة الى سد هذه الثغرة المهمة فى قوتها العسكرية وتحصينها بالاسوار وانشاء الاسطول الاندلسى القوى لصد الهجوم ٠

والمصادر العربية القديمة لا تذكر تفاصيل مدققة عن هذه الشعوب التى أقلقت الحكم الاموى سوى قولها انها احدى الممالك الاوربية الشمالية والذين أطلقت عليهم لفظ المجوس أى عبدة النار ٠

ويرجع هذا الشعب الى أصل جرمانى وهم السويديون والنرويجيون والدنماركيون والذين هاجموا الاندلس من الدنمارك ٠

وقد هاجم هؤلاء سواحل شبه الجزيرة الاندلسية وتكرر اعتدائهم على البلاد عدة مرات فى فترات زمنية لاحقة بعد ذلك وفى أيام شرلمان احتل النورمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا وأنشأوا فيه دولة وسمى الاقليم باسم (نورمانديا) أو نورماندى ٠

وقد اغارت قواتهم البحرية على الاندلس أولا على قادش ووصلت الى شذونة ثم صعدت فى النهر الكبير حتى وصلت الى أشبيلية وأحرقوا المسجد الجامع وواجه الامير عبد الرحمن النورمان فى شجاعة وتولى حربهم وأوقع بهم المسلمون هزيمة كبرى عند طليطلة شمال اشبيلية عام ٢٣٠هـ/٨٤٤م وعادوا خائبين لانهم قراصنة ٠

وقد اغارت سفن النورمان على الاندلس مرارا لكنها كانت ترد على

أعقابها بخسائر فادحــة وكانت أطول غارة هى غارة أشبيلية ومدنها اثنين وأربعين يوما ثم أغاروا على (لبلة Niebla) الاشبونة وفروا الى سفنهم وقد أغاروا على قرطبة العاصمة برا على الخيل لكن هجومهم أصيب بالفشل ولم يحقق أدنى هدف سوى السلب والتخريب والتدمير ٠

واثر فشل هذه الهجوم أرسل ملك الدنمارك هور يك Horic عـــام ٢٤٠هـ/٨٥٤م الى الاندلس وفدا يطلب عقد معاهدة لاحــلال السلام فوافقت السلطات الاندلسية وأرسل الامير عبد الرحمن الاوسط ســفاره جوابية الى دنمارك هذه السفارة الاندلسية برئاسة الحــكيم الاندلسى المعــروف بالغزال وهو « يحيى بن حكم البكرى الحيانى » ٠

ثم عاد الوفد الى الاندلس عن طريق جليقية فوصل الى قرطبة بعــد أن أمضى فترة فى الشمال وتم توقيع معاهدة صلح (طرف أوربى جديد) وليس معنى الصــلح هو عــدم استعداد قرطبة لرد العــدوان فاننا نجــد السلطة الاموية فى عهد عبد الرحمن الثــانى تبذل جهودا قصــوى لــرد هجمات النورمان وعدم تكرارها وذلك ببناء سلسلة من الحصون الدفاعية على مصبات الانهار وتزويد الاسطول بسفن جديدة بلغت مداها فى عهــد الخليفة الناصر ٠

وبذلك أمكنها تجميد الخطر النورمانى بفضل هذا الحزام الدفاعى ٠ كما انه كان من نتيجة الغزو النورماندى أن يتجه عبد الرحمن الثانى الى أهمية الاســطول فبدأ فى انشائه واتخذ له دار صناعة وقواعد فى الاشبونة وأشبيلية وولبة والمرية وبلنسية ومالطة ٠

ولم تنقض سنوات حتى كان للاندلس أسطولان قويان أحدهما فى المحيط الاطلسى ومركزه الاشبونة والثــانى فى البحر المتوسط وقاعــدته مالقة ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى يظهر الاندلس كقوة بحرية كبرى وتبدأ أهمية البحرية الاندلسية كعماد لقوة قرطبة العسكرية (أنظر السيد عبد العزيز سالم ، أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الاســلامية فى المغرب والاندلس ٠ بيروت ١٩٦٩) ٠

وهكذا كانت غزوة النورمان سببا فى بناء قوة بحرية أندلسية قوية بحيث لم يكن لديها من السفن غير الرابطة فى ميناء المرية ، على الساحل الشرقى ولكنها قامت بواجب الدفاع ابعادا لخطر هؤلاء عن العاصمة قرطبة بعد أن تجلى ضعف القوة البحرية على الجانب الغربى حيث ركز هؤلاء النورمان نشطهم ذلك لان القوة البحرية الاندلسية المحدودة كانت رابطة على الساحل الشرقى فى مواجهة الاخطار الحقيقية • التى ربما تاتى من الدولة البيزنطية أو الخلافة العباسية •

فامتدت اهتمامات الدولة الى سد هذه الثغرة فى قواتها العسكرية وكان ذلك فى السنوات الاخيرة من سنوات عبد الرحمن وبذلك ظهر على ساحة القوى البحرية أسطول أندلسى بحرى يدافع عن البلاد ونستطيع القول ازاء العلاقات الدبلوماسية فى عهد عبد الرحمن الثانى انه اذا صحت انه كانت هناك علاقات بين الخلافة العباسية فى بغداد والفرنجة فى فرنسا واوربا أو بعضها على الاقل مما كان يدور فى اطار العلاقات الدبلوماسية حسب المفهوم المعاصر لا عداوة للامويين كما أشار الى ذلك بعض الكتاب المغرضين •

وقد ارتضينا أن ناخذ بها من باب الاقوال لانه مهما يكن فلن تفكر قيادة بغداد الخلافة العباسية فى استعداء الفرنجة على الامويين فى الاندلس مهما تكن العلاقات من سوء فلم تكن علاقة بغداد مع الفرنجة علاقات محورية بقدر ما هو نوع من العلاقات العادية التى لا ترمى الى اهداف •

وازاء ذلك تذكر المصادر انه كانت هناك علاقات دبلوماسية وصلات بين قرطبة وامارتهم الاموية وبين بيزنطية وان كان ذلك ينتابه بعض الغموض ذلك لان سياسة قرطبة كانت تسير على نفس نهج سياسة دمشق الاموية وهى من نوع الصراع مع القسطنطينية وليس الصداقة •

وكانت قرطبة تواجه تحديا صليبيا دوليا عالميا أوربيا على جميع الجبهات لاسيما ان الخطر زاد على حدودها بعد سقوط برشلونة أيام حكم الحكم الاول والد عبد الرحمن ومواجهة عبد الرحمن بنوع من

التحدى العقائدى من جانب رجال الدين واللاهوت المسيحيين فى قرطبة ولم يكن هناك بين قرطبة والقسطنطينية انما كانت هناك علاقات يغلب عليها الطابع التجارى وتبادل الخبرات فى الحقول الثقافية والعمرانية وغيرها • ولم تكن تحالف عسكرى أو توطيد المواقف السياسية ، وكل ما قام به الامير عبد الرحمن الثانى هو الرد على المبادرة البيزنطية التى قام بها الامبراطور البيزنطى « تيوفيل » عندما أوفد سفيره الى قرطبة ، وان كل ما كان يتم فى عهد عبد الرحمن هذا أو فى عهود لاحقة له انما ينبع من طابع تبادل الهدايا والمراسلات دون أن يكون هناك هدف سياسى أو عسكرى •

كما ان عصر عبد الرحمن الثانى قد شهد فتوحات اسلامية جديدة لم يكن قد فكر فيها أحد من الولاة السابقين عليه ذلك انه استغل بناء أسطول بحرى قوى وقام فى عام ٢٣٤هـ/٨٤٨م بفتح جزر البليار وهى الجزر الشرقية (ميورقة ومنورقة ، يابسة) راجع كتابنا الاسلام والثقافة العربية فى أوربا ، القاهرة ، ١٩٧٩م •

ومن ذلك الحين صارت هذه الجزر من ولايات الامارة الاندلسية وتم انشاء امارة لها تعرف باسم ولاية الجزائر الشرقية عام ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م •

وكان الامير عبد الرحمن الاوسط قد سير أسطولا من ثلاث مائة مركب الى الجزائر الشرقية ومن ثم غدت هذه الجزر الشرقية اسلامية لا يفتحها فقط بل بحياة سكانها وكافة أحوالها حيث دخل أهل هذه الجزر الاسلام طواعية يحبون الاسلام ويدافعون عنه مثلما حدث فى الاندلس وتعمرت هذه الجزر من كل جانب وظهر فيها العلماء وسادها العلم والمعرفة •

ولما كان عبد الرحمن الثانى مطبوع بدوره على الادب والعلم ، ومن ثم كان هذا الامير المثقف رائد سياسة الانفتاح على العالم الخارجى وكانت عاصمته قرطبة مشرعة الابواب امام العلماء والشعراء والتجار لاسيما القادمين من الشرق الاسلامى •

وهكذا غدت قرطبة عاصمة استقطبت العديد من الشخصيات البارزة وشهد البلاط العديد من الفقهاء والشعراء وعلماء الكيمياء والفقيه المالكى المعروف « يحيى بن يحيى الليثى » كما ان الامير الاموى قام بأعظم الانجازات العمرانية التى لا يمكن اغفالها وهى انشاء مدينة (مرسية) بعد أن أخضع ثورة (تدمير) وأطلق عليها Mucial وانشأ سورا حول أشبيلية فى أعقاب الغزوة النورمانية واضحت قرطبة عاصمة تتألق بهجة وعمرانيا وحضارة وتقدم وتمدين لا تخرج عن الخط الاسلامى الشرعى .

وكان المسجد الكبير كالعادة نصيب كبير من اهتمام الامير فقد اضاف اليه عبد الرحمن الثانى مساحة كبيرة احتلتها ثمانون من السوارى وبلغت الزيادة التى أضيفت الى المسجد سبعة آلاف وخمسمائة ذراع مربع كما ذكر ذلك ابن عذارى المراكشى .

وتوفى عبد الرحمن الاوسط فى ربيع الآخر ٢٣٨هـ/ ٢٣ سبتمبر ٨٥٢م بعد حكم دام ثلاثة وثلاثين عاما هجريا تعتبر من أزهى فترات التاريخ الاندلسى بسبب ما ساد قرطبة والمدن الكبرى ومراكز العمران من هدوء وما ساد البلاد من رخاء ورفاهية لان عبد الرحمن ورجاله كانوا من اذكياء رجال الدولة الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس الاستقرار فى البلاد .

ويرجع جانب كبير من رخاء الاندلس فى أيام عبد الرحمن الى الفائدة الكبرى التى عادت على الامارة من الاستفادة من كبار رجال الدولة الاموية حيث كان الامير عبد الرحمن الاوسط له أكثر من عشرة وزراء كانوا يجتمعون فى بيت الوزارة ليناقشوا مهام الدولة ويرفعوا ما يرونه الى الامير فى المسائل المهمة .

كذلك كان يستعين بالفقهاء والمستشارين الذين يستشيرهم الامير فى الشئون المهمة وخاصة الدينية منها وقد اراد الامير عبد الرحمن أن يزيد من سيرته بين الناس فقرب اليه هؤلاء الفقهاء واختار من بينهم عددا من أوسعهم علما وجعلهم فقهاء مستشارين واعتبرهم أهل شورى له وبوفاة عبد الرحمن الاوسط تنطوى صفحات الشخصية الرابعة فى أمراء الاندلس الحاكمين للبلاد وكانت فترة عهد استقرار .

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل

(٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ ـ ٨٥٠ ـ ٨٨٦م)

هو رالامير الخامس فى سلسلة الامراء الامويين الذين حكموا البلاد بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الثانى أو الاوسط وقد دامت فترة حكمه خمس وثلاثين عاما هجريا ٠

وقد تولى الامارة والبلاد موطدة الجانب هادئة وحفلت قرطبة بأعلام الفكر والدين والثقافة والمعرفة والفن وكل أصحاب المواهب المختلفة الذين أثروا الحياة فى الاندلس وكان لهم باع طويل فى كل ما حدث من تقدم وتطور ٠

وكان أباه عبد الرحمن قد ولاه حكم سرقسطة الاقليم الشمالى وذلك لكى يتمرس بالمهمات الادارية والعسكرية كما انه قاد العديد من الحملات العسكرية ضد المتمردين من قبائل الباسك (الشبكنس) كما انه كان دبلوماسيا وشهد توقيع المعاهدات بين الامارة الاندلسية والدولة الفرنجية المجاورة ٠

ومن هنا اكتسب خبرة واسعة فى شئون الادارة والحكم والسياسة والنواحى العسكرية والقتالية وكان لصيق الصلة بأبيه ، على الرغم من اختياره لولاية العهد الا أن رجال القصر كانوا يرغبون فى أن يكون عبد الله بن عبد الرحمن وليا العهد خلفا لابيه الا ان محمد كان يفوقه فى كثير من الصفات والخصال التى تؤهله لقيادة دولة مثل الاندلس فى مثل هذه الظروف والاحوال الداخلية والخارجية المحيطة لكن كل فترة حكم كان لابد أن يواجهها الكثير من المتاعب والمخاطر التى ربما كانت تهدد المجتمع الاندلسى ٠

ولقد كانت ظروف الامارة الاموية مع استلام الامور السياسية والقيادية للامير محمد بن عبد الرحمن فى قرطبة هى تناقضات ورياح

حركات استقلالية تنتظر الانفجار فى أى وقت مناسب ، على الرغم من أن الدولة كانت حتى وفاة عبد الرحمن الثانى محافظة على وحدتها السياسية الكاملة وفى حالة من الهدوء النسبى ٠

وقد شهدت فترة حكم محمد بن عبد الرحمن هذا كثيرا من الانقسامات وتمزق الدولة الى عدة كيانات سياسية فقد أعلنت سرقسطة ولاية مستقلة عاصمتها سرقسطة وكانت تقع شمال شرق الاندلس وفى غرب الاندلس استقلت بطليوس وقام عمر بن حفصون بثورة عامة فى المناطق الجبلية الوعرة فى الجنوب بين مالقة ورندة تعرف بحصن ببستر Babastro والى جانب هؤلاء كان البربر يتربصون الموقف لجعل منطقة نفوذ لهم ٠

كما ثارت أشبيلية وقرمونة وبدأت كأن البلاد تصل الى نهايتها من الانهيار والتمزق واعطاء الفرصة لاعداء الدين والديار ٠

بعد أن حدثت هذه الحركات الاستقلالية فى عهد الامير محمد هذا وبعضها تأخر بعده بعدة سنوات وهكذا وقع على هذا الامير عبء القيام بمعالجة هذه الاخطار السياسية التى تعرض لها الاندلس ٠

ولقد كانت امارة محمد بن عبد الرحمن تمثل بداية الانتكاسات للمنجزات الضخمة التى حققها والده عبد الرحمن الذى كان يرى فيه إنه أصلح أبنائه للامارة على الرغم من انه لم يكن أكبرهم وكانت ولايته بالتحديد فى ٤ ربيع الآخر عام ٢٣٨هـ الموافق الرابع والعشرين من سبتمبر عام ٨٥٢م ٠

وكان سنه قد جاوز الثلاثين عاما بقليل يوم تولى العرش ٠ وقد عمل على تنظيم الدولة وترتيب أعمالها ورتب الوزراء حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم فى اختصاص كل وزير بفرع من فروع الادارة ٠

وقد وقع اختياره على رئيس للوزراء يدعى (هاشم بن عبد العزيز) - وكان عهده من السوء بحيث اثر على مجريات الامور فى الدولة وكان سببا فى قيام العديد من الثورات المشار اليها عاليه ٠

وهكذا كانت الثورات السابقة اضـافة اليها ثورة اهل طليطلة والذى يطالع حوليات الاندلس فى عصره يدرك ان معظم نواحى الاندلس قد خرجت على الادارة المركزية فى قرطبة .

ولقد كانت الثورات والحـروب الداخلية دائمة فى هذه البلاد وربما يعود ذلك الى طبيعة البلاد والارض والوديان والانهـار والجبال التى تسهل الثورة ومحاولة استقلال كل حاكم بولايته ، لكن قوات الامارة استطاعت أن تحرز انتصارات على هذه الثورات وحققت انتصارات فى طليطلة عام ٢٤٠هـ، ٢٤٥هـ واستكانت الثورات وقام الامير محمد باتخـاذ الاجراءات اللازمة لتأمين هذه المدينة وتحصينها ضـد الثورة وضـد نصارى الشمال أيضـا .

وفى عهده عاد خطر النورمان مرة ثانية حيث ذكر ابن عذارى المراكشى أن النورمان قاموا فى عهد محمد بن عبد الرحمن بهجوم على الاندلس وذلك عام ٢٤٧هـ وذلك فى ستين مركبـا ولكن كانت الدولة الاندلسية قـد علمت مسبقا بخبر هذا الهجوم واعـدت للامر عدته فوجدوا البحـر محروسـا والمراكب تجـرى فيـه لكنهم استطاعوا الوصول الى مصب نهر أشبيلية وجرد الامير الجيوش نحوهم وهذه المرة لم يهاجم النورمان الساحل الغربى للاندلس الواقع على المحيط الاطلسى بل انحدروا نحو الجزيرة الخضراء وربما ذهبوا الى الشمال الافريقى بعيدين عن الساحل الاندلسى .

وكان فشل هذا الهجوم فى عهد محمد بن عبد الرحمن سببا فى توقف هجومهم على الاندلس لفترة تزيد عن قرن ونصف من الزمان حتى أوائل النصف الثـانى من القرن الرابع الهجرى ٣٥٠هـ .

ونعود مرة أخرى للحديث عن ثورة طليطلة التى كانت أول سـابقة تتحـرك فيها قوات مسيحية لمساعدة المسلمين فى داخل الاندلس حيث اننا نجد أن ثورة طليطلة كانت بتشجيع من الدويلات الاسبانية الشمالية خاصة فى عهد الملك الاستورقى (أردونو الاول) Ordono 1 الذى أرسل جيشا

لساعدة الثوار وهى سابقة لا يوجد لها مثيل من قبل فى تاريخ الاندلس ، لكن الامير محمد حشد قوات ضخمة وسحقت الثورة ٠

وقد قابل الامير محمد ثورة طليطلة بجدية وشجاعة حتى انتهى بها الامر الى الرضوخ والاعتراف بسيادة الدولة عام ٢٤٤هـ/٨٥٨م وهكذا خضعت طليطلة ٠

وكانت أخطر الثورات ثورة عمر بن حفصون الا ان جهود الامير محمد أرغمت ابن حفصون على الاستسلام مع جامعته فحملوا جميعا الى قرطبة لكنه تم الافراج عنهم حتى عادوا للثورة مرة أخرى ٠

وبالنسبة للخطر الشمالى القادم من الفرنجة فاننا نجد ان الامبراطورية الفرنجية قد انقسمت الى ثلاث أقسام عام ٨٤٣م وقبل تولى الامير محمد امارة البلاد بسبع سنوات تولى عام (٨٥٠م) وأدى هذا الانقسام الى عدم تشكيل خطر قوى على حكام قرطبة الامويين لكن مع كل هذا ظلت العلاقات الاندلسية الفرنجية تتسم بالعداء ٠

وقد دخلت الامبراطورية الكارولنجية فى فترة اضطراب وانقسامات داخلية وحروب أهلية وهذه الفترة كانت معاصرة لعهد محمد بن عبد الرحمن هذا وحدث خلافات على الحكم ضد (شارل الاصلع) حين طلب مناهضوه العون من المسلمين عام ٨٨٧هـ أثناء ولاية الامير محمد ابن عبد الرحمن فأمدهم المسلمون بالجند وقدموا لهم المساعدات التى أجبرت شارل الاصلع على طلب الصلح ٠

على حين لم يكف المسلمين عن قرع أبواب فرنسا فنزلوا أيضا فى عام ٨٦٩م/٢٨٣هـ فى أثناء حكم محمد بن عبد الرحمن الى بروفانس واستقروا فى هذا الاقليم ٠

وقد ساعدت ظروف الدولة الفرنجية على استقرار المسلمين فى هذه الاقاليم الجنوبين ونظرا لان الامير لم يكن دمويا فقد تم صلح مع دولة الفرنجة ٠

وكذلك قام باطلاق سراح ابن حفصون وعفا عنه ولو ان الامير محمد استغل الحــالة السياسية فى دولة الفرنجة لحقق انجازات عسكرية هامة وفى عهده تمكنت الامــارة الاموية فى قرطبة من القضاء على أطمـــاع الفونسو الثالث وكذلك ملك اشتريس وليون ٠

لكن فى أواخــر عهد محمد بن عبد الرحمن أصــبحت مملكة ليــون خطرا منافسا على الامــارة الاندلسية وبدأت امارات أســبانيا النصرانية تدخل فى صراع قوى مع قرطبة لكن فترة حكمه شهدت اعتناق الكثير من الشعب الاندلسى للاسلام وانطواءه تحت لواء الراية القرآنية وذلك ممــا ساعده على توطيد أركان الدولة والقضاء على كل الثورات ٠

لكن محمد بن عبد الرحمن هذا توفى فى ٢٩ صفر ٢٧٣هـ/ أوائل أغسطس ٨٨٦م عن عمر يناهز الخامســة والستين عــاما كانت حافلة بالعطاء ٠

الامير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
ابن هشام بن عبد الرحمن
(٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ ـ ٨٨٦ ـ ٨٨٨م)

لقد أنهكت السنوات الطويلة التى قضاها فى الحكم الامير محمد ابن عبد الرحمن فى مطاردة الثائرين دون أن يضع حداً للقضاء نهائيا عليها لاسيما ثورة ابن حفصون ، لكن الامير المنذر بن محمد ولى العهد قد تصدى لكل الاخطار فى أواخر أيام والده بعد أ نأخذ الارهاق من هذا الاخير كل مأخذ ، فأرسل المنذر أحد قادته المشهورين (محمد بن جهور) الى اقليم مرية ، معقل ابن حفصون ·

وما كادت أخبار الحملة التى أرسلها المنذر بن محمد الى حفصون تصل حتى تـرك مكانه وهرب الى مكان آخر ، لكن اثناء مطاردة ابن حفصون كانت قرطبة تودع الامير محمد بن عبد الرحمن الى مثوءا الاخير بعد وفاته فى ٢٨ صفر ٢٧٣هـ ·

ومن هنا اضطر الامير الجديد المنذر الى سحب قوات الدولة وحشد كل طاقاته العسكرية التى فى العاصمة قرطبة تحسبا لاية أحداث تحدث فى العاصمة لاسيما أن تولية كل والى جديد كانت تحدث بعض الامور وخلف الامير المنذر خلفا لاباه محمد وكان فارسا مجدا وقائدا قادرا ·

وقد تسلم تراثا ثقيلا من المشاكل لم يكن مستطاع أن يخرج بحلول لها ولو جرئية فالتمزق السياسى بلغ مداه والحركات الانفصالية أخذت تنتعش فى كل الاقاليم والمؤامرات تزحف الى القصر وتصل الى الامير نفسه ·

وكان المنذر بن محمد مشغولا بتصفية حسابه مع وزير ابيه (هشام بن عبد العزيز) ولم تمضى الا شهور قليلة حتى توفى الوزير ووضع انصاره فى السجون ·

وهكذا تخلص المنذر من أكبر عقبة كانت تواجه الحكم داخليا ٠
كان المنذر قوى الشخصية ، صاحب كفاءة فى الحروب جاء الى الحكم ومعه طموح كبير للقضاء على الحركات الانفصالية وفى مقدمتها حركة ابن حفصون التى امتدت رقعتها ٠

وفى تلك الاثناء كان المنذر قد أنهى ترتيباته لقمع هذه الحركة فقام على رأس قوة ضخمة مستهدفا اقتلاع جذور هذه الفتنة التى حشدت حولها الكثير من المولدين الذين وجدوا فى ابن حفصون بطلا قوميا على حد تفسير المؤرخ الهولندى دوزى Dozy والقضاء على قلعته المنيعة فحاصرها نحو أربعين يوما حصار محكما ٠

وكان ابن حفصون قد كتب الى الخليفة العباسى يطلب منه أن يوليه حكم البلاد التى دخلت فى طاعته وراسل بنى رستم حكام تاهرت الاباضية فى المغرب الاوسط وكذلك كتب الى بنى الاغلب فى تونس يطلب مساعدتهم ٠ وقد أرغمه المنذر على التسليم ٠

وقد مات المنذر موتة مفاجئة حيث يقال انه شعر بالمرض قبل القبض على ابن حفصون وعهد الى أخيه عبد الله متابعة الامور من بعده وتولى حكم البلاد ٠

وهكذا لم يطل عهد الامير المنذر أكثر من عامين فكان أقصر العهود الاموية فى الاندلس دون أن يضع بصمات على الحياة فى الاندلس سوى القضاء على ثورة ابن حفصون وان كانت بعض المصادر تذكر انه لم يقضى عليه وقد توفى فى صفر ٢٧٥هـ يونيو ٨٨٨م ٠

وتذكر المصادر أن ابن حفصون كان قد اتصل بالعديد من الجهات الخارجية مثل الاغالبة وبنى رستم والخلافة العباسية لمساعدته لكن هذه الاطراف رفضت التورط معه وانه لم يلجأ الى ذلك الا عندما تدهورت ثورته وضاق السبيل أمامها ٠

ومن هنا نزع الى الانفصال عن الاندلس ، لكن للحقيقة فان ثورة ابن

ون هزت المجتمع الاندلسى هزا عنيفا · ولقد كانت النزاعات الداخلية الاستقرار فى الاندلس وعدم القضاء على هذه الفلول هى التى أدت تمع الاندلسى الى ما تكون عليه الصورة مستقبلا ·

وهكذا انتهت حياة المنذر بن محمد بعد أن حكم عامين وحامت الشبهات ، أخيه عبد الله فى سبب وفاته المفاجىء لكنه كان على الرغم من فترة ه فانه كان مصمما على ضرب رأس الفتنة التى قادها ابن حفصون وقطع يق عليه ·

ومن هنا حقق هدفه فى القضاء على هذه الثورة التى شهدت عصر محمد وجده عبد الرحمن لكنه نجح قبل وفاته فى القضاء نهائيا على الثورة وقلم أظافرها ولم تعد ذات فاعلية ·

الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم
ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل
(٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ ـ ٨٨٨ ـ ٩١٢م)

آلت مقاليد الامور فى الاندلس بعد وفاة المنذر المفاجئة الى اخيه عبد الله بن محمد وقد انتقل الحكم اليه دون أدنى مشاكل أو منافسة أو صراع شديد نظرا لان الاخطار المحدقة بالامارة وما سببته ثورة ابن حفصون وغيرها من الثورات الداخلية وتعرض البلاد لهجوم النورمان والفرنجة والامارات المسيحية فى الشمال التى بدأت ترفع رأسها وتحاول اثبات وجودها على حساب الامارة القرطبية جعلت الكثيرين من ابناء البيت الاموى يعزفون عن هذا المنصب لما أصبح يلقى عليه من مسؤليات جسام ومهام صعبة ٠

وقد شاهدوا بأنفسهم ما كانت عليه البلاد وما أصبحت عليه الآن وان المستقبل السياسى للبلاد أصبح محفوف بالمخاطر فى ظل الصراعات الداخلية والخارجية وتربص الدوائر الاجنبية بالاندلس ٠

ومن هنا كان على الوالى الجديد الذى دامت فترة حكمه ربع قرن من الزمان أن يضع للامور حساباتها وان ينظر للمستقبل بنظرة أمل طامعا فى ايجاد الحلول للعديد من المشاكل التى تواجه البلاد ٠

وهكذا وقع على الامير القوى الارادة الذى لا ترهبه الاحداث ولا تهزه الشدائد ومن هنا كان عليه أن يعمل على عدم انحدار الاندلس الى الهاوية وأن يحافظ عليها من السقوط وأن يقودها الى بر الامان وهو المحنك الخبير العامل بأسلوب يختلف عمن سبقه لكن من أجل الحفاظ على بلاده التى وضع على رأس قيادتها مدركا ما تمر بها البلاد من أخطار عديدة ٠

وقد كان الامير عبد الله بارعا فى حبك المؤامرات وكان ذا قدرة فائقة على الثبات فلم يفقد أعصابه رغم كل الهزات والثورات ٠ وكان

ساعده الايمن فى حفظ البلاد هو قائده (أبو العباسى أحمد أبى عبده ، الذى استمر أكثر من ثلاثين عاما مقاتلا مدافعا عن وحدة الاندلس وبفضل هذا القائد تم اخماد الفتنة فى البلاد نهائيا وتوطيد أركان الحكم وضرب الثورات الداخلية ٠

وقد أمضى الامير عبد الله حكمه كله فى حروب متصلة مع الثائرين الذين تكاثروا من كل ناحية ومن هنا من الممكن أن نطلق على عهد عبد الله هذا فترة الفتنة الاندلسية الاولى ، حيث أحس الجميع بضعف الامـــارة فبادرت المدن الى الثورة وخلعوا طاعة العاصمة قرطبـة وكان عليـه أن يتحرك للقضاء على كل هذه الحركات الخطيرة على مستوى الجهـــات المختلفة مجتهدا ما استطاع فى وأد هذه المشاكل واستطاع بمساعدة ابنه (المطرق) اكثر أبنـاء الامير شجاعة والذى أنزل ضربة قوية قاصـمة بهذه الثورات ، وساعد القائد العـام فى القضـــاء على كل بؤر الفتنة والثـورة ٠

لكن من الخطأ الفادح أن نضع مسولية هذه الاحداث والانهيـــار السياسى على عاتق أمير مثل عبد الله هذا الذى قضى ربع قرن فى الحكم هبت عليه أعاصير الثورات من كل مكان دون أن تتيح له الظروف المعمس الداخلى والعطاء للبلاد اجتماعيا وعلميا وفكريا وثقافيا وحضاريا فهـو لم يكن اقل كفاءة أو ذكاء من الامراء الذين سبقوه فى الحكم ٠

لكن فترة حكمه كانت تحتاج الى حاكم مثل جده عبد الرحمن الداخل أو الحكم الربض فلم يكن شخص أو أمير عادى مثل عبد الله بقـــادر على احداث تحولات اجتماعية وثقافية وعلمية فى مثل هذه الظروف ، الا انه رغم كل ظروف الصراع والتمزق السياسى فان هناك بعض الايجابيـات التى شهدتها فترة حـكم عبـد الله بن محـــمد وقـد بلغت النضـج فى عصـــره ٠

ولكن على مدى سنوات حكمه الطويلة حققت خلافاته على ضرورة القضاء على كل الفتن والعمل على ايجـاد حلول لكل المشاكل لتنقذ مـا يمـكن انقاذه من هيبة الحـكم المركزى ٠

لكن ساعده الايمن ابنه المطرق الذى كان يرسله أباه لقمع الثورات ومعاقبة المتمردين ، ولقد كان التطاحن السياسى مستثرى الى درجـــة انه وصل الى بلاط الامير عبد الله نفسه ممـا أدى الى ظهور الدسـائس والصراعات ، لكن ما كان يعنى الامير عبد الله هو الايقـاع بالثـوار فى هزائم قاسية ٠

لكن مع كثرة الحملات وكثرة الثورات والعصيان فى الاقاليم المختلفة فان الطاقة العسكرية للدولة لم تعد قادرة على تحقيق عنصر الانتصـار والتفوق فى كل الحملات التى كان يتم ارسالها ٠

وقد ساعد ذلك على نشوء دولة شـبه مستقلة على مقربة من عاصمة الأمارة قرطبة (٢٨٢هـ/٨٩٥م) بزعامة بنى حجاج العرب عاشت حتى قيام الخلافة الاموية ٠

وهكذا شهد عهد عبد الله الذى ربما كان أسوء عهود الامارة الاموية انتهاكا للسيادة الاسلامية للدولة وضعف الحـكومة المركزية وانتكاسها لاول مرة منذ أن ارتبط الاندلس بحكم الاسرة الاموية ٠

فقد تراجع نفوذ الحكومة المركزية فى قرطبة تدريجيا وفقدت قوتها ونفوذها السياسى والعسكرى والادارى والقيادى ، ولا نريد ان نطـــاق على هــذه الفترة كما أطلق عليهـا بعض المؤرخين عصر ظهور الطوائف الاول ، ذلك لانه لم يكن هنـاك دويلات أو طوائف بالمعنى المتعارف عليــه لملوك الطوائف الذين ظهروا بعد انهيار الخـلافة الاموية ٠

لكن كان هناك عصـيان وتمرد وثورة وخـروج على الشرعيـة لكن الامارة الاموية لم تكن تقف مكتوبة الايدى أمام هذه الاحـداث بل كانت ترمى بثقلها للقضـاء عليها مهما يكلفها ذلك من رجـال وسـلاح ومـال ووقت فهى على سبيل المثال لم تكف عن قتال ابن حفصون حتى قبض عليه على الرغم من طول فترة الصراع وكانت طبيعة الاندلس الجغرافية والطبيعة ربما عامل ساعد على كثرة هذه الثورات وتعددها وعدم خضوعها لنفـوذ للحكومة المركزية فى قرطبة ومحاولة الخروج على الشرعية للدولة ٠

لكن رغم كل هـذه الظـروف والمحن والشـدائد والازمات التى حلت بالاندلس من أثر هذه الثورات فان البلاد أراد الله لها أن تستعيد مجدها وأن تحقق أهدافها فقد خلف الامير عبد الله بن محمد فى الحكم بعد وفـاته حفيده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، الذى تربى فى كنف جده عبد الله والذى رأت فيه البلاد انجازا جديدا للاستمرار بالحكم الاموى والنهوض بالبلاد ولانتشالها من حطام الدولة الممزقة والعبور بها الى مرحلة واحدة بلغت فيها السيادة الاسلامية أسمى درجـات السيادة فى تاريخ الاندلس بعد أن كانت المـأساة فىعهد عبد الله هـذا قـد بدأت بوادرها تنتشر على الاندلس المتهالك الذى أخذ به الضعف والتهالك صورة بارزة فى الربـع الاخير من القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ٠

لاسيما ان أبنـاء عبد الله لم يكن يظنون أبدا ان عرش الامارة سيكون للحفيد عبد الرحمن فسكتوا عنه وكان هو من جانبه شابا ذكيا بعيد النظر فأحبه الناس وكان مقربا من الجميع فلما توفى الجد عبد الله فى عام ٣٠٠هـ ٩١٢م لم يختلف عليه أحد بأنه يكون الامير المنتظر بعد أن أجمع أهل البيت الاموى ورجال القصر على مبايعته أميرا للبلاد ولم يختلف عليه أحد فى ظل ظروف لم تعد للدولة الاموية سوى الاسم على حد تعبير ابن الخطيب وسادت سحب الظلام الكثيف تحجب آفاق المستقبل السياسى لهذه الدولة بحيث كان يصعب التكهن بما يحمله المستقبل من مفاجآت ٠

وكانت الامور مهيأة لحدث هام بعد ظروف الحـرب الاهلية وكان لابد لهذه الشخصية القوية أن تظهر لتعود البلاد قيـادة جديدة وليبـدأ عصرا جـديدا فى تاريخ الاندلس أطلق عليـه العصر الذهبى للازدهار الحضارى والثقـافى والعلمى والفـكرى السياسى بل هو عصر الازدهار الاكبر فى تاريخ الاندلس ٠

وهكذا جـاء الى الاندلس ذلك الشاب عبد الرحمن الذى كان فى مقتبل العمر طموحا وشابا ذكيا كانت ملامح الذكاء تشع من عينيه وقـوة شخصية وصلابة فكان هو الرجل المناسب الذى اختارته العناية الالهيـة لينقذ الاندلس من ورطته وهذه العصبية وليعبر بها الى بـر الامـان حيث تكون الاندلس تحت قيادته أندلس جديدة تختلف كل الاختلاف عما سبقها من نصف قرن أو يزيد ٠

الفصل السادس

عصر الخلافة الاموية الاندلسية

(عصر الازدهار الحضارى)

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الناصر لدين الله

(٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/٩١٢ ـ ٩٦١م)

قبل وفاة الامير عبد الله بن محمد آخر أمراء الامويين كان قد عين حفيده عبد الرحمن (الناصر) بن محمد بن عبد الله ليرثه فى الحكم ، وقد تلقى عبد الرحمن الناصر من جده الامير عبد الله الغناية وولاية العهد من بعده وكانت علامات النجابة والذكاء قد ظهرت عليه وكان عند حسن ظن جده الذى توسم فيه الخير ٠

فلما توفى الامير عبد الله تولى حفيده الناصر للحكم وكانت الاندلس يومها تحتاج الى سياسة حكيمة تحل العديد من المشاكل وتوفير الاستقرار والاستمرار فى دفع موكب الحضارة وكانت الاندلس يوم أن تولى عبدالرحمن الناصر الحكم قد أزعجها القلق والثورات والانقسامات والتحرشات المسيحية والاستهانة بالحكومة المركزية ٠

وقد كنى بابى المطرق قبل أن يتولى الحكم وهو فى الحادية والعشرين أو أكثر بقليل وربما ثلاثا وعشرين سنة وهكذا فان عبد الرحمن الثالث هذا كان هو الشخصية المتألقة فى تاريخ الاندلس الاسلامية العربية بل انه لا يختلف عن جده عبد الرحمن الداخل مؤسس الاسرة الاموية بالاندلس بل هو الشخصية التى دفعت بها الاسرة الاموية الى واجهة الاحداث فى مرحلة دقيقة من التاريخ الاسلامى ٠

وهنا فان عبد الرحمن الثالث هذا لا يختلف كثيرا عن جده الاكبر عبد الملك بن مروان الذى استطاع أن يشيد ملك بنى أمية المنهار وجمع أطراف الدولة المبعثرة فهو اذن اذ جاز القول المؤسس الثانى للدولة الاموية

الاندلسية بعد عبد الرحمن الداخل جده وهو الاسم الذى أكسب الأندلس دوره الحضارى الساطع وطبع شخصيتها بالطابع العربى الاسلامى العميق وقد اتفق الجميع على بيعته بنفس راضــية مع صغر سنه ٠

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الذى يشتهر باسـم عبد الرحمن الناصر أميرا على الاندلس عام ٣٠٠هـ/٩١٢م ٠

ويذكر كما سـبق القول ان الذى صرف أعمـامه عن التطـاحن على المنصب هو احساسهم بأن هـذا المنصب ضـار مثقلا بالمتـاعب والاخطـار والمسئوليات الجسام ولهذا ترك المنصب له فى ظروف صعبة ، وهكذا كان عبد الرحمن رجل الازمات ٠

وجـاء عبـد الرحمن الى الامـارة شـابا فى مقتبل العمر حيث كان أميرا حازما وذكيا عـادلا وعاقلا شجاعا ، محبـا للاصلاح وحريصا عليه ، قاد الجيوش بنفسه ، فأنزل العصاة من حصونهم بشجاعته وسياسته الحكيمة واستخدم السياسة الرشيدة وغيرها من الاساليب ، عفا عمن طلب الامـــان وعـاد الى الطاعة ٠

وهكذا كان الذكاء وحسن الخلق والتدبير من عوامل اعـادة بنـــاء الدولة الاندلسية ، لكن مهما تكن الاقوال فان جده عبد الله كان ثابتا وكان اصراره على التمسك بحقوق الامارة ومطالبته الدائمة باخضاع الثائرين وتحطيم قواهم وتدميره أمور الدولة بالقليل من المـال الذى كان يصل اليـه وانه لولا كل هذه الاعمال ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة الى البلاد ويجمع قواها ويسير بهـا نحو الازدهار والتقدم ، كذلك فان عبد الرحمن لم يستطع أن يحقق للاندلس الهدف المنشود لولا ذلك الجهد الكبير الذى بذله رجـال الدولة الذين مكنوا له الثبـات وسط العواصف ومواجهة التحديات التى وقفت فى طريقه واسـتطاع تذليلها ٠

ومن هنا اسـتهل عهده بمعالجة الوضع الداخلى واصـدر برنامجا عاما لسياسته الجـديدة فقـام بارسال ممثلين الى الاقاليم المتمردة للتحاور

واعادتها الى دائـرة السلطة المركزية وقد ساعدت شخصيته التى كانت نموذجا فريدا فى سلسلة الامراء الامويين كرجل دولة من الطـراز الاول وكانت فئـات الشعب الاندلسى ترغب فى التغيير الجـذرى فى جهـــاز الحـكم والنظر الى أسلوب جديد فى الحـكم ٠

وهكذا سيرة عبد الرحمن قد أخذت ابعادها من قرطبة الى كل الاقاليم الاندلسية ورأت فى الامير القوى محقق آمال الفئـات الاندلسية المختلفة ٠ وقد أولى السياسة الداخلية اهتمامه للقضـاء على المشاكل المتوارثة من عهود الامراء الامويين السابقين والقيـام بعدة مبادرات عسكرية للقضاء على المتمردين ومواصلة الكفاح للقضاء على كل بؤر التمرد فأرسل جيشا الى قلعة كركى Caracuel شمال قرطبـة للقضـاء على الثورة هنـاك وكذلك أرسل قواته الى شنتيرية Santarer وانزلت قواته هزائم بهؤلاء المتمردين ٠

وفى نفس العام وبالتحديد فى جمادى الاولى عام ٣٠٠هـ/يناير ٩١٣م سير جيشـا الى مدينة استجة وقضى على الثـورة ثم أعـد قوات كبيرة للقضاء على الثورات فى جميع المنـاطق التى بلغ عددها سبعون حصـنا وفى العام التـالى قاد عبد الرحمن بنفسه ٣٠١هـ/٩١٤م جيشا الى جبـال رندة ودمر حصن بشتير Babastro ثم وصل الى الجزيرة الخضراء وأعاد طاعة شذونة ومورور ثم اتجه الى قرمونة فاستولى عليها وفى جمـادى الاولى من نفس العام قضى على امارة بنى حجاج القريبة من قرطبة ٠

وهكذا دخل كل غرب الاندلس الى طاعة عبد الرحمن والحـــكومة المركزية القرطبية ٠

وكان عمر بن حفصون قد مـات بعد أن قاد ثورة استمرت ثلاثين عاما وكان موته قد جعل جميع الثـائرين يخضـعون لطـاعة قرطبـة وقضى عبد الرحـمن على كل بقـــايا اسرة ابن حفصـون بعـد أن حاول أبنائه جعفر وسليمان وحفص اعـلان الثورة ٠

لكن امرهم انتهى حيث تمكن رجال عبد الرحمن من الاستيلاء على جميع الحصون التى كانوا يتحصنون بها ٠

وبذلك استطاع الامير الاموى أن يأدب المتمردين ويجعلهم يدركون قوة العاصمة المركزية قرطبة والخضوع لها ٠

وهكذا كان نزول الامير الى نقط معترك الصراع وسحق المتمردين بنفسه كانت ظاهرة خاصة تلازم هذا الامير وجعلته يقود المهمات العسكرية بنفسه ويتولى تنفيذها بنفسه بمنتهى البراعة وقد حالفه النجاح فى جميع العمليات العسكرية حيث استطاع تطويع الاقاليم وتمشيط حصونها الثائرة ٠

وهكذا كان سقوط كل الحصون والقلاع والمدن المتمردة تحت ضغط القوة الاموية الجديدة هو أهم ايجابيات عصر عبد الرحمن حيث أعطت العهد قوة ودعامة فى حركته الاندفاعية فى مناحى الحياة المختلفة ونجح فيما كان يهدف اليه توطيد البلاد وانقاذها من براثن السقوط ٠

وهكذا كان حسم هذه المشاكل يدعوه الى الانصراف الى معالجة الازمات الاقتصادية انطلاقا للعمل العسكرى ضد الامارات الشمالية المسيحية التى تدعمها أوربا وبلاد الفرنجة والبابوية وجعل موارد الدولة كافية للتقدم الحضارى المنشود وتحقيق الاهداف العليا للدولة فى درأ خطر الشمال المسيحى عن الدولة القرطبية الاندلسية وتحقيق الشعارات التى قاتلت الدولة من أجلها ٠

وهكذا قطعت الوحدة السياسية فى الاندلس شوطا بعيدا فى طريق التنفيذ وما تلاها من تطور اقتصادى توطئه للزحف الشمالى لوضع حدا لتدخل الامارات المسيحية ووقفها عند حدها وعدم تجاوز الحدود ٠

وكانت نورمانديا جنوب فرنسا تشكل خطرا على الاندلس عن طريق الحملات والغارات البحرية التى كانت تهاجم السواحل الغربية الاندلسية وكذلك عن طريق الحملات البرية التى كانت تعبر جنوب فرنسا ثم تغير على

الثغور الاندلسية الشمالية واشتدت الحملات على شمال الاندلس التى قام بها النورمان ٠

وقد ذكر العذرى (ليس ابن عذارى المراكشى) أن غارة النورمـان كانت فى أيـام الخليفة عبـد الرحمن النـاصر على مناطق الثغـر الاعلى وسرقسطة ٠

وقد شـهد عصر عبد الرحمن الناصر حـرص حـكام الامبراطورية الفرنسية فى قسميها الشرقى الغربى على اقامة علاقات الود والصـداقة مع خلافة قرطبة ، فضلا عن البابوية فى روما على عهد البابا (مارينوس الثانى ٣٣١ ـ ٣٣٥هـ) والبابا (اجيانوس٣٢٥ ـ ٣٣٤هـ) وخطب حكام اوربا وملوكها ود الخليفة عبد الرحمن الناصر نظرا لمـا احتلته قرطبة من مكانة عالمية بين عواصم العـالم فى ذلك الوقت ووفدت السفارات الى مقر الخـلافة متتابعة وأرسل الخليفة سفاره الى روما فأجيبت كل طلباتها بعد أن وفدت سفارة من روما بهذا الشأن ٠

لكن لم يخـل عهـد الخليفـة عبـد الرحمن من صراع بين المسلمين والنورمان فى فرنسا فقد تعاظم خطر النورمان وأشارت المصادر الى قيام النورمان بعدة حملات على مدن الثغر الاعلى حيث انهم خرجوا الى ثغر لاردة وسرقسطة فى شوال عام ٣٣٠هـ لكنهم ردوا على أعقابهم ٠

وهكذا وقفت البلاد كلها حـول عبد الرحمن الناصر أقوى ما تكون وقفه مع أى من الامراء فيما عدا جـده عبـد الرحمن الداخل وقـد حقـق عبد الرحمن أهـدافه بجيشه المطواع الذى أختيرت عنـاصره بدقة والذين تربوا فى البلاط القرطبى حيث كان هؤلاء الجنود المدربين على طاعة النظام والبعيدين عن أجواء الصراع القبلى والعائلى وكل ما شابه ذلك من صراعات سابقة بحيث كان هؤلاء قوة فى الداخل وحصنا للدفاع فى وجه الاخطـار الخارجية التى كانت تهب على الدولة من الشمال حيث الدويلات الاسبانية المسيحية التى ترغب فى الاتساع ومد النفوذ والتوسع على حساب أراضى المسلمين وديار الاسلام ٠

وكانت احوال الشمال الاندلسى (الاسـبانى) عشـية مجىء الامير عبد الرحمن قد زادت قرى مملكن ليون وعلى راسها (أردونو الثــانى) Ordono III ومملكة تقارة بزعامة شيخه (سانشو الاول Sengha

وقد أراد ملك ليون اختبار قوة عبد الرحمن فقام عام ٣٠١هـ/٨١٣م بهجوم على غرب الاندلس لبلغت قواته مدينة (يابرة) على مسافة ١٠٠ ميل (مائة ميل) الى الشمال من باجـة واقتحمها الملك (أردونو) وكانت السياسة الاسبانية تقوم على سياسة الارض المحروقة واحـلال الخـراب فى كل ما تصل اليه ايديهم لقطع الطريق على المسلمين بعدم التفكير فى العودة للاستيطان مرة أخـرى ثم تكررت محـاولات الملك (أردونيو) مرة ثالثة فى الاقاليم الغربية بينما كان عبد الرحمن مشغولا بالمشاكل الداخلية لكن هذه الغزوة (الحملة الهجومية الابادية) جعلت عبد الرحمن يعـدل خططه العسكرية حيث جعلته لا يستطيع ان يتجاهل النشاط المعادى ولابد من التحرك شمالا فقـاد بنفسه حملة عسكرية عام ٣٠٨هـ/٩٢٠م الى الشمال واقتحم معاقل (أردونيو) فى عدة انتصارات رغم الاعداد الضخمة التى قدمت له مِن أوربا ولمارة (نافار) وكانت هذه الحـملة بمـا حققته من مكاسب عسكرية وتغير الحـدود السياسية والجغرافية باستيلاء الناصر على عدد من المواقع الهامة التى خضعت مؤخرا للاسـبان ومنهـا حصن أوسمة (Osmo) وحصن تطيلة Tudela وحصن كاركاسو Carcoso

وكانت هذه الحملة كافية لان تضع نهـاية لكل من يفكر فى الاعتـداء على حدود الدولة الاندلسية الناصرية خاصة ان عبد الرحمن لم تعـد معه مشاكل داخلية وكان مستعداً لتاديب هؤلاء ٠

(نلاحظ هنا حسن نية الحكام المسلمين وعملهم على عدم الاعتـداء لان سياسة الاسلام تقوم على الدفاع ولقد كان بامكان عبد الرحمن الناصر تحرير كل المناطق التى استولى عليها الاسبان والقضاء على هذه الامارات المسيحية فى مهدها والوصول الى جبـال البـرت (البرانس) والتوسـع شمالا ، لكن روح التسامح والمحبة وعدم الايذاء ولحفظ والحفاظ على العهود

والمواثيق جعلت عبد الرحمن يكف عن ذلك لاسيما ان الجبهة الشمالية لم تكن قادرة على اختراق خطوط الدفاع الاسلامية) •

لكن نجد بعد وفاة الملك البلونى (أردونيو) وخلفه على العرش (رميرو الثانى) Ramiro II وكن ذا نزعة صليبية متعطشة ومتعصبة استطاع الناصر صده وحماية دولته من كل اختراق من التكتل المسيحى المتربص بديار الاسلام وافشال كل مخططاته التوسعية والعدوانية •

لكن روح الغدر والخيانة والوحشية والتعطش للدماء دفعت حاكم (تقارا) الى أن يقوم بغارة مفاجئة عام ٣٢١هـ/٩٢٢م على الحصون المجاورة لحدوده وكانت هذه الحادثة التي ذبحت فيها حامية حصن (فجيرة) Vuguara، قد هزت العاصمة قرطبة لانه قضى على جميع حامية هذا الحصن •

فبادر عبد الرحمن فى العام الثانى ٣١٢هـ/٩٢٤م كما ذكر ذلك المقرى فى كتابه نفح الطيب حيث قال قام عبد الرحمن بانجح حملاته الشمالية حيث رد الصاع صاعين ولعل سمات هذه الحملة ثابت واضحة فيما لحق بمنطقة الباسك من تخريب وتدمير •

ولقد كانت الحملات التقليدية من جانب الخلافة الامرية كافية لردع اية محاولة توسعية تلجأ اليها الممالك الشمالية وقد شهد عصر الناصر عدم أى تغير فى الشريط الحدودى مع الاسبان وظلت العلاقات مع هذه الامارات تتارجح بين السلم والحرب فى السنوات المتبقية من عهد الناصر لكن روح العداء ظلت قائمة من جانب الاسبان لاسيما فى عهد الملك (راميرو الثانى) الذى حمل شعار القضاء على العرب المسلمين فى كل الاندلس وضرورة طردهم من البلاد لكن وفاة هذا الملك المتعصب المتعطش لدماء المسلمين عام ٣٢٩هـ/٩٥٠م وضعت حدا لهذه الروح العدائية ولكن الناصر لم يستطع أن يستغل الظروف السائدة فى الامارة النقارية من صراع على العرش بين الاخوين (شنجة ، أردونيو الثالث) فنجده يعمل على تحقيق المصالحة بين الاخوين ودعم الخليفة الناصر الامير الصغير شنجة ممنيا

جعله مدين بهذا العمل للخليفة الأموى وفتح ذلك صفحة من الخلاقات الودية لكنها كانت علاقات مؤقتة ٠

وكان الجانب الشمالى يتحين الفرص للانقضاض على ديار المسلمين وأراضيهم كلما سنحت له الفرص وكان الجانب الاسلامى حسن النية ويتعامل بالمنهج القرآنى الاسلامى ولا يخرج عن هذه الحدود ٠

اعـــلان الخـــلافة

حين نعود الى مؤسس الاسرة الاموية فى الاندلس الامير عبد الرحمن الداخل نجد انه بعد نجاحه فى اقامة صرح الامارة الاندلسية الاموية متحديا كل عوامل التحدى ومتحديا الخلافة العباسية فى بغداد الى حد الوصول الى القتال المسلح معها ٠

فاننا نجد انه لم يبلغ فى تحديه لهذه الخلافة فى أن يحاول اتخاذ اللقب الخلافى (خليفة) لا زهدا فيه باعتباره حقا له لانه سليل وكحفيد الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك وانما كان فى وضع يجد نفسه منهياً لخطورة اتخاذ قرار فى وقت كان يلهث فيه لقهر الظروف المحيطة به فى الاندلس ٠

ولم يكن راغبا فى اضافة مشاكل خارجية أقوى من ارادته وهو الذى كان يصرف كل همه لاحكام السيطرة على جميع المدن والاقاليم الاندلسية التى قضى أكثر من عشرين عاما ان لم يكن ثلاثين فى صراع دائم من اجل وحدة الاندلس ، فانه لم يكن يراود فكره أبدا وهو البعيد عن مقر الخلافة العباسية المترامية فى العراق الشرقى من الدولة الاسلامية أن يفكر فى اتخاذ القرار واعلان استرداد الخلافة الاموية فى الاندلس وله كل الحقوق الدينية والسياسية باعتباره وارث للخلافة الا اننا نجده يكتفى باتخاذ لقب الوالى أو الامير فى التعبير عن حكم قرطبة والتى ظلت بدورها العاصمة السياسية للبلاد لكننا نجد انه فى (١٣٨ ــ ٣١٦هـ) أى ما يقرب من مائتى عام نجد عبد الرحمن الناصر يبادر باعلان الخلافة الاموية فى الاندلس ليصبح الامير

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله أول خليفة أموى فى الاندلس بما يضـاف اليه من ألقاب رفيعة تخاطب بهـا أوائل الخلفاء فى الاسلام ٠

وكانت عبارة (أمير المؤمنين الناصر لدين الله) اللقب الذى غلب عليه وكان عام ٣١٦هـ قد شهد قيام هذه الخلافة الاموية الاندلسية ٠

وهكذا قام عبد الرحمن الثالث الاموى الملقب بالناصر باعلان الخلافة الاموية فى الاندلس بعد أن أخذ رأى العلماء والفقهاء ورجـال الدين وعلية القوم ورجال الدولة وكان ظهور الخلافة الاموية معناه أن التطور الاستقلالى بلغ اقصى ما يمكن أن يصل اليه وظلت هذه الخلافة حتى سقطت عام ٤٢٢هـ حوالى الربع الاول من القرن الخامس الهجرى وكان سقوطها مقدمة لظهور المغاربة فى تاريخ الاندلس والاسلام فى هذا الجـزء الغـربى من الوطن الاسـلامى ٠

وكان عبد الرحمن قد وجد أن اللقب الذى توارثه عن أسرته وهو لقب الامير أو الوالى لم يعد يتسع لطموحاته الكبيرة فأجاز لنفسه لقب الخلافة تيمنا بأجداده الامويين خلفاء دمشق ٠

وكان هذا تأكيدا لقوته ولقوة الاندلس من هنا كان اعلان الخـلافة (٣١٦هـ/٩٢٩م) واستمر حكمه نصف قرن من الزمان (٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ ــ ٩١٢ ــ ٩٦١م) ٠

وهكذا رأى عبد الرحمن بعد أن نجح فى اعادة الوحـدة الى بلاده وواجه خطر الامارات الشمالية المسيحية فى الشـمال وأصـبح اكبر ملوك عصره وتمكن من اقرار هيبة الخلافة الاندلسية فى المغرب الاقصى زما تام به من اصلاحات وتغييرات جعلت دولة الاندلس من أقوى دول العـالم فى ذلك الوقت وانه وجد نفسه أولى بأن يتخذ لنفسه لقب خليفة من عبيد الله المهدى صـاحب القيروان (المهدية) (دولة الفاطميين بالمغرب) فأصـدر بيـانا اعلن فيـه نفسه خليفة وتلقب بلقب امير المؤمنين واتخذ لقب الناصر لدين الله والمقصود بذلك نصر مذهب السنة والجماعة على نصارى الشمال والفاطميين الشيعيين ٠

وقد بعث عبد الرحمن باعلانه الخلافة الى جميع نواحى الاندلس والمغرب وبذلك يكون عبد الرحمن قد أدخل تغيرا حاسما على طبيعة الدولة الاموية بالاندلس فقد أصبحت منذ ذلك الوقت خلافة اسلامية تضارع الخلافة العباسية فى بغداد وتدبر أمور المسلمين وشئون الاسلام وأهله فى الجناح الغربى من الدولة الاسلامية وتنازع الفاطميين هذا اللقب ، كما ان هناك دوافع أخرى دفعته الى اتخاذ هذا اللقب ذلك لان الخلافة كمؤسسة دينية ودنيوية ومركز حكم المسلمين وقبلة حكامهم هى كل موحد وكيان واحد لا يمكن أن تضعف أو تنحدر سمعتها الى الحضيض بعد أن تحولت الخلافة العباسية الى مطية فى أيدى الاتراك والبويهيين وغيرهم من السلاجقة والفرس واغتيالهم واعتقالهم للخلفاء فكان ذلك الاعتبار دافعا لظهور خلافة اسلامية جديدة بالاندلس لاسيما وقد تم اعلان خلافة فاطمية بالمغرب وكانت كل هذه الاسباب وراء اعلان الخلافة ولم يعد الخليفة نفذ الكلمة فى الدولة ويتحكم الاتراك فى مصير الخلفاء فتشجع الامير الاموى على ضرورة حمل لقب الخليفة على الرغم من روح العداء الشديد من جانب جيرانه ٠

وكان هذا القرار له دوره الكبير فى اعطاء العاصمة قرطبة دورا أكثر مركزية بحيث تتحكم بقوة وصلابة فى ادارة الامور فى البلاد الاموية التى كانت تسعى الى بسط نفوذها خارج الاندلس (فى بلاد المغرب الاقصى) ٠ وهذه ربما كل الدوافع التى حدت بالامير الى اتخاذ القرار حيث كانت كل الظروف الداخلية والخارجية ملائمة لهذا القرار واتخاذ اللقب ٠

وقد تتبع اتخاذ هذا اللقب تغير كبير فى شكل الدولة ونظمها فوضع عبد الرحمن نظاما اداريا جديدا يعطى الدولة الهيبة والمكانة التى أصبحت للخلافة حيث انه ذكر فى احدى رسائله التى كانت تذاع على منابر المساجد أن الامة الاندلسية يجب أن تتحول كلها الى رعية مطيعة تأتمر بأمر الخليفة ولا يشاركه فى أمره أحد ٠

وقد نسب بعض مؤرخى العصور الوسطى والاوربيين ٠ ان الخليفة عبد الرحمن الناصر من أثر هذه العبارة بأنه كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة ، رغم انه كان يستعين بكثير من الوزراء والقواد والمستشارين الذين

تعددت مراتبهم وكثرت تنقلات القواد وكبار رجال الجيش والوزراء والعمال .

وقد عمل عبد الرحمن على رفع مكانة الخلافة لانه كان يرى ان ذلك ضرورة من ضرورات السلطان القوى المستقر وان سياسته هذه قد قطعت الطريق الى حكام الاقاليم الى عدم طمعهم فى السلطان وعدم استبدادهم بالسلطة مما دفعه فى بداية كل عام أن يقوم باجراء حركة تنقلات بين الوزراء والقواد وكبار رجال الجيش وذلك لعدم اطالة ولاية أى منهم فى ولايته فاستبد بالسلطة .

وهكذا تحول سلطان عبد الرحمن الى سلطان عظيم ذى بلاط ضخم وجاه واسع وأبهة بالغة وقد أدى ذلك الى استتباب الامور وارتفاع هيبة الخلافة فى نظر الدول المعاصرة وخاصة الاوربية .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغ ازدهار قرطبة أقصى درجاته فقد كان عدد سكانها يزيد عن مليون ومائة وثلاثين ألف نسمة وان عدد مساجدها بلغ ثلاثة آلاف مسجد .

وقد زاد الخليفة الناصر من مسجد قرطبة الجامع وكانت هذه الزيادة قد بلغ بها المسجد أعلى ما وصل اليه من رقى وجمال وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع (أى مئذنة) .

وفى أواخر سنوات حكم الناصر بلغ من ازدهار بلاده وتألق أضواء العاصمة قرطبة أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوربا وقد وصلت اليه وفود من الامبراطور (أوتو) امبراطور الامبراطورية الجرمانية وكذلك ملك الفرنجة فى فرنسا (هوقوا) وكذلك ملك الفرنجة فى أقصى شرق أوربا (قادو) وكذلك Hugode Arles فى جنوب فرنسا وقد صار هذا الرجل ملكا على ايطاليا وكذلك أرسل اليه بابا روما سفاره يخطب وده وكذلك وردت اليه بعثات من المانيا .

مما يدل على ما وصل اليه الناصر من عظمة وجلال فى أنظار ملوك

الغـرب وقد وصفت راهبـة المـانية قرطبـة بأنهـا درة أوربا فى عصـر الناصـر ٠

ولا شك فى أن طول فترة حكم عبد الرحمن الناصر أعانته على تحقيق هذه الانجـازات العظيمة التى قام بهـا طوال عمره ، وقد قال عنه ليفى بروفسال : ان عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوربا كلها فى كل العصور وقال عنه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى انه كان حاكما متميزا اسـتطاع أن يتخطى عصره بملكاته وبمواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحـكم وقـدرته على تحقيق أهـدافه والقيـام بمسـئولياته جميعـا ٠

وكانت فترة حكمه الطويل التى وصـلت الى نصف قرن وما قام به من جهود جبـارة ومنجزات عظيمة جعلت منه الشخصية القوية فى غربى البحر المتوسط وقد كان فى استطاعته أن يدعى الزعامة الدينية للعـالم الاسلامى بعد تحجيم هذا الدور الذى استأثر به الخلفاء العباسيين ٠

وهكذا فان الخليفة الناصر تحـول فى السنوات العشر الاخيرة من عهده الى رجل العـالم الاسلامى القوى حيث أصبح يتمتع بسمعة طيبـة فى الداخل وسمعته السياسية العالمية فى الخارج مما جعل دول العـالم المعاصر تسعى الى صداقته واقامة علاقات ودية معه ٠

وكما سبق القول فان قرطبة فى أيام الناصر استقبلت وفودا وسفراء يمثلون ملوك ذلك الزمـان ، وفى حقيقة الامر فان موضوع العـلاقات الدبلوماسية فى تلك الحقبة الزمنية من العصور الوسطى أمر غير يسير لذا فانه لا يمكن الجـزم بوجـود علاقات سياسية بين بيزنطة وقرطبة ، ذلك لان العلاقات العسكرية كانت طاغية على سواها من مظاهر التعاون الودى وان الزيارات المتبادلة بين وفود الخلافة الاموية فى الاندلس وبين الممالك المعاصرة لها سواء فى الشرق أو الغرب لم تحتل غير جانب بسيط فيما يمكن أن نسميه حاليا بالعلاقات الدولية فوق أرض اسلامية محاطة بالاعـداء على الرغم من أن قرطبة قد صـارت مركز حضارى فريد فى العالم الوسيط

وأخذت قرطبة الناصرية مكانتها المميزة كأعظم مدن ذلك العصر فهى لم تحن زاهية بمنشآتها العمرانية البديعة بل كانت أروقة مساجدها وقصورها تعج بالعلماء والفقهاء والشعراء والمثقفين ورجـال العـلم فى عصره وقد شقت هذه النهضة طريقها الى الاندلس فى عصر الناصر الذى أمضى عمرا طويلا فى الحـكم ..

فقد شعر بوطأة تلك السنوات تغتال فيه الحيوية تدريجيا حتى اذا اقترب من العام الخمسين لحكمه كان المرض قد استحوذ عليه فقضى بضـع سنوات بين الاعتكاف والظهور حتى توفى فى رمضان ٣٥٠هـ/١٥ أكتـوبر ٩٦١م .

وهكذا توفى عبد الرحمن الناصر فى الثانى من رمضان بعد أن قام بالعمل العظيم ووصل بالاندلس الى أوج قوته وازدهاره ودفن فى رياض قصر قرطبة حيث كانت مدافن أمراء البيت الاموى الاندلسى وخلفائه .

وهكذا ختمت قصة حافلة من النضال الشـاق والانجازات العظيمة فهو يصنع المعجزات فى دولة كانت على مشارف النهاية فأنقذها من الضياع وجعل لها وجه حضارى متميز فى تاريخ الاندلس العربية الاسلامية وبهـذا طويت صفحة عبد الرحمن الناصر .

الخليفة الثانى الحكم الثانى (المستنصر بالله)
بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله
(٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ ـ ٩٦١ ـ ٩٧٦م)

يعتبر الحكم الثانى الخليفة الثانى فى سلسلة خلفاء الدولة الاموية فى الاندلس وقد تولى الخلافة خلفا لوالده عبد الرحمن الناصر وكان قد تخطى سن الشباب عندما تولى مقاليد الامور حيث كان عمره قد تجاوز السابعة والاربعين عاما عندما آلت اليه خلافة البلاد ٠

وكنت الاندلس مستقرة على اسس ثابتة موحدة فحدودها آمنة والبلاد تزهو فى التقدم العلمى والعمرانى الباهر ، وكان عبد الرحمن يعد ابنه الحكم ليتولى هذا المصب من بعده فأسند اليه الكثير من الامور اثناء حياته واستمر الحكم راعيا للموكب الحضارى للبلاد ٠

وقد تلقب بالمستنصر وكانت خلافته في الثالث من رمضان عام ٣٥٠هـ ١٦ أكتوبر ٩٦١م ٠ وقد كان خير خلف لخير سلف وان حكمه كان مكملا لحكم أبيه فاذا كان الناصر رجل حكم وسياسة وحرب فقد كان المستنصر رجل علم وحضارة ولم يكن الحكم مجرد حاكم يلتف حوله العلماء ورجال الدين ويرعى العلم بل كان هو نفسه عالما مشاركا فى علوم عصره باحثا منقبا فى المخطوطات ٠

وكان عليه أن يملأ فراغ العرش الكبير الذى تركه غياب الناصر عن الساحة السياسية والعلمية فى أوربا وكان الحاكم نموذجا فريدا بين الحكام الامويين فى الاندلس فقد كان عالما عاشق للعلم والبحث والكتب والمخطوطات فقد كان شخصية مثقفة وكان عالما فقيها بالمذاهب اماما فى معرفة الانساب حافظا للتاريخ جامعا للكتب وكان يقضى جل وقته فى مكتبته الزاخرة

بصنوف المخطوطات أو فى صحبة العلماء والفلاسفة والمؤرخين وكان له سفراء يمدونه بالمخطوطات التى تقع عليها أيديهم فى شتى أنحاء العالم الاسلامى مهما بلغ ثمنها ورغم كل المشاغل العلمية ومجالسة العلماء فانه كان يجد متسعا من الوقت للقيام بأعباء الدولة ومعالجة شئونها وكانت تجربته السابقة فى الحكم زمن أبيه قد جعلت لديه خبرة كافية ·

وكانت مكتبة القصر أعظم مكتبة أنشأتها دولة اسلامية فى العصور الوسطى وقد عمل فيها عشرات النساخين وهناك أقوال تذكر انه انتقد بسبب الاسراف والانصراف الى العلم دون القيام بمطالب الحكم كما ينبغى ، لكنه كان يعطى بأله واهتمامه الشديد من أمور ملكه ·

وقد حاول ملوك الممالك النصرانية أن ينتهزوا فرصة انشغاله بالعلم فبدأوا بالاغارة على أطراف الدولة على الرغم من أن الخليفة الحكم لم تكن له مشاكل داخلية ذات أهمية ولعل همومه الاسبانية هى التى غلبت على تفكيره ورغم ان فترة حكم الناصر الاخيرة شهدت بعض الهدوء نتيجة تدخل الخليفة الاموى ووقوفه الى جانب الملك الحاكم ·

غير ان العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الطرفين فى مستهل عهد الحكم حيث أن ملك ليون خرق الاتفاق والهدنة المعقودة مع الناصر · كذلك تعرض الاندلس فى عهده فى عام ٣٦٠هـ/٩٧١م للغزو النورماندى حيث ظهرت سفن النورمان على ساحل الاندلس الغربى ·

لكن الخليفة الحكم المستنصر أصدر أمره الى أمير البحر قائد الاسطول الاندلسى فى مياه البحر المتوسط ليبحر بأسطوله تجاه اشبيلية وكذلك صدرت نفس الاوامر الى كل قادة السفن والامراء البحريين لصد هجوم النورمان المجوس بعد أن كانوا قد هاجموا الساحل الشمالى الغربى للجزيرة الاندلسية مهاجمين بعض المناطق ونجح الاسطول الاندلسى فى صد هجوم النورمان دون أن يحققوا أدنى أهدافهم وانهم خرجوا من الغارة صفر اليدين ·

لكنهم عادوا مرة أخرى مع بداية عام ٣٦١هـ نهاية ٩٧١م · فردهم

أسطول البحر بقيادة أمير الجيش والبحر (غالب بن عبد الرحمن الناصرى) الذى عاد منتصرا الى قرطبة وانهى خبر الانتصار الى الخليفة الحكم المستنصر ٠

وهكذا كانت قوة الاسطول الاندلسى الضارية اثرها الكبير فى رد هجوم النورمان الذين هاجموا السواحل الاندلسية ثلاث مرات أيام حكم المستنصر بالله وذلك أعوام ٣٥٥هـ/٩٦٦م ، ٣٦٠هـ/٩٧١م ، ٣٦١هـ/٩٧١م، لكنهم فى كل هذه المرات ردوا بقوة وقتل الكثير من رجالهم ودمرت وأحرقت عدة من سفنهم ٠

واستفادت الاندلس من تجاربها الماضية فى طريقة حربهم وتقدمت صناعة السفن ورعاها الامراء والخلفاء حتى أن ابن الخطيب فى كتابه الاحاطة فى أخبار غرناطة قال ان الحكم المستنصر ذهب فى رجب عام ٣٥٣هـ بالذهاب الى المرية وأشرف على أمورها ونظر الى أسطولها وجدده وعدته يومئذ ثلا ثمانة سفينة ، وبهذا استطاع المستنصر أن يصد هجوم النورمان وأن يحمى دولته الاندلسية ٠

لكن ازاء ذلك فاننا نجد الحكم قام بغزوة الى الشمال عام ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م وأوغل فى أرض ليون ونبرة واستولت قواته على قلاع كثيرة من قلاعها وارغمت هاتين المملكتين وغيرها من الامارات النصرانية على العودة الى التسليم بسيادة قرطبة وابتداء من عام ٣٥٥هـ/٩٦٦م بدأت سفارات هذه الممالك تتوافد على قرطبة ٠

وقد أرسل الامبراطور (أوتو الثانى) امبراطور المانيا وكذلك امبراطور بيزنطة سفارتهما الى قرطبة لتجدد المودة والصداقة ، كما ان ملك ليون المعزول قام بزيارة الخليفة فى قرطبة أملا فى مساعدته على استرداد عرشه كما فعل الناصر مع خصمه ٠

لكن فى عهد الحكم فقد اتضح ان الممالك الاسبانية ادركت انها قادرة على استئناف الحرب ضد الخلافة الاموية وكان (شنجة) ملك ليون قد

اصبح أقوى شخصية وأكبر المتحمسين للقيام بدور طبيعى ليكون بطل العالم المسيحى لكن طموحه تعثر ازاء ما قام به الخليفة المستنصر من تعبئة عسكرية فى الدولة ومن هجوم على قشتالة وحققت الحملة نجاحا باهرا ولم تكن معاهدات السلام مع الجانب الاسبانى ذات قيمة ولم تكن سارية المفعول الا عند الضعف وانها عند الاحساس بالقوة تصبح بلا مضمون ٠

ولذا فان استمرار الحروب فى المنطقة الشمالية كان أمرا عاديا سواء من جانب القشتاليين أو من جانب الامويين الذين يحافظون على وجودهم السياسى والدينى فى أرض الاسلام ٠

ومن هنا شن المسلمون هجمات متصلة على قشتالة ٠ وهكذا استطاع المستنصر مداهمة الاسبان فى الشمال حيث المستعمرات المسيحية ومنعهم من اختراق الحدود الاسلامية ومنعهم من اتخاذ أية مبادرة هجومية على مواقع المسلمين كما ارغم ملك ليون على تسليم الحصون التى كانت موضع الخلاف بعد غياب الناصر عن مسرح الاحداث السياسية بوفاته ٠

وقد كان الحكم حريصا كل الحرص على أن تكون هذه الحصون من املاك الدولة الاسلامية وأن تكون فى أحسن حالات المنعة والاستعداد وكان يشحنها دائما بالمؤن والاسلحة وبعض هذه الحصون كان اشبه بمدينة كاملة فيها مخازن الطعام وكل ما يلزم للحياة وظلت هذه الحصون حتى آخر أيام الحكم المستنصر تحت سيطرة القوات الاسلامية العسكرية والقوات قائمة على الحدود الشمالية بفضل ما كانت تتمتع به القوات الاسلامية من قوة وحسن تدريب وأجود تسليح وقوة ايمان والاحساس بالدور الكبير لاسيما على قوات الحدود ٠

لكن كانت هناك مناطق خلاء بين القوات الاسلامية وقوات مملكة ليون ونبرة من ناحية أخرى مما سهل لقواتهم للتقدم وغزو بلاد المسلمين اذ وجدوا فرصة سانحة تساعدهم على ذلك هذا عن الجبهة الشمالية أما من ناحية الجنوب حيث المغرب فقد اختلف الحكم المستنصر عن سياسة أبيه لافريقية فقد ابدى اهتماما كبيرا بالمغرب وبأمر

الفاطميين فيه وقد يكون له عذره فى ذلك حيث هو العالم الدينى المتضلع فى علوم الدين والمتفقه فى الفقه السنى وتحمسه للمذهب المالكى قد جعله ينظر الى المذهب الشيعى الاسماعيلى بنظرة تختلف عن حاكم عادى لذا رأى محاربتهم فى حين ان والده كان يكتفى بأن تكون له موضع قدم فى سبتة وطنجة ومليلة وجعلها قواعد تحمى سواحل الاندلس الجنوبية واعتبارها جزء من الدولة الاندلسية ٠

ولقد واصل الحكم ارسال القوات الاندلسية الى المغرب وارسال الاموال ومساعدة بقايا دولة الادارسة بل وصل به الامر الى تحريك قواته على الحدود الشمالية المجاورة للنصارى وأرسل قائد الثغور الشمالية « غالب بن عبد الرحمن الناصرى » المشهور بفارس الاندلس الى القتال فى المغرب ٠

وقد أدى ذلك الى ضعف ثغوره الشمالية أمام خطر الامارات المسيحية وقد أسقط الحكم التحالف السياسى القائم بين الادارسة والامويين وشعر الحكم بخطورة التطورات فصمم على القضاء على الثورة الادريسية ورأى أن الوقت قد حان للقيام بعمل تأديبى فى المغرب الاقصى وقد تم اعادة السلطة الاموية الى قواعدها السابقة بالمغرب بعد أن تمكنت القوات الاندلسية من اخضاع الزعيم الادريسى الحسن بن كنون واستسلم الزعيم الادريسى أخيرا للقائد غالب وذهب الى الاندلس وبقى هناك حتى موت المستنصر ثم استبعد الى تونس ومنها الى مصر عام ٣٦٥هـ/٩٧٥م حيث رحب به الخليفة الفاطمى لعله يلعب دورا فى الصراع الاموى الفاطمى فى المغرب الاقصى ، غير ان هذه الثورة وان أصابها الفشل الا انها كانت سببا فى توتر العلاقة بين الخلافتين الفطامية والاموية وعودتها الى المجابهة مرة أخرى ٠

وقد قضى الحكم سنواته الاخيرة فى العناية بالعلوم والآداب ونظم التدريس فى المسجد الجامع واحتلت حلقات الدرس اكثر من نصف المسجد وقد اتبع الحكم رعايته للعلماء من غير المسلمين ، وفى أوائل عام ٣٦٥هـ/٩٧٦م شعر الحكم بأمراض الشيخوخة رغم ان سنه لم تكن قد

تجاوزت الرابعة والستين عاما فدعا الناس الى بيعة ابنه هشام وكان لايزال طفلا وقد تمت البيعة رغم مخالفتها للشرع ·

وتوفى الحكم المستنصر فى ٥ صفر عام ٣٦٦هـ/٢٠ ديسمبر ٩٧٦م وبموته اختفى آخر الخلفاء العظام من بنى امية الاندلسيين وبدأت المتاعب تواجه الاندلس ·

ومن هنا كان علينا أن نقف وقفة قصيرة مع الاحداث التى تعرض لها على أرض الاندلس فى تلك الحقبة والتى كانت تقترب من نهاية القرن الرابع الهجرى وفى الربع الاخير من القرن العاشر الميلادى ذلك لان وفاة الحكم المستنصر عام ٣٦٦هـ/٩٧٦م لم يكن حدثا عاديا يمثل غياب حاكم ومجئ آخر ، لا ان وفاة المستنصر الحاكم كانت لها ابعاد اكثر خطورة على مستقبل الحركة السياسية والنظام الاموى فى الاندلس ·

ذلك لان الخلافة التى وضع أساسها والده عبد الرحمن بن محمد الناصر قد بدأت مؤثراتها نحو الافول تبدوا فى الافق القريب لاسيما ان وفاة المستنصر العالم الخليفة والمثقف واهتمامه بشئون العلم اهتماما خاصا · قد شكلت احدى حلقات الضعف الاساسى فى نظام الخلافة ذلك لان والده الناصر استطاع أن يجعلها مؤسسة دينية سياسية ادارية من الطراز الاول لكنها فى عهد الحكم قد بدأت تأخذ مجرد لقب رسمى وكان لابد أن يتحول الى رجل سياسة من الطراز الاول بجانب اهتمامه بالجانب العلمى والبحثى ذلك لان الاندلس بطبيعة تكوينه الجغرافى والبشرى فى أمس الحاجة الى حاكم قوى يبذل كل طاقاته لامور السياسية والعسكرية والادارية ·

وكان بعضا من رجال القصر قد بادر بكتمان خبر وفاة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن وهما (فائق وجوذر) وقاما من جانبهما بالعمل على استدعاء شقيق المستنصر (المغيرة بن عبد الرحمن) وعم ولى العهد هشام الطفل الصغير الذى لم يكن قد تجاوز الثانية عشرة عاما ·

لكن الخلاف داخل القصر قد حال دون استدعاء المغيرة بن عبد الرحمن ليتولى أمور البلاد ، نظرا للدسائس والمؤامرات التى حبكت داخل القصر .

ومن ثم فقد تمت البيعة للطفل هشام المؤيد يوم الاثنين ٣ صفر ٣٦٦هـ/ أول اكتوبر ٩٧٦م وأقبل الناس يبايعون له ويقال انه لم يعترض على هذه البيعة أحد .

وهناك آراء تذكر ان اختيار هشام لمنصب الخلافة لم يمر دون اعتراض ولذلك ما لبث أن احتدم الجدال بين رجالات الدولة فاختلفت بينهم الآراءبعد وفاة المستنصر تبعا لمصالحهم السياسية أو علاقاتهم الخاصة .

وقد برز فى الساحة اكثر من تكتل . وكان الخليفة الحاكم المستنصر غير مطمئن الى سير الامور بعد وفاته لاسيما ان هشام لايزال حدثا فقام بتشكيل مجلس وصاية قبل وفاته مكونا من كبار الشخصيات وهم ثلاث (غالب الناصرى) الذى كان قائدا ماهرا مرهوب الجانب لا تجرؤ امارة نصرانية على تحدى قواته وكان مقامه الدائم فى مدينة سالم وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور أى الجيش المرابط على الحدود الشمالية .

وكان فى العادة جيشا ضخما معدا أحسن اعداد وكانت كتلة الجيش الرئيسى تقيم فى مدينة سالم قاعدة الثغر الاوسط وكانت هناك قوات وفرق عسكرية اضافية تقيم فى الحصون الكثيرة التى انشأها الامراء على الحدود الشمالية .

وكان للخلافة الى جانب ذلك الجيش جيش آخر يقيم فى الزهراء يسمى جيش الحضرة وكانت قيادة جيش الحضرة للخليفة نفسه أما بقية القوات فكانت تحت قيادة غالب الناصرى الذى كان أقوى شخصية فى مجلس الوصاية وأحد ثلاثة اشخاص يتكون منهم مجلس الوصاية حيث يشارك العامرى والمصحفى .

وكان على هذا المجلس أن يأخذ بيد الخليفة الطفل حتى يصبح مؤهلا للحكم الفعلى ويحقق طموحاته السياسية والعسكرية فى ادارة البلاد ويمارس دوره فى توجيه الامور ٠

وقد كانت المؤامرة داخل القصر والتى تقف خلفها شخصيات نسائية قد حالت دون ترشيح المغيرة بن عبد الرحمن وهو صاحب تجارب كثيرة وله خبرة سياسية وعسكرية وكان الرجل الثانى وله سلطة فعلية منذ عهد المستنصر وكان يشارك فى صنع القرارات السياسية والعسكرية مع أخيه الحكم ٠

وكان من أصحاب الطموحات السياسية ، لكن القوى الخفية جاءت بهشام على حساب المصالح العليا للاندلس ومصير المستقبل الذى يحقق اهدافا عكسية فى ظل حكم الطفل ٠

(بداية انهيار الخلافة الاموية)

الخليفة الصغير (هشام المؤيد)

(٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ ـ ٩٧٦ ـ ١٠٠٩م)

يرى بعض المؤرخين ان الخلافة الاموية انتهت بموت الحكم المستنصر لكن الدولة العامرية يمكن اعتبارها امتدادا للخلافة الاموية اذ كانت تحكم باسمها وتحتمى تحت ظلها ولقبها ·

وبعد وفاة الحكم المستنصر بعد حكم دام ست عشرة عاما تولى وليده هشام البالغ من العمر احدى عشرة عاما وهو هشام (المؤيد بالله) الحكم وبموت الحكم تبدلت الاحوال عامة فى الاندلس فلم يكن هذا الصغير قادرا على النهوض بأمور الدولة ، وكان قد تم قتل « المغيرة بن عبد الرحمن الناصر » والابقاء على المؤيد بالله وكان الرجل القوى وراء هذه الاحداث حاجب الخليفة « محمد بن أبى عامر » الذى عرف بالحاجب المنصور حيث استطاع أن يأخذ السلطة لنفسه ويحكم باسم هشام ·

وقد كان « محمد بن أبى عامر بن الوليد بن زيد بن عبد الملك المعافرى » وكان جده عبد الملك أحد الرجال الكبار الذين دخلوا الاندلس مع جيش طارق بن زياد فى أول الداخلين من المغرب وغدا هو الحاكم الحقيقى للاندلس ·

وتختلف عليه بعض المصادر فقد أشادت بعضا منها بقوته الادارية والعسكرية وان هيبة الاندلس وقوتها بدت أكثر ظهورا فى حين وجه اليه البعض بعض اللوم لانه كان سببا فيما آلت اليه الاندلس وانتهت بقيام ملوك الطوائف بعد انتهاء القرن الرابع الهجرى وضياع الاندلس نهائيا ·

وكان محمد بن أبى عامر قد استطاع أن يتخلص من منافسيه وأن ينفرد بالسيطرة على مقاليد الامور فى القصر بعد أن استطاع الحجر على الصبى هشام ذلك لانه لم يمضى عاما واحدة حتى وصل ذلك الرجل الى أن يجعل فى يديه كل الامور ·

وفى حقيقة الامر فان الخطر العظيم على العرش كان من ابن أبى عامر حيث استطاع تصفية كل المنافسين له وسيطر على كل المصالح الحكومية وكسب ثقة الشعب واستطاع أن يكسب ولاء القادة الكبار ورجال الجيش وأغدق عليهم الاموال واستطاع أن يمسك بزمام الجيش لانه كان نوعا من الرجال الذين لا يقفون بطموحهم عند حدود ٠

وهكذا أصبح الرجل الاول فى دولة الاندلس ، فكان عليه أن يستبدل الحرس الخلافى بعناصر جديدة موالية له وجعل نفسه قائد جيش الحضرة فى حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر وبجيش الحضرة بدأ ابن عامر يقوم بغزوات فى الشمال وحقق غزوات موفقة فى أراضى ليون عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م ٠

وفى العام التالى قام بحملة الى الشمال حقق بها صيتا بعيدا وهكذا اصبح محمد بن أبى عامر السلطان الاعلى للدولة ومهد له الطريق الى القمة بصورة مباشرة وكانت انتصاراته قد تركت صداها المؤثر فى عاصمة الخلافة واستطاع أن يصد الهجوم القشتالى على الحدود الشمالية ومن المؤكد ان النجاح الذى حققه فى جبهة الثغر الاعلى عند حدود نفارة (نافرا) ودائرة النشاط العسكرى بها كانت من الخطورة بحيث كان الاهتمام بها دافعا له لاكتساب السمعة ٠

وكان ابن أبى عامر قد قاد قوات الاندلس فى رجب ٣٦٦هـ/٩٧٧م وقام المعافرى بغزوة بحرية فى الحرب على مستوى القيادة وسار بهذه القوات التى كانت تهدف الى الدفاع عن حدود البلاد مستهدفة امارة قشتالة التى لا تكف عن الهجوم على ديار الاندلس كلما اتيحت لها الظروف واستطاع ابن أبى عامر تدمير حصن الحمامة على مسافة غير بعيدة عن مدينة (سلمنقة) ٠

وهكذا انتقل العامر من نصر عسكرى الى نصر سياسى وكانت شخصية العامرى شخصية عنيفة لا يتردد فى استعمال مختلف الوسائل من أجل تحقيق أهدافه السياسية فقد استطاع القضاء على كل المنافسين

له بما فيهم والد زوجته القائد غالب الناصرى بعد أن تخلص من المصحفى والمغيرة بن عبد الرحمن ٠

وهكذا لم يكن فى البلاد قوة غير قوته ولا سلطانا غير سلطانه بعد أن ضمن فى سبيل ذلك بكل شىء ٠ وبعد أن تمكن من استخلاص كل شىء من منافسيه وأصبح السيد الوحيد واستقدم قوات كثيرة من بربر المغرب وأدخلهم فى خدمته وكون منهم جيشا ضخما يستطيع أن يحقق به كل أهدافه بغض النظر عن رد فعل الشعب الاندلسى وتزمر سكان قرطبة ٠

فقد كان كل ما يعنيه هو أن يستفيد بهم وقد كان وجـود البربر فى صفوف الجيش قد جعل الاندلسيين ينفرون منهم وكان ذلك يحول دون اتخاذ عناصر الجيش القديم ضده ٠

وكانت هـذه المواقف قد جعلت البربر يشعرون انهم قوة متماسكة وان مستقبلهم فى الاندلس يعتمد على ابن ابى عـامر وكان هـذا الجيش الخاص الذى سعى الى تاليفه وتنظيمه بعد القضـاء على الحرس الخلافى من الصقالبة وكان لجؤه الى ملء الفراغ بهـذه العنـاصر البـربرية غير العربية مع أقلية محترفة ومرتزقة من الاندلسيين ٠

وكان قائد هذه القوات البربرية (جعفر بن على بن حمدون) وهكذا سـاد العنصر المغربى فوات الاندلس وأصـبح البـربر عمـاد قوة الجيش الاندلسى ٠

وفى كل هذه الاحداث تحول الطفل الخليفة القابع فى قصره الى مجرد رمز ولقب بينما الدولة كانت فعلا فى يد ابن أبى عامر والذى عمل على أن يكسب ود وعطف الفقهاء ورجال الدين وعلية القوم والطبقة المثقفة والنبلاء واستمد قوته من فقهـاء المذهب المـالكى المحافظ ومن مركزهم وروحهم المعنوية بين فئات الشعب الاندلسى ٠

وهكذا اسـتطاع أن يبنى علاقة متكافئة مع الفقهاء ورجـال الدين وبعد أن ضمن تأييد العلماء والفقهاء فانه عمل على مطاردة كبار رجـال

الدولة وقتل الكثير من رجـاله بالاضافة الى انه عمل على ان يحط من شان القوات الاندلسية القديمة وأن يظهر فى كل مناسبة أن جنده الجديد هو وراء كل نصر وانتصار ٠

وهكذا كانت فعلته هذه سببا فى حدوث عداء شديد بين فرق الجيش الاندلسى وأدى الى ظهـور ملوك الطوائف ذلك لانه بوفـاة ابن ابى عامر صـار الصراع بين الفرق الحربية ووقعت حرب أهلية بين هذين الجيشين (البربرى والاندلسى) ٠

لكن الشعب الاندلسى والذى كان يحس بالصراع والمؤامرات والدسائس فى القصر منذ قتل المغيرة بن عبد الرحمن وكانت فئـات الشعب ترى فيـه الغاصب والمغتصب المتآمر الحاكم الذى وصل الى رأس الدولة بالاساليب الملتوية ٠

ولكن رغم محاولته ايجاد شعبية ورضاء الشعب عنه لذا فانه أكثر من القيـام بالعديد من الغزوات فى الشمال التى ذكرتها المصادر بأنها تقترب من اثنين وخمسين غزوة فى خـلال أربعة وعشرين عاما الا ان كل هـذه الغزوات كانت تحصيل حاصل فلم تحقق نجاحا يذكر له فقد ظلت حدود دولة الاسلام فى الاندلس على ما كانت عليه منذ أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحـكم المستنصر ٠

لكن يمكن القول ان محمد بن أبى عامر لم يستطع أن يوقف أدنى خطر على الحدود فى الشمال الغربى وأن يرفع حدود الاسلام الى الشمال الى ما كانت عليه وأن يجعلها حدود لا تمس بصفة نهائية ٠

ويذكر ابن الخطيب فى كتابه أعمال الاعلام أن احدى حملات أبى عامر قد وصلت الى أسوار مدينة (ليون) فى الجبهة الشمالية ، ولـولا ظروف خارجة عن ارادته لغير وجه التاريخ فى تلك المنطقة ٠

وكذلك فانه أرسل حملة الى برشلونة عاصمة اقليم قطالونية وكانت قد سقطت فى يد شرلـان وانتزعت من ايدى المسلمين وكان الوصـول الى

برشلونة فى غزوته الثالثة والعشرين وكانت هذه الحملة عام ٣٧٤ ، ٣٧٥هـ ٩٨٥م واستطاع أن يوقع بحاكم الاقليم بورل الثانى Borell II هـزائم .

غير ان أشـد حملاته قوة وشدة كما ذكر ابن الخطيب هى حملته عام ٣٩٠هـ/٩٩٩م على قشتالة حيث استطاع المنصور العامرى الانتصار على تحالف القوات المسيحية الشمالية من مملكة ارغون ونافار وهزم هذا التكتل القوى فى معركة طاحنة عند جبل (جوربيرة) وكانت مدينة سالم فى وسط الاندلس عامرة بالقوات اللازمة .

وهكذا أوقع بزعماء البرتغال وتحالفهم مـع نافار وأرغون هزيمـة ساحقة بل قاسـية ويبدو ان هذه المعركة كانت آخـر معارك أبى عامر فى المناطق الشمالية ضـد الممالك النصرانية وقد حقق ابن أبى عامر انتصارات عديدة فى كل المعارك التى خاضها والتى تبلغ أربعة وعشرين غزوة بحيث انه لم تلحق به هزيمة واحدة فى كل هذه المعارك التى خاضها ضـد الممالك المسيحية وأوقف خطورتهم على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية .

ولقد كانت هذه الانتصارات من الاسباب القوية وراء اصراره على ان يتخذ لنفسه لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء له على منابر المسـاجد ونقش اسمه على السـكة واتخذ هيئة الملوك فى مجالسه واتخذ الوزراء ولانه صـار ملكا على الاندلس باسم الخليفة المحجور عليه فى قصر الزهراء وقد اتخذ لنفسه مدينة سماها الزهـراء أو العامرية لتـكون مقر الحـكم والادارة والسيادة له .

وفى كل غزوات العامرى فانه ربمـا كان يسعى للصيت والسمعة حيث ان كل غزواته لم يكن القصد منها سوى انزال الضربات العنيفة التى تحدث دويا ولكنها لم تصل الى تحقيق هدف واضـح ودائم فهى جميعها لم تغير شـيئا من وضع ممالك الشمال على الرغم من احتلاله عاصمة مملكة ليون نفسها ودمرها وهرب ملكها (برمودو الثانى) وطاردة المنصور واستطاع أن يدخله فى طاعة المنصور وأصبحت كل ممالك الشمال الغربى والشمال

الاسبانى النصرانية تدفع الجـزية للمنصور فيما عدا الطرف الشـمالى الغـربى من جليقية الذى كان بؤرة التحرك ضد الوجود الاسلامى ٠

وقد فكر المنصور فى أن يجعل من نفسه خليفة للاندلس وأن يقيم بيته فى الخلافة بدلا من بيت بنى أمية ولكن الظروف لم تكن تساعده على ذلك ٠ ذلك لان شعب الاندلس عامة لم يكن على استعداد لقبول أمر مثل هـذا ، ولا سيما انه لم يكن وريث بيت ملك وسـيادة فقد يكون ذلك شافعا له لكى يتغاضى الناس عن جرائمه ولم يكن له أدنى حق فى الوصول الى العرش الذى كان يحـلم به حيث كان رجلا عاديا من سلالة أهل اليمن الذين دخلوا الاندلس مع موسى بن نصير ٠

وقد يكون الدافع وراء كثرة غزواته ونشـاطه فى الغـزو المتـكرر ومهاجمة ممالك الشمال المسيحية انه كان يرى ان الوقت قد حـان لكى يخطو خطوته الكبرى والوحيدة التى كان يهدف اليها ويسعى الى تحقيقها بعد أن حقق كل أهدافه وهو اتخاذه لقب الخلافة فاتخذ الجهاد الاسلامى المكثف طريقـا الى ذلك وتحقيق الانتصارات الكبرى لكن ذلك الهدف كان بعيد المنال والوصول اليه ضربا من المحال ٠

وكانت أكبر الغزوات بعدا وصيتا فى العالم الاوربى هى غزوة عـام ٣٨٧هـ/٩٩٧م حيث عرفت باسـم غـزوة (شـتت ياقب) فى شـمال غرب الاندلس وكان قد حشد فيها كل قواته البرية والبحرية بل نقل الجنود والمؤن والعتـاد بالبحـر واقتحم المنصور هذه المدينة بالقوة وضرب مبانيها وهدم قلاعها وحصونها وبهذه الغزوة وصل صيت المنصور الى كل دول أوربا كلها وأصبح اسم المنصور رمزا للرعب والخـوف فى كل النـواحى القريبـة من الاندلس ٠

وهو أول حاكم تعرفه الاندلس أعطى لجبهة الحـدود الشمالية ذلك الاهتمام الشـديد وكرس لها كل هذا الوقت حيث كان دائم الغزو وقيـادة الجند بنفسه بحيث تغيرت فى فترة توليه مقاليد الامور واستراتيجية الحرب من دفاعية اسلامية فى عهود أسلافه السابقين الى هجومية تترصد تحركات

العـدو وثوقع به الضربات المتوالية ولا شـك ان سـنوات حكمه السـبع والعشرين التى أمضاها على قمة المسئولية فى الاندلس كانت كبوسا مخيفا اذاق ملوك الشمال الاسـبانى الخـوف والدمار والهزائم اما فى الداخل الاندلسى فقد رفعت هذه الانتصارات العظيمة المنصور الى مصاف الابطال الافذاذ ومنحته تأييدا شعبيا عظيما وتغيرت صورته أمـام الشعب بعـد النضال الطويل فى الجبهة الشمالية ولا شك ان الانتصارات العديدة وما عكسته من رخـاء اقتصـادى وازدهار حضـارى على المجتمع الاندلسى أعطت لعهد المنصور شخصية متميزة رغم سياسة القمع والشـدة والبطش فى بداية توليه السلطة وتصفية كل المنافسين له ٠

الا ان خاتمة أيامه كانت حسنة جـدا اذ بعد تحقيقه الانتصارات على قشتالة فى ربيع ٣٩٢هـ/١٠٠٢م واحتلاله قشتالة وهزيمة قواتها والسيطرة على كل أراضى ليون (يلاحظ انه لم يحدث أدنى هجوم من ناحية هـذه الممالك طوال توليه السلطة) ٠

وقد اشـتد عليه المرض وشعر بشـدة المرض وهو فى الطـريق الى مدينة « برغش » فى أراضى قشتالة لكنه بعد تحقيقه النصر اشتد به المرض فحمل فى محفه فلما وصلوا الى مدينة سالم كانت قواه قد وهنت تماما وعقب ذلك توفى المنصور فى ربيع ٣٩٢هـ/١٠٠٢م ودفن فى مدينة سالم ٠

وكان الخليفة الصورى هشام المؤيد لايزال حيـا اذ توفى بعـد ذلك بسبع سنوات ٣٩٩هـ ـ ١٠٠٩م ٠

ولا شك ان المنصور يعتبر من أعاظم الرجـال فى تاريخ الاندلس فقد قام بأعمال لم يقم بهـا الا أعاظم الرجال فى تاريخ الاسلام حيث اسـتطاع أن يستولى على السلطة فى دولة كبرى وأن يوجه أمورها وساس أهلها وملأ الفراغ الذى تركه موت الخليفـة الحـكم المستنصر بعلو همه واسـتغل كل ظروف ضعف رجالات البيت الاموى واسـتطاع أن يصل الى كل ما يريد ولم تعد هناك شخصية أموية قادرة على الصراع ٠

لكن ما يؤخذ عليه فى كل الغزوات المتعددة انه لم يستطع أن يقضى على كيان هذه الامارات او حتى يقلص أراضيها ولكنه كان يكتفى باضعافها ورد غيبها من الاغارة على بلاده واخضاعها لقرطبة واشعارها بالضعف عن طريق الجـزية لكنه فى قرارة نفسه كان يشعر انه لا يمـكن له أن يقضى عليهـا نهائيا وأن يزيل وجودها ولم يحاول أن يقتطع جـــزء من أراضيها ويضمها نهائيا الى دولة الخلافة وهذه نقطة الضعف فى كل حملاته الى الشـمال ٠

بل انه لم يحـاول أن يقيم قواعد اسلامية ثابتة فى هذه الاراضى أو أن يحول هذه الاراضى الى أراضى اسلامية لكنه لم يفعل أى شىء من كل هـذا ٠

وبذلك فقد استطاعت الممالك المسيحية خـلال السنوات التى أعقبت وفاته أن تجدد قوتهـا وتوحد صـفوفها واسـتطاعوا أن يهـاجموا ديار المسلمين صحيح انه وصل الى برشلونة والى عاصمة ليون لكنه لم ينجح فى اعادة أى من هذه المدن والديار التى كانت فى حوزة المسلمين سـابقا وكأنه لم يفعل شـيئا يخلد اعماله سوى وقف عدوان المسيحيين الصليبيين وقد نأخذ له حسنة من حسنات حكمه أن وضع العدو داخل حدوده ٠

وقد أجمعت المصادر الاسلامية على انه ترك العديد من المـاثر فى الحياة الاندلسية منها انه قـام بتوسـيع المسـجد الجـامع بقد الثلث من الناحية الشرقية وقد أضحى هـذا المسجد من أعظم مساجد بلاد الاسـلام من ناحية الحجم والهندسة ولا يوجد فى العـالم أثـر اسلامى بهذا الحجم حيث تصل مساحته الى سـتة أفدنة (٣٠٠ر٢٤ متر) ٠

ولقد ساعد من ناحية أخـرى على ظهور ملوك الطوائف اذا كانت صورته ماثلة أمـام كل الذين أقاموا ملكهم بعد وفاته فى امارتهم ومدنهم حيث انه حطم البيت الاموى ورجالاته تحطيما بحيث لم يستطيع هذا البيت أن تظهر منه شخصية قوية تستطيع أن تعيد للبلاد قوتها ومجدها ، بحيث

تركت البلاد فيما بعد خالية من رجالات الدولة أو البيوتات الكبرى التى دخلت الاندلس موالين لبنى أمية ٠

لكن هكذا كانت ليـلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان ٣٩٢هـ/ الحادى عشر من أغسطس ١٠٠٢م نهاية حتمية لعصر ابن أبى عامر المنصور بعد حكم دام سبعة وعشرين عاما هجرية ٠

وهكذا أنهى الموت حيـاة هذا الرجل الذى اختلفت المصادر حـوله فمنهم من أساء اليه ومنهم من أشاد به ٠

أبناء المنصور بن أبى عامر فى السلطة
عبد الملك بن أبى عامر المعافرى
(رمضان ٣٩٢ ـ صفر ٣٩٩هـ ـ أغسطس ١٠٠٢ ـ أكتوبر ١٠٠٨)

عندما توفى محمد بن أبى عامر ودفن فى مدينة سالم عام ٣٩٢هـ فان الخليفة هشام الثانى المؤيد كان لايزال على رأس السلطة الاسمية الخلافية فى الاندلس بعد أن سلبه ابن أبى عامر السلطات التى سعى أن تؤول الى ابنه عبد الملك بعد وفاته ٠

ومن هنا سعى عبد الملك على أن يحصل لنفسه على مرسوما من الخليفة هشام بتفويضه فى الحكم ، الا ان ابن أبى عامر وكان من الكاء بحيث يجعل الامور تؤول الى أبنائه من بعده لكى يتولوا جميع مقاليد الامور لان الوزارء التى هيمن بها على خلافة الامويين الاندلسية قد تحولت الى دولة مستقلة ذات طبيعة عامرية غير أموية بعد أن خلف المنصور فى سلطاته ابنه عبد الملك المظفر الذى تلقب بلقب سيف الدولة وكان على الخليفة الظل أن يوافق على كل شىء بعد أن تحولت الوزارة والسلطة الى حكم وراثى بمجىء الابن الاكبر للمنصور العامرى (عبد الملك) الى قمة السلطة وكانه يتولى حقا طبيعيا اكتسبه بالوراثة ٠

وكانت الوزارة صارت وراثية شأنها شأن الخلافة ، وكان الخليفة الذى سلبت ارادته لا يشعر بأدنى شىء مما يدور حوله وكانت سن المظفر هذا ثمانية وعشرين عاما وقد ورث عن أبيه مملكه وخلافة واسعة مستقرة ولكنه فى حقيقة الامر مهدد بالاخطار لانه كان يشعر انه غاصب للوزارة وكان هناك كثيرا جدا من الاعداء بالقصر الخليفى وقرطبه وكل أنحاء الاندلس يتربصون به الدوائر ويرون انه غاصب للوزارة وضرورة طرده منها او القضاء عليه ٠

وقد بدأ المظفر عهده بخطوات اصلاحية سائر على نهج أبيه فى ضرورة الجهاد ومحاربة الممالك الشمالية المسيحية لاسيما انه اكتسب خبرات قتالية سابقة ، لكنه لم يكن مثل أبيه ولم يكن يملك من القدرات ما تؤهله على ملء الفراغ الكبير الى تركه ابيه ، لكنه كان صورة حاكم عادى لديه بعض الصفات الثقافية الاسلامية والنزعة الدينية والاحساس بالعدل ، لكن به بعض الصفات التى تؤهله لان يحقق بعض النجاح ٠

لكن قصر فترة حكمه التى لم تطل أكثر من سبع سنوات جعلته من الصعب أن يحقق أعمالا خالدة تذكر له ٠ فلم يكن مؤهلا لكى يحطم العقبات التى تقف فى وجهه فلم تكن له مواهب القيادة والقائد البصير صاحب الرأى النافذ والقادر على المواجهة الصلبة ٠

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ولكنها كانت كطراز أبيه ٠ وقد ركزت الروايات التاريخية على دوره فى الجهاد حيث وجد نفسه فى مواجهة التحركات الصليبية المسيحية على جبهة الحدود الشمالية مع الاسبان حيث خرجوا من وراء خط التراجع الذى كان يرسمه أبيه ابن عامر وفرضه عليهم المنصور وحاولوا استئناف الهجوم بعد موته ٠

واستعادت ممالك الشمال التحالفات فيما بينها وبدأت تستعد للهجوم بعد الهزائم المتتالية التى حققها ابن عامر عليهم حيث كان حاكم برشلونة أول من بادر الى خرق اتفاقية السلام فى هذا الاقليم ٠

فكان أن تحرك اليه المظفر عام ٣٩٣هـ/١٠٠٣م وقام بغزو قطلونية وبرشلونة ويرغم أميرها (رمون بوريل) الثالث على طلب الصلح عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م ثم غزا اراضى ليون وفى صيف ٣٩٦هـ/١٠٠٦م غزا مملكة نبرة واحتل بنلونة (اراضى اسلامية) وفى عام ٣٩٧هـ/١٠٠٧م غزا قشتالة ثم غزاها مرة أخرى عام ١٠٠٨م/٣٩٨هـ ٠

وهكذا كان رد المظفر سريعا وقويا وكان هجومه على برشلونة قد ادى الى انقسام الجبهة الاسبانية ووقعت خلافات بين قشتالة وجليقية واستغل

المظفر هذا الانقسام والخلاف وكان أن لجأ اليه أطراف النزاع حول حق الوصاية على الملك الصغير وأدرك المظفر أن حكمه لابد ان يكون عاملا لتصعيد الخلاف والفوضى فى أكبر ممالك النصرانية التى بقيت مشلولة النشاط العسكرى حتى أواخر عهد تولية الوزارة ٠

ولقد كان المظفر كعادة أبيه يقوم كل عام بغزوة عسكرية الى ما وراء حدود الشمال بحيث انه قام فى خلال السبع سنوات التى تولى فيها الوزارة بسبع حملات بمعدل غزوة كل عام وكانت هذه الغزوات صائغة نظرا لبرودة جو الشمال ٠

وهكذا نجح المظفر فى أن يعيد التوازن العسكرى الى الجبهة الشمالية الى سابق عهدها وأن يجعل الامم المسيحية الشمالية تقبع داخل حدودها وقد سادت فترة حكمه نوعا من الاستقرار السياسى فى الداخل وحافظ على سياسة الهجوم على مناطق الحدود الشمالية وكانت فترة حكمه هى الفصل الاخير فى عصر القوة العامرية التى اسسها المنصور ٠

وكذلك كانت سياسته تجاه المغرب الاقصى هى نفس سياسة أبيه فى استمرار السيطرة الاندلسية على المدن الساحلية (سبتة وطنجة ومليلة) واكتساب مودة وصداقة بربر المغرب الاقصى بحيث دعا زعماء العديد من قبائل المغرب الى زيارة قرطبة وأسبغ عليهم بالهدايا وأحاطهم بالحفاوة وبينما أراد أن يخرج للغزو كعادته السنوية اشتدت به العلة وتوفى ربما بالتهاب رئوى (ذبحة صدرية) فى ١٦ صفر ٣٩٩هـ اكتوبر ١٠٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بعد أن حكم سبع سنوات كانت سنوات رخاء ونصر وهناك آراء تذكر ان الشعب الاندلسى كان يرى فى بنى عامر (العامريين) مغتصبى السلطة وكانوا يتمنون زوالهم ٠

لكن مهما يكن من اقوال فان المظفر عبد الملك بن أبى عامر حفظ التوازن الطبيعى فى الجبهات الداخلية والخارجية واستطاع كبح القوات المسيحية ٠

عبد الرحمن بن أبى عامر المنصور

(صفر ٣٩٩ ـ رجب ٣٩٩هـ ـ ٢١ أكتوبر ١٠٠٨ ـ ٣ مارس ـ ١٠٠٩م)

بموت عبد الملك المظفر خلفه أخيه عبد الرحمن الذى لقب بالمنصور ولقب عبد الرحمن شنجول وكان الخليفة هشام الثانى المؤيد لايزال قابعا فى قصره ليصدر مرسوما بتولية عبد الرحمن بن أبى عامر مقاليد الحكم والوزارة ويقال ان عبد الرحمن هذا هو الذى قتل عبد الملك المظفر أخيه .

وقد لقب شنجول (Sonchuela) وهو تصغير لاسم شنجة أحد اخواله وكانت أمه حفيدة الملك سانشو غرسيه ملك نبرة وكان المنصور قد تزوج ابنة هذا الملك الذى أسره ثم أطلق سراحه .

وكانت أمه قد أسلمت وتسمت باسم (عبده) وكان الاندلسيون يلقبونه بشنجول أو سانشوبا أو سانشو الصغير نسبة لامه .

ولقد كرهه سكان قرطبة والاندلس وقد كان يخطط للحصول على مرسوم من الخليفة يحق له فيه أن يكون ولى العهد له وبذلك يصبح خليفة البلاد ويحقق ما لم يستطع أن يحققه والده ابن أبى عامر وكان الرجل من الناحية الاخلاقية أبعد ما يكون عن الخلافة ولكنه نجح فى الحصول على مرسوم يحق له أن يكون ولى عهد الخليفة وبقيت أمامه خطوة للقضاء على الخليفة هشام المؤيد ويصبح هو خليفة البلاد (علامة من علامات انهيار الدولة الاندلسية وليس الخلافة) .

لكن ذلك زاد من سخط الشعب عليه لانه كان عربيدا وضعيفا ويحيى حياة الترف فى القصور وكان أهم ما يشغل باله منذ ان جاء الى الحكم هو انتزاع الاعتراف بولاية العهد من الخليفة بحيث لم يقنع بأن تكون له السلطة التنفيذية المطلقة .

وكان ذلك الشرع فى هـذا الامر الدينى بداية النهاية لان الخلافة كانت حتى ذلك الحين فى كل بلدان العالم الاسلامى الواسع حقـا معترفا ومسلما به للقرشيين فقط وليس لاحـد سواهم واعتبرت ولاية العهد لخلافة سابقة خطيرة فى تاريخ قرطبة واثارت موجة من الثورة والاسـتياء الشـديد فى صفوف الشعب فى الاندلس ٠

ولقد تحرك بعضا من بنى أمية بعـد وصـول هـذا الوزير العامرى (شنجول) الضعيف الى ولاية العهد لان الخلافة شأن من شأنهم ولا يحق لاحد أن ينالها غيرهم مهم الذين احتفظوا بمراكز النفوذ السياسى فى قرطبة وهكذا اصطدم العامرى بالبيت الاموى من خلال محاولته القاضـــاء على الخلافة فى البيت الاموى واتخاذها لنفسه ٠

وقد وجدوا فى قرطبة من يقف الى جانبهم ويتفاعل معهم بالثـورة ضد الوزير وكانت المؤامرة تحاك سرا من داخل الاسرة الاموية وكان بطلها (محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن بن الناصر) وكان الاخير هذا قد أعد خطة محكمة ومتقنة بالاتفاق مع خصوم العامريين فى الدولة وجماعة البيت الاموى ومؤيدوهم الذين استفزتهم أعمال الوزير اليمنى من اغتصاب الخلافة ٠

وكان توقيت المؤامرة عند خروج عبد الرحمن من عاصمته الزهـراء ومعـه عدد غير قليل من الجند عام ٣٩٩هـ/١٠٠٩م ٠ وكانت الاتصـالات قد تمت بين كبار الاندلسيين وبقـايا الامويين ، وفى الجانب الآخـر كان عبد الرحمن (شنجول) يريد أن يقوى مركزه بغزوات يقوم بها فاعلن انه خارج لغزو قشتالة فى ينـاير ١٠٠٩م (جمادى الاولى ٣٩٩هـ) وهذا وقت شـتاء ٠

ولم تكن العادة أن يخرج الجنـد للقتـال فى هـذا الوقت الشـديد البرودة ، لكنه ما كاد يدخل طليطلة حتى بلغه ان ثورة قامت فى قرطبة وان الناس هاجموا مدينة الزهراء وكان ذلك حقـا فان بقـايا الامويين من بنى امية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن هذا ومعه الجيش والقيـــام بالثورة وكان عمادها بنى أمية ٠

وفعلا فى ١٦ جمادى الاولى ٣٩٩هـ/١٥ فبراير ١٠٠٩م بدأت المؤامرة تنفذ وتم الهجوم على قصر قرطبة واقتحموه وقتلوا حاكم المدينة عبد الله ابن أبى عامر وأرغم هشام الثانى المؤيد بن الحكم المستنصر على التنازل عن الخلافة بعد أن مكث فى منصب الخلافة ثلاثة وثلاثين عاما خليفة رمـزا وصـورة ولم يكن له أدنى عمل أو دور يذكر سوى أصدار القرارات وبايع الثوار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبـد الرحمن النـاصر كخليفـة للاندلس واتخـذ لقب المهـدى واختـار شـابا قريبـا له يدعى سليمان بن هشام وجعله ولى عهده وكان ذلك يوم الاربعاء ١٧ جمادى الاولى ٣٩٩هـ/ ١٦ فبراير ١٠٠٩م ٠

ثم تهدمت قصور الزهراء وتلاشى أمرها فى أيام وعندما وصلت أخبار الانقلاب الى شنجول فان الجيش تخلى معظم رجاله عنه لان الجيش كان عليه أن يسيرا شهرا حتى يعود الى قرطبة ولكنه تحرك الى قرطبة وسـار نحوها ورفض زعماء البربر أن يوافقوه على اقتحام قرطبة بالقوة وتخلوا عنه وانتهى أمره بأن قبض عليـه رجـال الخليفـة محـمد بن هشـام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر مختفيا فى ديـر على نهـر (ارنلاط) بالقرب من قرطبة وقتلوه فى رجب ٣٩٩هـ/٣ مارس ١٠٠٩ ٠

وكانت تلك نهاية بنى عامر وكان موته خاتمة مأساوية غير متوقعـة لاسرة لعبت دورا من أخطر الادوار على المسرح السياسى فى الاندلس ٠

أما الخليفة الجديد بطل الانقلاب الذى أطاح بالاسرة العامرية وأعاد الحكم المباشر للامويين فقد أعطى لنفسـه لقب المهـدى على عادة الخلفـاء ووزرائهم الذين أضافوا القابا على أسمائهم ولعل محمد بن هشام قد أستلهم لقبه من ظروف خاصة بالاسرة الاموية التى افل مجدها على يد العامريين ليكون هو بداية عهد جديد ٠

وهكذا تولى محمد بن هشام الخـلافة والامر فى قرطبة دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن ادارة شئون الدولة ومقاليد الحـكم وتنظيم الدولة فقد كان من أسوأ شـباب بنى أمية الاندلسيين ٠

ويبدو ان الامل الذى علقه عليه كبار رجال الثورة وعامة الشعب الذين جاءوا به على رأس الخلافة الاموية قد لا يتحقق اذ يتلاشى نهائيا وهـذا ما سنراه فى الفصل القادم ٠

الفصل السابع

سقوط الخـلافة الامويه

(٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ ـ ١٠٠٩ ـ ١٠٣١م)

تولى خلافة الاندلس الخليفة الجديد محمد بن هشام بن عبد الجبار الناصر الخـلافة الاموية يوم الاربعـاء ١٧ جمـادى الاولى ٣٩٩هـ/ ١٦ فبراير ١٠٠٩ بعد ارغام الخليفة الشرعى هشام الثانى المؤيد على التنازل عن الخلافة وتم سجنه وتم تعيين سليمان بن هشام وليـا للعهد ٠

وهكذا استطاع الخليفة الجديد بطل الانقـلاب الذى اطـاح بالاسرة العامرية وأعاد الحكم المباشر للخلافة الاموية وان كان قد عزل هشــام الثانى المؤيد واتخذ لنفسه لقب المهدى على عادة الخلفـاء وان يعيد للاسرة الاموية كيانها ونفوذها الذى سلبه العامريين ٠

وهكذا نجح المهدى الاموى فى استعادة السلطة المغتصبة وتوج نفسه خليفة على الاندلس بعد خلع سلفه هشـام الذى كان خليفـة على هامش السـلطة ٠

وكان المهدى قد استمد قوته من الثورة الشعبية التى سخرها لتحقيق اهدافه بعد أن كان قد عاش أطول ما عاش فى الاحياء الفقيرة فى قرطبـة وقد اجتمع الناس عليه اول الامر بعد أن قبض على مقاليد الامور واضعين آمالهم فيـه بانه يستطيع أن يحقق آمال الشعب الاندلسى ٠

واستطاع فى البداية أن يبدو أمـام الشعب بأنه الشخصية المعقـود عليها الآمال بعد أن استطاع أن يقضى على العامريين وأنصارهم ، لكنـه بعد فترة وجيزة فشل فى اقامة التوازن السياسى فى قرطبة ووجد نفسه فى

نهاية الامر معزولا فى قصره ، بعد أن كان الموقف يحتاج الى رجل حاسم حازم يمسك بزمام الامور ويردع العامة ولكن الامل ما لبث أن تلاشى ، وان كانت حقيقة الامر تقتضى القول ان الخلافة الاموية قد انهكت فعلا منذ ظهور محمد أبى عامر المنصور وحجره على الخليفة الشرعى هشام المؤيدوهكذا كانت السلطة الفعلية للخلافة قد تلاشت طوال فترة العامر وأبنائه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول ٠

ولم يكن الخليفة الجديد محمد بن عبد الجبار يملك أية موهبة بل كان قاسيا متعطشا للدماء فقد عمل على الانتقام على البربر اضافة الى انتقامه من العامريين ، وليس ثمة شك ان فقدان التلاحم البشرى فى مجتمع الاندلس الذى كان خليطا متنوع الهويات العرقية ومتناقض الانتماءات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كل هذا وقف وراء فشل النظام الاموى وتعثره ، ذلك لان ابن عبد الجبار أساء التصرف بمناصبته العداء للبربر الذين كان يعتمد عليهم ابن أبى عامر على الرغم من انهم أعلنوا الطاعة للخليفة محمد بن هشام وخلعهم طاعة العامرى عبد الرحمن شنجل ٠

وقد تخوف منه البربر ووقفوا منه موقف العداء ولم يمضى شهر واحد على توليه الحكم مارس ١٠٠٩م ـ رجب ٣٩٩هـ حتى قرر اخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور العامرى من قرطبة ٠ وقد أدى هذا القرار الى انقسام جيش الاندلس وفقده لوحدته الامر الذى أدى الى تباعد هذا النظام الجديد عن الشعب ولم يستطيع أن يجعل البربر يتقربون منه والعمل على تعميق شعور الانتماء بالولاء القومى ٠

وقد رفض البربر الخروج من العاصمة قرطبة وبدأ الصراع بين البربر والاندلسيين فى العاصمة وكان قرار محمد بن هشام الخليفة الجديد سببا فى فقد الاندلس قوته العسكرية المتحالفة بحيث لم يستطيع أن يفلح الدفاع عن البلاد ٠

وقد خاف البربر من انتقام الخليفة الجديد منهم أو تدبير مؤامرة للقضاء عليهم لذا فانهم بادروا من انفسهم باختيار خليفة لانفسهم يكون من

أحفاد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) يدعى سليمان بن هشام وكان هذا هو ولى العهد الذى اختاره ابن عبد الجبار وقد انقلب على ابن عبد الجبار بسبب مشكلة البربر وقرر البربر اقتحام قرطبة العاصمة وتنصيب سليمان ابن هشام بالقوة والذى لقب بالمستعين ٠

وهكذا أصبح فى البلاد خليفتان (ابن عبد الجبار وسليمان بن هشام) ، ودخل البربر العاصمة الاندلسية فى ١٦ ربيع الاول عام ٤٠٠هـ/ ٨ نوفمبر ١٠٠٩م وعاشوا فيها فسادا وقتلوا كثيرا من أهلها وفر ابن عبد الجبار من قرطبة الى الثغور الشمالية وأخرجت ثورة البربر الخليفة السابق هشام المؤيد من سجنه وتبين بوضوح انه لم يمت أو يدفن كما أعلن ابن عبد الجبار سابقا حيث أعلن موت هشام المؤيد وكان ذلك فى ٢٧ شعبان ٣٩٩هـ ٢٦ أبريل ١٠٠٩م ٠

وتم تنصيب سليمان بن هشام المستعين خليفة جديدا بدلا من ابن عبد الجبار ، لكن الاحداث لم تسر على وتيرة واحدة فقد أثبت سليمان بن هشام كسلفه انه لم يكن كفء بالمنصب الذى تولاه واضطرب أمر البلاد فى الفترة القصيرة التى تولى فيها مقاليد الامور وكانت قرطبة فى هذه الفترة من نهاية القرن الرابع الهجرى بداية القرن الحادى عشر الميلادى مسرحا للفوضى والمنازعات الدائمة ٠

وبدأت مسرحا للطامعين فى السلطة ذلك لانه فى أقل من ربع قرن (٢٥ سنة) تلك الفترة التى استرد فيها ابن هشام الخلافة وما تلاها من تعيين سليمان بن هشاممرت دولة الامويين فى الاندلس بأجواء عاصفة ومشحونة بالصراع الدموى بين أفراد الاسرة الحاكمة ومرت سلطة الخلافة بالاحتضار وكانت فى الرمق الاخير من بقائها على مسرح الاحداث السياسية فى الاندلس حيث تلقب بهذا اللقب العديد من الشخصيات الذين استهواهم لقب الخليفة فصاروا يتخذونه لانفسهم ٠

وقد استمر سليمان بن هشام فى الخلافة ثلاث سنوات كانت سنوات من الفوضى والرهبة فلم يعد أحد مطمئن على نفسه وأهله وماله ولم يظهر

رجل ذو كفــاءة وخــلق يستطيع ضــبط الامــور فتوالت الفتن والدسائس والمؤامرات .

وكان ابن عبد الجبار الخليفة المعزول (المهدى) قد عاد من الشمال بعد أن طلب العون من الامارات المسيحية الشمالية وأمدوه بالقوة اللازمة واستطاع أن ينتصر على سليمان المستعين ومن معه من البربر فى منتصف شوال عام ٤٠٠هـ/ مايو ١٠١٠م وتحرك البربر الى المغرب مغادرين الاندلس وهذه ثانى مرة يتحرك فيها البربر تاركين البلاد وترك الاجــزاء الشمالية التى أصبحت مسرحا للامارات المسيحية لكن ابن عبد الجبار المهدى ســار خلف البربر لكن البربر استطاعوا هزيمته فى جنوب البلاد عند نهر (ابرة) فى ٦ ذى القعدة عام ٤٠٠هـ/٢١ يونيو ١٠١٠م .

وهكذا انهزم ومن معه من الاندلسيون ومعاونيه النصارى وتم قتــل ثلاثة آلاف من النصارى فى هذه المعركة ، لكن البربر بمساعدة العــامريين والصقالية دخلوا قرطبة ومعهم سليمان المستعين فى ٢٣ يوليو ١٠١٠م/٨ ذى الحجة ٤٠٠هـ بعد أن قتل المهدى على يد هشام المؤيد الذى عاد للخلافة بمساعدة العامريين غير ان هذا الاخير لقى حتفه على يد الخليفة الآخــر سليمان بن الحــكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الذى لقب بالمستعين ٤٠٣هـ/١٠١٣م .

وهكذا لم تدم خلافة هشام المؤيد الثــالثة لان البــربر دخلوا قرطبــة وقتلوا الكثير من أهلها ولم يبقى فى أيدى الخليفة سوى العاصمة قرطبــة وما حولهــا ، وتمسك البــربر بالمستعين فأجيبوا الى مطالبهم فى شــوال ٤٠٣هـ/ مايو ١٠١٣م .

ودخل المستعين العاصمة للمرة الثانية وحاول أن يحكم البلاد معتمدا على البربر ولكنه فشل هذه المرة لكنه اقدم على قتل الخليفة الاسبق هشام المؤيد فى ١٥ ذى القعدة ٤٠٣هـ/٢٦ مايو ١٠١٣م وبذلك انتهت حياة هشام المؤيد لكن البربر لم يخلصوا لسليمان المستعين حيث كانوا وجهوا دعوة لزعامتهم لاسيما بنى حمود الذين هم من سلالة الادارسة .

وكانوا قد اندمجوا مع البربر بعد نهاية الادارسة وقد استطاعوا قتل الخليفة سليمان المستعين على يد على بن حمود وكان هؤلاء قد تطلعوا الى الخلافة ٠

وكان سليمان المستعين قد ولى على بن حمود هذا أمر مدينة سبتة لكنه انقلب عليه وقتل سليمان المستعين بعد أن تحالف مع الصقالبة واقتحم قرطبة وزعم ان هشام المؤيد كان قد جعله وليا للعهد (وقتل المستعين عام ٤٠٧هـ/١٠١٧م ٠

وتولى على بن حمود الادريسى خلافة الاندلس وتلقب بلقب الناصر ونصب نفسه خلفا للخليفة الاموى سليمان وبدأ يمارس سلطانه فى حكم الاندلس خليفة للبلاد معتمدا على رجاله البربر من صنهاجة وأيده الكثير من زعماء صنهاجة والزناتيين وبدأت البلاد تشهد الخلافة الحمودية المغربية فى قرطبة وشاعت الفوضى ولم يستمر هذا الخليفة الوافد من المغرب الادريسى فى الحكم طويلا اذ قام عليه غلمانه وتم اغتياله فى ٣ ذى القعدة ٤٠٨هـ/٢٣ مارس ١٠١٨م وخلفه اخيه القاسم بن حمود الذى تلقب بلقب المأمون بتأييد الزناتيين ٠

وما لبث هذا الاخير بعد أن حكم منا يقرب من أربع سنوات أن تخلى عن منصب الخلافة لابن أخيه يحيى بن على حاكم سبتة الذى أعلن نفسه خليفة للاندلس عام ٤١٢هـ/١٠٢٢م ولقب نفسه بلقب المقلى واستمر الامر لبنى حمود الادارسة الذين حاولوا الاستقرار فى أمر الخلافة وتثبيت كيانهم ٠ على الرغم من أن الفتنة بدأت تضرب بأطنابها فى شتى مرافق الحياة وفى طول البلاد وعرضها ٠

وهكذا لم يستطع أحد ممن تولوا الخلافة أن تنشىء قوة عسكرية لها قيمة حربية تذكر فى تلك الفترة ولكن كانت العاصمة تعج بالقتل والسلب والنهب وأذى الناس اذى شديدا وأفلت زمام السلطة من أيدى بنى حمود المغاربة الذين سلبوا الخلافة من الامويين ٠

لكن الامويون عملوا من جانبهم على استعادة السلطة والخلافة من أيدى بنى حمود سلالة الادارسة فعملوا على أن يكون الامر لهم مرة ثانية أو ثالثة وذلك بعد أن أجمع زعمـاء قرطبـة ورجـال الدين والفقهاء على ضرورة وضع حد للفوضى وسيطرة بنى حمود فقام عبد الرحمن بن هشام (المستنصر بالله) شقيق الخليفة المهدى بن عبد الجبار لكنه لم يدم طويلا حيث خلع بعد عامين وحل محله محـمد بن عبـد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (٤١٤هـ/١٠٢٤م وتلقب بالمستكفى وهو والد الشاعرة الاندلسية الشهيرة (ولادة) ٠

لكن المستكفى هذا تمت تصفيته جسديا فى عام ٤١٦هـ/١٠٢٦م فحدث فراغ فى السلطة القيادية فى البلاد وجاء بنو حمود للسلطة والخلافة مره ثانيـة ٠

لكن ذلك لم يدم طويلا حيث ثارت قرطبة العاصمة بقيـادة بنى جهور الذى قام زعيمهم الوزير أبو الحـزم محمد بن جهور واحدى الشخصيات النافذة الذى عمل على استعادة الخـلافة للامويين للمرة الرابعـة وأعلن هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب بلقب (المعتـد بالله) عام ٤١٨هـ/١٠٢٨م لكن قامت ثورة شعبية عارمة فى الاندلس وكانت معها نهاية الخلافة الاموية عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م ٠

واستطاع الوزير الاجهورى اعـلان نهـاية الخلافة وهكذا كان ربع قرن من الزمان مسرحا للفوضى واختـلال الامن وانقسام الجيش والمؤامرات وتمزق البلاد ٠

ومن هنا كان اعلان نهـاية الخلافة هو بمثابة غيـاب السلطة الدينية والمؤسسة الخلافية وغيـاب الحـكم المركزى ولم يعد لقرطبة أدنى دور سياسى أو طليعى منذ ذلك الحين ٠

ومن هنا بدأت مرحـلة جديدة فى تاريخ البـلاد حيث عاشت البـلاد بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بنى عامر سنوات صعبة من الفـرقة

والتنافس حاول العديد من علية القوم ورجال الدين والفقهاء المخلصين فى تلك الفترة فى عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م العمل على استمرار وحدة البلاد واعادة الخلافة الى صورتها القوية الفعالة وبذلوا فى ذلك الجهود الكثيرة ولكن دون جدوى فعاشت الاندلس حالة تبعث على الاسى عندما بدأ قيام ملوك الطوائف وظهورهم على مسرح الاحداث السياسية وتصدع البناء القوى الشامخ وهوت فى الحضيض سمعة هذا البلد القوى القابع على شاطىء المحيط الاطلسى والبحر المتوسط والحارس لبوابة العالم الغربى الاسلامى وصار الصرح الشامخ كانه لم يكن وأعلن أهل قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الغاء الخلافة وأسند أهل قرطبة أهل الحل والعقد والعلماء ورجال الدين وكبار رجال الجيش أمر البلاد الى شيخهم (شيخ الجماعة) أبى الحزم بن جهور فى منتصف ذى الحجة ٤٢٢هـ ٠

وقد ذكر ابن بسام فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ان أهل قرطبة قد أعطوا منه قوس السياسة باريها وولوا من الجماعة أمينها فاخترع لهم لاول وقته نوعا من التدبير حملهم عليه فاقترن صلاحهم به وأجاد السياسة فاسدل به الستر على أهل قرطبة مدته ٠

وكان بنو جهور يمارسون دورا مؤثرا فى أحداث الفترة الاخيرة من الخلافة الاموية ومن المؤكد ان كبيرهم أبو الحزم الذى شغل منصب الوزارة فى ذلك الوقت كان يساهم بصورة ذكية وطريقة مؤثرة فى توجيه التطورات السياسية لمصلحته حتى أصبح فى مركز القوة وفى يده مقاليد الامور بل القرار الاخير الذى استطاع به الاطاحة بالخلافة الاموية ممهدا فى نفس الوقت لقيام حكومة مستقلة له ولاسرته فى قرطبة استمرت نحو أربعين عاما (١٠٣١ ـ ١٠٧٠م ـ ٤٢٢هـ ـ ٤٦٧هـ) ٠

وقد كانت تلك الاحداث مؤثرا لظهور عصر الطوائف أو أمراء الطوائف أو قل ملوك الطوائف حيث انه من خلال هذه الفترة والاحداث المتضاربة كلها وقف أهل الاندلس وبصفة خاصة القرطبيون ينتظرون بقلق وتلهف، الى ما تسفر عنه الاحداث المتتالية والمتقلبة وكيف سيكون سير الامور ٠

وفى تلك الاحـوال المضطربة كانت معظم ولايات الاندلس تقع فى قبضة رجـال من رجالات بنى عامر الذين كان قد تم تعينهم أثنـاء فتـرة حـكم محمد بن أبى عامر وولديه المظفر عبد الملك وأخيه عبد الرحمن شنجول ٠ وكانوا جميعا من أعضـاء الحـزب العامرى ٠

وفى تلك الظـروف التى كانت البـلاد تعيشها وقد انعدمت السلطة المركزية ولم تعـد قرطبة تمارس نفوذها ودورها كعاصـمة مركزية عـلى البـلاد ٠

فاننا نجـد هؤلاء الولاة فى مدن وولايات الاندلس المختلفة ينفرد كل منهم بحكم ولايته أو مدينته ضـاربا عرض الحائط بالحكومة المركزية التى لم تعد الا صورة للحكم بل منهم من استقل بولايته منتظرا ما تسفر عنـه الامور بالعاصمة ٠

ولكن الامور لم تتجلى عن نتيجة واضـحة وتعـاقب على عرش بنى أمية عدد من الصغار الذين ادعوا لانفسهم الخـلافة ولـم يحـكم منهم بل معظمهم الا فترات قصيرة ٠

وكان أهل قرطبة يحـاولون التمسك بهؤلاء الخلفـاء لكن القرطبيون وزعيمهم أبى الحـزم بن جهور لم يتمـكن من العثـور على شخصية أموية تستطيع النهوض بالمسئولية لاسيما كما سـبق القول فان محمد بن أبى عامر الذى سلب الخليفة هشام المؤيد كل سلطاته استطاع تحطيم بنى أمية والقضاء عليهم وعلى نفوذهم بالدولة وقتل منهم قتل ونفى من بقى بهم خارج الاندلس حتى يخلو الميـدان له ٠

ومن هنا لم يعد ببيت بنى أمية الشخصية القوية التى تستطيع أن تمسك بزمام الموقف وتقود سفينة الخلافة الى بـر الامـان فى هـذه الظـروف المضطربة ٠

ومن ثم فان أهل قرطبة اجتمعوا فى ذى القعدة ٤٢٢هـ/نوفمبر ١٠٢١م

وتشاوروا فى أمر الخـلافة واستقر رأيهم على ضرورة الغـاء الخـلافة الاموية وتم عزل آخـر الخلفاء الصغار من بنى أمية وهو هشام الثـالث الملقب (بالمعتز بالله) وقرروا اخراجه من قرطبة فى ١٢ ذى القعدة ٤٢٢هـ/ ٢٠ نوفمبر ١٠٣١م وبذلك انتهت خلافة بنى أمية الاندلسية وذهب الخليفـة المعتز بالله معزولا الى نواحى سرقسطة حيث انتهت حيـاته ٠

وبذلك انتهى حكم بنى أمية (١٣٨هـ ـ ٤٢٢هـ) بعد حـكم دام مائتين وأربع وثمانون عاما مجريا شهدت فيه البلاد ابعـاد مختلفة سـواء كانت سياسية أم اقتصادية واجتماعية وعلمية وفكرية وثقافية وتحولت فيهـا الاندلس الى كيـان هـام فى أوربا بل فى العـالم الاسـلامى والعـالم المعاصـر ٠

الفصل الثــامن

الاندلس فى ظل ملوك الطوائف

(٤٢٢هـ/١٠٣١م ـ ٤٨٤هـ/١٠٩١م)

كان سقوط الخلافة الاموية العــامل الرئيسى بل الوحيد الذى أدى الى انفراط عقد الوحدة الاندلسية واستقلال كل أمير بامارته ومقاطعته ومدينته واعلان نفسه ملكا أو سلطانا عليها ·

وقد بلغت الاسر الحاكمة فى اقليــم الاندلس الذى كان موحــدا الى عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينــة أو مقــاطعة وســمى هؤلاء بملوك الطوائف وقد أدت هذه الفرقة الى ضعف الاندلس وعجزوا عن الصــمود أمــام الممالك المسيحية التى أخذت تتوحد فى شمال الاندلس وتزحف للجنوب مستولية على البــلاد وعاملة على القضــاء على الوجود الاسلامى (لاحظ توحد المسيحيين وتفرق المسلمين طبيعة فى كل العصور) ·

ولقد كان قرار الغــاء الخلافة الاموية الاندلسية القرطبية الذى اتخذه الزعماء بزعامة أبى حزم الاجهورى يمثل كارثة رهيبة دمرت البلاد وكان هذا القرار هو قرار البداية للنهاية المحتومة للدولة التى تأخــــر سقوطها اربعة قرون بسبب تدخل المغرب ·

ذلك لان الغــاء الخلافة معناه الغاء رمز الوحدة السياسية والدينية والقيادية وحدوث الخلل الرهيب فى البنية الاساسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وكل ما يترتب على ذلك من آثار ضــارة ·

ذلك لان الغاء الدور التقليدى للخلافة كمؤسسة دينية وروحية وزمنية

قد آلم بالاندلس ضربة قاصمة انهت الاندلس كدولة بارزة فى العالم الاسلامى .

وهكذا كان الغاء الخلافة بداية ظهور التمزق والشحناء والطغيان والبغى وتسلط امارة على امارة والغاء نظام الخلافة الذى ارتبط بالنظام نفسه وليس بشخص الخليفة وهى الخلافة التى استطاعت أن تستمد تراثها السلفى من مؤسسها عبد الرحمن الناصر فى الاندلس ومن الخلافة الاموية فى دمشق من مؤسسها معاوية بن أبى سفيان والحكم بن مروان ثم جاء بعده عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك الذى تم فى عهده فتح الاندلس .

وهكذا وجد حكام النواحى والاطراف والولايات انفسهم فجأة بدون خليفة وبدون قيادة دينية وسلطة مركزية فى العاصمة قرطبة تصدر أوامرها للاقاليم ومن ثم ازاء هذا الحدث لم يجدوا أمامهم الا أن يتولوا بأنفسهم ادارة شئون ولاياتهم وأقاليمهم .

وهكذا تحول كل حاكم ولاية أو اقليم أو مدينة كبرى الى حاكم مطلق ومستقل فى ولايته .

وهكذا لم يكن أمام هؤلاء الا أن يسيروا أمور ولاياتهم بعد ان قام أهل قرطبة بالغاء الخلافة .

ومن هنا فانه يمكن القول ان عمال هذه الاقاليم لم يخرجوا عن طاعة العاصمة ولم يستبد كل حاكم بولايته ولكنهم وجدوا انه لا مفر أمامهم الا اختيار هذا الطريق وان يتحول كل حاكم منهم الى أمير بامارته .

وبهذا القرار الخاطىء الذى اتخذه سكان قرطبة وقائدهم شيخ المشايخ كان السبب الاساسى فى تمزق البلاد كما ان قرار محمد بن أبى عامر بالحجر على الخليفة الصغير هشام الثانى المؤيد سببا فى اضعاف الخلافة وقتل المغيث بن عبد الرحمن .

كما ان هذا القرار لم يحدث فى تاريخ الدولة الاسلامية أن تقوم جماعة بالغاء الخلافة وهكذا كان هذا القرار خالى من كل مسئولية وشعور بالاخطار التى تهدد البلاد من الشمال حيث الامارات المسيحية ·

فقد ظلت الخلافة العباسية رغم ضعفها وزوال القوة الفعلية من يد الخلفاء الا انها ظلت قائمة كرمز لوحدة المسلمين فى الشرق وحتى بعد سقوطها على أيدى المغول عام ٦٥٦هـ قام المصريون عام ٦٥٩هـ باعلان الخلافة العباسية من القاهرة كرمز للوحدة الدينية والسياسية وكان ذلك ذا فائدة عظيمة للبلاد الاسلامية ·

وكان اسقاط الخلافة الاموية قد أدى الى تتابع انفلات المدن والاقاليم فى الاندلس فى أواخر عهد الخلافة الاموية حتى بلغ عددها ستة عشرة دويلة مستقلة فى سيادتها وعلاقاتها الخارجية ومتنافسة فى الحرب مع جاراتها الاخرى ·

وهكذا ظهر أمراء النواحى الذين نسميهم بملوك الطوائف ، وهم لم يتخذوا القابا ملوكية أو سلطانية وانما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد والمستعين ولم يكن كل منهم يحكم بطائفة معينة أو فئة معينة وانما أطلق عليهم هذا الاسم لان كل منهم استبد بامارته وأرادت كل امارة أن تظهر بمظهر الامير أو سلطان وجرت الحروب بينهم وطمع فيهم نصارى الشمال فأخذوا يفرضون عليهم الاتاوات لان أى احد منهم لم يكن لديه جيش يستطيع به دفاع أو دفع النصارى عن بلاده لاسيما ان هذه الامارات المسيحية كان لها هدف صليبى هو طرد المسلمين من الاندلس واسترداد البلاد التى فتحوها بعد أن توحدت هذه الامارات فى شمال الاندلس وكان ظهور هذه الامارات المسيحية وقيام تحالف بينها وبين الامبراطورية الغربية التى انشأها شرلمان ·

وهكذا عجز ملوك الطوائف عن الصمود امام الممالك المسيحية وكانت عامل قوى لسقوط الامارات والمدن والاقاليم الطائفية · وهكذا وجدت فى الاندلس أوضاع يحكمها امراء اتصف عدد منهم فى بعض تصرفاته

بالانانية والضعف والغـدر والخيانة والتحالف مع أعداء العقيدة وبعد أن هانت لديهم مصالح الامة وباعوا دينهم وبلادهم وأهاليهم للعدو المتربص ثمنا لبقائهم فى السلطة وأصـاب الامة الضياع بقدر ما ضـيعوا من النمط الخلقى المسلم وانحرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف الذى كانت عليه الاندلس وحضارته فى مثل هذه الحـالة تظهر العصبية والنزاعات التى تؤدى الى التشتت والضياع ٠

وهـكذا تدهورت أمـور الاندلس كله وتداعت القـواعد الراسـخة والوطيدة التى وضعها أمراء بنى أمية وخلفـاؤهم وخاصـة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ووجدت امارات الشمال تنفسها وطمعوا فى بلاد المسلمين ، ثم ان أمراء الطوائف دخلوا فى حروب طويلة بعضـهم مع بعض وكل منهم يريد أن يوسع ناحيته على حساب الآخرين مستعينا فى ذلك بقوات النصارى يدفع لهم اتاوة على حساب اخوانه المسلمين وتلك هى فترة الطوائف التى انقسم فيها الاندلس الى وحدات سياسية كثيرة كلها صغيرة وكلها عاجـزة عن القيـام بأمور نفسها وتدهورت الامور فى الاندلس كلها خلال هذه الفترة وأهم أمراء الطوائف الذين ظهروا فى هذه الفترة ٠

امــارة الجهاورة فى قرطبة

(٤٢٢هـ ـ ٤٦١هـ ـ ١٠٣١ ـ ١٠٧٠م)

اسس أبو حزم الاجهورى حكما مستقلا فى قرطبة لاسرته دام نحــو اربعين عاما (١٠٣١ ـ ١٠٧٠م) وبذلك مهد لاسرته لحــكم قرطبة وأجاد السياسة وأدار أبو حــزم بن جهور حكومة قرطبة وعاونه فى ذلك صــفوة من الرجال (كان هذا الرجل سبب البلاء والنكبة التى حلت بالاندلس على المدى الطويل ويعتبر من الاسباب المباشرة لضياع الاندلس) وكذلك عاونه ابنه الوليد فى ادارة شئون الحكم ٠

وقد شملت هذه الولاية العديد من المدن فى شمال قرطبة وامتدت حتى حدود ولاية غرناطة واستمرت حكومة قرطبة تنشر الامن والطمأنينة لسنوات كثيرة لكنها أضاعت هيبة وسطوة وقوة قرطبة وكانت حكومته تستند فى ذلك الى مجلس استشارى مكون من خيرة الرجال لاسيما رجال الدين والفقهاء وعليــة القوم وقادة الجيش ٠

وبعد أن ظهرت الامارة الجهورية قامت فى الاندلس ممالك أو دويلات مستقلة عن الحــكومة المركزية فى قرطبة وقسمت الاندلس الى ست مناطق رئيسية تضم كل منها امارة أو أكثر حتى بلغت جملة عددها أحيانا عشرين امارة وكان الاجاهرة ينسبون الى جدهم الاكبر أبو عبده حسان الذى دخل الاندلس عام ١١٣هـ ٠

وكان أبو حزم جهورية شيخ الجماعة فى قرطبة قد تولى الامور فى منتصف ذى الحجة عام ٤٢٢هـ عندما أسقط الخلافة الاموية فى ظل ممارسة سلطاته فى ادارة العاصمة قرطبة وما حولها من المدن والقرى التابعة لها مثل جيان وبياسة وغيرها وكان يعاونه عدد من علية القوم حتى توفى فى ٦ محرم ٤٣٥هـ ٠

وظل يمارس السلطة الفعلية أكثر من اثنى عشر عاما وبوفاته تولى

ادارة قرطبة ابنه أبو الوليد محمد الذى ظل يحكم أكثر من عشرين عـاما (٦ محرم ٤٣٥هـ ــ ٤٥٦هـ) ثم آلت الامور من بعده الى عبد الملك الاجهورى والذى تولى أمر الجند وشـاركه عبـد الرحمن الاجهورى الذى تولى امر الجبـاية فى ظل هذا الامر قائما حتى عام (٤٦١هـ/١٠٦٩م) عندما اختفت حكومة الجهاورة وضمت قرطبة الى امارة أشبيلية التى كان يحكمها بنى عباد فى ذلك الوقت ٠

وهكذا طويت صفحة العاصمة قرطبة وفقدت أهميتها نهائيا وانتهى حكم بنى جهور وأصبحت قرطبة مدينة فى امارة أشبيلية العبادية ٠

امارة طليطلة وحكام بنى ذى النون

ان الذى يطالع تاريخ الاندلس فى عصر ملوك الطوائف يدرك المصيبة الكبرى التى حلت بالبلاد فانهــا لم تقتصر على تقســيم أرض الاندلس الى ولايات صــغيرة مستضعفة ، بل المصيبة الكبرى والطــامة العظمى ان هذه الامارات كانت تجاور امارات نصرانية ما كادت تبرى أراضى المسلمين الى جوارها بدون حماية حتى انقضت عليها ووسعت أراضيها على جسنـابها وتحولت من امارات ضعيفة تكافح للبقاء الى ممالك تعمل على توســــــع رقعتها وتطمع فى الاستيلاء على بقية شبه الجزيرة ومن ثم فان فكرة استرداد الاندلس لم تظهر الا فى وقت ملوك الطوائف أما قبل ذلك فان هذه الامارات الصغيرة كانت تريد أن تعيش فقط ٠

وهكذا كانت هذه الامارات مهددة بخطر سياسى ودينى كبيــر قــادم من الشمال حيث الامارات المسيحية وكانت من الامارات التى ظهرت بجوار امارة قرطبة الاجهورية امارة طليطلة الذى حكمها أبنــاء ذى النون الذين يعودون فى أصولهم الى أصول بربرية قديمة فى الاندلس وهناك قرب طليطلة قامت لهم سيادة وتحولوا الى أندلسيين من أصل مغربى ونشات أجيالهم اندلســية ٠

وفى عهد الامير عبد الله بن محمد زادت قوة هذه الاسرة وتطلعوا الى السلطان وفى عهد الناصر عبد الرحمن حاولوا أن يستبدوا بحــكم طليطلة لكن الخليفة عبــد الرحمن النــاصر قضى على قوتهم وكذلك شــهد عصر المنصور محمد بن أبى عامر ارغامهم على الطاعة والاشتراك فى حمــــلات على بلاد النصــارى ٠

وقد قدموا خدماتهم للحــزب العامرى ٠ وكانت طليطلة ولاية واسعة تبدأ من قلعة أيوب ومدينة سالم فى الشمال ولا تنتهى الا قرب الوادى الكبير الى قرب بلدة قيدة وكانت لا تنتهى غربا الا عند أطراف ما يعرف بالبرتغال فكانت هذه الامارة تكون نحو خمس مساحة الاندلس الاســــلامى الذى ظل حتى نهاية الخلافة فى أيدى المسلمين ٠

وعندما زالت الخلافة عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م اتخذ الامير يحيى بن اسماعيل بن ذى النون لقب المأمون ٤٢٢هـ/٤٦٧هـ (٤٥ سنة) واتخذ لنفسه لقب مثله مثل أمراء الطوائف فى ذلك العصر ولكن لم تكن لديه قوة عسكرية كافية وكان يتصور انه بسلامته ومهادنته ملوك النصارى المجاورين استطاع أن يأمن شرهم وأن يعيش فى سلام وخاصة عندما كانت هذه الولايات ضعيفة فى عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ومحمد بن أبى عامر ٠

وكانت تجاور طليطلة امارة صغيرة تقع الى الغرب منها هى قشتالة وقد تنازع أبناء ملك ليون وانتهى الامر بهروب الامير (الفونسو) الى طليطلة لاجئا عند ملكها « يحيى بن اسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون ورحب به المأمون وبالغ فى اكرامه وانزله دارا مجاورة لقصره وكانت اقامته فترة طويلة قدرت بعدة سنين عرف فيها أحوال البلد وتطلع على ضعفها العسكرى وعرف ان هذه الامارة لا تمتلك أكثر من خمسمائة فارس ٠

وهكذا درس أحوال المدينة تنفيذا لاستيلائه عليها وقد كان ذلك نوعا من الغفلة والبلاهة لانه لم يكن فيها فطانة أو ذكاء اذ سمح له بالتحرك فى حرية دون مراقبة ٠

وعندما اغتيل أخيه شانجة عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م ٠ فقام النبلاء والامراء باستدعائه فأصبح ملك قشتالة وليون وتلقب بلقب ألفونسو السادس - لاجىء طليطلة ٠

وهكذا تولى الحكم مكان أخيه شانجة (سانشو) ولقب بالقائد القوى لجرأته وشجاعته ورحل عن طليطلة وقطع ألفونسو كل ما شاء من عهود وصداقة ٠

وهكذا لم يكد يستقر على العرش حتى بدأ يمهد للاستيلاء على طليطلة بعد أن أصبح الفونسو ملكا لقشتالة وليون وجليقية وهكذا أصبحت أسبانيا النصرانية موحدة تحت قيادته ٠

وتوفى المأمون بن اسماعيل ذى النون عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م وخلفه حفيده الملقب بالقادر على حكم طليطلة وكان يحيى القادر حفيد المأمون فى غاية الضعف والقدرة السياسية والعسكرية وفى عهده استقلت امارة بلنسية (٤٦٧هـ/١٠٧٥م) بعد أن كانت من توابع طليطلة ٠

وهكذا أصبح الاستيلاء على طليطلة الشغل الشاغل للفونس السادس وقد بدأ منذ عام ٥٧٠هـ/١٠٧٨م يعمل لتنفيذ هذا الامر بالاغارة على الاراضى الواسعة لمملكة طليطلة لتحقيق حلمه الكبير فى اسقاط طليطلة وعرض على يحيى القادر ذى النون أن يحميه من جيرانه ملوك الطوائف المسلمين فوافق الاخير وبذلك أصبحت طليطلة حماية مسيحية قشتالية وصارت تدفع الجزية سنويا للملك مسيحى واستمر فى الاغارة على أراضى مملكة طليطلة ويعيث فيها تخريبا وقتلا واتبع سياسة الارض المحروقة للقضاء على كل شىء واستمر فى تلك السياسة لمدة سنوات لينهك قوة الامارة ٠

وفى حقيقة الامر فان ايواء الامير يحيى بن اسماعيل بن ذى النون للفونسو السادس كان غلطة سياسية مدمرة وكانت أيام تعيسة وفرصة ذهبية وسببا مباشرا بل عاملا فى سقوط المدينة أو البدأ فى سياسة شن حرب طويلة عليها لاسقاطها حيث استمر الفونسو السادس فى سياسته هذه يصارع طليطلة طوال سبع سنوات حتى استطاع أن يأخذها من صاحبها القادر بالله (ابن المأمون يحيى بن اسماعيل بن ذى النون) فى منتصف محرم ٤٧٨هـ/١٠٨٦م وبذلك دخلت طليطلة كلها فى مملكة ليون قشتالة ٠

وقام الفونسو السادس بترحيل يحيى القادر عن طليطلة الى ولاية بلنسية وأرسل معه جماعة من فرسان النصارى تحت قيادة فارس يدعى البرهانس فدخل يحيى ابن ذى النون بلنسية فى حماية النصارى وبسقوط طليطلة تضاعفت مساحة الامارة السيحية ثلاث مرات وضمت اليها طليطلة ومدينة سالم وشنترية وقلعة أيوب ودروقة وانتقل الفونسو من ملك صغير الى اكبر ملوك الجزيرة الاندلسية وأصبح صاحب الكلمة العليا بها فقد

ضم اليه امارة طليطلة واصبح بهذا الوضع الجديد قادرا على املاء ارادته على كل بلاد الاندلس ٠

ولكن الشيء المؤسف للامر ان بعض ملوك الطوائف وقد طال حصار طليطلة سبع سنوات وقفوا موقف اللامبالاة وكأن الامر لا يعنيهم ولم يتحركوا لنجدة طليطلة ، بل ان بعضا منهم طلب عون الملك الفونسو السادس وعارضا عليه الخضوع له (هكذا حالة المسلمين فى فترة الضعف) (التاريخ الحديث به أمثلة كثيرة على ذلك) ٠

وكانت تلك غفلة منهم لان الفونسو الثالث ومن جاء بعده وضعوا هدفا أسمى أمامهم وهو استرداد الاندلس والقضاء على قواعد الاسلام فى الاندلس وقد كانت نزعة الانانية والعصبية الضيقة وحب الذات والكيد لبعضهم بعضا من أسباب انهيار الأندلس ٠

لكن يذكر هنا موقف لحاكم بطليوس Bodojaz عمر بن محمد بن الافطس الملقب بالمتوكل على الله وكان شهما شجاعا لديه نخوة وله موا ـ محفودة تتضح فيها الغيرة والنجدة الاسلامية اذ تحرك بامداد طليطلة بالقوات العسكرية والمؤن أثناء الحصار والعتاد والاسلحة اللازمة لكن لم تكن كافية للوقوف أمام استعداد عسكرى أوربى كبير تحالفت فيه كل الامارات النصرانية ٠

والغريب فى الامر بأن هؤلاء الاقزام (توافه الطوائف) حملوا ألقابا اسلامية هى براء منهم يوم القيامة والتى منها من تلقب بالناصر والمنصور والمستنصر والعادل والمظفر والمؤيد والمعتمد ٠

امارة أشبيلية فى عصر بنى عباد

(٤١٤ ــ ٤٨٤هـ ــ ١٠٢٣ ــ ١٠٩١م)

تعتبر مملكة أشبيلية فى مقدمة ملوك الطوائف من حيث سعتها وتفوقها السياسى وكان لها شأن فى أحداث فترة (أقـزام الطوائف) لاسيما فى غربى الاندلس حيث تقوم هذه المملكة وكان لها شأن وافـر فى النشـــاط العلمى وقد حكم بنو عبــاد هذه المملكة وحاولوا الحاق مناطق أو امارات أخرى الى مملكتهم وخضعت قرطبة لفترة ما لحكم هذه الامارة ٠

وكان بنو عباد حـكام أشبيلية وهم أحد فروع اليمنيين من قبيلة لخم قـد سـبقوا بنى جهور فى العاصـمة قرطبـة باعـلان دولتهم المستقلة فى اشبيلية بثمانية أعوام (٤١٤هـ) والتى نافست قرطبة حضاريا وانتزعت منها الدور القيادى فى الاندلس خاصة فى أيام حاكمها الشهير المعتمد بن عباد الذى قضى على بنى جهور ٠

وقد حكمت أسرة بنى عبــاد أشبيلية هذه الامارة حتى انتزعها المرابطون ومؤسس هذه الامارة القاضى أبى الوليد محـمد بن اسماعيل بن محـمد بن عباد اللخمى وذلك قبل سقوط (اسقاط) الخلافة الاموية بثمانية أعوام وكان من رجـال الحزب العامرى وقد ولاه محمد بن أبى عامر قضـــاء أشبيلية ٠

وعند قيــام الفتنة كان أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد قاضيا على أشبيلية فقدمه أهلها للرياسة وقد شغل أفراد هذه الاسرة عدة مناصب أيام فترة خلافة الحكم المستنصر وابنه هشام الثانى المؤيد والمنصور محمد ابن أبى عامر وكان جدهم الاكبر الوليد قـد تولى الشرطة لهشـام المؤيد وخطة الامانة والخطابة بالجامع الأعظم ٠

وكان جدهم واليــا على أشبيلية فشرعت نفسه الى السلطان وكان رجلا واسع الحيلة بعيد الطموح واستبد بالامر بعد انتهاء دولة بنى حمود الادريسية واسماعيل هذا هو الذى انتقل بالبيت العبادى الى الامـــارة

وحاول أن يضم الى امارته كل ما استطاع من البلاد الصغيرة الى جواره وخاصة امارة قرمونة واستكة قرب أشبيلية ·

وقد ولى ابنه أبا القاسم القضاء واقتصر هو على رياسة البلد وتولى أمر المشيخة وكان اسماعيل عميد هذه الاسرة ومؤسس ملكها في أشبيلية ·

وقد تولى أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عباد أمر أشبيلية منذ عام (٤١٤ ــ ٤٣٣هـ/١٠٤٢م) عندما جعل ابنه أبا القاسم محمد واليا من قبله على الامارة (٤٣٣ ــ ٤٦١هـ/١٠٤٢ ــ ١٠٦٩م) وقد تلقب بالمعتضد ووسع امارته حتى شملت معظم حوض الوادى الكبير وما يليه جنوبا وهادنه أهل قرطبة ورغم انه حشد قوات عسكرية كبيرة لكنه لم يستطع أن يوحد الاندلس تحت ولاية أو امارة واحدة ·

وكانت هذه المملكة قوية بين ملوك الطوائف وبذل أبو عمر عباد الملقب بالمعتضد بالله جهود كبيرة فى ضم امارات غرب الاندلس الى أشبيلية وتحقق له بعضها وصرف جهودا عسكرية كبيرة فى هذا الشأن وكان أولى به أن تصرف فى تقوية مملكته وفى مصلحة الاندلس ضد الاخطار الخارجية المسيحية حيث وقعت الحرب بينه وبين جيرانه بنى الافطس أصحاب بطليوس وقد استعان ابن الافطس وابن عباد بالنصارى واستقر الامر فى النهاية الى شبه هدنة بينهما ·

وقد اشتدت الحرب بينه وبين المظفر بن الافطس وقد استمرت الحرب فترة طويلة بينهما وطمع الفونسو السادس ملك قشتالة وليون فى بلاد المسلمين وقد اشتهر أمر المعتضد فى بلاد الاندلس فجعل لنفسه بلاطا وتشبه بالملوك وهو والد المعتمد بن عباد ·

وقد حاول عام ٤٥٠هـ أن يستولى على قرطبة ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها الا عام ٤٥٨هـ وازاء ذلك نجد المعتضد بن عباد يخضع لفردناند الاول Fernando I ويذهب بنفسه الى معسكر الملك القشتالى

ليطلب اليه الصلح ويتعهد بدفع الجـزية السنوية وتنفيذ مطالبه وكان الاجدر به أن يقف مع اخوانه (أقزام الطوائف) للعمل ضد القوى المتربصة بالاسلام وديار الاسلام والعدو الصليبى القادم من الشمال ٠

ولكن اقزام الطوائف هؤلاء ذاقوا وبال أمرهم وجروا الويل والثبور والعـار على شعوبهم التى كانت هى الضحية وسجلهم التاريخ بأســـود الصفحات قتـامة وبلادة ، ذلك لانهم ارتموا فى أحضان القوى المعـادية ولم يتخذوا درسا لمـا حدث فى طليطلة ٠

وقد توفى المعتضد عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م بعد أن تولى حـكم الامـارة ثمانية وعشرين عاما وخلفه ابنه ابو القاسم ٤٦١ ـ ٤٨٨هـ محمد بن عباد الملقب بالمعتمد على الله ٠

وفى أيامه بلغت دولة بنى عباد ذروتها فى القوة والشهرة فقد تمكن المعتمد من ضم قرطبة ومالقة ومرسيه وضم كل الامارات الصغيرة الواقعة جنوبى الوادى الكبير ٠ واستمر المعتمد على سياسة والده وسلفه فى بذل الجهد لتوسيع رقعة هذه المملكة حتى كان اسـتيلاء الفونسو السادس على طليطلة فى محرم عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وأيقظ هذا الحادث بقية أمراء الطوائف واحيا الروح الميتة ودفعهم بالاحساس بالاخطار التى تتهدد أمنهم وعقيدتهم وأرضهم وعرضهم وديارهم ٠

وجـاء سـقوط طليطلة ليمنع المعتمد بن عبـاد من أن يحـقق أمـل الوحدة ٠ وقد جرت أحداث عصيبة خـــلال السنوات العصيبة التى مرت بالاندلس والتى ترتب على سـقوط طليطلة ومضـايقات من قبـل الفونسو السادس لابن عباد جعلته يندم ويدرك مدى الاخطار التى تتعرض لها الاندلس وليست امارته ٠ وهكذا ظهرت فكرة الاستعانة باخوة الاسلام والعقيـــدة المرابطين المغاربة فى العدوة المغربية ٠

وقد انتهت امارة بنى عبـاد على يد المرابطين فقـد عزله يوسف بن

تاشفين عند عبوره الثالث الى الاندلس ورحل الى المغرب حيث عاش فى مدينة اغمات ٠

ومما سجله التاريخ بأحرف من نور لمعتمد بن عباد قوله عندما قرر استدعاء المرابطين وتخويف بقية أمراء الطوائف له من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، هذا القول الذى يشهد له « اننى أقبل أن أرعى ابل ابن ابن تاشفين خيرا لى من أرعى خنازير الفونسو السادس ملك قشتالة » كما أن قراره استدعاء المرابطين قد أطال فى عمر الاسلام أكثر من أربعة قرون ولولا تدخل المرابطين والموحدين وبنى مرين لكان للاسلام وأهله شأن آخر فى الاندلس ٠

وكان استدعاء المرابطين قد درست فكرته لعدة سنوات وذلك بعد سقوط طليطلة مباشرة حيث عقد فى قرطبة اجتماع حضره الفقهاء والعلماء وكبار القوم واتخذ فيه قرار استدعاء المرابطين الى الاندلس لنصرة اخوانهم فى العقيدة ٠

وكانت قولته المشهورة المدوية وراء كل هذه الاحداث وكان تمادى ملك قشتالة فى تحصيل الضريبة التى يدفعها المعتمد سنويا وزيادة عليها والشطط فى مطالبه وأسلوبه المملوء بالتهديد وتبجح السفير القشتالى وازاء ذلك طلب المعتمد بن عباد بقتل السفير وسجن بقية الوفد (لان السفير طلب من المعتمد السماح لزوجة الفونس السادس بأن تلد فى مسجد قرطبة الجامع حسب اشارة القساوسة والاساقفة ، فكان جزاء ذلك قتله وتطورت الامور وحشد الفونسو جيشا ضخما جمعه من كل مناطق اسبانية النصرانية كافة وما جاورها وأرسل السرايا تعيث عبثا فى أراضى غربى الاندلس باجة وليلةو أشبيلية وسار هو بنفسه فى جيش آخر صوب اشبيلية يحرق فى طريقه كل ما يقابله وحاصر أشبيلية عدة أيام ثم انحدر الى اقصى الجنوب الاندلسى وصولا الى مضيق جبل طارق حيث مدينة طريف ٠

وقد راسل ابن عباد « الفونس السادس » وهو يحاصر الأشبيلية بخطاب فهم منه استدعاء المعتمد على الله العبادى للمرابطين فى المغرب وهكذا كان شأن دولة أو امارة أو دويلة بنى عباد فى اشبيلية

امارة سرقسطة

كانت هذه الامارة من أعظم امارات الطوائف التى ظهرت على الساحة السياسية فى الاندلس بعد سقوط الخلافة من حيث سـعة رقعتها وموقعها وقد حكمت هذه الامارة أسرتين متتاليتين وكان لكل حـاكم أو أمير وزراؤه وكتابه وقواده ورجـال امارته وعصبيته التى كان يعتمد عليها حيث كانت العصبية أسـاس الحـكم الذى قامت عليـه الولاية وكان موقعها حساسا لوقوعها بين الدول المسيحية النصرانية فى الشمال ٠

وقد عرفت سرقسطة بولاية الثغر الاعلى وكانت عاصمتها مدينـــة سرقسطة وظهرت امارة مستقلة عند انفراط عقد الخلافة وكانت تعـــرف بولاية الثغر الاعلى الاندلسى حيث كانت آخـر حدود الاندلس شمالا وهو الحوض الادنى لنهر الايرو وعاصمته سرقسطة وتتبعها بلاد كثيرة فى تلك النواحى الشمالية الجبلية ٠

وكانت تجاور مملكة أرغون شمالا وفى الشمال الغربى مملكة نبـرة المسيحية وفى الشرق امـارة برشلونة التى كانت اسلامية واستولى عليها شرلمـان وقد تغير وضعها الجغرافى بعد سقوط طليطلة فقد أصبحت تجاور مملكة ليون وقشتالة من الغرب والجنوب وصارت محاطة من جميع الجهات بامارات مسيحية ومعنى هذا ان هذه الامارة صارت محاطة بملوك النصرانية ولا طريق لها تسلكه الى بلاد لمسلمين الا عن طريق امـارة السـهلة أو سنتمرية فى الشرق وطرطرنة قرب مصب نهر الايرو ٠

وعندما وقعت فتنة سقوط الخلافة فقد كانت هذه المدينة (الامـارة) تحكم من قبل أسرة (بنى نجيب) وكان أصلهم من سكان الاندلس الاصليين ومن الحكام القوطيين ثم أسلموا وحسن اسلامهم وتعربوا وظلوا يحكمون هذه الامارة وكان لهم فيها تاريخ طويل ، ثم آل الامر بها منذ عام ٤٣١هـ عندما ضعف شأنهم الى أمراء بنى هود ٠

وكان أول من آلت له امارة هذه البلاد من أسرة بنى هود هو الامير

أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى (نسبة الى قبيلة بنى جـذام العربية الهلالية) وقد حكم البـلاد سـبع سـنوات بدأت فى عـام ٤٣١ ـ ٤٣٨هـ/١٠٣١ ـ ١٠٤٦م ٠

وقد تلقب كغيره من أمراء الطوائف الذين اتخذوا القـابا لهـم بلقب المستعين بالله وكان هذا الرجل كغيره من رجال الثغر الاعلى (سرقسطة) رجلا محاربا عنيفا يجتمع حوله جماعة من أهله وشعبه المقاتلين البواسـل اضافة الى عدد من رجال الفرسان الذين كانوا يبسطون حكم الولاية على عواصم الثغر الاعلى الاربعة سرقسطة وطليطلة ولاردة ووشقة ، لكن سقوط طليطلة فى أيدى الفونس السادس جعل هذه الامارة تشعر بالخطر المحيط من حولها من قوى المسيحيين ٠

لكن أخطأ حاكم الامارة خطأ بالغا قبل وفاته فى عام ٤٣٨هـ حيث قام بتقسيم الامارة بين أبنائه الخمسة وكان هذا التصرف السبب المبـاشر فى حدوث صراع وعنف وقتـال بين الاخوة بعضهم مع بعض لكن فى نهـاية الامر فان الامور آلت الى أبى جعفر أحمد الملقب بالمقتدر بالله الذى استطاع أن يجمع كل السلطة بين يديه وأن يحقق كل أهدافه ٠

ولقد كان الصراع بين الاخوة من الاسباب القوية التى دفعت بالفونس السادس ملك أرغون وقشتالة وجليقية بأن يقوم فى عهد المعتز بالله بمحاولة السيطرة على سرقسطة واخضاعها لنفوذه لكن حملته باءت بالفشل الشنيع وعاد خائبا الى بلاده واستعان بعد ذلك بملوك النصارى جميعا للنيل من بلاد المسلمين فجمع كل قوات شمال الاندلس وأوربا ولجأ الى البابوية فى روما لتقدم له المساعدة وتدعوا نصارى أوربا لمساعدته ٠

ولقد استطاعت قوات أوربا المجتمعة أن تستولى على حصن صغير على بعد ستون كيلو متر شمال شرق سرقسطة هى مدينة (برشندة) وكان الهجوم الكاسح الصليبى مفاجأة للمدينة لم تستطيع أن تطلب العون من المقتـدر بالله وكان موقعها بعيدا ومتطرفا على حدود الامارة وقريبـا جدا من امارة بربطانية النصرانية ٠

هذه Barbitania كورة فى شمال الاندلس وتطلق اليوم على مدينة بلطانية Beltania شمال شرق مدينة وشقة Huesca قرب جبال البرت الاندلسية ٠

وقد وكانت هذه المدينة تابعة للاندلس لكن التبعية لم تدم طويلا اذ سقطت فى أيدى الممالك الشمالية المسيحية وهكذا كانت مأساة بربشتر عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤م حيث أنزلوا بأهلها مذبحة بشعة ٠ وقد بارك البابا فى روما البابا اسكندر الثالث كل ما فعله وقام به النصارى فى هذا البلد الاسلامى ٠

ولقد أحس اهل سرقسطة وبقية الامارات الاسلامية الطائفية المجاورة انهم يعيشون فى رعب وخطر فأحسوا بأنهم لم يعودوا يعيشون فى حماية ولاية قوية وهكذا تملك المسلمون القلق وفقدان الثقة ٠

لكن بنى هود لم يعرفوا اليأس أو الاستسلام فقد أعدوا قواتهم وقاموا بهجوم خاطف وقوى بعد مرور اقل من عام بالهجوم على مدينة (بدبشترة) بقيادة احمد بن الامير هود الى تلقب بالمقتدر بالله وتم تحرير المدينة فى جمادى الاولى عام ٤٥٧هـ/١٠٦٥م ٠

وقد توفى الامير الثانى حاكم هذه الامارة المقتدر بالله عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م بعد أن حكم الامارة خمسة وثلاثين عاما وقد ظلت الامارة تحت قبضة بنى هود وظلوا يحكمونها بعد وفاة المقتدر بالله الذى قسم الامارة بين ولدين ابو عامر يوسف الملقب بالمؤتمن وأخيه المنذر وجرت بين الاخوين أحداث وصراع وحروب استعان كل منهما بالعدو النصرانى على الآخر ٠

ولقد حاول الفونسو السادس الاستيلاء على سرقسطة ولكنه فشل فى تحقيق اهدافه وكان ذلك عام ٤٧٩هـ عندما علم بنزول المرابطين الى الاندلس واستطاع الامير أبو عامر أن يرد الفونسو المحارب قرب طليطلة عند بلدة بلتيرة فى رجب ٥٠٢هـ/١١١٠م ٠

وقد استشهد ابو جعفر احمد المستعين وخلفه ابنه ابو مروان عبد الملك الملقب بعماد الدولة ولقد كانت هذه الاحداث من شانها اضعاف الجبهة الاسلامية وهو ما كانت تسعى اليه سلطات أسبانيا النصرانية ٠

وبعد دخول المرابطين الاندلس دخل أمراء سرقسطة فى طاعتهم ولكنهم لم يخلصوا لهم بل آثروا الدخول فى طاعة ملوك أرغون ، ففى عام ٥٠٣هـ نجد مروان عبد الملك عماد الدولة يتنازل عن بلدة صغيرة للفونسو وبعد وفاة عماد الدولة فى شعبان عام ٥١٢هـ/١١١٨م دخل الفونسو المحارب ملك أرغون سرقسطة وبذلك سقطت سرقسطة نهائيا وتضاعف حجم مملكته وانتقلت من طور الى طور كما حدث بالنسبة لقشتالة وليون اذ أن مملكته أرغون صنعت نفسها على حساب امارة سرقسطة والتى كانت أول الامر امارة مسيحية صغيرة فى جبال البرانس فأصبحت الآن تمتد حتى تشمل وادى الايرو والادنى والاوسط وأصبحت بذلك من كبار ممالك النصرانية ٠

لكن هناك أقوال أخرى تذكر ان سرقسطة لم تسقط عام ٥١٢هـ بالقتال ولكن سقطت سلما حيث سلمها الوالى ٠ وكانت سرقسطة آخر دول الطوائف التى دخلت فى طاعة المرابطين وترتبط بتاريخهم عام ٥٠٣هـ ورحل الامير عبد الملك ليعيش فى كنف الامارات المسيحية فى الشمال بدلا من أن يتحالف مع المرابطين ويكون عضوا بارزا فى حركة الجهاد الاسلامى وكان سعيه للشمال المسيحى يعطى صورة سيئة عن نفسية هؤلاء الاقزام الذين كانوا السبب المباشر فى اضاعة كيان الاسلام فى الاندلس ٠

امارة بطليوس وحكم بنى الافطس

ينتمى ابن الافطس الى جدهم الاكبر مسلمة بن الافطس الذى آل حكم امارة بطليوس الى حفيده أبو محـمد عبد الله الذى تلقب بالمنصور وأعلن استقلاله بامارة بطليوس عام ٤٣٣هـ/١٠٢٢م ـ ٤٣٧هـ/١٠٤٥م وذلك فى فترة ضعف الخلافة وقبل سقوطها نهـائيا بتسع سنوات ثم انتقل الحكم الى ابنه سـيف الدولة أبو بكر المظفر عام ٤٣٧هـ ٠

وكان والده قد حـكم أربع وعشرين عاما وحـكم المظفر هـذا ثلاث وعشرين عاما ثـم آلت مقـاليد الامور الى ابنـه أبو محـمد عمر (الملقب بالمتوكل على الله) وكان هذا الامير الذى حكم (٤٦٠ ـ ٤٨٧هـ ـ ١٠٦٧ ـ ١٠٩٤م) دور هام فى أحداث طليطلة قبل سقوطها فى أيدى الفونس السادس اذ تحـرك بقواته وظل بالمدينة مجاهدا عشر شهور وقام بواجبه الاسـلامى تجـاه طليطلة ولو أدى بقية أمراء الطوائف مثل الدور الذى قام به لقاومت طليطلة الحصـار وصمدت أمـام قوات الغزو ولمـا تمكن الفونسو السادس من احتلالها حيث ان المتوكل على الله ابن الافطس شهما شجاعا وله مواقف محمودة تظهر فيهـا الروح الاسلامية حيث الغيرة والنجدة كما كان ملكا عالي القدر مشهور الفضل ٠

وكانت مدينة بطليوس فى فترة حكمه دار أدب وعلم ونحو وعلم وقوة وقد وقعت الحـرب بين بنى الافطس هؤلاء وبنى عباد حكام اشبيلية جيرانهم وقد اشتدت الحرب بين المعتضد العبادى وبين بنى الافطس وطال أمد الحرب بينهما حيث يقال ان بنى الافطس استعانوا بالنصارى فى الشمال (حسين مؤنس ٠ معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٦١) ٠

وقد حدثت معركة الزلاقة التى قادها المرابطون فى صـباح الجمعـة ٢٥ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ بالقرب من مدينة بطليوس امارة بنى الافطس مما يدل على استعداد بنى الافطس للمشاركة فى الجهاد الاسلامى ووضـع أنفسهم وبلادهم تحـت تصرف يوسف بن تاشفين وقوات الاندلس المشاركة لهم ٠

وكان لابى محمد عمر المتوكل على الله بن الافطس دور كبير فى توحيد صفوف أمراء الطوائف فى وجـه الخـطر المتزايد وقـد دعى عـام ٤٧٤هـ ١٠٨١م وقبل سقوط طليطلة بأربع سنوات (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الى عقـد اجتماع بين أمراء الطوائف لبحث الحال التى وصلت اليها الاندلس ٠

وكانت محاولاته هذه قبل سقوط الاندلس بعقد من السنوات وليس بأربع سنوات اذ انه أرسل دعوته الى القاضى أبا الوليد الباجى ليـدعو أمراء الطوائف على مائدة التباحث وتوفى هذا العالم الاسلامى عام ٤٧٤هـ ولم تلقى دعوة بنى الافطس استجابة كافية أو تقود الى عمل يرجى منـه النفع للاسلام والمسلمين ٠

لذا فانه اتجـه بفكره وفعله الى المرابطين فى عدوة المغـرب فكاتب أميرهم يوسف بن تاشـفين (الحـلة السيراء لابن الآبار) وكانت مبـادرة المتوكل بن الافطس من استدعاء المرابطين لنجدة الاندلس ، لكن ابن الافطس الذى كان له فضل السبق قد تبنى فكرته ابن عباد (المعتمد) وقام باستدعاء المرابطين ٠

ومما يؤيد رغبة بنى الافطس من القيـام بعمل اسلامى موحـد من أجل الاسلام والمسلمين فى الاندلس ما ذكره المؤرخ المجهول صـاحب كتاب الحلل الموشية فى ذكر الاخبـار المراكشية انه فى عام أربع وسبعين وأربع مائة كتب المتوكل على الله بن الافطس الى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين يدعوه الى الجهاد فى الدعوة الى توحيد القيـادة الاسـلامية فى الاندلس والمغرب وكانت رسالته تحمل الدعوة الى الاستعانة بالمرابطين ٠

وهكذا فان المتوكل بن الافطس قد تبنى الدعوة الى توحيد الاندلس وجمع كلمة جميع الامراء والحـكام ٠ وكذلك ضرورة الاستعانة بالمرابطين لنصرة الاسـلام والمسلمين فى الاندلس وقام المتوكل الذى ذكر عنه الدكتور حسين مؤنس أقوال غير مؤكدة ومن مصادر غربية معادية للاسلام والمسلمين ومن كل دعوة الى وحدة الصف والكلمة ٠

وحاول الاساءة الى المجاهد ابن الافطس بقوله ان المتوكل عمر بن محمد بن الافطس كان من أكثر الناس تهافتا على ملوك النصارى فاشتد طمعهم فيه وأخذ ألفونسو السادس يدبر أمر الاستيلاء على بطليوس كما استولى على طليطلة ٠

وهنا فقط فكر فى الاستعانة بالمرابطين ونحن لا نأخذ بهذه الاقوال ذلك لان بنى الافطس كان لهم دور اسلامى مشهود وتذكره المصادر الاسلامية ٠

لكن الدكتور حسين مؤنس يذكر كعادته ان المظفر بن الافطس والد المتوكل على الله عندما قدم اليه أمراء الاندلس يحدثونه فى أمر توحيد الاندلس (بلاد المسلمين) قال كلمة استعظمها أهل العصر وهى انه لو جاءنى أبو بكر وعمر ونازعانى هذا المال لقرعتهما بالسيف ، ومع ذلك فقد كان ذلك الرجل يؤدى الجزية صاغر لملك قشتالة (لم يذكر الدكتور مؤنس مصدر هذه المعلومات ٠

ولقد اتخذ المتوكل بن الافطس اجراءات الكتابة الى المرابطين وزعيمهم يوسف بن تاشفين ثم كان الاستمرار فى أمر الدعوة متصلا فى جاء سقوط طليطلة ٤٧٨هـ هى الطامة الكبرى والشرارة التى أوقدت الغيرة الاسلامية وانتشرت فى أنحاء الاندلس ضرورة فكرة استدعاء المرابطين وكان سقوط طليطلة سلاحا بتارا يهزم كل قول لا يرى ضرورة استدعاء المرابطين امرا ملحا يتعلق بمستقبل الاسلام والمسلمين فى هذه الديار ٠

ومن هنا فانه يمكن القول ان من شأن امارة بطليوس وحكامها من بنى الافطس شأن غيرها من امارات الاندلس السابق الاشارة اليها من حيث الرغبة فى التوسع على حساب الامارات المجاورة وعدم الدخول فى حرب منفردة ضد الامارات المسيحية حيث انه لم تكن امكانات اية من هذه الامارات العسكرية قادرة على أن تقف منفردة أمام التوحد الشمالى الذى أصبحت امارة مسيحية واحدة كانت تدعمها أوربا من خطفها كذلك فان

بابا روما كان يبارك هذه الخطوات ويدعو ملوك أوربا الى تقـديم كل عون ومساندة وكان يصدر المراسيم التى تدعو الى جهاد الكفار (لمسلمين) وطردهم من الاندلس .

ومن هنا وقع على بنى الافطس عبء النضال من أجل توحيد الصف ووحدة الكلمة عندما أحسوا بالخطر المحدق بكل ديار الاسلام .

وكانت دعوة المرابطين دعوة متأخرة عن موعدها لكن سقوط طليطلة كان جرس الانذار الذى دفع الجميع الاحساس بالانقسام والتمزق حيث شعروا ان شعار الاسترداد الذى رفعته الامارات المسيحية قد اتخذ بعدا جديدا بسقوط طليطلة وتراجع المد الاسلامى ورغبة ألفونسو السادس فى السيطرة على أراضى المسلمين وضمها الى أملاكه وكان ألفونسو السادس الذى أصبح ملك قشتالة وليون وجليقية نهما فى ابتلاع ديار الاسلام والمسلمين .

وهكذا كانت صورة الاندلس صورة سيئة وانتهى أمر المسلمين بها الى حالة يرثى لها بعد أن تفرقت وحدتهم وأصبح الاندلس الاسلامى فريسة ولقمة سائغة أمام ملوك النصرانية بعد أن فرض هؤلاء الاتاوات التى كان يدفعها ملوك الطوائف وهم صاغرون الى ملوك النصارى ليسترضوهم ويأمنوا جانبهم .

وفى حقيقة الامر ان هذه الامارات كانت أضعف من ملوك الطوائف لكن وحدة كلمتهم شجعتهم على تحقيق أهدافهم مملكة ارغون المسيحية مثلا كانت مساحتها تمثل ثلث مساحة امارة سرقسطة (الثغر الاعلى) ومع هذا كان حكام بنى هود فى سرقسطة يؤدون الجزية الى جارهم الملك الارغونى ولم تتحول هذه الامارة الصغيرة الى مملكة الا بعد أن استولت على امارة الثغر الاعلى فزادت مساحتها ثلاث مرات وكذلك لم يصبح ملك ليون قويا الا بعد أن استولت مملكة قشتالة وليون على طليطلة .

وهكذا كان هناك امارة بطليوس مثل غيرها لكن التدخل المرابطى حال دون وقوعها بسرعة فى أيدى المسلمين حيث لم تسقط الا عام ٥١٢هـ .

امارة بلنسية

تقع امارة بلنسية شرق الاندلس تجـاورها من طرفها الشمالى امارة سرقسطة (الثغر الاعلى) والتى كان يحكمها بنى هود ٠

وبلنسية هى العاصمة وشاطبة من المدن الهامة بها وقد كانت بلنسية هذه من أقاليم طليطلة وتخضع لسيادتها وتعتبر من أغنى اقاليم الاندلس وقد آلت مقاليد الحـكم بهـا بعد سـقوط الخـلافة (٤٢٢هـ) الى جمـاعة الصقالية الموالين لبنى عامر ، ثم ان هؤلاء الصـقالية تجمعوا والحوا فى ترشيح أحد ابنـاء أو بالتحديد أحـفاد محـمد بن عامر المنصـور ويدعى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ٠

وكان ذلك قبل سقوط الخلافة رسميا باحدى عشر سنة ٤١١هـ/١٠٢١م وتلقب هذا الامير العامرى شأنه شأن أقزام الطوائف بلقب المنصور ربمـا تيمنـا باسم جـده محمد بن أبى عامر وظل هذا الامير العامرى حـاكما لامارة بلنسية احدى وأربعين عاما هجرية (أربعين عاما ميلادية) ٤٥٢هـ/ ١٠٦١م ٠

هكذا فان هذه الامارة قد خرجت من أيدى الخلافة الاموية منذ فترة طويلة وقد يبدو ان خروجها كان مع بداية حكم هشام المؤيد أو أواخر عهد أبيه الحكم المستنصر ولكن المصادر لم توضح الفترة الزمنية التى حـكم فيها الصقالية هذه الامارة قبل أن تؤل الى حكم بنى عامر ٠

وبعد وفاة عبد العزيز المنصور العامرى فان مقـاليد الامور قد آلت من بعده الى ابنه عبد الملك الذى تلقب بلقب المظفر وكان المظفر هذا قد تزوج من أسرة بنى ذى النون حكام طليطلة ومن ابنة أمير البلاد الامير المـأمون ذى النون الذى سقطت طليطلة فى عصره ٠

وجرت بين المـأمون زوج ابنة المظفر أحداث سياسية تم بمقتضـاها ان يتنازل المظفر عن حكم بلنسية وأعمالها وأن يتم ضمها الى امارة طليطلة

واتحدت الامارتان فى امارة واحدة فى عهد الامير المأمون ذى النون حاكم طليطلة الى فترة حكم أبى بكر بن عبد العزيز الملقب بابن دويش لحكم الولاية بحكم بلنسية وجعله وزيرا ونائبا عنه فى حكمها وقام بالمهام الملقاة على عاتقه احسن قيام وسار فى الرعية سيرة حسنة ٠

لكن طابع الاستقلال الفردى قد أصبح هو المقياس الوحيد للكيانات الصغيرة ولم تكن هناك دوافع للعمل المشترك الموحد من أجل وحدة الكلمة وحق الاندلس فى أن يصبح دولة واحدة ٠

ويتوفى المأمون حاكم طليطلة عام ٤٦٧هـ/١٠٧٥م ويخلفه حفيده القادر بالله ويستقل أبو بكر العامرى بحكم بلنسية ، ولكن أمر بلنسية لم يترك حر كما هو قائم لكن نجد أبناء بنى هود حكام سرقسطة يسعون لضم بلنسية اليهم بحجة انها تقوى مركز سرقسطة وتكون مملكة قوية وكانت بينهما صلات وعلاقات قوية ومصاهرة اذ تزوج أحمد المستعين بالله (٤٧٨ ــ ٥٠٣هـ) من ابنة أبى بكر بن عبد العزيز ٠

لكن الاخير هذا توفى عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م بعد عشرة أعوام من حكم بلنسية وخلفه فى حكم بلنسية والقيام بادارة أمورها ابنه أبو عمرو عثمان بن عبد العزيز ٠

وكان الفونسو السادس عندما استولى على طليطلة فانه قام باخراج (ابن رويش) محمد بن عبد العزيز من الحكم وصار الامر الى يحيى القادر ابن ذى النون وذلك فى حماية فرسان الصليبيين من النصارى الذين كان على رأسهم فارسهم (البرهانس) والذى تلقبه المصادر الاسلامية بلقب القامبيطور واسمه الحقيقى رودر يكوديبيا Rodrigo de Vivar

وهكذا وقعت بلنسية تحت حكم بنى هود وحكمها القادر بالله حاكم طليطلة السابق بعد اخراجه منها وقامت قوة من الجنود القشتاليين بمعاونته فى الاستيلاء على المدينة وأمده الفونسو بالقوات التى قادها البرهانس (Avar Hanz أو القمبيطور ٠

ولقد كان الفونسو السادس يدرك بترحيله القادر بالله من طليطلة الى بلنسية فى حماية قواته هو جعل هذه المدينة أيضا واقعة تحت حمايته ووصلت هذه القوى المسيحية الى بلنسية لاخضاعها وجرت مراسلات بين أهلها ووعود من القادر لهم وانتهى الامر بالموافقة على مطالب القادر واستبعاد مطالب احمد المستعين بن هود منافس القادر وخلع أبو عمرو عثمان ودخل القادر وجنوده القشتالية المدينة ٠

وفى ظل حكم ابن هود ساءت احوال المدينة والامرة وأرهق أهلها بالضرائب الفادحة لدفع الجزية السنوية وتلبية مطالب الفونسو والقوات القشتالية التى تقيم بالامارة والتى كثر تعديها على حرمات الناس والمدينة وأصبحت لهم السيادة المطلقة بل الحقيقية على الامارة مما اضطر الكثير من أهلها الى النزوح منها وتركها نهائيا واللجوء الى الامارات الاسلامية المجاورة وذلك من جراء هذه السياسة الطائشة التى اتبعها القادر الهوذى استرضاء لمطالب القشتاليين وملكهم الفونسو السادس ورغبة هذا الحاكم الضعيف أن يظل ظلا فى الحكم وصورة باهتة لقزم خاضع للحكم الاستعمارى الصليبى ولو كان فى ذلك ضياع العقيدة الدين والارض والاهل والشرف وذلك تحت حماية عدو متربص للانقضاض على هذه الديار ٠

وكان قدوم المرابطين ونتائج معركة الزلاقة والانتصار الباهر الذى حققه المسلمون عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م سببا فى عدم سقوط بلنسية تحت قبضة الفونسو السادس وطمأنت أهلها وتحطمت قوى البشر القشتاليين لكن بلنسية نكبت بعدو يتربص بها هو القمبيطور أو السيد والذى كان من أصل قشتالى واختلف مع الفونسو السادس ونفى الى بلاط سرقسطة وعاش فى بلاط بنى هود واختلط بالمسلمين ٠

ومن هنا أطلق عليه اسم السيد وهو لقب عريق اسلامى ثم صالح الملك الفونسو السادس بعد احتلاله طليطلة ثم اختلف معه مرة ثانية وكون حوله جماعة مسلحة (ممكن أن نطلق عليهم قطاع طرق) وتجمعت لديه أعداد كبيرة منهم ووجد ان بلنسية امارة ضعيفة فى حماية الفونسو

السادس ملك ليون فاخذ يغير عليها وهى عاجزة عن الدفاع عن نفسها وهكذا نكبت بلنسية بهذا المغامر السفاح والسفاك للدماء ٠

وكانت بلنسية فى ذلك الوقت تحت حكم يحيى القادر ويعاونه فى حكم الامارة القاضى أبو جعفر أحمد بن الجحاف وظل يحاصرها حتى استطاع الاستيلاء عليها عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وذلك بعد معركة الزلاقة بست سنوات فحكمها لفترة عامين فقط حكم فيها بالحرق موتا على قاضيها أبى جعفر بن جحاف ونفر من أهلها وذلك فى جمادى الاولى عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ٠

وفى ذلك الوقت كان المرابطون يتقدمون فى امارات الاندلس وتمكنوا من استعادة بلنسية على يد القائد عبد الله بن عائشة أحد قادة يوسف بن تاشفين ، لكن المدينة خضعت نهائيا للمرابطين عام ٤٩٥هـ/١٠٠٢م بعد أن حكمها القائد محمد بن مزدلى ابن عم يوسف بن تاشفين وبذلك عادت بلنسية تحت لواء الاسلام ٠ وكان الحديث عن طليطلة وبلنسية يوضح ما آل اليه حال المسلمين من ضعف وتفكك وانهيار ٠

وكان السفاح القمبيطور قد حصل على وعد من الفونسو السادس بأن تكون كل الاملاك والمناطق التى ينتزعها من أيدى المسلمين ملكا له ولاولاده وأمده بسبعة آلاف جندى قشتالى مما يثبت بالدليل القاطع اصرار القشتاليين على طرد المسلمين نهائيا من الاندلس مهما كلفهم ذلك من ثمن وتضحية ومهما دفع المسلمون من جزية سنوية وأموال طائلة سنويا وكان سبب خوف القاضى ابن الجحاف انه تزعم الاتجاه بضرورة التخلص من حكم هذا الذريق ورسل بن الجحاف القائد المرابطى ابن عاصشة وتم تنحية يحيى بن القادر وتولى القاضى ابن الجحاف زمام السلطة بالمدينة عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م وأصبح رئيسا للجماعة وأخذ ينظم الامور ويستعد للدفاع عن المدينة وكان سكان المدينة قد عزلوا القادر بالله تخوفا من أن يسلمها للفونسو السادس كما فعل بطليطلة وكانت قوات المسلمين ثلاثة آلاف جندى ٠

لكن ذلك لم يمكن المدينة من المقاومة والحصار حولها شديد وطويل وطرق التنكيل والوحشية والهمجية لا حدود لها فسقطت بلنسية فى جمادى

الاولى ٤٨٧هـ وقام القمبيطور الطاغية باحراق كل من خرج من المدينة حيا وعاش قتلا فى النـاس وعلقت جثثهم على الاشجار .

وهكذا كانت هـذه الحـالة دافعـا لان يطلب النـاس الاستسلام فضلا عن الثبـات والمقاومة وسلمت بلنسية وفتحت ابوابها للطاغية فى يوم الخميس جمادى الاولى ٤٨٧هـ/١٠٩٤م بعد حصار دام عشرين شهرا حيث بدأ حصارها فى آخـر رمضان ٤٨٧هـ/٢٠٩٤م وحـول الطـاغية مسـجد بلنسية الجامع الى كنسية وذلك عام ٤٨٩هـ وقتل بالكثير من اهلها فى اقل من شهرين وأغلق الابواب على السكان واعمل فيهم السيف واشعل النـار بهم أحيـاء بعد أن امر باحزام نار عظيمة واحرق القاضى ابن الجحـاف واهله وبنوه وهكذا فعل القمبيطور بالمسلمين عاملا على ازالة كل مـا هو اسـلامى .

وقد اهتزت بلنسية لهذه الاحداث وشاركتها الاندلس الاسلامية قراها ومدنها الشعور بالمـأساة وتوجهت قوات المرابطين الى بلنسية ودارت معارك اتسمت بالقوة والعنف وانتصر المسلمون فى جميعها .

وكانت بلنسية من نصيب القوات المرابطية بقيادة أبى محـمد مزدلى ابن عم يوسف بن تاشفين الذى تعجل فى الوصول اليها مسرعا بعد أن سمع آنات المسلمين وبعد أن تنـازل عنها القمبيطور لكى يتولى حكمها ألفونسو السادس وأقام بها شهرا لكن أخبـار تقـدم القوات الاسلامية جعلته يهرب شمالا لمحـاولة النجاة بنفسه ومن معه بعد أن قتل ابنه الوحيد ديجو Diego فى احدى المعارك عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م وكذلك قتل قائده الشهير البرهانس Avar Hanz القـائد المشهور وأبيـدت له فرق بأكملها فأراد أن ينجو بنفسه ومن معه من بقـايا القوات فترك بلنسية على عجل واضطر الى ذلك اضطرارا معه رفات القمبيطور الذى كان قد قتل فى معارك المرابطين ولم يترك المسيحيون المدينة الا أطلالا مدمرة بعد أدبروا فيها النيران وصـارت المدينة أطلالا وهذه سياسة الاوربيين (الارض المحروقة) ودخل المرابطون المدينة وتم استرجاعها عام ٤٩٥هـ فى منتصف شهر رجب/ ١١٠٢م ووجدت

المدينة خالية تماما من سكانها والنار مضرمة في الجامع والقصر وكل الدور ·

وبذلك عادت بلنسية الى حصن الاسلام ونور القرآن ودعوة محمد ابن عبد الله عليه الصلاة والسلام بعد ثمانية أعوام ونصف من حكم الظلم والطاغوت والجبروت وهلك من أهلها من هلك وفعل القمبيطور تحت حماية الفونسو السادس فعله بأهلها من جراء روح صليبية لا ترعى حرمة ولا تعرف خلقا ولا تحترم عهودا ولا مواثيق وتلك هي الروح الاوربية في كل العصور والذى يطالع هذه الصفحات يدرك مدى تعاليم الاسلام وحسن تعاملها واحترامها للاديان والبشر وتنفيذ التعاليم الاسلامية ·

لكن الذى يتعمق في دراسة الاحداث التى مرت بالاندلس في عصر ملوك الطوائف واستغلال أمراء الامارات المسيحية لحالة الفوضى والانقسام التى سادت البلاد وكيف احتلوا برشلونة وطليطلة وغيرها من المدن التى سقطت في أيديهم من جراء سياسة التفكك والتمزق والتشرذم التى سادت الامارات الاندلسية الواقعة في الاطراف الاسلامية واستعانة أمراء الامارات بأعداء الدين والديار والاهل كل منهم يلجأ الى حكام الامارات المسيحية طلبا للنجدة نظير دفع الاتاوة السنوية أو التنازل عن الارض وما عليها من قلاع وحصون وأهل وعقيدة ·

وكيف كان يصح هؤلاء الحكام أن يظلوا في سلطة الحكم وهم يرون ما يتعرض له المسلمون وما حدث في بلنسية من جراء جرائم القمبيطور الا صورة مصغرة لما سيحدث مستقبلا للمسلمين في غرناطة عند سقوطها وما كان ذلك يحدث الا جهلا من حاكم أو سوء تدبير أو عدم ادراك لحقيقة الصراع أو انطواء تحت مغريات أخرى ·

امارة المرية وحـكم الصمادح

تقع هذه الامارة الصغيرة فى الجنوب الشرقى من بلاد الاندلس حيث تطل على البحر المتوسط وقد استقل بحكمها أمراء بنى الصمادح عنـد حدوث الفتنة فى قرطبة وكانت تتبعها عدة مدن مثل بسطة والبشيرات وتقع على مصب نهر صغير يسمى نهر الوريش ·

وكان للصمادح القـاب مثل غيرهم من أمـراء الطوائف فقـد تلقبوا بألقاب مثل المعتصم ورفيع الدولة ورشيد الدولة ويذكر عنهم حسين مؤنس انهم كانوا من نفس طراز بنو عبـاد تسود بينهم الانانية والتخاذل وعـدم الاكتراث بما يصيب غيرهم من أمراء الطوائف على أيدى ألفونسو السادس وملوك الامارات المسيحية وكان أول من حكم هذه الامارة المعتصم ثم تولى بعده ابنه رفيع الدولة ورشيد الدولة ·

ويعتبر امراء الصمادح شأنهم شأن غيرهم وفترة حكمهم من اسـوأ ما هو بالاندلس وانهارت البلاد وقادتها النكبات الى الضياع ·

امارة ولبة Huelva وشلطيش

وكانت هاتين الامارتين شأنهما شأن غيرهما من الامارات الصغيرة التى انقسم اليهـا الاندلس .وكانت تخضع لحـكم عبد العزيز البكرى ولد الجغرافى المشهور أبو عبيدة البكرى وقد أطلق عليها امارة البكريين وكانت عاصمتها والبة . وقد تنازل الامير عبد العزيز البكرى عن حكمها للمعتمد بن عبـاد ·

مرسـية Mercia

وكانت من امارات الطوائف الصغيرة امـارة مرسـية وكانت تخضع لحكم العامريين أحفاد محمد بن ابى بكر العامرى ·

باجـة Beju

وكذلك امارة باجة وكانت تخضع لحكم بنى مزين ·

شلب Silves

وكذلك امارة شلب وكانت تخضع لحكام بنى عباد فى أشبيلية فى غربى الاندلس ٠

غرناطة

هذا بالاضافة الى امارة غرناطة التى كانت تقع جنوبى الاندلس وتخضع لحكم بنى زيرى كذلك اشتهرت امارة بنى حمود الادارسة فى مالقة وظلت تحكم هذه الامارة (١٠٣٥ ـ ١٠٥٧م) ٠

وبالنسبة لغرناطة سوف نترك الحديث عنها فى هذا الفصل نظرا لاننا سوف نفرد لها فصل خاص فى نهاية هذه الدراسة باعتبار انها الولاية أو الامارة الوحيدة التى قاومت الزحف الصليبى المسيحى لاطول فترة ممكنة وكانت آخر ولاية تسقط فى أيدى الاسبان وكان نهاية سقوطها نهاية النهاية للوجود الاسلامى فى الاندلس حيث اسدل الستار عن آخر فصل من فصول المأساة التى لازال جرحها ينزف دما رغم مرور أكثر من خمسمائة عام ١٤٩٢ ـ ١٩٩٢م على سقوط هذه الامارة ٠

ونكتفى هنا بالاشارة الى امارات الطوائف حيث ان الحديث الممتد عنها قد يطول أكثر مما أفردنا له فى هذه الدراسة ذلك لان بقية ملوك الطوائف فهم كثيرون ولكنهم كانوا على نفس الطراز الذى ذكرناه عن غيرهم من الامراء السابقين وأفعالهم فى الولايات والامارات التى حكموها لكن يبقى لنا هنا ملاحظة لابد من ذكرها ذلك لان هؤلاء المدعون أمراء وليس هم الا أقزام طوائف لماذا قبلوا الحكم واستمروا فى حكم الولايات وهم يخضعون خضوعا تاما للملوك النصارى بل يدفعون الاتاوات للنصارى وكانوا يدفعون مبالغ من الذهب لا يصدق حجمها وكمياتها ٠

ومن ذلك كما يذكر فان ابن هود حاكم سرقسطة والثغر الاعلى كان يدفع شهريا أكثر من ألفى (٢٠٠٠) قطعة من الذهب لملك قشتالة ومن ذلك فان ما كان يدفعه صاحب سرقسطة يزن أكثر من عشرين كيلو جرامات من الذهب لملك قشتالة وكان يدفع الى غيره من الامراء المسيحيين وكل ذلك لا يكون الا

رغبة فى شهوة الحكم واعتلاء عرش يخضع للنفوذ والسيطرة المسيحية ولا شك ان غيره من ملوك الطوائف كانوا يدفعون لملوك النصارى مثل هذه الكميات من الذهب التى كانت تنزع من أقوات الشعب الاندلسى المفكك اليائس الخاضع لحكام ضعفاء ٠

وفى تاريخ هذه الامارات صور من المهازل والتى كانت تتجلى فى نهب ثروات البلاد نهبا ليدفعوا الاتاوة لملوك النصارى بل اكثر من ذلك فانهم لم يكتفوا بتسليم الارض والعرض والاهل ، بل قدموا الاموال اللازمة لكى تقوى الامارات المسيحية وتتفوق عسكريا وعلميا وماديا ٠

وهكذا كانت ممالك النصرانية مثل برشلونة وقشتالة ونبرة تحصل على كميات من الذهب دون عناء مما مكن لهم تكوين جيوش قوية وتسليحها بأحدث أسلحة العصر وانشاء مدن حديثة وتعمير الاراضى ونمو اقتصادها ٠

وقد أدت فترة حكم أمراء الطوائف الى فقر بلاد الاسلام وغنى بلاد النصارى وهبوط الوضع الاقتصادى وكان هؤلاء الاقزام السفهاء بتصرفهم الابلة صورة سيئة فى تاريخ الاسلام فى الاندلس حيث كانوا يدفعون الجزية وهم صاغرين لملوك النصارى ٠

وعلى هذا فانه يمكن القول ان أيام الطوائف هذه تعتبر أضعف حلقات التاريخ الاسلامى السياسى الذى شاع فى أغلب الفترات فقد قامت الاندلس فى النكبات وأصاب البلاد حالة من التفكك الاجتماعى ، بل ان فترة الطوائف تعتبر أسوء ما مر بتاريخ الاندلس لما سادها من التشتت والضعف الامر الذى أدى بالبلاد الى هذه النكبات الجسام التى تعرض لها وكان هؤلاء الاقزام من الاسباب المباشرة لضياع العقيدة والدار والديار امام زحف الاسبان الذين دعوا للحروب الصليبية والتى تجمع لها المتطوعون من فرنسا وألمانيا وانجلترا وايطاليا اضافة الى توحد الامارات المسيحية فى قيادة عسكرية واحدة ٠

وهكذا بعد هذا السرد نرى كيف أن هؤلاء الحكام انشغلوا

بالصراع الطويل فيما بينهم لتحقيق رغبتهم فى الحكم والسيطرة وكان ذلك على حساب اخوة الاسلام والعقيدة والدار والجنس والتاريخ لذا كانت هذه الاسر الحاكمة فى هذه الامارات التى قدرها البعض بست عشر ولاية وآخرين بعشرين ولاية سببا فى ضياع ثمار الجهد الاسلامى الذى بذله قادة الفتح العظماء فى الاندلس الاسلامية على الرغم من قرب سيوف الاعداء الشماليين المسيحية من رقابهم وكأنهم كانوا يعيشون فى عالم غير العالم الذى يتحرك من حولهم ولم يكن يقدرون أبعاد الخطر المحدق بهم ورغم توحد امارات الشمال المسيحية فانهم استمروا فى صراعهم الداخلى ولم يكن يقدرون خطر الزحف السياسى والعسكرى القابع وراء الابواب حيث لم يعد موضوع الوحدة الوطنية الاندلسية وارد فى فكر هؤلاء الامراء بل انهم لم يدركوا طبيعة أعدائهم ونواياهم العدوانية ، بل انه حسب بعض الاقوال فان سقوط طليطلة لم يحرك ساكنا لمعظم ملوك الطوائف وانما لاذوا بالصمت المطبق وكان عملية ضياع احد الامارات الاسلامية عملية لم تعنى أحد منهم .

لكن بعد سقوط طليطلة وتحرش ألفونسو السادس بامارة اشبيلية التى يحكمها بنو العباد ، كان ظهور فكرة التصدى للزحف الصليبى الذى وصل فى زحفه جنوبا حتى مضيق جبل طارق عند مدينة طريف الواقعة على الساحل وذلك عن طريق استدعاء المرابطين بالمغرب لنجدة الاندلس .

ومن هنا وقع على المغرب الاسلامى دور درأ الخطر الصليبى المتربص بديار الاسلام فى الاندلس وكان على قادة المغرب فى عصوره المختلفة سواء فى عهد المرابطين أو الموحدين أو بنى مرين أن يتحركوا لانقاذ ديار الاسلام من الضياع بعد أن ضيعها ملوك الطوائف فكان المغرب كانت مهيأة بحكم الواقع الجغرافى والسكانى والعقيدة والدين والدار أن يتحركوا أهلها لنجدة اخوانهم فى عدوة الاندلس ، فكما وقع على المغرب دور الفتح فى عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد فقد وقع على يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن ابن على زعيم الموحدين وزعماء بنى مرين أن يكون لهم دور الانقاذ وبذلك

تاخر سقوط الاسلام فى الاندلس لمـا يقرب من أربع قرون الا قليلا فكان الله العلى القـدير أراد أن يهيأ سـبحانه وتعـالى هؤلاء المرابطين والموحدين والمرينيين ليكون لهم دور فى وقف الخطر لكن النفس البشرية كانت أقوى من أن تخضع لقوة واحدة ولو توحد كل أمراء الطوائف لمسار دور الاسلام دورة غير التى انتهت ولتغيرت الصورة الاسلامية عما تكون عليه الاحداث المستقبلية ٠

الفصل التاسع

المغرب ودرأ الخطر المسيحي عن الاندلس

انه من الخطأ التاريخي أن يتصور أى دارس لتاريخ الاسلام عبر مشوارة الطويل ان الاسلام فى المغرب والاندلس ليس الا حقبة زمنية واحدة وان أحدهما لم يكن بمعزل عن الآخر عبر تاريخه الطويل فالمغرب كان ظاهرا على سطح الاحداث منذ الفتح الاسلامى الاول لعبور طارق بن زياد وموسى بن نصير من المغرب الى الجبهة الاندلسية ٠

ومن ثم كانت الفتنة الشنعاء التى أودت بالخلافة الاموية عام ٤٢٢هـ قد أدت الى الفتن بعد أن اقتسم رؤساء المدن عواصم المملكة كما ذكرنا وبدأ العدو يندفع كالسيل الجارف للاستيلاء على ثغور الاندلس وانتهاز الفرصة فيها بالفتنة بين ملوكها ولو ان الامر ترك على هذا النحو من تقدم الامارات المسيحية لضاع الاندلس كله قبل نهاية القرن الخامس الهجرى الحادي عشر الميلادى بعد أن طمع ملوك النصرانية فى ديار المسلمين وكان ملوك الطوائف عندما انتهى عصرهم على أيدى المرابطين كانت البلاد فى أشد حالات الفقر والقهر والضعف وضاعت معظم اقاليمها الغنية ومدنها الكبرى ، وكان على المغرب أن يؤدى الواجب المقدس ازاء اخوة العقيدة والدار والديار والوطن والجوار فكان قدوم المرابطين الى الاندلس ٠

جهاد المرابطين في الاندلس

بعد أن اتم يوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب وأخذ يجوب أرجاءه محرضا القبائل على الجهاد فى سبيل الله محرضا لهم الانخراط فى سلك المجاهدين لانه كان يرى وجوب اتحاد القوة الاسلامية كلها خلف قوات المرابطين للقيام بعمل اسلامى واحد فى الدفاع عن حقوق اخوانهم فى

الاندلس لانه كان قد رفع شعار الجهاد فوق كل شعار لاسيما بعد حالة التردى التى وصل اليها حال المسلمين فى الاندلس ٠

وانتهز ملوك اسبانية من النصارى فرصة الضعف والفرقة التى حلت بالمسلمين فعملوا على التوسع على حساب أولئك الافراد الضعاف الذين كانوا يعتمدون على قوات من الجند المرتزقة ٠ وفى تلك الاثناء كان يوسف ابن تاشفين يعد العدة للتدخل فى الاندلس لانه كان يسعى لتحقيق أهداف المرابطين من الجهاد والتمكين للدولة الناشئة والدفاع عن القوة الاسلامية لانه وضع نصب عينيه الجهاد فى الاندلس وهو يسير قواته لفتح سبتة وطنجة وأصبح المرابطون بعد قرب الصلة بين المغرب والاندلس وقد أطلوا على هذه البلاد يشهدون ما يجرى فيها من أحداث ويرقبون المعركة الدائرة بين المسلمين والنصارى ٠

بالاضافة الى أن الفقهاء والعلماء كانوا يرحلون من الاندلس الى المغرب معتصمين بالمرابطين كما كان هؤلاء الفقهاء يرون الاحداث الدامية فى الاندلس لشيوخ المرابطين بل ان بعضا منهم كان يقابل يوسف بن تاشفين نفسه ويحضونه على وجوب التدخل بعد أن اشتدت وطأة الفرنجة عليهم ٠

وكان يوسف يضع أحوال المسلمين فى الاندلس من الاهداف الرئيسية للجهاد ومن هنا عد العدة للتدخل فى تلك الديار ولو انه كان عازفا عن التدخل فى الاندلس لصرف هذه القوات لغزو افريقية والتوسع شرقا اضافة الى أن ملوك الطوائف فى الاندلس أحسوا باستعداد يوسف لدخول الاندلس فكاتبوا يوسف تحت ضغط الفقهاء الذين لعبوا دورا بالغا فى تدخل المرابطين اذ وضعوا قضية الوطن أمام الرأى العام الاندلسى ودعوا لايجاد وحدة بين القوى الاسلامية للوقوف فى وجه الخطر الفرنجى الزاحف لاسيما بعد سقوط طليطلة وازدياد نفوذ النصارى فى الاندلس ٠

ومن هنا عملوا على تأليب الرأى العام على ملوك الطوائف وبدأوا يمهدون لجيوش المرابطين اذا هى تدخلت فى الصراع الدائر على أرض

الاندلس حتى يلتف الشعب الاندلسى خلفها لاسيما ان القوى النصرانية تريد القضاء نهائيا على القوى الاسلامية .

وكان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس والجهاد مهما كلفهم ذلك من أضرار وخسائر اذ قال يوسف بن تاشفين فى هذا الصدد عند السيطرة على الجزيرة الخضراء فى الاندلس « انما كان غرضنا من تملك هذه الجزيرة أن تستنفذها من أيدى الروم لما رأينا استبدادهم على اكثرها وغفلة ملوكها واهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وايثارهم الراحة . ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة الى المسلمين ولاملأنها عليهم خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش انما هو أحدهم فرس بروضه » .

وكانت حركة الاسترداد فى عهد « فردناند » قد اتخذت صفة دولية وبدأ النصارى فى كافة أوربا ينظرون اليها كجهاد مقدس وكان الملك المسيحى يريد أن يلعب دورا عالميا ليبسط نفوذه لا على شبه جزيرة ايبيريا فقط ولكن على كل غرب أوربا كلها ومضت حركة طرد المسلمين من ديارهم فى الاندلس حتى بلغت الذروة وأصبح يطالب باخضاع جميع المسلمين واجلائهم عن البلاد .

فقد كان يعمل على ارهاب القوى الاسلامية وبث الرعب فى قلوب المسلمين ويثقل على الناس وعلى الامراء فى فرض الجزية والغرامات حتى اذا ضاق الامراء المسلمين وخافوا بطش زعيم النصرانية اضطروا الى دفع الجزية والاستعانة بالاموال لدفع خطر الفرنجة .

وقد دفع الجزية صاحب طليطلة وأشبيلية وبطليوس وسرقسطة لانهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن ديارهم ولم تكن لديهم الكفاءة القتالية ودارت الحرب وبدأ الصراع يشتد بين المسلمين والنصارى وأخذ كل صاحب قوة يجنح الى استخدام قوته لتحقيق مجده الشخصى وضاع الحماس الدينى وطلب بعض الامراء المسلمين التحالف مع المسيحيين بل أصبحوا له تابعين يدفعون الجزية وبلغت حركة طرد المسلمين ذروتها فى عهد

« فردناند » وبدا للناس ان ايام المسلمين فى شبه الجزيرة معدودة ولولا وفاة فردناند عام ١٠٦٥م وتفرق شمل ملكه عقب ذلك لانتهت دولة المسلمين بالاندلس نهائيا .

وفى تلك الظروف لم تستطع القوى الاسلامية أن تنبذ خلافها وتوحد قوتها وتنتهز فرصة الانهيار فى المجتمع المسيحى ، لكن آلت الزعامة المسيحية الى الملك الفونس السادس الذى أخذ يعمل على طرد المسلمين بعد أن جمع ملك أبيه « فردناند » واستطاع أن يجعل الحرب الدائرة فى الاندلس حربا صليبية ترعاها كنيسة روما وتجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها بل أن البابا أوريان قال ان الحرب فى الاندلس لا تقل عن الحروب الصليبية فى الشرق .

وكانت أضعف الامارات الاسلامية فى الاندلس امارة طليطلة التى يحكمها ابناء ذى النون وكانت ولاية واسعة تمتد من حوض نهر تاجة الى مشارف حوض الوادى الكبير بل كانت هذه الامارة تمثل ربع مساحة الاندلس وكان يحكمها أمير من بنى ذى النون يلقب بالمأمون كنا يدفع اتاوة سنوية لملك قشتالة وليون المجاورين له من الشمال والغرب .

وكان الملك « الفونسو السادس » لما استقر على عرش بلاده قد بدأ يرمى ببصره الى طليطلة ليحقق أهدافه فى الاستيلاء عليها وكان من أثر هذه السياسة أن سقطت مدينة طليطلة فى يده وانتزع من صاحبها بعض الحصون المحيطة منها ثم انقض على المدينة وضرب حولها حصارا فلم يكن بدا من التسليم .

وكان لسقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس أثر عظيم فى حركة طرد المسلمين والهاب حماس القوى النصرانية والعمل على القضاء على المسلمين نهائيا من الاندلس وقت فى عضد المسلمين وبادروا يخطبون ود الفونسو الذى كان يطمع فى الاستيلاء على قرطبة حاضرة الخلافة بعد أن بدأت الحصون الاسلامية تتهاوى أمامه دون أن يرتفع أمامه سيف واحد

وهكذا استولى الفونسو السادس على ربع الاندلس دون أن يستعمل سلاحا .

ورغم هول الصدمة وشدة تأثيرها فى القوى الاسلامية مما جعل ملوك الطوائف يفيقون من غفلتهم ويدركون أن مصيرهم كلهم مثل طليطلة وصاحبها المأمون بن ذى النون ، بعد أن تحولت مملكة قشتالة وليون الى أكبر دولة فى شبه جزيرة أيبيريا بعد استيلاءها على طليطلة وانحدرت قواتها الى الجنوب واستولت على معظم بلاد حوض الواديانة ودخلت قواتها قورية والاشبونة وشنترين وأخذ الفونس السادس يتأهب للاستيلاء على بطليوس وأشبيلية ولم يعد يقتنع بالاتاوات التى يؤديها اليه أمراءها ، كما أرسل الى كل الامارات الاندلسية نوابا عنه ليفرضوا سلطانه ويرهبوا عدوه وضرب الحصار حول سرقسطة ورفض الاموال السخية وحاصرت قوات قشتالة مدينة غرناطة وبدأت الاحلام تراود النصارى فى اخذ قرطبة حاضرة الخلافة والملك .

بل ان بعض الروايات تذكر ان الفونسو السادس سار جنوبا الى اقصى جزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه فى البحر وقال هذه آخر بلاد اجدادى .

ومن الغريب ان ملوك الطوائف قد اكسبو سياسة اغتصاب أماراتهم صفة شرعية نظرا لقعوسهم عن الجهاد وتفرقهم لان الفرقة كانت ظاهرة شاملة انتابت العالم الاسلامى كله ، لكنها فى الاندلس كانت كارثة ، الفرقة فى العالم الاسلامى والوحدة والنهضة تدب فى أوصال أوربا حتى القرن الحادى عشر الميلادى وأوائل القرن الثانى عشر وظهرت فى أوربا نهضة عظيمة بدأت تبسط سلطانها على غرب أوربا وتدفع القوى المسيحية المختلفة الى خوض معركة حاسمة ضد القوى الاسلامية فى الشرق والغرب .

وعلى الطرف الآخر كانت قد انهارت القوى المعنوية للشعب المسلم فى الاندلس وكاد يفقد قدرته على المقاومة والنضال نظرا لفساد الحياة فى البلاد لان الامراء خانوا الامانة على مرأى وسمع من الناس .

لكن فى هذه الظروف الصعبة التى تمر بهـا الاندلس اضطر ملوك الطوائف الى طلب النجدة من يوسف بن تاشفين وتوجه وفد من فقهـاء الاندلس ولقى (قابل) يوسف بن تاشفين وأطلعه على خطورة الوضع وشرح أحوال ملوك الطوائف وطلب الى الامير المرابطى الى أن يعمل على انقـاذ الاندلس وأدرك المجاهد خطورة الموقف ولبى داعى الجهاد الذى قامت حركة المرابطين على أساسها وهو الجهاد فى سبيل عزة الاسلام ٠

وفى عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م عبرت قوات يوسف بن تاشفين بقيادة داود ابن عائشة الى الاندلس بجيش ضـخم استطاع المرابطين الاسـتيلاء على الجزيرة الخضراء بعد عبورهم المضيق واحتلت طلائع المرابطين الجـزيرة الخضراء وبدأوا يتخذونها معسكرا كبيرا تتدفق اليه بقواتهم كما أخـذوا يحشدون القـوات ويعدون العـدة وأخذت القوات تأمن نفسها وتقيـم خطوط الاتصال مع المغرب وبدأت القوات تحتشد عند مدينـة سـبتة وعلت صيحة الجهاد فى الاندلس ٠

وقد عبر يوسف البحر ونزل بالجزيرة الخضراء وخرج اليـه أهلها وسرت فى البلاد روح جديدة حيث قام الفقهاء والعلماء وقادة الفـكر يجوبون البلاد ويعملون على توحيد الجهود أمام القوات القادمة من المغرب لانقاذهم وانقاذ الاندلس من نير التسلط المسيحى على رقـابهم وأرواحهم وممتلكاتهم والذى يعمل على طردهم من ديارهم ٠

وبدأ المجتمع فى الاندلس وكأنه أفاق من نوم طويل وبدأ ينفض عن نفسه ما تراكم عليها من هموم وبدأت الحيـاة تدب فى أوصال المجتمع على يد هؤلاء المحاربين الاشـداء والذين تاقت قلوبهم الى الجهاد والاستشهاد وبدا للناس كأن المعجزة التى طالمـا انتظروها قد تحققت وبات كأن الاندلس قد أصبحت يدا واحدة بعد طول فرقة وتحاسد وبدا كأن جهود يوسف قـد باتت تؤتى ثمارها المرجوة وأصبح الاندلس كأنه معسكر واحد كبير ٠

وهكذا تحقق الهدف الذى كان يصبو اليـه ابن تاشفين وهو حشـد القوى الاسلامية وتكتل القوات والوقوف فى خندق واحد حتى انه لم يبقى

من ملوك الطوائف بالاندلس أحدا الا يادر بالخروج بقواته وزحفت القوات عليه من أنحاء الاندلس ٠

وأراد يوسف أن يبقى على هذه الوحدة فعاهد ملوك الطوائف على أن يكونوا يدا واحدة وأن توحد جهودهم لحفظ كرامة الاســـلام والمسلمين في هذه الديار والوقوف أمام الزحف الجارف والاطماع التى تحرك الفونســو السادس بعد استيلائه على طليطلة ومحاولته القضاء المبرم على قــوات المسلمين ٠

وجاءت القوات الشعبية من المتطوعين من سائر الجهــات واصــبح المعسكر يعج بالمجاهدين والمتطوعين من كل فــج وجــاءت قوات المعتمد بن عباد ، والمتوكل بن الافطس وقوات ابن صمادح صاحب المرية وقوات غرناطة والثغر الاعلى وابن ذى النون وبنى عزون ٠ مما اضطر يوسف أن يقســم القــوات الى معسكرين معسكر المرابطين ومعسكر الاندلسيين ٠

وعلى الجانب الآخــر أحس المعسكر المسيحى بأن الخطر الاســلامى يتهدده وان الجبهة الاسلامية قد توحدت ووقع فى الجبهة الاسلامية مالا تحـمد عقبــاه بالنسبة للقوى المســيحية وكان ألفونسو السادس يشـدد الحصار على سرقسطة فاضطر الى رفع الحصار ٠ وبدأ يحشد القــوى النصرانية ويطلب مساعدة الامم المسيحية وترددت أصوات النجدة فى أرجاء البــلاد الاوربية وجــاء دور الكنيسة لكى تذكى الشــعور المسيحى وتدفع المتطوعين بالحماس ورفع القسس والرهبان والاســاقفة صلبانهم ونشروا اناجيلهم وجاءت قوات أوربا من ايطاليا ومن فرنسا خلف جبال البرانس ومن قشتالة وأرغونة وجليقية وليون واشترويس ورفع الحصــار المسيحى الذى كان مضروبا حول امارة بلنسية الاسلامية ٠

وتم الاتفاق بين القوى الاسلامية على أن يتجه الجيش المرابطى ومن يرافقه من مقاتلة الاندلس نحــو بطليوس فى غرب الاندلس لان الفونســو السادس بعــد أن اســتولى على قورية والاشــبونة وشنتريس كان يستعد للاستيلاء على امارة بطليوس وكانت تمثل مكانة استراتيجية هامة فى غرب الاندلس ٠

وجاءت النذر بأن صداما لابد واقع بين القوى المسلمة المجاهدة التى تدافع عن وجودها ودينها وبين القوى النصرانية التى شدت أزرها كل أوربا وبذلك بلغت القوى المسيحية فى شبه الجزيرة أقصى مداها ، وان المعركه التى سوف يشترك فيها الطرفان ستكون من المعارك الحاسمة والفاصلة فى تاريخ أوربا بل ان أثرها سينعكس على سير التاريخ بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية لعدة قرون ·

وكانت القوات الاسلامية قد خلت أشبيلية وغادرت القوات المسيحية سرقسطة واقام المرابطون وحلفائهم بعض الوقت فى أشبيلية وتحركت قواتهم صوب بطليوس وكان الاتجاه هو التقدم نحو قورية ثم الانقضاض على طليطلة لكن القوات المسيحية التى تدفقت سبقت المسلمين نحو قورية وسيطرت عليهـا ·

وجاءت أحداث مغربية أخرت تقدم المسلمين نحو طليطلة التى فكر المرابطون فى السير اليها مهما تكن التضحيات وطول المسافة والتوغل فى أراضى المسيحيين وبعد خطوط المواصلات واتخذت القوات الاسلامية قرارها بعدم مغادرة مدينة بطليوس واقامة المعسكر بالقرب منها نظرا للظروف التى المت بالامير يوسف بن تاشفين وبسبب تقدم القوات المسيحية صوب بطليوس لملاقاة المسلمين اذ أقبل ألفونسو السادس بحشوده وأخذت قواته تتقدم حتى صارت على بعد ثلاثة أميال من معسكر المسلمين فى الزلاقة وكان يفصل بينهم نهر بطليوس ·

وكان يوسف لا يطمئن الى ملوك الطوائف كل الاطمئنان على حين كان فقهاء الاندلس يشككون فى ملوك الطوائف ويحذرون المرابطين مغبة الثقة التامة فيهم ·

وكان يوسف حذرا كل الحذر فى ذلك فكان لا يقبل على المخاطرة بقواته مع قوات الاندلسيين للقاء القوى النصرانية حيث كانوا حديثى عهد بلقاء النصارى لذا كان قراره بفصل معسكره الى معسكرين عقب رحيله عن أشبيلية وتحركه الى الشمال الغربى من المدينة قاصدا مدينة بطليوس فى انتظار لقاء الفرنجة لانه لا قدر الله اذا باءت جهود المسلمين بالفشل وأحققوا فى هزيمة الفونسو اعتصم المسلمون بقلعة المدينة فلا تكون الخسارة كبيرة فى قوات المسلمين ·

القوى الاسلامية تقهر قوات أوربا الصليبية
معركة الزلاقة ودور المرابطين

فى صبيحة السبت الثالث عشر من رجب عام ٤٧٩هـ/أكتوبر ١٠٨٦م على وجه التحديد دارت رحى أعظم معركة فى تاريخ الاندلس حيث كان لها صدى بعيداً على مستوى العالمين الاسلامى والمسيحى ووصلت أصداتها الى كل جهات العالم القديم تلك هى معركة الزلاقة التى وضعت حدا للتقدم السريع للقوات المسيحية لمحاولة طرد المسلمين من الاندلس والقضاء على دولة الاسلام بعد أن تفرقت الاندلس الى عدة ولايات وملوك طوائف .

وكان قد نشب صراع عنيف بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية فى وادى الزلاقة فى ذلك السهل المتسع جنوب غرب مدينة بطليوس حيث انتهى ذلك الصراع بنصر مؤزر أحرزه المرابطون على قوات الفونسو السادس حيث كان مصير الاندلس والمغرب معلقا بهذا النصر الذى اضطلع المرابطون بالعبء الاكبر فى احرازه حيث أطبق المسلمون على القوات الصليبية من الامام والخلف فاصبحوا بين شقى الرحى وحاقت الهزيمة بالقوات الصليبية وجرح ألفونسو وفر فى جنح الظلام هربا من ميدان المعركة حيث وقع الرعب فى صفوفهم بسبب الروح الاسلامية الحقة التى كانت تضطرم بها نفوس المجاهدين من المرابطين من الحمية والتحمس للدين الاسلامى ومحاولة صد العدوان عنه والتسابق الى الاستشهاد والموت فى سبيل الله وفى سبيل الدفاع عن دينه الحنيف وقد اشترك كثيرون من الفقهاء في هذه الموقعة يشدون من أزر القوم وعزائمهم ويعظون الناس .

وقد عمل يوسف بن تاشفين ما جعله يرتفع الى مرتبة أعظم قواد المسلمين حيث مكن لدولة المرابطين فى نفوس الشعب المغربى والاندلسى بل فى كل شعوب العالم الاسلامى حيث وصلت أصداء تلك المعركة الى بلاد المشرق حيث كان لهذا النصر صدى عظيم فى الشعور الاسلامى العام

حيث تناقل النـاس أخبار معركة الزلاقة فى المغرب والاندلس وعمت الفرحة بلاد المشرق الإسلامى وشبهها بعض المؤرخين بأنها معركة تشبه يوم القادسية فى العراق واليرموك فى الشـام ٠

ومن اثـر ذلك الصدى الواسع فى بلاد المشرق الاسلامى أن الامـام الغزالى هنأ الامير يوسف بن تاشفين بهذا النصر وكتب الامراء المعاصرون يهنئون بالنصر ٠

وكان لهذا الانتصـار اثره الحاسم فى سير الحوادث فى الاندلس فقد تحطمت القوة الضاربة للقوات الصليبية لملكة قشتالة وليون وتوقف تقدمها نحو الجنوب وارتد رجالها شمالا للدفاع عن طليطلة بعـد أن أبيـدت قوات قشتالة وليون واسـتعاد المسلمون مدينة الاشبونة وشنترين وتوقف تقـدم البرتغال فى غرب الاندلس ٠

وقد أيقن أهل الاندلس بأن نصر الزلاقة يرجع الفضل فيه الى يوسف ابن تاشفين والمرابطين فوثقوا فيه وتألق نجمه وعلا ذكره فى الاندلس كما علا من قبل فى المغرب ٠ وقد هز هذا النصر مشاعر يوسف بن تاشفين فأرسـل الكتب الى المغرب يشرح فيها سـير المعركة وقد قرئت هذه الكتب على منابر جميع المساجد ببلاد المغرب وقد كانت خسارة المسيحيين يوم الزلاقة فادحـة جـدا ٠

وقد أصبح هذا الانتصار العظيم فخارا للمرابطين وقائدهم وللمبادىء التى دعا اليها امامهم عبد الله بن ياسين وأصبح يوسف أجدر الامراء لقيادة المرابطين وزعامتهم وأيقن النـاس أن المرابطين قادرين على تحقيق الامن والامان لشعب الاندلس واعادة الطمأنينة الى نفوسهم بعد أن ارتفعت روحه المعنوية وأيقن الشعب أن العدو النصرانى يمكن أن يقهر وأن يرد على أعقابه بعيدا عن ديار المسلمين واحتل المرابطون وقائدهم مكانة رفيعة فى نفوس الشعب الاندلسى ٠

وكان لانتصار الزلاقة أثر معاكس فى نفسية المعسكر المسيحى اذ تركت

تلك المعركة جرحا غائرا فى نفسية قائدهم الفونس السادس الذى كان الزهو والغرور قد اختمر فى رأسه بضرورة طرد المسلمين من الاندلس نهائيا واتخذ لقب ذى الملتين وصـار يكاتب أمراء المسلمين قائلا من الامبراطور ذى الملتين وبدأت تراوده الآمـال التى راودت أباه من قبل وهى طرد المسلمين من الاندلس نهائيا .

لكن تلك المعركة قد خلفت ظنه بعد أن تقـابل فى ميدان القتـال مـع عصبة مجاهدة مؤمنة برسـالة الاسلام عاملة فى ميدان الجهاد ووقفت ضد أطماعه فى أن يبسط ظله على شـبه الجزيرة كلها .

لكن هذا النصر جعله يحس انه أمـام جبهة متحدة من المغرب والاندلس وهى تقف له بالمرصـاد وتهدده تهديدا خطيرا ، بل انه أيقن تمام اليقين بأن المعسكر الاسلامى سوف يسترد كل ما استولى عليه من قلاع وحصـون وانهم ربمـا ينقضون على طليطلة ويخلصونها من يده ، بعد أن بدأ الامراء المسلمون الذين كانوا يدينون له بالطاعة يتألبون عليـه ويكفون عن دفـع الجزية التى كانوا يدفعونها فى صغار وذلة .

أما المعسكر الصليبى فى أوربا بزعامة بابا كنسية روما فقد كان لنصر الزلاقة رد فعل عنيف اذ بدأت القـوى النصرانية المختلفة تعقد العـزم على مدافعة المسلمين والاستعداد للمعركة القادمة والعمل على طرد المسلمين من الاندلس نهائيا .

وبدا للناس كأن معركة الزلاقة لم تكن حاسمة فى تاريخ الاندلس لأنها لم تقضى على القوى النصرانية قضاءا نهائيا فقد أخذت القوى المسـيحية تسترد قوتها وتعمل على مواصـلة العـدوان والثـأر لمعـركة الزلاقة من المرابطين وأخذ الفونسو ينظم قواته ويزيل ما لحق بجيشه فى موقعة الزلاقة وأخذ يعاود الهجوم من جديد وأخذت قواته تهدد اشبيلية وتثير الزعـر فى نفوس أهلها .

ويبدو ان يوسف بن تاشفين وقواته لم يستطع ان يستفيدوا من ذلك

النصر العظيم الذى جازروه ولو ان أمراء الاندلس وقفوا الى جواره وامدوه بكل قوتهم لتقدم الى طليطلة واستولى عليها وهذا ما كان يخشاه الفونسو السادس وأعاد يوسف الميزان الى نصابه فى الاندلس ، لان الانتصـارات العسكرية مهما عظمت فانها تظل غير ذات قيمة علمية كبيرة اذا لم تستغل سياسيا وعسكريا ٠

- وبعد المعركة بفترة قصيرة توفى الامير أبو بكر بن عمر زعيم المرابطين وابن عم يوسف بن تاشفين عام ٤٨٠هـ وقد بلغت يوسف هذه الوفاة فأراد أن يرجع الى المغرب وعاد يوسف وترك ميدان المعركة فجأة دون أن يتعقب العدو المهزوم ويجهز عليه قبل أن يجمع صفوفه وذلك لان يوسف كان أميرا من الامراء الذين يخضعون للزعيم أبو بكر وانه لم يزل أميرا من قبل ابى بكر ابن عمر فأراد العودة لاخذ البيعة لنفسه بدلا من أن تؤول لغيره من الامراء ثم يجد نفسه معزولا عن المغرب والاندلس لاسيما ان ابراهيم بن ابى بكر ابن عمر قد يطمع فى أن يكون الملك له بعد وفاة أبيه منتهزا فرصة وجـود يوسف وغيابه بالاندلس واشتغاله بمعركة جهاد المسيحيين فى الاندلس ٠ فلما علم يوسف بذلك هرع الى المغرب ليقطع على ابراهيم خط الرجعة وقد يكون ذلك السبب المباشر لعـدم ملاحقـة قوات يوسف للفونسو السادس والقضاء عليها نهائيا مما جعل لمعركة الزلاقة صـدى دون اعـادة طليطلة عاصمة الخلافة وعاصمه القوط القديمة ٠

وكان يوسف بن تاشفين قد أدرك أثنـاء المعركة ان أمـراء الاندلس لا أمل فيهم بعد أن تركوه فى ميدان معركة الزلاقة وحيدا أمام قوات ألفونسو كما لمس بنفسه مدى الفرقة بين صفوف زعماء الطوائف ، لذلك ما كادت تنتهى المعركة حتى جمعهم وأمرهم بالاتفـاق حتى لا تضيع ثمار النصر الذى أحرزه المرابطون فى تلك المعركة ٠

وعاد يوسف بن تاشفين الى المغـرب فتنفست مملكة قشـتالة وليون الصعداء وبدأ أمراء الطوائف يتصلون ببعضهم متخوفين على بلادهم من وجـود المرابطين أما يوسف فكان يشعر بأنه لابد من العــودة للاندلس لاستكمال النصر ٠

لكن يوسف ترك بلاد الاندلس هو مطمئن على خطواته فى البلاد لاسيما انه لازال مستوليا على الجزيرة الخضراء مركز الصلة بين المغرب والاندلس ومن ثم يعد العدة لجولة أخرى فى الجهاد لا تقل عن معركة الزلاقة ٠

لكن أثناء وجود يوسف فى المغرب وبعد أن تمت البيعة له قد بدأت الاوضاع تضطرب فى الاندلس وكانت تهدد بالقضاء على الجهود التى بذلها المرابطون فى وقف الزحف المسيحى وكان يوسف يرى انه لابد من التدخل حتى لا تضيع الجهود التى بذلها الا انه لم يكن له وضع قانونى فى البلاد فهو ليس الا ضيفا حل على البلاد وهو لا يسيطر الا على معبر الجزيرة الخضراء ٠

لكن يوسف كان عليه أن يواصل المعركة وأن ينهض الى الجهاد وانه لابد أن يعبر البحر الاندلسى (مضيق جبل طارق) وكانت أهداف يوسف هذه المرة تختلف عن المرة الاولى حيث لم تتح له سابقا فرصة الاستفادة من الانتصار الذى حققه وكذلك حتى ينشىء فى الاندلس دولة الوحدة الاسلامية التى حطمها الصراع بين دويلاتها المتنافسة (ملوك الطوائف) ٠٠ بعد أن انصرف كل أمير الى بلده وأضحت البلاد فى حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها ٠

وكان أن رحل الى المغرب المعتمد بن عباد لمقابلة يوسف بن تاشفين ليطلع يوسف على الاوضاع السيئة فى شرق الاندلس خاصة أن المعتمد بن عباد أمير شرق الاندلس كان أكثر الامراء خوفا من الخطر النصرانى المحدق من الشرق وكان يخشى أن يصبح أول ضحية للمعركة القادمة ٠ وفى ذلك فانه قال قولا يذكر له قبل رحيله الى المغرب حيث قال « أن أرعى ابل يوسف بن تاشفين ، خيرا لى من أرعى خنازير الفونس السادس » وهذا التصريح يدل بوضوح على تفضيل عرب الاندلس للسيادة الاسلامية بطبيعة الحال ٠

وكان عبور يوسف للمرة الثانية الى الاندلس عام ٤٨١هـ ٠ وكان أن حل واستقر فى الجزيرة الخضراء حيث كتب لملوك الطوائف يدعوهم لتوحيد

الجهود لتخليص بعض المعاقل النصرانية فى الجنوب الشرقى من البلاد ٠ وقد لبى أمراء الاندلس نداء يوسف للاشتراك فى المعركة القادمة بعد أن رأوا بسالته فى معركة الزلاقة السابقة حيث أطبق المسلمون على حصن لبيط الذى اعتصم به القشتاليين الذين كانوا يخرجون من حصنهم ويسلبون وينهبون ما تصل اليه أيديهم من أملاك المسلمين ٠

وقد ضيق المسلمون الخناق على الحصن حتى لم يبقى من الفرسان غير بضع مئات أوشكوا على الموت جوعا وعطشا وقد انسحب المسلمون تاركين الحصن الذى حطمه الفونسو وقضى على حصن لبيط ، لكن يوسف لم يكن همه فى هذا العبور الثانى الفتح بقدر ما كان توحيد القوى الاسلامية فى الاندلس بل فى المغرب والمجتمع الاسلامى لمواجهة الصراع المسيحى لاستعادة ما كان للمسلمين من قوة وسيادة ٠

لكنه أدرك انه لا يمكن الاعتماد على ملوك الطوائف فى مواجهة العدو وأن يضطلع بالجهاد اعتمادا على قواته وحدها وأن يحقق الاهداف التى وضعها أمامه عبد الله بن ياسين بعد أن رأى استحالة توحيد قوى ملوك الطوائف ولم يكن خط الجهاد الاسلامى التى تربى عليه يسمح له أن ينسحب من الميدان ويترك أهل الاندلس يقعون فريسة فى أيدى العدو ٠

يوسف بن تاشفين وعزل ملوك الطوائف
وتوحيـد الاندلس

لقد تبين ليوسف بن تاشفين بعد حصـار لبيط أن ملوك الطوائف غير مخلصين فى جهادهم ضد العدو الذى يتربص بهم ويريد أن يلتهم كل الاندلس بعد أن لاحظ سـابقا انهم تخلوا عنه فى صراعهم مع ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة وانهم لم يقاوموا هجوم الفرنجة بل ان بعضـا منهم طلب العون من ألفونسو السادس ، بل انهم تركوا الفونسو يهدد اماراتهم ويطلب الجـزية المتأخرة عندهم عندما علم بعودة يوسف الى المغرب فلم يوجد بينهم ادنى اتحـاد أو وحدة ولم تبدى منهم بادرة لمواجهة الحذر وحماية الجبهة الاسلامية ، بل ان كل أمراء الاندلس لم يعد بقدرهم قوة لوقف تقدم النصارى جنوبا وشرقا بل انهم وقفوا موقفا يتسم بالجبن والخوف وعدم صون كرامتهم ودينهم الاسلامى الحنيف ٠

ومن هنا فقد تأكد ابن تاشفين أن هؤلاء الامراء ليسوا بقادرين عـلى صون كرامة بلادهم ومواطنيهم بل أصبح يتأكد انه لم يعد يؤتمن جانبهم ٠ ومن هنا عقد المرابطون العـزم على تصفية ملوك الطوائف ومواجهة مصير البلاد بعزل هؤلاء الملوك الذين نكصوا على عهدهم بل ان منهم من تحالف ضـد ابن تاشفين وخانوا أمانة الاسلام ومن هنا حق عليهم العقاب ٠

ولقد لعب الفقهاء وعلماء الدين الاسلامى دورا كبيرا فى خلع ملوك الطوائف بعد أن أدرك الفقهاء أن أمراء الاندلس لم يعد يرجى منهم خيرا بعد تركهم يوسف يواجه حربا ضـد النصارى وحيدا ولم يتردد فقهاء الاندلس الذين بدأ الشعب الاندلسى يتطلع اليهم باعتبارهم القادة الحقيقيين والذين يحسون بمشاعر الشعب وغضبهم وكرههم لاعمال الامراء وبعد أن أفتى علماء المشرق بضرورة خلع هؤلاء الملوك الذين خانوا الامانة وتهاونوا فى حـق شعوبهم وتخاذلوا فى الدفاع عن المقدسـات والحرمات الاسـلامية ومن ثم فلابد من خلعهم وتخليص البلاد من شرورهم وقيـام المرابطين بعد توحيد القوى الاسلامية فى المغرب والاندلس تحت قيادتهم بمهمة الدفاع عن

العقيدة الاسلامية والجهاد فى سبيل رفعة الدين الاسلامى واعلاء راية التوحيد ٠

وكان للمرابطين ما أرادوا فقد استولوا على طليطلة ثم غرناطة والبيرة ومالقة ثم استولوا على أشبيلية ثم قرطبة والمرية ثم بطليوس ثم استولوا على قرمونة ورندة وشلب ويابرة كما استولوا أيضا على السهلة ومرسية ودانية وشاطبة وبلنسية ٠

واستطاع المرابطون تحت قيادة داود بن عائشة وسير بن أبى بكر وأبو عبد الله محمد بن الحاج وغيرهم من قواد المرابطين الاكفاء الذين وضع يوسف بن تاشفين كل ثقته بهم وأخذ يوجبهم للاستيلاء على امارات الاندلس واستطاعوا أن يبسطوا لواء المرابطين على هذه الولايات التى كانت تخضع لامراء متعددين ٠

ولكن منذ تلك الفترة فان هذه الامارات أصبحت تخضع لادارة مرابطية واحدة وتم لهم ما أرادوا من توحيد الجبهة الاسلامية الاندلسية وتوحيد الشعب الاندلسى تحت قيادة مرابطية ٠

ولقد كان الموقف السياسى العسكرى فى الاندلس يقتضى من المرابطين الحذر والحيطة قبل القوات المسيحية التى كانت ترقب الموقف عن كثب ولا ترغب التدخل فى قتال مباشر مع قوات المرابطين لاسيما بعد أن أدركوا قدرتهم وقوتهم فى القتال فى معركة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط ٠

وكانت احدى القوى الاندلسية (امارة أشبيلية وكذلك امارة طليطلة والمعتمد بن عباد) قد استنجدوا بألفونسو السادس لانقاذهم من أيدى المرابطين لكن القوات المرابطية بقيادة الامير ابراهيم بن اسحاق اللمتونى كانت لقوت ألفونسو بالمرصاد والترقب والحيطة بحيث ما كادت هذه القوات تتقدم جنوبا بقيادة « البرهانس » حتى التحمت معها قوات المرابطين ونشبت معركة حامية الوطيس لا تقل أهمية عن معركة الزلاقة وأوقع المرابطين هزيمة قاسية بقوات ألفونسو وهزمت أيضا قوات قشتالة

ووحدوا القوى الاسلامية الاندلسية ووقفوا بالمرصاد للقوات المسيحية وتلقنت درسا قاسيا وتفرق شملها ولم تدرك عاقبة التدخل بعد أن منيت بتلك الهزيمة وقهرت قوات الفونسو ٠

ومن ذلك التاريخ وقع عبء القتال والجهاد الاسلامى على عاتق القوات المرابطية التى بدأت نظرتها للحياة فى الندلس تأخذ بعدا جديدا فى ميدان الجهاد فى الاندلس وبدأت معركة الجهاد تدخل طورا جديدا لا يقل عن الاطوار السابقة التى قاد فيها الرابطون حركة الجهاد فى المغرب والاندلس ٠

والذين رأوا انه لكى يوطدوا نفوذهم فى الاندلس بعد عزل ولاة الطوائف فانه لابد من التصدى للقوى الصليبية بعد أن فرض الاندلس على المرابطين مسئولية ثقيلة فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمال خط الواديانة لانهم دخلوا الاندلس مجاهدين كما فعلوا سابقا فى المغرب وكان عليهم أن يستمروا فى هذا الصراع ٠

وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعا جعل منها دولة كبرى تمتد فى قارتين وكان على المرابطين أن يواصلوا جهادا دينيا ٠ واذ كان المرابطون قد أسقطوا ملوك الطوائف الا ان شرق لاندلس كان يتعرض أيضا للخطر من جانب القوى المعادية واسترد المرابطون بلنسية بعد أن كان قد سيطر عليها السيد القمبيطور (القشتالى رودر بجودى ببار) واستعاد المرابطون عددا من المدن فى شرق الانلس منها المنارة والسهلة ربيط وانتصرت قواتهم بقيادة القائد المرابطى « تميم بن يوسف بن تاشفين » على قوات قشتالة وقتل فى هذه المعركة عددا كبيرا من قواد النصارى منهم سبعة من الاكناد ٠

وقد سميت معركة « الاكناد السبعة » وبذلك امتدت دولة المرابطين من المحيط الاطلسى غربا حتى حدود مصر شرقا ومن بلاد النيجر جنوبا حتى نهر ابرو فى الاندلس شمالا (نهر تاجة) ٠

وقد استطاع المرابطون بعد كفاح طويل فى شرق الاندلس دام اكثر من عشر سنوات استطاعوا خلال تلك الفترة أن يحرزوا العديد من الانتصارات وأن يحرروا العديد من المدن وأن يعيقوا تقدم القمبيطور وأن يحرزوا فى معركة بلنسية نصرا مدويا وظفرا اسلاميا لا يقل عن نصر الزلاقة ودوى النصر بلنسية وسقوط تلك المدينة فى ايدى المرابطين اثرا بالغا فى سير معركة الجهاد فى شرق الاندلس اذ انهارت الجبهة النصرانية فى شرق الاندلس وأوغلت قوات المرابطين فى تلك الانحاء ·

ولقد كان تعاون « بنو هود » فى شرق الاندلس له من الاثر الكبير فى توطيد النفوذ الاسلامى ونجاح حركة الجهاد الاسلامى فى شرق الاندلس ·

لذا ابقى يوسف على بنى هود بعد أن ثبت تعاونهم الوثيق مع المرابطين ودورهم فى المساعدة لصد عدوان الفرنجة والوقوف بالمرصاد لكل حركة معادية للاسلام بعد أن وطدوا اقدامهم فى تلك المناطق الشرقية وشغلوا بالجهاد وبذلك فقدت حركة استرداد الاندلس بطلاها ألفونسو السادس والقمبيطور فى سنوات متلاحقة واتحدت كلمة المسلمين فى الاندلس ·

يوسف بن تاشفين وبناء الدولة الجديدة
فى المغـرب والاندلس

عبر يوسف بن تاشفين من المغرب الى الاندلس للمرة الرابعة والاخيرة عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م ليضع الاسس القوية والثابتة لبنـاء الدولة الجـديدة التى توحد بين المغرب والاندلس بعد أن أرسى دعائم وأسس الوحدة القوية الاسلامية التى تستطيع أن تقف فى وجـــه الزحف الصليبى وانه رأى ان الحـرب المقدسة قد آتت ثمارها المرجوة وان دعائم الاسلام قد توطدت فى الاندلس بعد أن كادت تلك الديار أن تضيع من ايدى المسلمين نظرا لحـركة الاسترداد التى قادها ألفونسو السـادس والقمبيطور والتى ظلت طوال عشرين عاما كاملة استطاعت القوى الاسلامية بقيـادة المرابطين أن تحقق الاهداف التى بدأت تتطلع اليهـا آمـال المسلمين فى بقـاع العالم الاسلامى فقد تحطمت أحـلام القوى المسيحية وأصبح يوسف بن تاشفين أعظم شخصية فى المغرب الاسلامى ٠

لكنه رأى ان العمر قد تقدم به لاسيما انه قد تجـاوز المـائة عام ومن ثم اخذ البيعة من كبار المرابطين لابنه على توليته العهد احساسا منه بقرب الخاتمة وانه عاد الى المغرب عام ٤٩٨هـ فمرض ومات بمراكش عـــام ٥٠٠هـ/١١٠٧م ٠ وخلفه ابنه على ٠

وبوفاة يوسف بن تاشفين اختفت شخصية من أجل شخصيات التاريخ الاسلامى ٠ وقد تجاوز سنه المائة عام وترك ثروة طائلة لاستغلالها فى الجهاد الاسلامى وكان الامام الغزالى العالم الاسلامى المشهور قد سمع عنه فرأى فيه البطل الذى يود أن تحققه الايام وأراد أن يراه ولكنه سمع بوفاته وهو لا يزال فى الاسكندرية فعاد من حيث أتى ٠

واستطاع يوسف أن يؤسس دولة مرابطية موحدة بين المغرب والاندلس ٠ وقد اعترف الخليفة العباسى فى بغداد بيوسف بن تاشفين عاملا له فى المغرب والاندلس واعترف يوسف بالخلافة العباسية معتزا بتبعيته لها وكتب

يوسف الى الخليفة ينوه بالدور الذى اضطلع به فى معركة الجهاد وتردد اسم يوسف مقترنا باسم الخليفة العباسى على منابر الاندلس والمغرب كما نقش اسم الخليفة على السكة ٠

وبذلك تكون دولة المرابطين قد جمعت بين المغرب والاندلس واعتراف الخلافة العباسية بهـا ٠

وبذلك طويت صفحة حافلة بالجهاد الاسلامى قادها الزعيم الدينى يوسف بن تاشفين اذ كان يوسف من صناع التاريخ فى المغرب الاسلامى فقد أعاد الى الاذهان سيرة موسى بن نصير وعبد الرحمن الناصر وغيرهم من أبطال الاسلام الذين لعبوا دورا كبيرا وبارزا فى تاريخ المغرب ، نعم كان يوسف بن تاشفين الشخصية التى دفعت بهـا العناية الالهية لكى يلعب دورا حاسما فى الوقوف فى وقف حركة الاسترداد فى الاندلس ومحاولة هذه القوى اطفاء الانوار الاسلامية فى الاندلس ٠

نعم كان يوسف معجزة حققها عبد الله بن ياسين باعث دعوة المرابطين ومخرج فكرة الجهاد الاسلامى فى حركة دامت خمسين عاما ، اذ استطاع الدين الاسلامى الذى تعلمه يوسف وتعاليم عبد الله بن ياسين أن تجعل هذا الرجل الصحراوى بطلا من أبطال التاريخ الاسلامى قاد معركة الجهاد طوال خمسين عاما صارع فيها أقوى رجلين فى الاندلس هما الفونسو السادس والقمبيطور والبابوية المسيحية فى روما والقوات الاوربية الاخرى التى وقفت خلفهما تشد من ازرهما فى الصراع الدائر على أرض الاندلس لكن شخصية يوسف المجاهدة الزاهدة المتقشفة العاملة الصادقة استطاعت أن تلعب دورها الذى دفعه القدر لكى يقوم به وقد راعته العناية الالهية خير عناية فى ذلك٠

الموحدون وجهادهم فى الاندلس

الخليفة المنصور الموحدى وجهاده فى الاندلس

لم تكن الحالة فى الاندلس اقل خطورة من المغرب اذ انتهز البرتغاليون فرصة الاضطرابات التى حلت بصفوف الموحدين عقب استشهاد خليفتهم السابق أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأخذوا يضايقون غرب الاندلس برا وبحرا وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت ٠

لكن على الجانب الآخر فبعد أن نظم الخليفة المنصور أمور الدولة فانه رأى ان الوقت قد حان للانتقام لهزيمة أبيه ومقتله فى الاندلس ففتح باب التطوع لجميع المسلمين بربر وعرب وغيرهم فى جبال وسهول المغرب فآتته معظم القبائل العربية ٠

وفى عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م حينما علم مسيحو الاندلس بانشغاله فى بلاد افريقية هاجموا مدينة شلب وباجة ويابرة من غرب الاندلس ٠ وقد ساعدتهم الظروف فى ذلك الوقت اذ ان قوات صليبية كبيرة من الالمان والانجليز والفلمكيين (سكان الاراضى المنخفضة وهى هولندا) قد اخذت تتجه تباعا الى فلسطين عقب سقوط بيت المقدس فى يد صلاح الدين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م وكانت هذه الاساطيل الصليبية كثيرا ما ترسو فى الموانىء البرتغالية اما رغبة او اضطرارا فتصادف فى عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م ان أسطولا من خمسين سفينة فرنسية عليها جماعة كبيرة من هؤلاء الصليبيين الالمان والفلمنك اضطروا للرسو فى ثغر لشبونة فانتهز ملك البرتغال سانشو الاول هذه الفرصة وطلب من هؤلاء الصليبيين مساعدته فى قتال جيرانه المسلمين فاستجابوا لندائه وتقدموا جميعا نحو مدينة شلب واضطرت المدينة الى الاستسلام بعد أن تمكن العدو من الاستيلاء على البئر الذى يمد المدينة بالماء ، فاستعظم المنصور ذلك وكتب الى أمراء الاندلس يأمرهم بضرورة مواجهة العدو ٠

وتظهر براعة هذا المجاهد الكبير فى انه استطاع ان يتجنب لقاء

المسيحيين فى الاندلس مجتمعين،وأن ينفرد بهم واحدا بعد الآخر وهذه الخطة هى التى سار عليها نابليون بونابرت فى العصور الحديثة وكانت سر عظمته ·

وقد شرح المنصور هذه السياسة فى خطاباته الرسمية التى وجهها الى رعاياه وان بين فيها انه قد آثر التحالف مع ملكى قشتالة وارلجون كى يتفرغ لمحاربة ملك البرتغال ثم رأى أن يتحالف مع ملكى ليون وأراجون كى ينفرد بملك قشتالة فى المعركة ·

وكان الخليفة المنصور قد انتهز فرصة الفراغ من أمر بنى غانية واتجه بقواه نحو الاندلس وكان الموقف قد عاد الى التحرج فيه اذ ان الضغط النصرانى على الاندلس كان قد أصبح كالسيل المتدفق الذى يجرف أمامه كل شىء ولم يعد ينفع فيه الا عمل حاسم من الاعمال الكبرى التى تقف ذلك الطغيان الصليبى على ديار المسلمين فى الاندلس كتلك الاعمال التى قام بها صلاح الدين الايوبى فى الشام حيث انتصر فى معركة حطين على الصليبيين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م .وكان صلاح الدين الايوبى معاصر للخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور ·

بدأ المنصور حركته الجهادية عام ٥٨٧هـ/١١٩١م بمملكة البرتغال التى سبق وأن استشهد فيها والده أبى يعقوب بن عبد المؤمن فهاجمها برا وبحرا وإكتسح أراضيها ولم يجرؤ ملكها (سانشو انريكث) على مواجهة المنصور فى معركة عامة مكشوفة بل ظل مختفيا وراء جدرانه واستطاع الاسطول الموحدى أن يأسر بعض سفن البرتغال عام ٥٨٦هـ ويجعلها سفن اسلامية بعد أن أسر جميع من كان بها من البحارة ·

وقد انتهت هذه العمليات باسترداد مدينة شلب Silves عام ٥٨٧هـ/١١٩١م ويبدو قوة البرتغاليين قد انهارت تماما بعد هذه الجملة بدليل اننا لم نعد نسمع بعد ذلك عن دخولهم فى حرب ضد المنصور بعد أن حطم قواها وضرب حصونها وديارها واكتسح اراضيها وهى الدولة

التى كانت أشد الممالك الاسلامية خطورة على المسلمين وسبق أن استشهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والد المنصور على اراضيها ٠

وكان الفونسو الزيكى ملك البرتغال السابق قد توفى عام ٥٨١هـ اواخر عام ١١٨٥م وخلفه ابنه الذى لم يستطع أن يواجه المنصور (سانشو الثانى) ملك البرتغال ٠ وقد عقد العزم على طرد المسلمين من الاراضى المجاورة له ويستولى على بعض بلاد غرب الاندلس ٠

وقد اشتد ساعده بالمساعدات العسكرية الخارجية من أوربا الغربية والتى كانت فى طريقها الى بلاد الشام وتمكن عن طريقها الاستيلاء على مدينة شلب « كما سبق القول » وكانت من أكبر موانىء ما بقى فى ايدى الموحدين فى غرب الاندلس ٠

وكان سقوط شلب قد حرك فى نفس المنصور شعورا اسلاميا جارفا بضرورة العمل الحاسم فقرر أن يقوم بغزوة كبرى على غرب الاندلس يعيد بها الامور الى نصابها ٠

وكان الخليفة المنصور قد احتفل احتفالا كبيرا بغزوته لغرب الاندلس هذه فاستنفر الناس فى كل النواحى واعد احسن فرق جنده وعلد العرب الى الاشتراك معه فى الجهاد ولا شك ان أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين واسترجاعه القدس قد زاد فى حماسه وأثار فى المسلمين موجة مندفعة من الحماس فتقاطر الناس على المعسكرات وفى أواخر المحرم عام ٥٨٦هـ/١١٩٠م تحرك المنصور من رباط الفتح نحو الاندلس بعد أن أصدر أمره الى الحشود بموافاته فى اشبيلية واخذت الالوف من المسلمين طريقها الى المكان المحدد للقاء ٠

ومن المعروف ن قوات المتطوعين التى خرجت تجاهد فى سبيل الله ونصرة دينه كانت تعادل قوات الجيوش المرابطية أو تزيد قليلا وقد تمكن المنصور من استعادة مدينة شلب من أيدى سانشو الاول وعدد آخر من

الحصون عام ٥٨٧هـ/١١٩١م ثم شغلته شواغل اخرى وآلم به مرض طويل فتعطل اتمام غزوته الكبرى على الاندلس ٠

وعاد المنصور الى المغرب بعد أن صالحه صاحب قشتالة ووقوع الخليفة فريسة لمرضه مما أيأس الاطباء فطمع فيه المجاورون له وتربص به ملك قشتالة وثار العرب فى افريقية وعادت الاحوال الى الاشتعال ٠

ثم شفى الخليفة من مرضه وعزم على الخروج بنفسه لمحاربة الخارجين عليه واضطر الى البدء بالجبهة القشتالية ومن ثم كان تحول المنصور نحو مملكة قشتالة فى قلب الاندلس ٠ بعد أن كان قد شهدت بداية عام ٥٩١هـ/١١٩٤م اكتمال أهبة الاستعداد لغزوته الكبرى فعبر الى الاندلس بحشود ضخمة وأخذت القوات الاخرى المساعدة له تتوافد على اشبيلية ٠

وهكذا صار هنا جيش كبير من الموحدين والعرب والاندلسيين والمتطوعين من انحاء بعيدة جهادا فى سبيل الله والاستشهاد وعندما علم الفونسو الثامن ملك قشتالة بذلك والذى كان قد نقض المصالحة التى تمت بينه وبين المنصور لمدة خمس سنوات وتربص بالمسلمين فى الاندلس فانه بدوره أسرع الى استنصار كل ملوك أسبانيا المسيحية واستصرخ البابا فى روما وقدمت اليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الاوربية وكانت حشود أوربية كبيرة يقودها فرسان ذو خبرة عسكرية طويلة وتجربة باهرة وممتازة فى الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الاوربية التى احتشدت فى مواجهة القوات الاسلامية بأنها تزيد عن اكثر من مائة وخمسين ألف جندى (١٥٠ ألف جندى) تزيد عن ثلاث أضعاف القوات الاسلامية ٠

وكانت قوات الموحدين قد زحفت شمالا حتى انتهت الى الموقع المعروف « بالارك » وتقدمت الحشود الصليبية الاوربية الكبيرة الى مكانها فى سهل فسيح حول حصن يسمى الارك .

نجاح الجهاد الموحدى وانتصار الارك الباهر

بالقرب من قلعة رباح عسكر المسلمون على ضفة وادى آنة والى القرب من مدينة (ثيودا دربالة) الحالية وهناك عقد المنصور مجلسه الاستشارى المكون من شيوخ العرب والموحدين للتشاور فى كيفية ادارة الحرب مع المسيحيين ٠

وعقد للقائد « ابن صناديد » على جيش الاندلس ولجرمون بن رباح على القبائل العربية ولنديل بن عبد الرحمن المغراوى على قبائل مغراوه ولمحيو بن أبى بكر ابن حمامة المرينى على قبائل بنى مرين ولجابر بن يوسف على قبائل بنى عبد الواد ولعباس بن عطية على قبائل بنى توجين ولتجيين ابن على على قبائل مسكورة وسائر المصامدة ولمحمد بن منقاد على قبائل غمارة والفقيه الصالح أبى خزر يخلف بن خزر الاوربى على المتطوعة والجميع هؤلاء تحت قيادة أبى يحيى بن ابى حفص زعيم قبيلة هنتاتة ٠

ووزع القائد يحيى بن أبى حفص الرايات على رؤساء القبائل وقسم عسكره على النحو التالى عسكر الاندلس فى الميمنة وزناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب فى الميسرة والمتطوعة والمماليك الاغزاز والرماة فى المقدمة وبقى هو وقبيلته هنتاتة فى القلب ٠

وبعد توزيع القوات فى ميدان القتال تقدمت فجأة مجموعة من فرسان مسيحى أسبانيا تقدر بنحو عشرة آلاف جندى أو يزيد عن خمسة عشر مدججين بالسلاح مدرعين بالحديد لالقاء الرعب فى نفوس المسلمين وبرز زعماء الموحدين لصدعهم الا ان جموع الفرسان كانوا قد تقدموا من الميسرة ونجحوا فى اختراق القلب وقتل قائد الجيوش الاسلامية أبو يحيى ابن أبى حفص الا ان القوات العربية وزعماء قبائلها والمتطوعة الذين حذو حذو القبائل العربية تمكنوا من الالتفاف حول جميع هذه القوات والاحاطة

بها من جميع الجهات ووقع فرسان أسبانيا المسيحية بين شقى الرحى تطحنهم وتحصدهم القوات الاسلامية حصداً وطحناً فانكسرت شوكة جيش ألفونسو الثامن الملقب بالصغير ٠

حيث كان جل اعتماده على هؤلاء الفرسان الذين لم ينجو منهم أحداً فى هذه المعركة التى حصدوا فيها حصداً بعد أن حمى وطيس المعركة ٠

وكانت تلك المعركة قد دارت رحاها فى ٩ شعبان عام ٥٩١هـ/ ١٨ يوليو ١١٩٥م وانجلت عن انتصار رائع وعظيم وباهر للمسلمين وأفلت ألفونسو الثامن بعدد قليل من فرسانه ولاذ بالفرار نحو طليطلة وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة ٠

وفى نفس الوقت أظهر المنصور فى هذه المعركة شجاعة وبسالة نادرة مهدت له النصر فيروى ابن عذارى المراكشى انه حينما رأى انكسار مقدمته أمام هجمات العدو ترك مقر قيادته وسار منفردا الى الصفوف الامامية يعطى تعاليمه ونصائحه العسكرية وتوجيهاته مما كان له أكبر الاثر فى نفوس قواته فحملوا على العدو حملة انتهت بالنصر وأسرع بعض فرسان العرب الى المنصور يبشرونه بهزيمة العدو وهكذا تمكن العرب عن طريق اندفاعهم للقتال فى اللحظة المناسبة من العمل على احراز النصر فى موقعة الارك

وبعد ذلك النصر الذى ثبت فيه حدود الاسلام فى الاندلس على خط الوادى (آنة) أرسل المنصور فرقا من الجيش الموحدى استعادت الكثير من حصون غرب الاندلس وتوجه المنصور ببقية قواته نحو طليطلة عاقدا العزم على الاستيلاء عليها ولكن الشتاء كان قد حل فلم يزد المنصور عن تخريب بعض الحصون التى كانت تمثل خطرا على الوجود الاسلامى واسترد المسلمون بعض الحصون القشتالية مثل ، ملجون ، بنافنتى ، كاراكويل ، قلعة رباح)-ويذكر مؤرخى الغرب المسيحى أن أسباب هزيمة القشتاليين

بأن جيش الموحدين كان يحسن الكر والفر ويجيد الرماية بالسهام وهى خصال تتوافر فى العرب وتتفق مع طريقتهم فى القتال ٠

ولقد بقى المنصور بالاندلس حتى عام ٥٩٢هـ/١١٩٦م وتمكن من الاستيلاء على حصن منتانجش Montanchez بعد استسلام حاميته وتأمين الخليفة المنصور لهم وكذلك استولى على حصن ترجالة Trujillo وبالنشتية منزلا الخراب والدمار بنحاء مملكة قشتلة مما دفع ملكها الى طلب السلم والمهادنة لمدة عشر سنوات فوافق يعقوب المنصور وعاد الى مراكش بعد أن كان قد أعقب انتصاراته هذه بسلسلة من الانتصارات الاخرى فى شمال قشتالة ودمر نواحى طليطلة واستولى على بعض الحصون المحيطة بها مثل مجريط ووادى الحجارة ووصل الى أراضى لم تطأها اقدام المسلمين من أيام المنصور بن أبى عامر ولعل هذا هو السبب الدى جعل المؤرخين يشبهون المنصور الموحدى بالمنصور بن بى عامر ٠

وكان فى نفس الوقت قد قام الفونسو التاسع ملك ليون وحليف المنصور بمهاجمة قشتالة واجتياحها ومن الغريب ان المنصور لم يحاول الاستيلاء على طليطلة ولو أراد لفعل دون مشقة كبيرة فقد أتاح المنصور بعد استيلاءه على طليطلة للفونسو الثامن ليجمع قواه ويأخذ بثأره فيما بعد ٠ وقد عاد المنصور بعد ذلك مرة أخرى الى الاندلس ولكنه لم يقم بأى عمل عسكرى كبير يذكر له واكتفى بأعمال التنظيم والادارة ومحاسبة العمال ورجال المال ٠

ومات المجاهد الكبير المنصور فى الثانى من ربيع الاول عام ٥٩٥هـ/٢ يناير ١١٩٩م بعد كان قد تجاوز عمره التاسعة والثلاثين بعدة ايام قليلة فقط فقد ولد فى أواخر ذى الحجة عام ٥٥٤هـ/يناير ١١٦٠م ٠

وهكذا مات المجاهد الموحدى بعد أن سجل فى صفحات التاريخ الاسلامى والجهاد فى الاندلس صفحة ناصعة وارتبط اسمه بمعركة الارك واوقف تقدم المسيحيين ٠

وهكذا خلد اسمه بكسبه معركة الارك الا انه مما يأخذ على قسادة المجاهدين من المرابطين والموحدين انهم لم يحاولوا استثمار ثمرة نجاحهم فى هذه المعارك مثلما فعل صلاح الدين فى حطين والاستيلاء على القدس عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م لكن المنصور مات فى عنفوان شبابه اذ لم يصل الى الاربعين عاما وانه لو قدر له أن يعيش وهو فى تمام صحته لانه كان ضعيف البنية مصابا بأمراض وقف الاطباء يأسا دون علاجها لاستطاع فيما بعد أن يقوم بأعمال تفوق كثيرا ما قام به فى معركة « الارك » ذلك لانه كان قد خبر قتال المسيحيين فىالاندلس وعرف نقط الضعف فى قواتهم وكيفية مواجهتهم ومحاولة كسر شوكتهم ٠

ولقد مات هذا المجاهد الموحدى صاحب معركة « الارك » وهو فى شبابه ذلك أن سن التاسعة والثلاثين لم يكن من الاعمار التى يستطيع صاحبها أن يفعل الشىء الكبير لبلاده ولكن هكذا أعمار رجال الدولة الموحدية اذ اننا نجد العديد منهم يتوفون وهم دون الخمسين عاما ٠

لكن مهما يكن من القول فان الخليفة أبى يعقوب يوسف المنصور الموحدى استطاع أن يقوم بالاعباء الملقاة على عاتقه فانه استطاع أن يوطد الامن والامان فى داخل البلاد ويوطد أركان الدولة ويقضى على الثورات الداخلية ويبسط نفوذ الدولة على كل الاراضى الواقعة من ليبيا شرقا الى المحيط الاطلسى غربا وأن يجمع كلمة المغرب العربى الكبير تحت لواء الوحدة الموحدية وأن يجعل أنظار العالم الاسلامى تتجه الى المغرب العربى بعد معركة « الارك » فى الوقت الذى اتجه فيه المغاربة الى المشرق حيث انتصار صلاح الدين الايوبى على الصليبيين فى معركة حطين ٥٨٣هـ/١١٨٧م ٠

الخليفة الموحدى الرابع

أبو محمد عبد الله الناصر

وموقعة العقاب وضعف السيادة الاسلامية

(٥٩٥ ـ ٦١٠هـ ـ ١١٩٩ ـ ١٢١٣م)

توفى الخليفة يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وقد أثارت وفاته حزنا عميقا فى الاوساط الاسلامية ذلك لان الكثيرين من الناس كذبوا وفاته وقال البعض انه قد تخلى عن الملك وذهب خفية الى الاندلس حيث يرابط فى ثغورها لجهاد الكفار وقال البعض الآخر انه توجه الى البيت الحرام وجاور فى المدينة عند قبر الرسول حيث يخفى أمره وقال فريق ثالث بل انه رحل الى الاراضى المقدسة بفلسطين لجهاد الصليبيين هناك ٠

وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وقالوا بأن المنصور مات فى المغرب ودفن بجوار آبائه فى تيتملل ، الا انه فى الوقت نفسه حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة من جديد ٠

وخلفه أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقى عرش سلطته المغرب والاندلس ثمانية عشرة عاما حيث انه ولد فى عام ٥٧٦هـ/١١٨٠م وتولى الحكم عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م ٠

وقد كان شابا قليل الذكاء ٠ وكان ابوه قد أطلعه على سير الامور فى البلاد ونصحه بألا يقطع برأى حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبى حفص

محمد بن أبى حفص وكان هذا الرجل كبير السن وذو فطنة وحنكة ودراية لكن هذا الشاب تجلت نلة ذكائه فى صورة استبداده بالامر ورفض النصيحة من أقرب المقربين من رجاله ٠

وكانت بداية فترة حكمه قد شهدت عودة بنو غانية الميورقيون الى شن غاراتهم على افريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول فى عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين وكان قائد الخليفة المنصور (والد الناصر) أبو الحسن على ابن الزبر قد قام بانقلاب فى الجزيرة ضد حكم بنى غانية وأقام بمساعدة الثوار حاكما على الجزرة باسم الموحدين ٠

الا ان نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلا اذ سرعان ما علم بنو غانية فى افريقية بأخبار هذا الانقلاب ورجع الامير عبد الله بن غانية الى الجزيرة فورا عن طريق صقلية واستطاع الامير عبد الله بن غانية بمساعدة مواليه وجنده أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخيه محمد بن غانية الى الاندلس حيث ولاه الموحدون مدينة دانية ٠

وحاول الخليفة المنصور أن يعيد احتلال الجزيرة الا ان الموقف كان قد أفلت منه الا انه نجح فى احتلال جزيرة يابسة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ٠ وتحرك ابن غانية بأسطوله من جزيرة ميورقة لمحاصرة جزيرة يابسة من جميع الجهات ولكن أهلها قاوموه بشدة واستنجدوا بأسطول الموحدين الذى كان قريبا منهم فأسرع لنجدتهم واستطاع الانتصار على ابن غانية ورجع ابن غانية خائب الوجه ٠

ورأى الخليفة الموحدى الجديد أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور ان استقرار نفوذ الموحدين فى افريقية لن يستتب الا اذا استولى على جزر البليار قاعدة بنى غانية ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى افريقية لهذا صمم الناصر على احتلالها كلها ٠

وفى خلال فترة حكم الناصر لدين الله انتكست صورة التحالف الموحدى العربى فأصبح صوريا بقدر ما يحفظ على العرب استقلالهم الذاتى ففى عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م توالت أنباء افريقية عن خروج العرب عن طاعة الخليفة بمراكش وبسط العرب سلطانهم على مدنها وتحالفوا مع يحيى بن غانية ٠

وكان الناصر لدين الله قد بدأ حكمه بداية طيبة فقد رأى ضرورة القضاء على ثورة بنى غانية وأحلافهم من العرب فى الجزائر الشرقية وافريقية وكان اسحق بن على بن غانية قد تمكن فى عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م من الاستيلاء على تونس فزاد أمر الثورة خطورة وبدأ أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى الى الجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض فى ثغردانية وأسند قيادة الاسطول فيها الى عمه أبى العلاء ادريس بن يوسف بن عبد المؤمن ٠

كما اسند قيادة الجيش الى شيخ الموحدين ابى سعيد عثمان بن أبى حفص ٠

وكانت الحملة تتكون من الفين ومائتى فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر الف من الرجال غير رجال الاسطول وكان الاسطول فى ثلاثمائة جفن واقلعوا يوم السبت ٢٤ ذى الحجة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج اليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الاسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء ادريس قائد الاسطول والشيخ أبى سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الاسطول الى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها الى العاصمة مراكش ٠

وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك فى ربيع الاول عام ٦٠٠هـ/ديسمبر ١٢٠٣م واقيم عليها عبد الله بن طاع الله الكومى واليا وبذلك يكون الموحدون قد قطعوا جذور بن غانية فى الجزر الشرقية (جزر البليار وهى ميورقة ومنورقة ويابسة) وبقى عليهم أن

يقطعوا جذورهم بل فروعهم فى افريقية والمغرب الاوسط حيث كان من الطبيعى بعد ذلك أن يتبع الخليفة الناصر فلول بنى غانية فى افريقية فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله عام ٦٠١هـ/١١٠٤م واستولى على تونس والمهدية ،وفر يحيى بن غانية بأهله وولده الى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر ان استمرار بقاء نفوذ الموحدين فى افريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم فيها يكون لـه مطلق التصرف فى ادارتها فاختار لهذا الغرض واليـا من أقاربه هو الشيخ « عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى » جد الملوك الحفصيين .

وفى ربيع الاول عام ٦٠٢هـ/١٢٠٥م أنزل الموحدون ببنى غانية وأحلافهم بقيادة يحيى بن اسحق الميورقى هزيمة سـاحقة فى تاجرا قرب قابس وأعقب ذلك دخـول الموحدين تونس والمهدية والقضـاء نهائيا على فتنة بنى غانية وغنم الموحدون أسلابا أضـاع العرب عشرين عاما فى جمعها من طرابلس الى بجاية وفى نفس الوقت استسلم عرب المهدية وعاد الناصر الى تونس عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ليعيد الهدوء ولينظم شئونها ويعمل على اصلاح ما فسد ى لكن بنى غانية لم يستسلموا للهزائم التى أنزلها بهم الموحدون خصوصا بعد بعد مساعدات بنى سليم وعرب الزواودة .

وتمكن بنو غانية من مواجهة الجيش الموحدى بقيادة أبى محمد بن أبى حفص بنواحى تونس وفى عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م أغار أبو محمد عبد الواحـد على قبائل سليم ليرغم العرب على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية . ولا شك ان هذه الاضطرابات التى لعبت فيهـا القبـائل العربية دورا واضحا فى افريقية أدت الى تعيين أبى حفص واليـا دائما على افريقية مما ساعد على تدعيم النفوذ الموحدى فى تلك الجهات من جهة ثم قيـام الدولة الحفصية المستقلة بعد ذلك من جهة أخرى .

ولكن يحيى بن اسحاق بن غانية الميورقى انتهز فرصة عودة الخليفة الى المغرب لتجديد غاراته لكن أبو محمد الحفصى أوقع هزيمة قاصمة فى اقليم الزاب فى ٣ ربيع أول ٦٠٤هـ/ اكتوبر ١٢٠٧م وتعتبر موقعة الـزاب النهاية الحقيقية لنشاط بنى غانية فى افريقية .

وكان أبو محمد الحفصى هذا جديرا بهذه المهمة فأخذ يتعقب جيوش يحيى بن غانية وينهكها فى الوقت الذى كانت فيــه زناتة تنفض من حــوله وكانت معركة جبل نفوسة هى التى آتت على قوة يحيى فلم يجد خيرا من أن يهرب الى الجنوب من جديد ويتجه الى واحة الجفرة فى عام ٦٠٤هـ ٠

لكن بنو غانية وحلفاؤهم من العرب الهلالية نحــو المغــرب الاوسط وهاجموا تلمسان فأسرع أبو محمد الحفصى وأنزل بهم هزيمة قاصــــمة اخــرى فى جبل نفوسة وقد انجلت هــذه المعركة عن نهــاية كل شىء كان يملكه بنى غانية ٠

ولقد حاول يحيى بن غانية بعد ذلك الاغارة على افريقية لكنه لم ينجح رغم انهم كانوا يغيرون على البلاد ثم يفرون الى الصحراء وكانوا أحيانا يعتصمون فى تلمسان وأحيانا فى سجلماسة ٠

وفى عام ٦٣١هـ/أو ٦٣٣هـ/١٢٣٤م أو١٢٣٦م توفى يحيى بن اسحق ابن غانية فى مدينة مليــانة على نهر شلف فى الجزائر وكانت هذه نهــاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم فى معارك طاحنة مع الموحدين ٠ وقد اضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان ٠

جهاد الناصر لدين الله فى الاندلس

لم ينس ألفونسو الثامن ملك قشتالة هزيمة الموحدين له فى الارك فظل يفكر فى محو آثار الهزيمة وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الاسلامية وتحالف مع كل من ملكى نبرة وأرغون وفى عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يستريح بعض الشىء من متاعب المغرب الاوسط وافريقية معتمدا على أبى محمد بن حفص الهنتانى حتى سمع باستعداد ألفونسو فى الاندلس مستنجدا بالملوك المسيحيين ومنهم ملك البرتغال ، ذلك لان الاوضاع السياسية فى أسبانيا فى ذلك الوقت قد تغيرت عما كانت عليه فى عهد المنصور ، ذلك لان الاسبان لم يكتفوا بتوحيد صفوفهم بل أعلنوا الدعوة لحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا « أنوسنت الثالث » حركتهم فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمانيا ٠

فكتب الناصر الى جميع بلاد افريقية فى المغرب وبلاد المسلمين يستنفز المسلمين للغزو فأجابه خلق كثير وألزم كل قبيلة من القبائل العربية ببلاد المغرب بحصة من الخيل والفرسان والرجال للانضمام الى الجيش الموحدى والخروج معه للجهاد بالاندلس ٠

ولما تكاملت معه الحشود تحرك الى الاندلس فى ١٩ شعبان عام ٦٠٧هـ/١٢١١م ووصل الى اشبيلية واقام بها استعداد للغزو فاجتمع له فى هذه الغزوة من أهل المغرب والاندلس العديد من المقاتلين وما كاد الفونسو الثامن يشعر بتحرك الجيش الموحدة الكبيرة الى الاندلس الا وأخذ يغير من جديد على أطراف الاندلس الاسلامى ٠

وقد بدأ فى هذا الهجوم بعد انتهاء الهدنة التى عقدها مع المنصور الموحدى وكانت نهاية الهدنة عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م وأراد الناصر أن يجاهد فى سبيل الحفاظ على الديار الاسلامية فى الاندلس وتحقيق نصر كما حقق والده المنصور نصر الارك على قوات قشتالة ٠

فكان قرار العبور الى الاندلس وجهاد القوات النصرانية فجمع حشودا هائلة وعبر الى الاندلس فى نهاية عام ٦٠٧هـ/ يونيو ١٢١٠م وأخذت الجيوش تتوافد عليه حتى أصبح جيشه يعادل جيش أبيه الذى كسب موقعة الارك ٠

وقسم الجيش الاسلامى الى خمس فرق الاولى من العرب والثانية من زناتة وصنهاجة والمصامدة وغمارة وسائر أصناف قبائل المغرب والثالثة من المتطوعة والرابعة من جيش الاندلس والخامسة من الموحدين وانزل كل فرقة منهم بناحية ٠

ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك فى أوائل عام ٦٠٨هـ/١٢١١م الى بلاد قشتالة واستولى على قلعتى اللج وشلبطرة معتمدا فى ذلك على الفرقة العربية من جيشه لكن اذ كان المنصور محقق انتصار الارك رجلا ذكيا حكيما عرف كيف يستفيد من القوات التى كانت معه فى حين عجز ذلك الشاب عن ذلك ٠

زحفت الجيوش المسيحية من طليطلة فى عام ٦٠٩هـ/ ٢٠ يونيو ١٢١٢م واستولت على ملجون وقلعة رباح بعد أن حاصرتها ويئس قائد حاميتها من نجدة الناصر ففضل تسليمها فغضب الناصر لذلك وأمر بقتله فى أشبيلية مما اثار غضب الفرقة الرابعة الاندلسية فى جيشه فعزل قوادهم ولقد أخطأ فى ذلك لتعود قواد الاندلس لمحاربة المسيحيين بها وخبرتهم الطويلة فى القتال وكانت هذه أولى الاخطاء التى فرقت وحدة الجيش الاسلامى وكان الخطأ الفردى وراء كارثة معركة العقاب ٠

وعلى الجانب الآخر كان الفونسو الثامن قد عقد العزم على الاخذ بثأر هزيمته فى معركة الارك فعقد معاهدات مع أمراء المسيحية ساعدته على توحيد الجبهة المسيحية الاسبانية واتته امداد كبيرة من بقية أوربا وبذلك كان على الناصر لدين الله أن يواجه حملة صليبية كبرى ٠

وكانت خطة الناصر لدين الله تقتضى الاسراع بالاستيلاء على الباب

المؤدى الى قشتالة وهو حوض الوادى الكبير وذلك للحيلولة دون دخـول النصارى الى الاندلس بقوات كبيرة وفى أوائل عام ٦٠٨هـ/١٢١١م تحرك الناصر بجيش جرار ولكن بحذر ودخل « جيـان » وحصنها ثم تركها وعسكر فى السهل الواقع امام مخرج المضيق وهو سـهل ملىء بالتلال الصـخرية وتسمى العقاب ٠

وتمكن الناصر من الاسـتيلاء على الحصون القريبـة من بلدة ابذة Ubedo وكان معقل فرسـان الداوية ثم عاد الناصر الى اشبيلية ليستكمل استعداده ٠

وفى محـرم ٦٠٩هـ يونيو ١٢١٢م تحرك نحو مخرج المضيق ويسميه العرب « مطرد الكلب » وفى نفس الوقت اتجهت قوات نصرانية نحـو هـذا الموقع والتقى الجيشـان جيش المسلمين على هـذه الحـالة من التفـكك بموقع يقـال له فى المصـادر العربية باسم العقاب وفى المصادر الاسبانية معركة تولوسا La Nave de Tolose ولم يكن قد اجتمعت لحرب المسلمين قوات نصرانية كهذه من قبل بل منذ دخـول المسلمون الاندلس ٠

فقد كان فيها ملوك قشتالة وليون ونافارا وأرجون ومعظم كبار فرسان أسبانيا وقوات المـانية وفرنسية وبرتغالية وايطالية وتمكنت هذه القـوات من الاستيلاء على كل المواقع الاسلامية التى صادفتها فى طريقها ٠

وقامت الفرقة الثالثة من جيش الناصر لدين الله وهى المتطوعة بهجوم خاطف ولكن القوات المسيحية تمكنت من امتصاص الفرقة بأكملها بداخلها ورغم تفـانى المتطوعة فى القتـال فقد استشهدوا عن آخـرهم ولكن يأتى فرق الجيش الموحدى لم يمدوا لهم يد العون والمسـاعدة ولم يعرف السبب فى ذلك ٠

وبعد أن فرغ المسيحيون من فرقة المتطوعة والذين كانت المعركة قـد بدأت معهم لزحزحتهم من الجانب الغربى من الميدان لكن النصارى فشلوا فحاولوا النفاذ من الناحية الشرقية التى كان يعسكر فيها الاندلسيون والعرب

فهرب الاندلسيون بعد أن قرروا أن يغدروا بالناصر فى المعركة من إثر عزله قوادهم وفعلا غدروا به فى المعركة الفاصلة بعد أن دار القتال عنيفا وولت الادبار انتقاما بما فعله الناصر بقوادهم فكان ذلك بداية الهزيمة لجيش الموحدين ٠

وفرت فرق القبائل البربرية من المعركة ثم تلتها فرقة الموحدين وكان آخر من ترك ميدان المعركة الفرقة الاولى التى تتشكل من العرب التى اشتبكت وتلاحمت بالسيوف مع المسيحيين مدافعة عن الناصر لدين الله ورغم ذلك تمكن المسيحيون من الوصول إلى الدائرة التى حيط به وقتلوا من عبيد دائرته نحو عشرة آلاف فارس واخترقت القوات النصرانية صفوف الجيش الموحدى فاضطرب نظامه ووصلت بعض فرقا منهم الى فسطاط الناصر نفسه وبدأت مذبحة كبرى إنتهت بتبدد الجيش الموحدى الضخم وبتبدده تلاشى الامل فى تمكن المسلمين من الثبات فى هذه البلاد الاندلسية وقد هلك فى هذه المعركة آلاف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الالوف من حشود المغاربة ٠

ولهذا تعتبر هذه الهزيمة النهاية الحقيقية لقوة الاسلام فى الاندلس ٠ وكانت الفرقة العربية قد ادركت أن الهزيمة قد حاقت بالجيش الموحدى وان المسيحيين قد أوشكوا على قتل الخليفة الناصر لدين الله فقام أحد فرسان العرب بمعونة الخليفة على الفرار حتى تخلى أحدهم عن فرسه العربى الاصيل للناصر لبدانة فرسه وثقله قائلا له ٠ أركب هذه الحجرة فانها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله فركبها الناصر تتقدمه نخبة من فرسان العرب ويحيط به عبيده والقوات المسيحية فى أعقابهم حتى تمكنوا من الفرار به وقضى على معظم الجيش الموحدى وعاد الناصر الى مراكش حزينا حيث احتجب عن الناس فى قصره الى أن توفى فى شعبان ٦١٠هـ/ يناير ١٢١٣م أى بعد سبعة شهور من هزيمة العقاب ٠

ولقد إنهار تماما نفوذ الموحدين فى الاندلس بعد هذه الكارثة التى حلت بالمسلمين فى الاندلس بل بالعالم الاسلامى الغربى وأخذت المدن الاندلسية التى

دافع عن بقاياها المرابطون واسلاف المنصور لدين الله من الموحدين تتساقط فى أيدى المسيحيين ويسجل تاريخ الاسلام فى الاندلس وفاة الناصر لدين الله بداية انهيار دولة الموحدين ٠

وقد شجعت هذه المعركة والهزيمة القاسية التى حلت بالموحدين رؤساء بعض المدن الاندلسية على القيام بمحاولة الاستقلال بحكم الاندلس بغية انقاذها من هذه النكسة القاسية ٠

ولقد كانت تلك الهزيمة القاصية سببا فى تكالب أمراء قشتالة وأرجون على أراضى المسلمين بالاندلس لقد كان المسلمون الاندلسيون من العوامل الاساسية التى قضت بتعجل انتهاء دولة الموحدين اثر معركة العقاب اذ بدأت القوى الاسلامية تتساقط ، كما أن ثورة بنى غانية التى طال الصراع بينهم وبين بنى عبد المؤمن لاكثر من نصف قرن من الاسباب التى انهكت الدولة وجعلتها لا تستطيع أن تصرف همها وجهودها للقضاء على البؤر الشمالية الغربية المسيحية الاسبانية ٠

كذلك موقف العرب فى المغرب فى وجه الاتجاه الكامل للصراع الاسلامى المسيحى لكن الموحدون تمكنوا من اصطناع القبائل العربية سواء بنقلهم الى المغرب الاقصى والعمل على استقرارهم به وادخالهم فى خدمتهم وضمهم للجيش ورغم ذلك فلم تكن جميع هذه القبائل تعطى الود الخالص للموحدين فما أن تضطرب الاحوال السياسية للدولة حتى نراهم ثائرين مؤيدين للحركات الخارجة على شرعية الدولة وتركزت ثورات القبائل العربية فى افريقية ومناطق استقرارها فى المغرب ٠

ولقد تعددت ثورات العرب منذ قيام الدولة الموحدية عام ٥٤١هـ/١١٤٦م فلم تمر فترة قصيرة الا وكانت القبائل العربية فى المغرب تعلن الثورة والخروج عن طاعة الخليفة وفى كل مرة من هذه المرات كانت الدولة الموحدية تبذل قصارى جهدها فى القضاء على هذه الثورات سواء بالمال أو الاستمالة بالهدايا (ربما تكون آراء غربية أو معادية للعرب) ٠

بل أكثر من ذلك فانه أثنـاء فترة حكم الخليفة الناصر لدين الله فانه فى عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م ظهر بجبال ورغة بالقوب من فاس ثائر هو « محمد ابن عبد الله العاضد » وهو حفيد العاضد آخـر الخلفاء الفاطميين فى مصر وذلك بعد ثلاث وثلاثين عاما من قضـاء صلاح الدين على الدولة الفاطمية الشيعية بمصر لكن الدولة الموحدية تمكنت من القضاء عليه فى عهد الناصر لدين الله عام ٦١٠هـ/١٢١٣م ٠

وقد استنزف ذلك جهدا ومالا وعدة من الموحدين ، كان الاجـدر أن توجه كل هذه الطاقات للصمود فى الاندلس أمـام الزحف المسيحى بدلا من محاربة بنى غانية بقايا المرابطين أو غيرهم من العناصر الاخرى التى كانت تخرج على شرعية الدولة الموحدية وهكذا كان استنزاف الطاقة الموحدية من العوامل التى ربما أدت الى الهزيمة القاسية فى معركة العقاب ٠

الدولة الموحدية بعد الناصر لدين الله

يوسف المستنصر

(٦١٢ ـ ٦٢٠هـ/ ١٢١٥ ـ ١٢٢٤م)

بعد هزيمة العقاب القاسية على المسلمين فى بلاد الغرب الاسلامى وعلى الموحدين والاندلسيين بصفة خاصة فقد خلف أبو يعقوب يوسف بن محمد الناصر ابنه يوسف والذى تلقب بالمستنصر ، لكن عهده شهد ظهور الحروب الاهلية والمنافسات العائلية وقيام أقربائه عليه فى الاندلس والمغرب .

بالاضافة الى الخطر الاساسى للمسلمين فى الاندلس وهم مسيحو الاندلس اذ نجد ان ملك قشتالة وليون فارناندو الثالث الملقب بالقديس يستولى على نهر الوادى الكبير بما عليه من عواصم ومدن هامة مثل قرطبة وأشبيلية وقادس وشرس .

وفى عهد المستنصر ظهر ببلاد جزولة بالمغرب الاقصى رجلا من العبيديين ادعى الانتساب الى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فى مصر وتسمى بالمهدى ووصلت قواته حتى فاس بمساعدة القبائل العربية ولكن عامل المستنصر على فاس تمكن من القضاء عليه رغم اعتماده على العناصر العربية المختلفة من الدولة الادريسية بالمغرب الاقصى فى مدينة فاس وما حولها والفاطميون وأتباعهم الذين سبق لهم النزوح من مصر الى المغرب بسبب الصراع الدامى بين عناصر الجند من المغاربة والسودانيين والاتراك والعرب وغيرهم .

ولما توفى المستنصر بعد حكم دام ثمانى سنوات كانت فيها الدولة تتعرض للاخطار الداخلية والخارجية ولم تكن مواهبه ولا قواته ولا موارد الدولة تمكنه من القيام بأى عمل من شأنه أن يعيد نفوذ القوة للدولة ويجعل القبائل تخضع لها بالاضافة الى انه لم يتحرك نحو الاندلس لوضع حد لسقوط المدن والمعاقل الاسلامية فى تلك الديار الاسلامية .

وبعد وفاة المستنصر تولى الخلافة .

عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن
(٦٢٠ ـ ٦٢١هـ/١٢٢٤م)

واتسم عهده بالفوضى وتفرق أمر الموحدين وظهر التصارع على السلطة بصورة واضحة فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بأمر الموحدين بالاندلس وأيده بعض أعيانهم بالمغرب فخلعوا عبد الواحد وقتلوه بعد شهور من ولايته واستدعوا أبو محمد من الاندلس وتلقب بالعادل ٠

أبو محمد عبد الله يعقوب المنصور (العادل)
(٦٢١ ـ ٦٢٤هـ/١٢٢٤ ـ ١٢٢٧م)

استعان الخليفة العادل الموحدى بشيوخ العرب المستقرين بالمغرب الاقصى وخاصة الذين يرتكزون حول العاصمة مراكش بعد أن كان أعيانهم قد استدعوه من الاندلس وبهم استطاع دخول مراكش لكنه قاسى كثيرا من المتاعب وخاصة من العرب المستقرين فى المنطقة الممتدة ما بين سلا ومراكش بالاضافة الى تخلى أعوانه عنه وأخذوا يغيرون على نواحى مراكش ٠

ولم يكن أمام الخليفة العادل من وسيلة الا أن يدخل معهم فى صراع عسكرى فأرسل اليهم قواته ولكنها لم تستطع أن تحقق نصرا حاسما لاسيما بعد أن تحالفت هذه القبائل مع قبائل عربية وبربرية أخرى بل مع بعض الموحدين الذين تعاونوا جميعا على خلعه فهاجموا مراكش بعد أن حاصروها حصارا قاسيا واستطاعوا بعد أن قطعوا عنها الامدادات أن يقتحموا قصر الخليفة العادل وأن ينهبوه وقتلوا العادل خنقا فى عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م ٠

وهكذا نلاحظ كيف ان الامور فى الدولة قد أخذت تسير من سيىء الى أسوأ وبدأت القبائل تستهين بالخليفة وكثر الخروج عليه بل قتله فى قصره. وهكذا تكون أقدار الدول التى تقوم على أكتاف قوياء ، لكن سرعان ما تصاب برجال ضعفاء يخزلون أسلافهم ويضيعون ما بذلوا من جهد ومال ودماء من اجل اقامة الدولة ٠

يحيى بن الناصر

(٦٢٤ ـ ٦٢٧هـ/١٢٢٧ ـ ١٢٣٠م)

تشجع ملوك النصارى ومضوا يستولون على الحصون الاسلامية دون مقاومة تذكر وذلك بعد الصراع الدامي بين خلفاء الموحدين عندما قـــام أبو العـــلا ادريس عامل أشبيلية بالمنـــاداة بنفسه خليفة للموحدين منافســـا لابى زكريا يحيى بن النـــاصر الذى بويع فى مراكش فى ذلك الوقت وكذلك منافسا لاخيه أبى عبد الله محمد الذى كان واليـــا على مرســـية بشرق الاندلس فترك ولايته ومضى الى مراكش ·

لكن الموحدون كانوا قد اجمعوا على مبايعة زكريا يحيى بن النـــاصر ودخل مراكش وبايعته عرب الخلط بقيـــادة اميرها وذلك منافسا لادريس بن المـــأمون بن المنصور الذى رحب بذلك وأشاد بالعرب ·

وبينما كانت جيوش الموحدين تهاجم العرب (عرب الخلط) لترغمهم بالقوة على المبايعة أخذ يحيى بن الناصر فى التشديد والتعريض بهم ، لكن القوات الموحدية فشلت فى كسر شوكة العرب الثائرين الذين اخذوا فى شن الغارات على أطراف مراكش ·

والذى يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة عن الدول الموحدية يدرك مدى الخـــزى والعـــار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة والمقدرات ·

وهكذا توضع أمور الدول فى يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم · فنجد هنا ادريس المـــأمون بن المنصور يزحف من الاندلس ويقرر العبور الى المغـــرب معتمدا على مصـــالقة العـــرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقـــدر عـــددها بخمسمائة فارس (مدى الجبن والخزى والعار) مقابل التنازل عن عشرة حصون بالاندلس لملكة قشتالة ·

بل أكثر من ذلك قبوله القيـام ببناء كنسية بمراكش بحيث تجاور جامع القرويين حتى يتمكن المسيحيون من مباشرة شعائرهم الدينية وتصـــارع المتنافسان على السلطة بالقرب من مراكش لكن قوات يحيى بن الناصر هزمت عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م ٠

وانسحب يحيى بأتباعه ودخل المـأمون مراكش وقتل بعضـا من شيوخ الموحدين وأذن للمسيحيين القادمين معه ببنـاء كنسية وسط مراكش ٠ لكن في غيـاب المـأمون عن مراكش في عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م لصراعه مع أخيه موسى عمران هاجم يحيى بن الناصر وأعوانه من العـرب مراكش ودخلوا المدينة وهدموا كنسية النصـارى وانسحبوا الى مقرهم بجوار مراكش ولما علم المـأمون بما حـدث رجـع الى مراكش ولكنـه توفى فى الطـريق عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ٠

الخليفة المـأمون بن المنصور
(٦٢٧ ـ ٦٣٠هـ/١٢٣١ ـ ١٢٣٢م)

تكتمت زوجته التى كانت فى الاصل جارية مسيحية اسبانية خبر وفاته وأخذت البيعة لابنها الرشـيد ٠

الرشيد بن ادريس المـأمون بن المنصور
(٦٣٠ ـ ٦٤٠هـ/١٢٣٢ ـ ١٢٤٢م)

وكان المأمون والد الرشيد هذا قد حمل معه من قوات الاندلس الى المغرب ما استطاع وترك البلاد عارية بدون حماية وعبر الى مراكش ليطالب بالخلافة فأخذت المدن الاسلامية بالاندلس تسقط وتنهار وانهـار خط الوادى الكبير وفيما بين عام ٦٣٣هـ ـ ٦٤١هـ ـ ١٢٣٦ ـ ١٢٤٣م سقطت قرطبة وأشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية وجزر البليار فكانت تصفية محـزنة بل ومخـزية ويكفى أن نذكر ان قرطبة التى كانت عاصـمة الخـلافة الاموية والاندلس

الزاهرة سقطت فى ٢٢ شنوال ٦٢٣هـ/٢٩ يونيـو ١٢٣٦م فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها احد وبذلك صـار للمسيحيين منفذا على مضيق جبل طارق بعد أن كان التحكم فيه للمسلمين فقط ، أما ملك أرجون (خايمى الاول) الملقب بالفاتح (١٢١٣ ـ ١٢٧٦م) فقد أغار على شرق الاندلس وحاصر مدينة بلنسية ولم تلبث بلنسية أن سقطت فى يد العـدو ٠

وفى نفس العام الذى سقطت فيه بلنسية هاجم أسطول جنوا ميناء سبتة لفصل المغرب عن الاندلس والتحـكم فى مضيق جبل طارق من جانبية لكن المحاولة فشلت لكنهم كرروا المحاولة مرة ثانية فى مائة مركب للانتقام لضحاياهم من المرة السابقة وحاصروها ونصبوا المجانيق عليها لكنهم لـم يتمكنوا منها واضطروا لرفع الحصار عنها ٠

وفى أثناء ولاية الرشـيد فانه لجأ الى استمالة جميع زعماء الموحدين ليقلل من نفوذ العرب لكن فى نفس الوقت كان العرب يتعاونون فيما بينهـم على التآمر والثورة على الرشـيد بعد أن خدع العرب وقتل كبار شـيوخهم فما كان من العرب الا أن يلتفوا حول يحيى بن الناصر مبايعين اياه مرة أخرى زاحفين به لحصـار مراكش وحاصروا العاصمة وذاق المحاصرون فى المدينة أشد العـذاب لان الرشـيد كان يستعين بالمسيحيين وفرسـانهم فى قواته ولـما رأى الرشيد شدة الحصار دفع هذه القوات المسيحية وبعض القوات الموحدية لمواجهة العرب ولكن العرب حاصرتهم وأفنت جموعهم ولقد عمت الفوضى فى العاصمة أثر هذه الهزيمة واستهان السكان بالخليفة وجنوده مما دفعه الى الهروب من المدينة الى سجلماسة ودخـل يحيى بن النـاصر العاصـمة ٠

لكن الرشيد تحالف مع أمير عرب سـفيان وخرج عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م ليهاجم مراكش واستمرت الحـرب مع قوات يحيى عشرة أيام انتهت بهزيمته وقواته ودخـول الرشيد للعاصمة مرة أخـرى وكان من أثر هذه الهزيمة أن انفضت قبائل العرب من الخلط من حول يحيى بن الناصر فلجأ يحيى فارا

الى عرب المعقل الذين قتلوه وحملوا رأسه الى الرشيد بفاس لكن الرشيد أرسلهم الى مراكش حيث أمر بقتل جميع من قتلوا الخليفة السابق يحيى ابن الناصر ٠

وكان قتل يحيى بن الناصر سببا فى دخول العرب فى طاعة الرشيد فما كان منه الا أن استدعاهم حيث قبض على رؤسائهم عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وأمر بقتلهم وبذلك كسر الرشيد شوكة العرب ونقل بعضا منهم الى السوس بعيدا عن مراكش ٠

لكن الرشيد توفى عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م فخلفه أخوه على السعيد (أبو الحسن) ٦٤٠ ـ ٦٤٦هـ/١٢٤٢ ـ ١٢٤٨م وكان أول عمل قام به هو القبض على معظم شيوخ الموحدين وصادر أموالهم وأعاد العرب من بلاد السوس الى مراكش وقرب أمراء العرب اليه حتى اتخذ مستشاره الخاص من بين العرب ٠

وحدث فى عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م أن ثار عامل سجلماسة من قبل الموحدين وخرج عن طاعتهم وبايع الحفصيين فى تونس لذا فان السعيد هاجم سجلماسة بل انه فى نفس العام قام السعيد بالقبض على كبار رجال الدولة ٠ وفى عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م أعلن عرب سفيان ثورتهم على الخليفة الموحدى السعيد مما اضطر السعيد الى طلب عون بعض القبائل العربية الإخرى وتمكن السعيد من هزيمة بنى مرين ٠

ولقد كان من اثر تحالف الحفصيين فى تونس مع بنى عبد الواد ضد الموحدين أن اندفع السعيد لتحسين علاقاته مع عرب بنى سفيان وقام السعيد عام ٦٤٥هـ/١٢٤٧م بمهاجمة تلمسان وانسحب منها بنو عبد الواد الى شعاب الجبال بجوار وجدة لكن العرب انقلبوا على السعيد واستولوا على أمواله وقتلوا زعيم سفيان وتفرقت القوات الموحدية وبعد قتل السعيد تولى خلافة الموحدين الخليفة ٠

أبو حفص عمر وتلقب بالمرتضى
(٦٤٦هـ ـ ٦٦٥هـ ـ ١٢٤٨ ـ ١٢٦٦م)

وكان هذا الامير الذى دامت فترة حكمه ثمانية عشرة عاما ميلاديا يقيم فى مدينة سـلا حيث كان واليـا على حصن الفتح فأرسلوا اليـه واستقدموه وبايعوه واستقبلوه أحسن استقبال وعلى رأسهم شيوخ عرب المغرب ·

وكان أول عمل قام به الخليفة أبو حفص عمر هو تعيين مشايخ العرب على اماراتهم وكسب ودهم ومن ثم توجه الى مراكش ببلاطه وحاشـيته وهيئة الخلافة ووزراءه وأمراء العرب ·

وقد شهدت فترة حكمه الاولى بداية ظهور قوة بنى مرين اذ أستطاعوا الاسـتيلاء على حصن تازا ومكناسة وفاس وضواحيها بعـد مقتل الخليفة السابق السعيد مباشرة وذلك عام ٦٤٧هـ/١٢٤٦م واقتطعوا من الخليفة كثيرا من أنحاء المغرب ولم يبقى غير بلاد الحوز من سلا الى السوس واسـتولى أبو بكر المرينى على سلا ورباط الفتح مما دفع الخليفة المرتضى الى الخروج لمحاربة بنى مرين ·

وعلى الرغم من أن مجلس السلام الذى عقده بنى مرين وبعض زناتة والعرب طالبوا أن بالصلح مع المرتضى الا ان الخليفة الموحدى رفض الصلح لانه لم يجد مبررا لوجود خليفتين فى اقليم واحد والتقى الجيشان الا أن ظروف المعركة جعلت الصلح أفضل لقائد جيش الخليفة الموحدى بعد أن كان قد رفضه هو ووزراءه بمراكش ·

وفى عام ٦٥١هـ/١٢٥٣م هرب أحد أعوان وزير المرتضى الى السوس وتحصن بجبالها وتمكن من هزيمة جيوش المرتضى التى أرسلها اليه واستمرت سيطرته على بلاد السوس طوال عهد المرتضى ·

وفى عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ثارت بعض القبائل العربية فأرسل الخليفة

المرتضى لهم جيشا استطاع القضاء على ثورة هؤلاء الاعراب واستدعى المرتضى كبير مشيخة عرب الخلط الى مراكش وقتلهم انتقاما منهم لدورهم فى قتل السعيد الخليفة السابق ٠

وفى العام التالى ٦٥٣هـ/١٢٥٥م جهز الخليفة المرتضى جيشا يقدر بثمانين ألف فارس من الموحدين والعرب وغيرهم لاسترجاع فاس من قبضة بنى مرين لكن هذه الحملة فشلت ٠

لكن فى عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م تم استقطاع سجلماسة من خلافة الموحدين بعد أن استولى محمد القطرانى المرينى بمساعدة عرب المعقل ولقد شهدت الاعوام التالية استفحال أمر وخطر بنى مرين حيث تقدموا للاستيلاء على سهول تامسنا فخرج الموحدون اليهم وتقابلوا بوادى أم الربيع فى عام ٦٩٠هـ ١٢٦٢م وانهزم الموحدون بسبب الخيانة من جانب القبائل التى انحازت الى بنى مرين ٠

وبعد ذلك زاد اعتماد الخليفة المرتضى على عرب سفيان لكن حدث انقسام فى صفوف عرب سفيان مما جعل بعضا منهم يلجأ الى بنى مرين لكنهم عادوا مرة أخرى الى طاعة الموحدين مما دفع الخليفة المرتضى الى القبض عليهم وقتلهم لتذبذبهم فى الطاعة بين الموحدين وبنى مرين ٠

والى جانب الثورات العربية والحروب ضد الموحدين وبعض المصاعب والمتاعب التى كانت تواجه الخليفة الموحدى المرتضى فانه لم يسلم من أذى أقربائه اذ تآمر عليه قائد جنده وابن عمه أبو العلا الملقب بأبى دبوس وتحالف مع بنى مرين الذين أمدوه بالآلات والرجال ضد الخليفة مما دفع الخليفة المرتضى الى القبض على بعض شيوخ العرب خوفا من مساندتهم ومبايعتهم لابى دبوس ٠

ورغم ذلك فقد انحاز الكثير من قومهم اليه مما دفع الكثير من العرب الى السير جميعا نحو مراكش فى عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م وتسور العرب سور المدينة وفر المرتضى الى ازمور حيث قبض عليه وأرسل أبو دبوس من قتله

واستقل بالحكم وتلقب أبو دبوس بالواثق بالله والمعتمد على الله ٦٦٥ ـ ٦٦٨هـ/١٢٦٦ ـ ١٢٦٩م على أن استيلاء أبى دبوس على الحكم وتأييد بعض القبائل العربية له لم ينقذ دولة الموحدين من الانهيار أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ٠

وبهذا سقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلا فى عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م اذ ان الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاما بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة اذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنساب فى الدولة وأخذت تتهاوى مع الايام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدى بنى مرين ومن قبلهم بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى حفص فى تونس ٠

وكل هذه الصراعات الداخلية فى الدولة قد ساعدت حكام الامارات المسيحية على الاستيلاء على كل المدن والحصون الاسلامية الاندلسية التى تساقطت أمام قوة النصارى التى لم تجد قوة اسلامية تصد هجومهم وسحبت قوات الموحدين لتقاتل فى المغرب بدلا من الاندلس وكان على الاندلسيين أن يواجهوا منفردين دون دعم اسلامى خارجى من المغرب أو غيره من ديار الاسلام الخطر المسيحى ٠

وهكذا سقطت الاندلس ولم تعد هناك بقايا من المدن سوى امارة غرناطة التى نعرض لها فى الفصل القادم باعتبارها آخر البقايا التى يقع عليها عبء الدفاع عن الوجود الاسلامى لفترة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان وتقدم بنى مرين لمعاونة حكام غرناطة على الصمود ٠

الفصل العاشر

مملكة غرناطة بقايا الاندلس الكبير

(٦٣٥ ـ ٨٩٧هـ ـ ١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م)

كان من اثر معركة العقاب التى دارت على أرض الاندلس بين قوات الموحدين والفونسو الثامن والتى انتهت بهزيمة قاسية بالمسلمين وانزل النصارى بقوات محمد الناصر هزيمة قاصمة قتل فيها عشرات الآلاف من المسلمين وكانت تلك المعركة حاسمة بالنسبة لمستقبل الاندلس فقد سقطت بعدها مدن كبرى مثل يابسة وانيرة وأصبح النصارى يشرفون مباشرة على قرطبة واشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم مدن خط الوادى الكبير ودب الخلاف فى صفوف البيت الموحدى وبدات تصفية ما بقى للمسلمين من مدن ولم تبقى فى الاندلس الا مملكة غرناطة محور حديثنا فى هذا الفصل وهى دولة بنى مضر المعروفين ببنى الاحمر فى غرناطة •

بعد أن ضعفت المقاومة امام قوى اسبانيا النصرانية المتحدة وكانت الاندلس لاتزال خاضعة للموحدين واستمرت دولة الموحدين تواجه القوى النصرانية حتى عام ٦٦٨هـ/١٢٦١م حيث سقطت وقامت دولة بنى مرين ولم تكن هناك قوى كافية لمواجهة توجه ضربات للاندلس •

وهكذا عندما بدات الاندلس تجتاز ظروف صعبة كانت اسبانيا النصرانية تزداد قوة على حساب الاندلس وتتقارب وتتخذ كلمتها لحرب الاندلس بعد أن ترك الموحدون الاندلس وسحبوا كبار جندهم من شبه الجزيرة •

ومن هنا بقيت الاندلس بدون حماية ومن هنا برز فى صفوف القادة المسلمين فى الاندلس نفر من الزعماء كل منهم يحاول أن ينتزع ما بقى من

المقاتلين فى الاندلس لكى يقيم لنفسه دولة فى هذا الجـزء الباقى للمسلمين فى الاندلس وقد اقتصر على نهر الوادى الكبير وما يقع جنوبه ٠

وكان أول شخصية أندلسية ظهرت فى هذا الميدان بعد انســحاب الموحدين هو ابن هود صـاحب سرقسطة وقد تلقب بلقب أمير المسلمين سيف الدولة والمتوكل على الله كان يسكن مدينة مرسية وقرطبة واشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها ٠

وقد خسر بعض المعـارك فى صراعه مع ملك قشتالة وملك ليون وقد حاول ابن هود هذا الملقب بالمتوكل أن يجمع حوله كل شعب وجند جنوبى شبه الجزيرة من فرسان المسلمين وتمكن لفترة أن يصمد لضغط النصارى ولكن هذا الرجل كانت تنقصه الخبرة السياسية العميقة والقدرة الادارية الواسـعة ٠

ومن هنا لم يستطع الثبات طويلا أمام الضغط النصرانى وقد كان ملوك النصارى الذين قسموا بقية الاندلس فيما بينهم يرون ان قوة الاسلام فى الاندلس قد تلاشت وأن ما بقى للمسلمين فى شـبه الجزيرة أصبح لقمـة سائغة لملوك النصارى ٠

وقد أثبتت الاحداث التى جرت فى أثناء وجود المرابطين ان مسلمى الاندلس كان يجـب عليهـم أن يتعـاونوا للدفـاع عن بلادهم لتظـل بلاد عربية اسلامية تراخوا عن أمر الدفاع وكان من المؤكد بل قراءة الاحداث تدل على ان البلاد ستضيع من أيديهم بعد أن هزم ابن هود فى العديد من المعارك ضد أسبانيا النصرانية ثم سقطت بعض القواعد الاندلسية ومنهـا قرطبة العاصمة اضافة الى أن الاندلس كانت تواجه هجوم عدد من ملوك أسبانيا النصرانية ٠

ودخل الجيش القشتالى قرطبة فى ٢٣ شوال عام ٦٢٣هـ/٢٩ يونيو ١٢٣٦م وبعدها ذهب العديد من المدن الاندلسية والقواعد والحصون والقلاع وكان لابن هود قد تمت بيعته فى رجب ٦٢٥هـ/١٢٢٨م وقد تقاطر النـاس

عليه وأصبح له جيش ضخم يستطيع أن يحمى ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة وتمكن من تملك اشبيلية عام ٦٢٥هـ وولى عليها اخاه (ابا النجاة سالما الملقب بعماد الدولة) وفى عام ٦٢١هـ دخلت فى طاعته قرطبة ثم غرناطة ومالقة سنة ٦٢٥هـ ودخل فى طاعته أصحاب مرسية وامتد سلطانه الى الجزيرة الخضراء ٠

لكن نفوذه انتهى أمام طموحات فرناندو الثالث وهكذا مات هذا الرجل دفاعا عن الاسلام والعروبة ٠

وقد شارك بنى هود زعامة الاندلس بعد انسحاب الموحدين بنى مردانيش الذين كانت تخضع لحكمهم امارة بلنسية وكان كبير الاسرة أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن محمد بن سعد بن مردانيش الذى تولى امارة هذه البلاد من قبل الموحدين ولكن هذا الامير لم يطل له الوجود على سطح الاحداث فى الاندلس ولم يستطع الصمود أمام ضغط النصارى المتواصل ٠

ومن هنا فقد سقطت بلنسية من يديه تحت ضربات ملك ارغون فى صفر ٦٣٦هـ/١٢٣٨م وكذلك سقطت مرسية فى أيدى فرناندو الثالث وبهذا لم تعد من شخصيات الاندلس القوية القادرة على مواجهة الاحداث سوى بنى الاحمر وكان كبيرهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مضر المعروف بابن الاحمر وقد اتخذ له لقب الشيخ أو الغالب بالله واستطاع ابن الاحمر أن يكون قوة احتفظت ببعض المناطق فى جنوب الاندلس وتأسيس مملكة غرناطة وهى آخر بقايا الاندلس ٠

بل ان غرناطة هى بداية البداية ونهاية النهاية فقد شهدت أرضها نزول أول القوات الاسلامية بقيادة طارق بن زياد عام ٩٢هـ/٧١١م وسقطت أرضها سقوط آخر القلاع الاسلامية الحصينة فى الاندلس عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ٠

وهكذا فيض الله لبقايا الاندلس رجل من أحفاد الانصار العظام هو ابن مضر الذى ينتمى نسبه الى سعد بن عبادة رئيس الانصار فى المدينة

المنورة على عهد الرسول ﷺ وكان قد بدأ نجمه يظهر ويعلو فى قرية صغيرة على بعد ثلاثين كيلو متر من مدينة جيان هى قرية أرجونة وأعلن نفسه أميرا على الاندلس واتسع ملكه ودخلت فى طاعته بلاد جنوب الاندلس كلها التى كانت تبحث عن شخصية اسلامية قوية تستطيع أن ترد عنها كيد الاعداء وتقف فى طريقهم لابتلاع كل الاندلس وخضع له أصحاب جيان ومالقة ولكنه وجد انه فى أمس الحاجة الى مكان حصين يحتمى به من هجوم أعداء الشمال فوقع اختياره على مدينة غرناطة والتى تقع عند جبل الثلج أو « سيرانيفادا » .

وقد ورثه ابنائه واحفاده فى حكم هذه المملكة العامرة لفترة تزيد عن قرنين ونصف من الزمان عندما سقطت آخر المعاقل تحت ضربات جيش الكاثوليك القادم من الشمال بقيادة فرناندو الخامس Fernando V ملك أرغون وازبيلا Isbella ملكة قشتالة وليون بعد حصار طويل فى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م على شروط نقضها رجال الكنسية وانتهت بتدمير الاسلام وأهله فى الاندلس .

وكانت غرناطة قد صمدت فى وجه التحديات الاوربية ورغم كل المعوقات الداخلية والخارجية وزادت فترة حكمها عن قرنين ونصف من السنين .

وكان بنى الاحمر قد تمكنوا من توسيع نطاق سلطانهم فدخلت فى طاعتهم بسطة ووادى اش ومالقة والمرية ثم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ولم يحل عام ١٢٥٥م/٦٥٢هـ حتى كانت مملكة غرناطة قد استقرت وثبتت وازدادت قوة بنى الاحمر بمن توافد على بلاد غرناطة من المسلمين من البلاد التى سقطت فى أيدى النصارى .

وقد ازدهرت مملكة غرناطة فى حكم محمد بن يوسف بن مضر نظرا لما كان يمتلك من قدرات فائقة فى ادارة شئون البلاد وما لقيه من تاييد زعماء مالقة ووادى ابش من بنى اشقيلولة ، واخضع كل حكام مدن شذونة ولبلة واركش وشريش ونبرشة وجبل طارق والجزيرة الخضراء فقد كانت

كلها فى طاعة بنى الاحمر وعمرت هذه المملكة التى بدأت تمارس نفوذها على هذه الاراضى منذ عام ٦٢٩هـ/١٢٣٢م واستمرت تمارس النفوذ حتى يناير ١٤٩٢م .

وقد ظهرت فى مملكة غرناطة شخصيات سياسية ذات كفاءة عالية وقدرات باهرة ممتازة واستطاعوا أن يقوموا بارز فى تاريخ الاسلام فى تلك البقعة الباقية من أرض الاندلس وعملت بكل جهدها على التمكين للاسلام على أرض الاندلس .

ورغم أن الضغط من الخارج كان قويا ومستمرا انهكت قوى مملكة غرناطة وأضعفت طاقاتها مما جعل الاستمرار طويلا يكاد يكون مستحيلا لكن من الشخصيات التى لعبت دورا بارزا فى تاريخ غرناطة (أبو عبد الله محمد بن مضر الذى تلقب بالغالب بالله وقد دامت فترة حكمه اثنين وثلاثين عاما (٦٢٩ ـ ٦٧١هـ ـ ١٢٣٢ ـ ١٢٧٣م) .

وقد تمكن طول هذه الفترة من أن يؤسس ملكه ويضع له الاسس التى مكنت له من القيام والصمود والتحدى وسط العواصف التى كانت تهب بقوة على بلاده .

وقد قضى محمد بن أبى الضر هذا هذه الايام فى تثبيت أركان الدولة وقيادتها الى بر الامان ومحاولة عدم الدخول فى قتال قد [illegible] مع أمراء الشمال أو حكام اسبانيا المسيحيين وكان قد ضم اليه [illegible] و[illegible] وبعد وفاة فرناندو الاول عام ١٢٥٢م/٦٥٠هـ فانه جدد العهد مع الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون .

وهكذا استطاع أبى عبد الله محمد بن مضر حاكم غرناطة أن يحافظ على هذه الاراضى الاسلامية فى تلك الظروف الصعبة والشاقة رغم رغبة بنى الاحمر فى التوسع فى أراضى الاندلس التى كانت قائمة أيام التواجد الموحدى لكن هذه المدن سقطت فى أيدى أعداء الاسلام بعد أن استطاعت غرناطة احتواء كل مدن الطرف الجنوبى من الجزيرة الاندلسية ..

وهكذا غدت غرناطة عاصمة هذه المدن والبلاد التى لم تخضع للنفوذ المسيحى وغدت غرناطة Granada حاضرة البلاد وتقع العاصمة على احد فروع نهر الوادى الكبير وهو نهر شنتيل Genitenil واتسعت أراضيها من جنوب نهر الوادى الكبير الى البحر المتوسط حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومن لورقة فى ولاية مرسية شرقا الى البحر المتوسط ومن الشمال حتى قلعة يحصب Alcula la Red فى ولاية جيان الى شذونة فى ولاية قادس غربا ٠

وقد شملت ثلاث ولايات كبيرة وهى ولاية غرناطة فى الوسط وولاية المرية فى الشرق وولاية مالقة فى الجنوب والغرب هذه هى غرناطة التى صمدت أمام رياح العنف والتعصب والبغض المسيحى بكل ما هو اسلامى وقد اتخذ بنى الاحمر شعار لهم كلمة لا غالب الا الله ٠

ومن هنا استمر وجودهم أكثر من ٢٥٠ سنة يحكمون تلك المنطقة جغرافيا وبشريا وعمرانيا وسياسيا واقتصاديا وظلت رغم قلة السكان والموارد محافظة على سلطان المسلمين السياسى والحضارى والاقتصادى والفكرى والعلمى ٠ وتؤدى دورها ٠

وهكذا مكن الله لدينه أن يثبت وسوف يثبت ويعود كما كان قويا باهرا نورا وهدى فى هذه المساحة الصغيرة رغم تفوق دول الشمال تفوقا عسكريا وعدة وعتاد لكن الاقدار شاءت أن تحتفظ هذه الديار وقد يكون لموقع غرناطة فى الزاوية الجنوبية من الجزيرة الاندلسية التى قد تبدو منقطعة حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال وهذا يجعل هذا الموقع على دوام الصلة مع المغرب واخوة الاسلام الذين لا يتأخرون عن تقديم كل عون لاخوانهم أندلس غرناطة درأ للخطر والمخاطر ورغبة فى نصرة الدين مجاهدين تحت شعار التطوع والمرابطة ٠

وقد عرضنا فى الفصل السابق كيف قدر لبنى مرين حكام المغرب ان يؤدوا دورهم قدر ظروفهم وأحوالهم الى مسلمى الاندلس (غرناطة) وقد كان لموقف بنى مرين اثر هام فى استمرار هذه الولاية فى ثباتها امام الزحف

الجارف وهكذا كان الخطر الخارجى هو الذى يتهدد مملكة غرناطة كما تهدد الامارات الاسلامية الاندلسية السابقة ولم تكن حالة الضعف التى اصابت البلاد عامل سقوطها بل كان الخطر النصرانى ·

وقد ساعد على بقاء غرناطة تلك الافواج التى وفدت من شتى انحاء الاندلس اليها يلجأون اليها ويحتمون بها بعد أن فجعوا فى أوطانهم وسلبوا من أملاكهم وكان بعضا من هؤلاء أهل حرب وقتال ودفاع وكانوا أشداء ومستعدون للبذال والتضحية بعد أن زاقوا ألوان العذاب على أيدى قوات الاعداء وشاهدوا القتلى والحرق والتدمير والخراب مشاهدة العين ·

ومن هنا كانت التضحية شعارهم ومن هنا برعوا فى ميدان القتال والحرب والاختراع العسكرى والقتالى ·

وهكذا كان هذا النوع من الرجال قد منح امارة غرناطة طاقة وقوة هائلة واستعداد للجهاد فى كل الميادين الداخلية محافظة على الدولة التى احتمى بها بقية مسلمى الاندلس ومن هنا كانت غرناطة قد جمعت طاقات أهل الاندلس وعملوا على استعادة ما فقدوه لو قدر لهم لكنهم كان قد وضعوا خططهم على المحافظة على ما بأيديهم وهكذا غدت غرناطة منتعشة بهذه الوفود البشرية المهاجرة اليها واستطاعت استغلال كل طاقاتها بكل وسيلة للبقاء ·

وكان عهد أبو محمد عبد الله ابن المضر قد شهد وفودا أعداد كبيرة منهم لاسيما بعد أعوام ٦٦٠هـ أو ٦٥٠هـ · لكن بعد وفاته خلفه ابنه محمد بن محمد بن مضر المعروف بالفقيه أو محمد الفقيه ٦٧١ ـ ٧٠١هـ ـ ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م ·

وقد دامت فترة حكمه ثلاثين عاما هجريا حفلت بالاحداث الجسام والمواقف الصعبة ولقد لاقى العديد من الصعاب مع بداية حكمه والتى منها موقف الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون للقضاء على كل اثر للمسلمين

فى الاندلس لاسيما انه شديد الحماس للدين المسيحى لكن محمد الفقيه بما كان يجيد من أسلوب المهادنة والدبلوماسية وأن يحد من شهوة هذا الملك التوسعية وتنازل له محمد الفقيه عن بعض الحصون والقلاع والتى منها جبل رندة وجبل البيرة ٠

لكن هذا لم يرضى شهوة الملك ألفونسو العاشر وأراد المزيد لكن الفقيه فوت عليه الفرصة على الرغم من وضوح أهداف الممالك النصرانية فى اجلاء مسلمى غرناطة عن ديارهم وكانت أى من هذه الدول النصرانية منفردة أقوى من مملكة غرناطة حيث تجمع لهذه الدول الامكانات العسكرية فى العدد والقوات والعدة والآلات والموارد الاقتصادية ما يفوق كثيرا عما لدى غرناطة اضافة الى التيارات الاوربية المسيحية التى كانت تحمل لواء الصليبية وتأتى من كل دول أوربا ٠

وهكذا كان على غرناطة أن تحارب فى كثيرا من الجهات وكان سقوط حصن أو قلاع أو مدن من غرناطة معناه انهاء الوجود السياسى بل حرب فناء أو تدمير لكل الكيان الاسلامى العربى لان حرب الاسبان لم تكن فقط لاسقاط الكيان السياسى للمسلمين فى الاندلس وازالة وجوده بل لازالة كل كيان بشرى اسلامى حضارى ثقافى على كل أراضى الاندلس والدليل على ذلك هو العمل على تحويل المساجد الى كنائس فى المدن الاندلسية بعد سقوطها مباشرة فهو الطريق الذى سارت عليه كل القوى العسكرية لاسبانيا النصرانية فقد كانت تعمل على ازالة كل المعالم الاسلامية ٠

ويذكر ان قوات ألفونسو العاشر قامت عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م باعتدائها على مملكة غرناطة أيام محمد بن الاحمر لكن قوات غرناطة بمساعدة المجاهدين من المغرب ردت هذه القوات بل هزيمتها ٠

لكن ذلك أغاظ الفونسو العاشر فقام بالهجوم على الامارة وسقطت فى يده عدة حصون وتجدد طلب العون الاسلامى من المغرب وتونس وهكذا لم

تمضى ما يقرب من ثلاثين عاماً حتى كانت المناطق الاندلسية الاسلامية قد سقطت فى أيدى جيوش أسبانيا المسيحية .

ولكن قبل وفاة ابن الاحمر عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م كانت قوات المغرب بقيادة أمير المسلمين المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يعد قواته ليعبر بها الى الاندلس (غرناطة) ولم تعبر قوات بنى مرين الا فى عام ٦٧٣هـ/١٢٧٥م بعد وفاة ابن الاحمر وكان ذلك فى عهد ابنه محمد الفقيه وهكذا حمل بنى مرين لواء الجهاد .

وهكذا فان محمد الفقيه بن الاحمر (٦٧١ ـ ٧٠١هـ) قد وجد نفسه بأنه لا يستطيع أن يدافع عن بلاده والقوات المسيحية تقف على الابواب فراسل أبا يعقوب يوسف بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب منه أن يساعده بقوات عسكرية فعبر أبو يوسف بنفسه الى الاندلس للاشتراك فى الجهاد .

جهاد بنى مرين فى الاندلس

سارت دولة بنى مرين على سياسة أسلافها المرابطين والموحدين التى تقوم على حماية الاندلس ومسلميه من أطماع جيرانهم المسيحيين وكانت الاندلس على عهد الدولة المرينية قد اقتصرت حدودها على مملكة غرناطة الأسلامية فى جنوب شرق الاندلس وكان ملوك بنى الاحمر أو بنى مضر الذين يرجع نسبهم الى سعد بن عبادة الانصارى سيد الخزرج على عهد الرسول ﷺ يحكمونها •

ولا شك ان مملكة صغيرة محاطة بالاعداء مثل غرناطة كانت فى حاجة الى مساعدة جيرانها واخوانها فى الدين والعقيدة بالعدوة المغربية ولقد استجاب سلاطين بنى مرين الى هذا النداء وقادوا الجيوش وارسلوا الحملات عبر المضيق لمساعدة اخوانهم الغرناطيين من جهة والاحتفاظ ببعض القواعد الجنوبية الاندلسية التى تضمن لهم السيطرة على مضيق جبل طارق من جهة أخرى •

ولقد كانت نظرة بنى مرين الى الميدان الاندلسى مباشرة بعد اتمام سيطرتهم على المغرب الاقصى فى استئناف سياسة الجهاد الاسلامى ضد نصارى الاندلس ، والمرينيون بهذه السياسة يتميزون عن معاصريهم من الحفصيين وبنى زيان ، فالحفصيون وبنى زيان لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى الميدان الاندلسى •

وقد بدأ بنو مرين عملهم فى الميدان الاندلسى فور عودة أبى يوسف من فتح سجلماسة ، اذ انه أثر عودته وصل وفد من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة يشرح تدهور أوضاع المسلمين فى الاندلس ويطلب المدد والعون والمآزرة من بنى مرين •

وكان الامير عبد الحق قد وجه قوات مرينية بقيادة أبناء اخيه عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م الى الجهاد فى الاندلس حيث كانت هذه اول قوة مرينية

عاملة فى الميدان الاندلسى وبذلك وجهة الامير يعقوب المرينى طاعة الثائرين عليه من البيت المرينى الى حرب أعداء الاسلام فى الاندلس ٠

وكانت قوات قشتالة بقيادة الفونس العاشر قد قامت بمهاجمة الاراضى الاندلسية فقام ابن الاحمر قبل وفاته عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م بتوجيه نداء الى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب عونا ومساندة ٠

لكن العون والمساندة لم يصلا الا بعد وفاة ابن الاحمر أيام ولده محمد الثانى الملقب بالفقيه (٦٧١ ـ ٧٠١هـ/١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م) وكان عهده قد أصاب بعض الضعف فى الصف الاسلامى وأحس محمد الثانى بأنه لم يعد يستطيع الاعتماد على قواته وحدها فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب منه أن يعاونه بقوة عسكرية ٠

ورأى أبا يوسف أن يبدأ جهاده فى الميدان الاندلسى بحملة جعل ابنه أبو زيان قائدا عليها وخرجت الحملة من فاس فى شوال ٦٧٣هـ/١٢٧٤م قاصدة الى طنجة وكانت هذه الحملة من أنجاد بنى مرين وفرسان العرب وهيأهم للقتال ودفع اليهم رايته المنصورة وعبرت الحملة ونزلت بطريف من بلاد الاندلس وكان قوامها خمسة آلاف مقاتل وشنت غارات على ديار النصارى ووصلت فى تقدمها الى شريش ٠

وقد لعبت أساطيل بنى العزفى حكام سبتة دورا هاما فى عمليات العبور ونقل الجنود والمعدات من قصر المجاز الى مدينة طريف ٠

وقد شجعت نتائج الحملة التى قادها الامير أبو زيان السلطان ابو يوسف يعقوب على العبور بنفسه الى الميدان الاندلسى وذلك فى صفر عام ٦٧٣هـ/١٢٧٥م ، ولما كان السلطان المرينى رجل حرب وسياسة ودهاء فانه قبل أن يعبر الى الاندلس قام بارسال حفيده تاشفين بن مالك الى يغمراسن بن زياد حاكم تلمسان طالبا عقد صلح معه وذلك تامينا لحدوده الشرقية من خطر غارات بنى زيان ٠

وقد أشاع جو الصلح الذى تم بين الطرفين جوا من الاستقرار فى المغرب الاوسط والاقصى وسائر بلاد المغرب العربى واستطاع بنى مرين أن يتلوا عملياتهم العسكرية الى الاندلس بدلا من الاتجاه شرقا نحو المغرب الاوسط •

وقد أسعد هذا الصلح أبا يوسف حتى انه تصدق الاموال ونحر الذبائح ، وعمل على الاستفادة من القبائل العربية فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الاندلسى •

فقد حشد أبو يوسف مع قواته العديد من فرسان القبائل العربية من سفيان والخلط والعاصم وبنو جابر وجشم والاثبج ودوى وحسان والشبانات من المعقل وقبائل رياح وغيرهم وقد بذلوا جهودا كبيرة فى هذا الميدان وطوائف من المتطوعين البربر •

ودخل بجيوشه فى الاراضى الاندلسية وكان بنو الاحمر قد تنازلوا عن طريف والجزيرة الخضراء ورندة لتنزل بها القوات المرينية واتجه أبو يوسف من طريف الى الجزيرة الخضراء ثم الوادى الكبير وتوغل فى الاراضى التابعة لملك قشتالة الفونسو العاشر يحطم حصونها وقلاعها ويقاتل جنودها حتى بلغ نهر الوادى الكبير قرب اشبيلية بل انه وصل الى القرب من قرطبة واستولى على حصن بلمة بالقوة واقترب أبو يوسف من مدينة استجة Ecija ووصلت الاخبار بتقدم النصارى واستطاع أبو يوسف أن يبدد هذا القائد قائده نونو Don Nuno مع عدد كبير من خيرة ضباطه وجنوده وبلغ عدد القتلى من مسيحى اسبانيا فى هذه المعركة ثمانية عشرة ألف وخمسمائة جندى • وقد قاتلت القبائل العربية ببسالة وتحملت عبء المعركة •

وبعد عدة أيام اتجه أبو يوسف الى اشبيلية بعد الانتصار الاول فى ربيع الاول ٦٧٤هـ/١٢٧٥م • وقد قدرت المصادر الاسلامية (ابن أبى زرع ، ابن خلدون) عدد جيش قشتالة بتسعين ألف ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخما فى العدد والعدة مقبلا على الحرب بقوة وبقيادة مجربة

مهرت الحروب فى تلك المناطق بالاضافة الى انها تقاتل فى أرض تعرفها شبرا شبرا ، غير القوات المرينية التى تقاتل فى أماكن لم تطأها من قبل وباشر الامير أبو يوسف القتال بنفسه وابنه يوسف على المقدمة ثم استعد للقتال وجاهد المسلمون صابرين متحمسين ونادى على المسلمين بالقتال ، وحازت الجيوش الاسلامية المغربية والاندلسية نصرا حاسما فى هذه المعركة التى أعادت ذكريات الزلاقة والارك •

وتشتت الجيش القشتالى وقتل قائده ، وكان حصار أشبيلية العاصمة قد اتى ثماره فطلبت الامان والصلح ، وبعد أن قضى فى الاندلس خمس شهور عاد الى المغرب فى أواخر رجب ٦٧٤هـ/١٢٧٥م بعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمساونة اخوانهم الاندلسيين فى رد اعتداء قشتالة •

وكان هذا الانتصار قد ساعد محمد الفقيه على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن تقوم هذه القوة من المقاتلين الزناتيين من بنى مرة فى مملكة غرناطة ويرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ومن ذلك التاريخ سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرناطة •

وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته الى المغرب ، وقد كتب أبو يوسف أمير المؤمنين الى جميع بلاد المسلمين بالاندلس والمغرب يشرح تفاصيل انتصاراته •

وقد اسفر العبور الاول الذى قام به أبو يوسف الى تلك الاراضى الاسلامية عن رفع الروح المعنوية للمسلمين اذ ساهم اخوانهم فى المغرب فى تحقيق هذا الانتصار كما ان هذا الانتصار أطاح بأحلام نصارى الاندلس فى تخطيطهم لطرد المسلمين من هذه الديار حيث أدركوا ان هناك قوة شابة جديدة تقتحم ميدان القتال جهادا فى سبيل الله ومساعدة لاخوانهم فى العقيدة •

كما ان هذا العبور قد اتاح للدولة الجديدة ان يكون لها رأس جسر فى الاراضى الاندلسية تستطيع أن تعتمد عليه فى العبور مرات أخرى قادمة

حيث سيطرت قوات بنى مرين على ثلاث قواعد هامة هى ، الجزيرة الخضراء ، طريف ، رندة ، وبذلك آتت هذه الغزوة المباركة التى قتل فيها أكثر من ثمانية عشر الفا من قوات النصارى بثمارها ٠

أما العبور الثانى لميدان الجهاد فى الاندلس فقد تم فى المحرم من عام ٦٧٦هـ/١٢٧٧م حيث عبر أبو يوسف للاندلس وكانت حملته الى أشبيلية وقد شاركت فيه كما هى العادة القبائل العربية التى لم يقتصر عملها فى هذه الحملة على تنفيذ ما يصدر اليها من أوامر عسكرية كما هو الحال فى الحملة الاولى بل شارك شيوخها كمستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابداء الرأى حول الخطط العسكرية وأفضل الطرق لملاقاة العدو ٠

وقد نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها اذ حاصرت قواتها المرينية والعربية أشبيلية وشريش وقرطبة وجيان وأنزلت بنواحيها الدمار واقتحمت بعض حصونها عنوة مما اضطر ملك قشتالة ألفونسو العاشر الى عقد هدنة مع سلطان المغرب أبو يوسف يعقوب ٠

وكان السلطان يعقوب المنصور قبل توغله فى أراضى قشتالة قد التقى بابن الاحمر حيث قامت القوات المرينية والاندلسية المشتركة بالقضاء على كافة الحصون المحيطة بها وتدمير كل مظاهر العمران حول أشبيلية ونالت شريش ضربات لا تقل عن ضربات تلقتها اشبيلية ٠

ولقد كان أبو يوسف يهدف الى احتلال قرطبة واعادتها الى سابق عهدها للاسلام والمسلمين ، الا ان الامر كان يحتاج الى تكاتف جهود سائر القوى الاسلامية فى بلاد الاندلس وبخاصة قوات غرناطة واستجاب ابن الاحمر لهذه الخطوة والتقى به عند قرطبة وقامت الجيوش الاسلامية بمهاجمة قرطبة ولم تستطع الجيوش النصرانية الصمود أمام هذا التحالف القوى فتراجعت وتحصنت بالمدينة وأرسل ملك النصارى وفدا يطلب الصلح من أبى يوسف لكن أبو يوسف ترك لابن أحمر حاكم غرناطة ابرام عقد الصلح مع نصارى قشتالة والاكثر من ذلك فان أبا يوسف عند عودته الى الجزيرة

الخضراء مر فى طريقه بغرناطة وتنازل عن جميع الغنائم لابن الاحمر ، لكن ابن الاحمر توجس خيفـه من الوجـود المرينى وتشـكك كثيرا فى مسلكهم • وكان تنازل أمير مالقة لابى يوسف عن بعض المدن الصـغيرة سببا فى تحالف ابن الاحمر ضد أبى يوسف مع ملك قشتالة •

ولا أدرى لماذا تحالف محمد بن مضر بن الاحمر مع الفونسو العاشر ملك قشتالة على مساعدته فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب وبالفعل قام الاسطول القشتالى بمهاجمة أصـيلة على الساحل المغربى كما احتل سـبتة بمعاونة قوة من ملك غرناطة •

ولعل تحالف غرناطة مع ملك قشتالة يعود الى أن السلطان ابو يوسف كان يترك فى كل غزوة يقوم بهـا عددا من قواته ، فقد ترك فى الغزوة الاولى ثلاثة آلاف مقاتل وها هو يترك فى هذه الغزوة الف مقاتل من بنى مرين والعـرب •

وقد يكون الدافع لتخوف سلطان غرناطة محـمد الثانى الفقيه من أطماع سلطان المغرب وظن به الظنون وخشى أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فلجأ الى جيرانه المسيحيين وعقد مع سانشو الرابع ملك قشتالة (بعض المصـادر ذكر الفونسو العاشر ملك قشتالة) وخايمى الثانى ، ملك أراجون معاهدات دفاعية ضـد ملك المغرب •

واسـتطاع كل من الملكين سانشو وخايمى أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف والجزيرة الخضراء التى كانت فى يد المرينيين لانهـا تعتبر رأس جسر لعبور القـوات المغربية الى الاندلس ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك •

وكان هذا تصرفا شاذا من حاكم مسلم يسمح لحـكام أعداء الاسلام بانزال قواربهم فى الجزيرة الخضراء • وقد جعل هذا الموقف سلاطين بنى

مرين يأخذون حذرهم فى التعامل مع بنى الاحمر واحسوا بانه لابد لهم من اخذ الحيطة والاحتياطات فأصبح من شروطهم للاشتراك فى القتال فى الاندلس أن يكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة ٠

والذى ينظر الى ما فعله حكام غرناطة من بنى الاحمر يدرك ان حكام غرناطة وساستها كان خوفهم على أملاكهم هو الشغل الشاغل لهم بل المصلحة الشخصية فوق مصالح المسلمين ، وانه كان لا يعنيهم فى المقام الاول الدفاع عن الاسلام ضد الزحف المسيحى لابتلاع املاك المسلمين بالاندلس وكانت أكبر فرصة عند قشتالة وأرجون للتفرقة بين المسلمين ونقض الصلح مع أبى يوسف ، ومن ثم أرسلا اساطيلهما الى الجزيرة الخضراء لقطع الامدادات أمام وصولها الى الاندلس ٠

وفى نفس الوقت هاجمت هذه الاساطيل الجيش المرينى الرابض فى هذه المناطق ، فأسرع الامير يوسف ابن السلطان يعقوب لمباشرة حربهم ومنيت أساطيل أراجون وقشتالة بهزيمة فادحة أمام الاسطول المغربى واضطرت الى الاقلاع عنها خائبة السعى وتمكن المغاربة من السيطرة على هذه المناطق الهامة وهكذا خسر الاسطول القشتالى قواته البحرية وأصبحت هذه المناطق محطات وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر الى الاندلس للجهاد فيـــه ٠

ونعود الى ابن الاحمر فنجد انه لم يكتفى بما فعله بشأن الاســـلام والمسلمين وتحالفه مع أعداء الدين ، بل انه أغرى عامل أبى يوسف على مالقة واتفق معه على أن يتنازل عن مالقة مقابل أن يجعله حاكما على اقليم آخـر ، بل وصل به الامر بغدره بأبى يوسف الذى قدم له كل العون الى مدى آخـر بأن راسل يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان والعـدو اللدود لبنى مرين وتبادل معه الهدايا واتفقا على أن يقوم يغمراس بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينيـة الشرقيـة حتى يصرف أبا يوسف عن العبـور الى الاندلس ٠

لكن كل ذلك لم يفت فى عضد أبى يوسف اذ كانت قواته المـالفة من سبعين

سفينة قد حققت النصر ودمرت الاسطول القشتالى ، لكن ابن خلدون يدافع عن بنى الاحمر ويذكر ان أسطولهم عاون الاسطول المرينى بعد أن ادرك حكام غرناطة خطورة تحالفهم مع القشتاليين ضد أبى يوسف ٠

وكان لهذا النصر البحرى المرينى صداه الكبير فى الاندلس والمغرب ٠

ولما كان الجهاد فى بلاد الاندلس هو الهدف الذى ارتضته الدولة المرينية سيرا على سياسة أسلافها من المرابطين والموحدين فاننا نجد باستقرار الاوضاع فى بلاد المغرب (صراعات المغرب الاوسط مع الاقصى) عاد الميدان الاندلسى يشغل بال أبى يوسف واهتمامه وشكل عنصرا هاما فى السياسة المرينية ٠

ولما كانت الانتصارات السابقة قد جعلت من دولة بنى مرين محور اهتمام الجميع فلجأ اليها فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م وفد من قبل الملك الاسبانى « جراندة » يطلب معاونته فى استرجاع عرشه الذى استولى عليه ولده شانجة ، وكان شانجة الرابع قد ثار على أبيه عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م الفونس العاشر مما أثار السخط عليه فى مملكته ٠

ولقد لبى السلطان المرينى المنصور طلبات الوفد وعبر الى الاندلس (العبور الثالث) لمعاونة الفونسو العاشر وهرع الى لقاء السلطان باحراز الصخرة قرب رندة ، وأمده أبى يعقوب بالمال والجيش ٠

ولقد كان العبور الثالث فى ربيع ثان ٦٨١هـ/١٢٨٢م والتقى به الفونسو العاشر ، ورأى المنصور المرينى مساعدته ضد ولده شانجة أو سانشو لتعميق الخلاف داخل البيت الحاكم فى قشتالة واضعاف الجبهة المسيحية واحداث تصدع بها وانقسام بين قواتها العسكرية ، وأمده بمائة الف دينار وقوات رمزية اسلامية ، مساعدة له فى حربه ضد ولده وتدخل المنصور معه فى ادارة الحرب التى دارت بين الاب وابنه حول قرطبة وطليطلة وجيجين بريط ٠

ثم عاد الى الجزيرة الخضراء عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م لاسترجاع مالقة والحصون القريبة من بنى الاحمر ، وقام أبو يوسف بجولة حربية أخرى

امتدت من طليطلة وقرطبة حتى وصل الى مدينة وبياسة وجبال البرت ثم عاد الى المغرب بعد أن ولى أحد أحفاده واليـا على هذه الاماكن التى حررها من النصـارى ٠

والذى ينظر الى العبور الاول والثانى يدرك مدى الاستعداد الذى استعده المسلمون لهذه المعارك حيث كان لديهم حماسا عظيما سيما ان السلطان المنصور المرينى كان يخطبهم ليزيد حماسهم ، فنجد انهم كانوا ينقضون على القوات النصرانية فى حماس بالغ أعـاد الى الاذهان حماسهم فى موقعتى الزلاقة والارك على اختلاف فى حجم القوات الاسلامية فى كل من هذه المعارك وانتصر المسلمون انتصارا كبيرا وفرقوا قوات قشتالة فى كل مرة بشر ممزقة ٠

وهـذا خير دليل على أن قوة الاسلام فى الاندلس كانت لاتزال قادرة على الدفاع عن نفسها وانه لو أتيحت للمسلمين فرصة توحيد الصـفوف والوعى والادراك الكامل لخطورة ما يجرى على أرض الاندلس لاسـتطاعوا أن يصمدوا ويحافظوا على ما بقى بأيديهم من أراضى ولاستعادوا ما استولى عليه الاسبان من أراضى أحتلت من قبل ٠

وعبر السلطان المنصور المرينى أبو يوسف للاندلس للمرة الرابعـة فى صفر عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م وهذه أقوى الحملات التى واجهها القشتاليون اذ بلغت الجيوش أربعة منها ثلاث من المتطوعين وجيش من بنى الاحمر لمعاونة أبى يوسف وقد بلغ عدد جيوش المتطوعين فى هذه الحملة ثلاثة عشر ألفا من المصامدة وثلاثة آلاف من بربر المغرب وكان دور القبائل العربيـة هاما فى هذه المعركة وتظهر هذه الحملة مدى الضربات التى وجهها أبو يوسف لدولة قشتالة خـلال هذه الحملة ٠

وكان الجهد الحربى مركزا لمدينة اشبيلية باعتبارها عاصمة قشتالة ومدينة شريش باعتبارها مصدر خطر مباشر على المسلمين ، كما اشترك الاسطول المرينى فى هذه الحملة وكانت مهمته منع الاسطول القشتالى من

الاقتراب من ممر العبور من المغرب والاندلس • واستطاعت سفن الاسطول المرينى أن تقوم بواجبها على خير اداء •

وتذكر المصادر أنه عند وصول المنصور المرينى الى مدينة شريش وانضمام بقايا حاميتها من بنى مرين والعرب بالاندلس له أقام فرسان عرب عاصم بمنع الامدادات من الوصول الى المسيحيين وقتل الفارين والاغارة على حصن شالوقة وقتلوا حاميته وقام عرب الخلط بالحراسة حول شريش مع عرب العاصم ليل نهار •

وعندما ارسل الامير يعقوب حفيده ابا على المنصور بن عبد الواحد للاغارة على اشبيلية كان معظم فرسانه من عرب العاصم والخلط والاثبج ومجلس الحرب يضم رؤساء العرب •

ولقد كانت العرب اليد الطولى فى جميع الامدادات التى وصلت من المغرب الى الاندلس ورغم عجز الجيش المرينى عن احتلال شريش وتحقيق نصر عسكرى كنصر المنصور الموحدى فى معركة الارك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م الا ان المؤرخين تناولوا دور القبائل العربية بالتمجيد والفخار •

ولقد رأى ملك قشتالة شانجة انه لا قبل له بجيوش المسلمين فارسل وفدا من الاحبار والرهبان يفوض السلطان المرينى ما يراه ويطلب الصلح وتم الصلح على اساس شروط رفعها ابو يوسف وقبلها سانشو ومنهـا مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الاندلس ، واعترف الجميـع بسيادة بنى مرين على الموقف فى الاندلس واستكمالا لمظهر السيادة المرينية على ما بأيدى المرينيين من أراضى اندلسية ارسل المنصور المرينى ابنـه الامير ابو زيان ليقف بجيوشه على الحدود من بلاده وبلاد ابن الاحمر •

وعاد ابو يوسف يعقوب الى الجزيرة الخضراء بعد اقراره الصلح مع مملكة قشتالة وقام بتنظيم حاميات الثغور واسند الى عرب العاصم حماية اسطبونة والاستقرار فيها مكافأة لهم •

ومات ابو يوسف فى الجزيرة الخضراء فى العشرين من المحرم عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ونقل جثمانه فى الثانى والعشرين من نفس الشهر الى المغرب والى مدينة رباط الفتح حيث دفن بمسجد شالة وهى الجبانة الملكية لبنى مرين بالقرب من مدينة الرباط .

وكانت وفاته قبل العودة الى المغرب ، بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والاندلس ويعتبر ابو يوسف المنصور من أعظم سلاطين المغرب فقد كان من طراز يوسف بن تاشفين وابى يوسف يعقوب المنصور الموحدى ، فقد كان حريصا على الجهاد فى الاندلس .

ومن هنا قام بأربع حملات فى هذا الميدان استطاع أن يوسع رقعة دار الحرب فى الميدان الاندلسى فوصل الى طليطلة وقرطبة بل وصل الى مجريط وهى قريبة من آخر معاقل وصل اليها الاسلام فى بلاد الاندلس كما وصل الى جبال البرت وهو الذى انقذ مملكة غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات قشتالة وأرجون وأن موته قد ترك سمعة خفاقة فى المجال الاندلسى والمغربى والعالم الاسلامى فى ذلك الوقت اذ كان شخصية تجلت فيها عمق العقيدة الاسلامية والغيرة الشديدة على مصالح الاسلام والمسلمين والعمل على حماية الديار الاسلامية وتجهيز القوات بسرعة فائقة واعلانه حالة التبعية فى جميع أنحاء البلاد وقت الاستعداد للحرب ومروره على القبائل والمدن والاعراب لجمع القوات والمؤن والذخائر .

ولقد كان من الشخصيات التى يذكرها تاريخ بنى مرين بكل فخار فقد وقع عليه عبء انهاء سلطة الموحدين من المغرب وورث دولة كانت مقسمة بين حكام عديدين وقبائل عربية وبربرية واستطاع أن يوحدها وأن يجعل من كل أراضى المغرب الاقصى دولة ذات سيادة واحدة وأخضع الموانى التى كانت مستقلة فى عهد الموحدين مثل سبتة وطنجة ورفع لواء الاسلام دفاعا عن حق المسلمين فى ديار الاسلام فى الاندلس .

تولى يوسف بن يعقوب المرينى الحكم فى ٥ صفر ٦٨٥هـ/١٢٨٨م خلفا لوالده وبايعته جميع قبائل بنى مرين والقبائل العربية فوزع الاموال

والهدايا على الجميع وعين أخاه الامير أبى عطية حاكما على ممتلكات بنى مرين بالاندلس وأسند قيادة الجيش المرينى فى هذه البلاد لابى الحسن على بن يوسف وكانت مكونة من اثنى عشر رجلا ما بين فارس وراجل .

وقد لقب بالناصر لدين الله وهو من السلاطين الاقوياء ولازم والده يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى جميع اعماله الحربية والسياسية والادارية وخاصة الحروب فى المغرب والاندلس .

ولقد كان له شأن فى الجهاد فى الاندلس الى جانب اخوانه مسلمى غرناطة . ولقد أثرت الثورات المتتابعة من بلاد المغرب فى عهد يوسف بن يعقوب فى مدى الجهد من جانبه فى الميدان الاندلسى فلم يكن جهده يقاس بالنسبة لجهد أبيه لكنه حاول الابقاء على العلاقة بينه وبين بنى الاحمر قوية لاسيما وان ابن الاحمر محمد الفقيه كان له نشاط واضح فى ميدان الجهاد ومهتما به .

لكنه جنح احيانا الى المسلك الشاذ فى مهادنة بعض ملوك النصارى فى اسبانيا ضد بعضا منهم بل واحيانا ضد بنى مرين ولقد شهدت فترة حكم يوسف هذا تنازلات عن بعض الاراضى التى تسيطر عليها الدولة المرينية فى الاندلس وذلك حرصا على صمود وقوة وقدرته الجبهة الاسلامية على الوقوف أمام القشتاليين ووحدتها والقضاء على كافة المشاكل والخلافات مع بنى الاحمر وطلب من ابن اشقيلولة ترك الاندلس والانتقال الى المغرب وأنهى مشكلته مع بنى الاحمر .

وكانت هذه الخطوات بتنازل بنى مرين لحكام غرناطة عن بنى الاحمر عن العديد من الحصون من شأنه تقوية العلاقات بين فاس وغرناطة وذلك لكبح جماح قشتالة ولا تفكر فى الهجوم على المسلمين فى الاندلس وقد نجحت سياسة يوسف فى تهدئة الاحوال فى الاندلس .

حتى كان عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م . عندما نقض كل من سلطان غرناطة وسانشو الرابع ملك قشتالة اتفاقهم السابق مع بنى مرين وهاجم سانشو

التخوم والثغور الاندلسية وأرسل يوسف الى قائد بنى مرين بالاندلس بالهجوم على مدينة شريش ، الا ان ابن الاحمر هاجم مدينة اسطبونة وتمكن من الاستيلاء عليها بعد انتصاره على واليها ·

لكن قائد بنى مرين شن الغارات على حدود قشتالة وجهز يوسف قوات للعبور بهـا من قصبر المجاز ، الا أن القوى المسيحية بقيادة سانشو عندما احست بذلك أرسلت أسطولا قشتاليا لمنع بنى مرين من العبور ونجح هذا الاسطول فى تحطيم أسطول بنى مرين الذى تصدى له فى بحر الزقاق عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م وأدى ذلك الى تاخير العمليات العسكرية فى الاندلس ·

لكن بعد اصلاح السفن وتعويض الفاقد منها استطاع الاسطول المرينى انجاز عملية العبور بنجاح دون ان يجرؤ الاسطول القشتالى على الاقتراب من الاسطول المرينى ·

وعبر السلطان يوسف الى الاندلس ونزل بطريف وأشعل جبهة القتال وشن الغارات على اشبيلية وشريش كما حاصر حصن بحير ثلاثة أشهر واصدر السلطان يوسف أوامره لفرسان بنى مرين والعرب بشن الغارات على المسيحيين قبل عبوره بقواته وبعد عبوره قامت قوات بنى مرين والقبائل العربية بالهجوم على الاماكن المحددة لها وأحرزت بعض الانتصارات ومع ابتداء فصل الشتاء القارص بالاندلس عادت تلك القوات الى المغرب فى أول المحرم عم ٦٩١هـ/١٢٩١م ·

ولقد كانت مهمة المرينيين هناك هى معاونة المسلمين والحفاظ على وجودهم بالاندلس واستمرت العلاقات الطيبة بين غرناطة وفاس حتى وفاة السلطان محمد الفقيه عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م ·

وقد كسب محمد الفقيه معركة استجة بالتعاون مع القوات المرينية ولم يكن الفقيه ليقل كفاءة عن أبيه فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها (٦٧١ ـ ٧٠١هـ/١٢٧٣ ـ ١٣٠٢م) تمكن من أن يحافظ على مملكته

ويزيد من قوتها الا أنه كان يتخوف من بنى مرين ويحاول الانضمام الى ملوك قشتالة ضدهم وهو أمر سيلجأ اليه ملوك غرناطة فيما بعد مما أدى فى النهاية الى وقوع النفور بين بنى مرين وبنى الاحمر وكان كل ذلك فى النهاية وبالا على الاسلام والمسلمين فى الاندلس ٠

ولقد كان اختلاف المسلمين قادة وحكاما فيما بينهم واستعانة بعضهم بالعدو على البعض أشد وبالا ووطأة بالاسلام وأهله ودياره فقد ضاعت ديار الاسلام فى الاندلس عبر تاريخها الطويل بسبب قصر نظر حكام غرناطة وغيرهم وعدم تفهمهم للمخطط الذى يحاك ضدهم ودخولهم فى محالفات مع أعداء الاسلام ضد اخوانهم فى الدين والعقيدة والوطن الواحد ٠

وفى أيام محمد الفقيه بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم لان كل من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات الايطالية البحرية تدرك اهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى فينفذ الى المحيط الاطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الايبيرية ٠

وكانت فى عهد والده محمد المخلوع قد ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت احداث داخلية فى مملكة غرناطة انتهزها ملك قشتلة فارسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المرية بمعاونة ملك ارغون (خايمى الثانى) ... وبالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة فقد جرت قرب المرية معركة قادها عثمان بن ابى العلاء الفزان ضد جند أرغون هزم فيها قوات النصارى ورفع الحصار عن المرية الا ان جبل طارق بعد الحصار الشديد ارغم على التسليم وعاد لنفوذ بنى مرين ٠

وقد خمدت غزوات بنى مرين بالاندلس منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب لانشغاله بالحروب مع بنى زيان وانشغال حفدته من بعده بأمور المغرب الداخلية والصراع حول السلطة فى الدولة مع قصر مدة ولايتهم الى ان تولى عرش بنى مرين السلطان أبو الحسن المرينى (٧٣١هـ/١٣٣١م -

٧٤٩هـ/١٣٤٨م) وكانت له رغبه فى الجهاد فى الأندلس ورغم أشتراك أبى الحسن المرينى فى التوقيع على معاهدة السلام بين هذه الدول الثلاث مدتها أربع سنوات ووقعها بنو الاحمر ومملكة قشتالة على الا تمر قوات مغربية الى الاندلس ٠

وكذلك اشتراكه فى معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أرغون وتسابق ملوك أسبانيا والمغرب مستغلين فرصة السلام فى التسليح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لانهـا الضمان الاساسى للسيطرة البريه بعد ذلك ٠

وكان ملك قشتالة قد استولى على جبل طارق ومن ثم أراد السلطان أبو الحسن المرينى أن يحررها من قبضته وبدأت المعركة بينهما فى ربيع ٧٤٠هـ/١٣٤٠م فى مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الاسطول الارغونى وقتل قائده وانسحاب فلوله الى برشلونة وهزيمة الاسطول القشتالى أمام الإسطول المغربى واستولى المسلمين على بعض قطعه وبهذا النصر الباهر أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع على جبل طارق وصار من السهل عليه نقل قواته الى الاندلس فى سهولة ويسر ٠

ولقد كانت مجهودات السلطان أبو الحسن فى جمع كلمة قبائل زناتة (بنى زيان وبنى ومرين) وتوحيد قوى المغربين الاوسط والاقصى له مدى بعيد فى استئناف حركة الجهاد فى سبيل نصرة المسلمين فى الاندلس بصورة لم يسبق لهـا مثيل فى تاريخ الدولة المرينية اذ أصبح بنى مرين بتوحيد البلاد (الاقصى والاوسط) لديهم طاقات هائلة سواء أكانت إقتصادية أو عسكرية وبشرية مما مكنهم من العمل فى ميدان الجهاد بالاندلس ، كما ان الجبهة الشرقية زمن بنى زيان زال خطرها بعد التوحيد وأصبح بنو مرين فى مأمن ٠

وكان السلطان أبو الحسن المرينى يبدى استعداد للجهاد اكثر من أى سلطان سابق فيما عدا أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق والده ، ولقد كانت رؤيته السياسية تصل الى مدى بعيد حيث كان يدرك بثاقب نظرته أن

الخطر المسيحى لا يهدد الاندلس فقط بل يهدد كيان المغرب وسواحله فـان الاندلس لان الاندلس هى خط الدفاع الاول عن المغرب ، بل ان الاندلس هى جنـاح المغرب ٠

وكان يرى ضرورة تأمين هذا الخطر والعمل بكل جهد لسلامة ودفع الاخطار عنه وحصر النفوذ المسيحى ومنعه من تحقيق أهدافه فى طـرد المسلمين من الاندلس ٠

وكان السلطان أبو الحسن قد استقبل فى بلاطه بمدينة فاس عـــام ٧٣٣هـ/١٣٣١م السلطان محـمد بن اسماعيل الاحمر سلطان غرناطة وكان سقوط جبل الفتح فى يد نصارى الاندلس عام ٧٠٩/١٢١٠م اعظم نكبـة منيت بها الاندلس ٠

وتم الاتفاق مع سلطان غرناطة لاسـتعادة جبل الفتح وكان سلطان غرناطة يعاونه الامير مالك بن أبى الحسن والاسطول المرينى قد تمكنوا من اسـتعادة جبـل الفتح عـام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م بعد ثلاثة وعشرين عاما على احتلاله وبعد استعادته تم تحصينه تحصينا قويا وباشر السلطان هــــذه العمليات العسكرية بنفسه ،ذلك نظرا لاهميته الاستراتيجية ٠

وكانت أحداث غرناطة والقتال من أجل العرش قد أسفرت عن مقتل السلطان محـمد بن اسـماعيل الاحمر عـام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م وتولى عرش غرناطة السلطان يوسف الاول الذى حرص على توطيد علاقته مع بنى مرين لاجـل الدفاع عن الدين والاهل والعرض والديار واستنجد بالسلطان أبى الحسن الذى كانت لديه رغبة فى الجهاد ، وتحرك الامير أبو مالك بن السلطان بقواته الى الاندلس وعبر المضيق واقتحم بلاد الثغور وتوغل فى الاراضى القشتالية وحقق انتصارات عظيمة ٠

ولمـا كان بعد المسافة داخل الاراضى الاسبانية قد جعل القـــوات المسيحية تحـاول قطع خط الرجوع عليــه وأبدى كبـار قـادة بنى مرين الرغبة فى الانسـحاب والعودة لكن الامير مالك رفض ذلك ودارت معركة

انتهت بمقتل الامير مالك حيث تم الهجوم على المؤخرة اثناء الانسحاب وكانت معركة غادرة ٠

ولقد عمقت وفاة ابن السلطان أبو الحسن الاحساس لديه بضرورة العبور للميدان ليتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد نصارى الاندلس وتمت استعدادات كبيرة وحشدت كل الطاقات فى المغرب الاقصى وبعث السلطان أبى الحسن الى أصهاره وحلفائه بنى حفص فى افريقية يطلب منهم ارسال نجدة ، فأرسلوا اليه أسطولا من ستة عشر سفينة بقيادة قائد بجاية وضم هذا الاسطول الحفصى سفنا من طرابلس وقابس وجربة وغيرها ٠

وبلغ عدد السفن التى تجمعت لهذه الحملة مائة سفينة وحشدت الجيوش البرية وانتقل هو الى سبتة ومنها الى الاراضى الاندلسية وأصدر أوامره للاسطول المرينى بالهجوم على الاسطول الاسبانى وتمكن الاسطول الاسلامى من سحق أسطول قشتالة ٠

وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحا للعبور أمام القوات البرية دون أدنى خطر وبلغ عدد القوات الاسلامية ستون ألف وعبر السلطان أبى الحسن فى أواخر عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م أو فى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م ووجه ضربات الى طريف بمعاونة سلطان بنى الاحمر أبى الحجاج يوسف الذى كان أبرع ملوك بنى الاحمر بعيد الهمة عالى الخلال شاعرا عالما وحاميا للعلوم والفنون واسع المطامع جم النشاط ٠

ولكن القوات البحرية القشتالية تمكنت من السيطرة على الطريق البحرى وقطع الطريق من المغرب الى الاندلس وتم قطع خطوط الامداد والتموين وقد اشتركت فى هذه المعركة قوات من قشتالة وارغون والبرتغال والانجليز وقد بارك البابا هذه المعركة البحرية ٠

وفى جمادى الاولى ٧٤١هـ/ أكتوبر ١٣٤٠م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين وانضمت اليهم قوات أخرى من الارغونيين

البرتغاليين والمتطوعين الاوربيين (انجلترا أو بحر الشمال) وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الاندلس والمغرب ٠

وقد اتحد فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن مصر والسلطان أبو الحسن المرينى أدركا منهما لاهمية هذه المعركة وجهزا الاستعدادات اللازمة والحشد القوى نظرا لان أنظار هذا المجاهد الكبير كانت تتجه الى مدينة طريف القاعدة الباقية فى أيدى الاسبان من ثغور المضيق فلو انه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده كما صار الطريق مفتوحا الى اشبيليه لهذا عول على السيطرة عليها وأجاز اليها العساكر القوية ٠٠

ولما تكاملت العساكر وكان عددها ستون ألفا تم عبورها فى يسر وسهولة نظرا لسيطرة الاسطول ونزل بساحة طريف ووافاه سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل الاحمر فى عسكر الاندلس وحامية الثغور وأحاطوا بطريف ٠ وهرعت أوربا كلها يساندها بابا روما الى ساحة طريف ٠

وفى السابع من جمادى الاول ٧٤١هـ/١٣٤٠م دارت رحى المعركة بين الطرفين وسرب النصارى قواتهم الى مؤخرة الجيش الاسلامى فى طريف ليلا وفى الصباح هاجموا المؤخرة وتمكنوا من الوصول الى معسكر السلطان وأشعلوا فيه النيران وحاقت بالمسلمين هزيمة ٠

وقد استعمل فيها المسلمون نوعا من المدافع التى تقذف النيران وغدا هذا السلاح مستعملا فيما بعد ، لكن المسلمين خسروا المعركة وارتكب القشتاليون المنكر فى المعسكر الاسلامى وغنموا ما فيه وتحتفظ كنسية طليطلة حتى اليوم بين ذخائرها علمين لبنى مرين من هذه المعركة ولعلهم خسروا أيضا فيها مصحف عثمان ٠ وجرت هذه المعركة قرب طريف ولذا سميت وقعة طريف وتطلق عليها المصادر الاسبانية Batall Foidel Salado ولما استولى ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر على معسكر المسلمين وموضع سلطان المغرب وفيه الحريم والاولاد ذبحوا جميعا بوحشية مروعة

ورغم ان المسلمين استخدموا المدافع المجهزة بآلات قاذفة وهى النفط لكن شاءت ارادة الله أن ينهزم المسلمون يوم الاثنين السابع من جمادى الاولى عام واحد واربعين وسبعمائة هجرية ٠

ونجا السلطان أبو الحسن بأعجوبة ووصل الى الجزيرة الخضـراء ومنها الى جبل الفتح ومن هناك الى سـبتة فى نفس الليلة وكانت هـذه المعركة محنة عظيمة للمسلمين فى المغرب والاندلس لا تقل عن هزيمة العقاب فى عهد الموحدين ٠

وبدأت ردود الفعل فى المغـرب والاندلس وازداد النصـارى عنفـا فاستولوا على قلعة بنى سعيد كما فشل الاسطول المرينى فى اسـتعادة سيطرته على بحر الزقاق وسقطت الجزيرة الخضراء فى يد النصارى وسمح القشتاليون لسكانها بالعبور الى المغرب عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م ٠

وانتهز ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التى حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة وواصل هجومه على غرناطة ثم حاصر مدينة الجـزيرة الخضراء عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م وحاول كل من سلطان المغرب وسلطان غرناطة انقاذ هذه القاعدة الهامة بشـتى الطـرق ولكن محاولاتهما باءت بالفشل وانتهى الامر باستسلام الجزيرة الخضراء فى ربيع ٧٤٤هـ/١٣٤٤م ٠

وعلى أية حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للتعاون المرينى الغرناطى وذلك بدوره قطع الامل فى أن تستطيع قوات غرناطة من الثبـات أمـدا طويلا أمام الزحف المسيحى الذى يريد اقتلاع جذور الاسلام من غرناطة ٠

وما كادت حركة الجهاد الاسلامى ضـد نصارى الاندلس تهدأ بعـد توقيع معاهدة الصلح بين المغرب وغرناطة وقشتالة والتى كانت مدتها عشر سنوات ، حتى دب نزاع جديد بين سلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى (٧٤٩هـ ـ ٧٥٩هـ/١٣٤٨ ـ ١٣٥٨م) وبين بنى الاحمر بغرناطة وكانت أسـباب هذا النزاع تعود الى أن اثنين من اخوة أبى عنان وهما الاميران أبو الفضل وأبو سـالم خرجا عن طاعة أخيهما السلطان وهربا الى سلطان

غرناطة لحمايتهما وقبل أبو الحجاج يوسف طلبهما وحمايتهما فى بلاطه وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المرينى فأرسل الى سلطان غرناطة خطابا شديد اللهجة وكان رد يوسف أبو الحجاج واضحا اذ أوعز الى الامير أبى الفضل بالسفر الى قشتالة وطلب معونة من ملكها بدورو الاول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه ووافق ملك قشتالة على طلب الامير المغربى لان ملك قشتالة كان متخوفا من اطماع أبى عنان فى الاندلس فأمده بالاساطيل والاموال وأنزله بضواحى السوس فى جنوب المغرب كى يشعل حربا أهلية ضد أخيه وثارت ثائرة السلطان أبى عنان لهذا العمل العدائى غير ان الظروف سرعان ما هدأت من روعة فقام واليه على درعة بمقاومة حملة أبى الفضل بمساعدة عرب المعقل وتمكن من القبض على أبى الفضل وارساله لاخيه أبى عنان ليقتله فى عام ٧٥٥هـ/١٣٤٤م ٠

وتوالى بعد ذلك على عرش المغرب وغرناطة عدد من ملوك بنى مرين وبنى الاحمر لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بهم فعاشوا عيشة ترف ولهو ومن عجائب الاقدار انه فى الوقت الذى اخذ فيه الضعف يدب الى كل من فاس وغرناطة كانت القوة قد بدأت تتجمع فى كل اسبانيا والبرتغال ٠

واستمرت قشتالة على سياستها من العبث فى الاراضى الاندلسية ناقضة العهود لكن صلحا عقد بين الاندلس غرناطة وبين ملك أرغون بيدور الرابع Pedro IV ، لكن ملك قشتالة ألفونسو الحادى عشر جهز عام ٧٥٠هـ جيشا للاستيلاء على جبل طارق وضرب بجيشه حوله حصاره الشديد ٠

لكن الوباء تفشى فى الجيش وكان الفونسو من ضحاياه وأنقذ الله العلى القدير جبل طارق فاضطر جيشه بعد قرابة سنة من بدأ الحصار الى الانسحاب وقد وجهت بهذه المناسبة رسائل كثيرة الى الاندلس والمغرب ومصر ٠

وترك المسلمون موكب الملك يجتاز غرناطة الى اشبيلية ، لكن أحداث ظهرت كانت تهدف الى تصفية غرناطة وتوزيع اراضيها بين حكام اسبانيا النصرانية وباركها البابا لكنها فشلت ٠

وكان استيلاء البرتغال على مدينة سبتة عام ٨١٨هـ/١٤١٥م نذير بانهيار دولة بنى مرين وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين وتحولت الحرب المقدسة عن ارض الاندلس الى أرض المغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب .

والملاحظ هنا على دور بنى مرين فى الجهاد فى الميدان الاندلسى انهم لم يحرزوا انتصارا فى تلك البلاد كذلك الانتصارات السابقة التى كان لها بعدها السياسى والعسكرى على الساحة الاندلسية كمعركة الزلاقة فى عهد المرابطين على يد يوسف بن تاشفين أو معركة الارك فى عهد الموحدين وذلك لان بنى مرين كانوا يقاتلون بامكانيات المغرب الاقصى فقط دون المغرب الادنى والاوسط .

وقد استنفذ منهم العمل فى هذه الميادين كثيرا من الجهد والعمل مما أعاق التفرغ الكامل للعمل فى ميدان الجهاد فقد صرف النزاع المرينى الزيانى الوقت الكبير من سياسة بنى مرين وربما كان خط الجبهة الشرقية مكشوفا أمام بنى زيان رغم معاهدات الصلح ، وحاول بنو مرين التوسع فى المغرب لتحقيق الوحدة المغربية كسابق عهدها أيام المرابطين والموحدين وذلك دفعا للنشاط العسكرى على الاندلس الا أن ذلك لم يعد بالنتائج المرجوة ، لان الوحدة لم تكن لتدوم الا لسنوات قليلة لوجود قوة بنى حفص فى افريقية وبنى زيان فى المغرب الاوسط .

الا ان جهود بنى مرين فى الاندلس ودورهم لا ينكر فقد حافظوا على بقاء الاسلام اطول فترة ممكنة ، بل ان مجرد وجودهم على الطرف الآخر من المضيق جعل نصارى اسبانيا يفكرون كثير قبل القيام بعمل عسكرى ضد مسلمى الاندلس .

وتبقى كلمة اخيرة فى هذا الفصل وهو ان جهل حكام بنى الاحمر بالخطر المحدق بهم وبديارهم وتعاونهم مع الاعداء وهم نفس الاعداء ضد اخوانهم بنى مرين وضد اخوانهم فى العقيدة وكذلك طموحات بنى مرين فى الاندلس وعدم تفضيل المصلحة العليا وهى مصلحة الدين والعقيدة

الشعب جعلت الاعداء يجدون الثغرات للنفاد منها حتى حققوا الهدف النهائي وهو طرد جميع المسلمين من ديار الاندلس ذلك الفردوس المفقود .

وقد كان من نتائج حسن التفاهم بين المرنيين وسلطان غرناطة أن نزحت مجموعة من المجاهدين الى الاندلس للاقامة بها ليكونوا على أهبة الاستعداد للجهاد مدافعين عن الاسلام وأهله فى الاندلس لكن كان الامير المريني أبو يوسف يعقوب المنصور قد توفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٥م وقد توفى قبل أن يعود الى المغرب وتوفى محمد الفقيه الثانى (٧٠١هـ/١٣٠١م) فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذى خلع عام ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه مضر ثم أرغم هذا للتنازل عن العرش عام ٧١٣هـ/١٣١٤م ليتولى امارة غرناطة أبو الوليد اسماعيل بن الرئيس أبو سعيد فرج بن أبى الوليد اسماعيل بن محمد مضر وقد حكم اثنى عشر عاما ما بين ٧١٣ - ٧٢٥هـ - ١٣١٤ - ١٣٢٥م .

وقد كان هذا الرجل حازما بعيد النظر مدركا لعواقب الامور كيسا فطنا عارفا لوضع بلاده الصغير لكن حسن سياسته وعزمه قد مكنته من الحفاظ على الكيان السياسى لبلاده بل تمكن من أن يخلع التبعية لملك قشتالة وعمل على الجهاد دفاعا عن بلاده وطلب العون من بنى مرين (انظر جهاد بنى مرين فى الاندلس الصفحات السابقة)

وقد تقدمت قوات صليبية بقيادة شانجو الرابع للاستيلاء على غرناطة وكانت قوات مسيحية كبيرة تضم بين صفوفها جيوش من الفرنجة والانجليز والالمان والايطاليين وكان يقودها دون بدرو Donperdo ودون خوان Don Juan ، الوصيين على عرش قشتالة للملك الصغير الفونسو الحادى عشر وحدث القتال بالقرب من العاصمة غرناطة فى ٢٠ ربيع الثانى ٧١٨هـ مايو ١٣١٨م .

وقد انتصر المسلمون فى هذه المعركة نصرا كبيرا وهكذا ثبت ان المسلمون قادرون على كسب النصر اذا اجتمعت صفوفهم وتوحدت كلمتهم وصدقت نيتهم للجهاد وكان لهذا النصر فى الربع الاول من القرن الرابع

عشر الميلادى أثر بعيد فى تثبيت أركان مملكة غرناطة التى استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون التى كانوا قد فقدوها من قبل ، لكن السلطان أبو الوليد اسماعيل اغتيل عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ويعتبر هذا السلطان من أكفأ سلاطين بنى الاحمر الذين تولوا الحكم فى غرناطة ٠

وخلفه فى الحكم ابنه ابو عبد الله محمد ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ثم اغتيل هذا السلطان أيضا وورثه أخوه ابو الحجاج يوسف الاول بن أبى الوليد اسماعيل وكان أبرع ملوك بنى الاحمر بعيد الهمة عالى الخلال ٠

وقد حدثت معركة بين المسلمين الغرناطيين بمساعدة بنى مرين عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م استطاع المسلمون فيها استعادة جبل طارق من أيدى القشتاليين ثم حدثت معركة بحرية عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م هزم فيها المسلمون وكانت هذه المعركة تضم قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال وبارك البابا هذه الحملة ودخلت جيوشهم غرناطة ولا يتسع المجال هنا فى هذه العجالة التى نناقش فيها كيف ضاع الاسلام من الاندلس بعد ثمانية قرون أن نذكر كل سلاطين بنى الاحمر طوال فترة تزيد عن ٢٥٠ مائتى وخمسين عاما نظرا لانهم كانوا كثيرين ٠

ولكن نكتفى بالوقوف عند ذكر هؤلاء السلاطين على اعتبار ان الحديث سوف يطول عن البعد المحدد له فى هذه الدراسة ذلك لان لم تعد هناك أحداث هامة قد وقعت فى عهد هؤلاء السلاطين الذين لم تكن لهم أعمال بارزة أو أعمال عسكرية تحد من قوة الزحف المسيحى ، ومحاولة الوقوف بجانب القوى المغربية المجاهدة القادمة من المغرب لاسيما ان الضعف قد دب فى الجبهة المغربية بعد معركة العقاب عام ٦٠٩هـ/١٢١٢م ٠

وقد جرت أحداث وخلافات داخل غرناطة كان لها أسوأ الاثر ثم جرت مصادمات بين قشتالة وغرناطة كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين خسرت فيها غرناطة بعض القلاع والحصون والقواعد والثغور واستولت عليها قشتالة بالحرب أو التنازل ٠

ثم كان سقوط جبل طارق • عن طريق الغدر والمفاجأة والهجوم الخاطف عام ٨٦٧هـ/١٤٦٢م ضربة عنيفة لمسلمى غرناطة مما جعل الامر يحول دون وصول الامدادات من عدوة المغرب بعد أن قل هذا المد من اثر ضعف الدولة المرينية التى انتهت عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م وذلك بعد سقوط جبل طارق بعامين وكان مخططى الحرب القشتاليين يدركون مدى الضعف الذى وصلت اليه بلاد المغرب ومن هنا كان الهجوم على جبل طارق والسيطرة عليه •

وهكذا أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماما بالقوات النصرانية ولا سبيل لمعاونتها وكان ذلك فى عهد محمد الغنى بالله الذى طالت فترة حكمه اذ استمر يحكم البلاد حتى عام ٧٥٥هـ/١٣٥٩م •

وهكذا بعد وفاة محمد الغنى بالله لم تعد غرناطة الى سابق عهدها بل بدأت البلاد تتدهور وتنحدر الى مالا نهاية وتعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب وهكذا أصبح الاقزام أقزاما أصغر وكان كل منهم يستعين بملوك قشتالة على اخوته وفى كل معركة كان المسلمون يفقدون حصونا وبلادا ذات أهمية حتى انتهى أمر المملكة فى النهاية الى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة وادى اش وما حولها •

وكانت السياسة القشتالية هى الاستيلاء على الاطراف جزء وراء جزء وصولا الى القلب فى النهاية وقد تجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها ووصولها الى قدرها المحتوم فى أيام حكم أبى الحجاج يوسف الثانى المتوفى عام ٧٩٤هـ/١٣٩٢م فقد اشتد العداء بينه وبين ابن سراج وانتهز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلده الزهراء المجاورة لغرناطة عام ٨٠٩هـ/١٤١٧م •

وليس هناك ادنى شك فى أن حركة الصراع ضد الوجود الاسلامى فى الاندلس قد اخذت بعدا أكثر ضراوة وشدة بل عنفا لاسيما من جانب تحريض بابا روما والممالك المسيحية الاوربية لاسيما ان العثمانيون بقيادة سلطانهم محمد الفاتح العثمانى استطاعوا فتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ

١٤٥٣م مما دفع النشاط المسيحى فى زيادة هجومه على بقايا المملكة الضعيفة غرناطة وشحد الهمم على ضرورة القضاء عليها حيث انه لم تمضى فترة طويلة حتى كانت غرناطة قد وقعت أسيرة وساعدت الاحوال الداخلية التى كانت تجتازها هذه المملكة الصغيرة على الوقوع فى براثن العدو المتربص ٠

وكما سبق القول كان وقوع جبل طارق ٨٦٧هـ/١٤٦٢م بمثابة الضربة القاصمة التى فقد فيها الامل فى بقاء المملكة طويلا حيث لم يمضى ثلاثين عاما على الحصار المضروب حولها حتى كانت نهاية النهاية قد وصلت الى القدر المحتوم وساعد من عنف القبضة الحديدية المضروبة حول المدينة الباقية ذلك التوحد فى الجبهة المسيحية والاتحاد الذى تم بين قشتالة وارغون عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م ٠

وقد تجلت النهاية بوضوح فى هذا العام وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين فرناندو الرابع ملك ارغون والملكة ايزبيلا الثانية ملكة قشتالة وكان قد تم بينهما الزواج منذ عشرة سنوات وكان معنى ذلك أن اسبانيا المسيحية كلها قد أصبحت كلها بلدا موحدا وقيادة واحدة تعمل على القضاء على كل أثر للمسلمين وان كانت الوحدة الكاملة لم تتم حيث كانت هناك مملكة البرتغال التى اتمت الاستيلاء على غرب الاندلس وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنقل الصراع الى الجانب الآخر من مضيق جبل طارق حيث بلاد المغرب (انظر موسوعة المغرب العربى ، المؤلف الجزء الخامس والسادس) وفى عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م بدأت مفاوضات مع غرناطة حيث طلب من سلطانها أبى الحسن فى ذلك الوقت شروط قاسية وقد انذر السفير القشتالى بقبولها جميعها لكن هذه الشروط رفضت فقام الملك فرناندو الخامس زوج ايزبيلا بالهجوم على غرناطة واستولت جيوشه بعد مقاومة عنيفة على مدينة الحامة Alhama

وكان السلطان أبى الحسن قد تولى عرش غرناطة عام ٨٨٧هـ الذى يعرف باسم أبى عبد الله واستولى فرناندو الخامس على هذا الحصن جنوب غرب غرناطة فأمعنوا فى أهله قتلا وذلك فى محرم ٨٨٧هـ/١٤٨٢م ثم

زحف ملك قشتالة على مدينة لوشة Loja وحاصرها لكن حاميتها الاسلامية دافعت دفاعا باسلا وردت قوات قشتالة على أعقابها ٠

وتولى حكم غرناطة أواخر عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م (لم يبقى سوى عشر سنوات على سقوط غرناطة) السلطان محمد الحادى عشر بن على مكان أبيه أبو الحسن على ويعرف الامير محمد هذا باسم أبو عبد الله أو عبد الله أو عبد الله الصغير Boagdi وكانت فترة حكمه هى فترة صحوة الموت أو الرمق الاخير حيث نجد ان هذا الامير قد تصور ان يستطيع أن يحقق إنتصارا باهرا على قوات أسبانيا المسيحية وكانت قوات اسبانيا تحاصره من جميع الجهات وكانت البرتغال فى ذلك الوقت قد رضعت يديها على نواة لها بالمغرب (سبتة وطنجة ومليلة) فقاد مسيرة ضد قشتالة انتصر فيها عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م ثم قاد جيشه واتجه به نحو قرطبة طامعا فى تحريرها واستطاع أن ينتصر فى بعض المعارك المحلية لكنه غلب ووقع فى الأسر عند قلعة اللسانة (Lucena) جنوب شرق قرطبة وتولى حكم غرناطة بعده عمه محمد بن أبى عبد الله الزغل المشهور بالشجاع الباسل وكان قد تم اطلاق سراح ابن اخيه أبى عبد الله محمد الحادى عشر بعد أن أمضى فى السجن عامين ٨٩٠هـ/١٤٨٥م بعد توقيع اتفاق صلح مع قشتالة وربما تم هذا الصلح مقابل التنازل عن العديد من القرى والحصون والاراضى لان الصلح لابد أن يكون نظير دفع جزية كبيرة أو تنازل عن اراضى الاسلام ذلك لان هذا الصلح قد أدى الى حدوث انقسامات خطيرة داخل غرناطة حيث تفرقت الزعامات وتوزعت بين تأييد ابو عبد الله محمد الحادى عشر أو أبو عبد الله الزغل ٠

وهكذا انتهز جند قشتالة فرصة الصراع وقاموا بمهاجمة مدينة لوشة مرة اخرى وتم لهم الاستيلاء عليها عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م وهكذا لم يبقى من الزمن على رحيل الاسلام وسقوط دولة الاسلام فى غرناطة سوى ست سنوات فقط ٠

وجاءت الطامة الكبرى التى تحقق اهداف العدو المتربص اذ تم

تقسيم المدينة الواحدة غرناطة الباقية بين أبى عبد الله الزغل وابن أخيه الاسير السابق أبى عبد الله محمد الحادى عشر ٠

ومن ثم بدأ ملك قشتالة يشدد ضرباته القوية على المدن والقرى الغرناطية الصغيرة الباقية بجوار العاصمة المقسمة وأخذ يعاودها حصارا وقتلا وتدميرا وحرقا وابادة وحصارا متواصلا يذكرنا بحصار القمبيطور العنيف لمدينة بلنسية وتلك خطة مسيحية فى اجبار المدن الاسلامية فى الاستسلام والخضوع والقبول وما يمليه عليها المسيحيين من شروط قاسية وشدد القشتاليون حصارهم وتم لهم عقد معاهدة مع عبد الله الزغل عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م اضطر بموجب هذه المعاهدة على ترك الاندلس نهائيا والنجاة بنفسه وأهله الى بلاد الجزائر العربية الاسلامية حيث اختار مدينة تلمسان للاقامة بها ٠

وهكذا قربت النهاية لبقايا الحصن الحصين والدرع الامين للاسلام والمسلمين لان يسلم الراية الاسلامية الى مالا نهاية ويجلوا عن أرض الاندلس الخالدة وكانت النهاية ٠

نهاية النهاية وسقوط حصن الاسلام غرناطة

وهكذا مع مجرى الاحداث والوقائع آن الاوان بعد التخاذل والركون لى العدو وطلب الحماية ودفع الاتاوات والتمزق والتشرذم ، على هـذه لملكة الغرناطية البقية الباقية لدولة الاسلام فى الاندلس أن تسقط فى أيدى المسيحيين بعد أن طال بهـا الزمن فى الصمود لفترة تزيد عن قرنين ونصف من الزمـان (١٢٣٨ ـ ١٤٩٢م) وقـد أدركت قشـتالة وأرغون اهدافهما السياسية فى محاولة القضـاء النهائى عليها وفرض السيطرة التـامة واحتلال القواعد والحصون والقلاع حتى أصبح الخناق ضـيقا على البقية المتبقية من بقـايا المدن واحتفظ ملك قشـتالة بالحصـون الغرناطية التى استولى عليها والتى كان امراء غرناطة قد سلموها له ٠

وكانت سياسة الاسبان التى لم تكف عن بث الدسائس فى سبيل طرد المسلمين من أراضى غرناطة قد أرسلوا الى أبى عبد الله الزغل من يعرض عليه وعلى قواده مالا وفيرا فى مقابل تسليم الاجـزاء الشرقية من غرناطة التى تحت سلطانه فآثر الزغل بالتسليم والرحيل ٠

اما ابن اخيه أبو عبد الله محمد فانه ظن فى بادىء الامر ان الجـو قد صـفا له بذهاب عمه الزغل ولكنه سرعان ما اكتشف الحقيقة المرة عندما طالبه الملك فرناندو العاشر بتسليم عاصمته غرناطة عندئذ صمم على القتال حتى النهاية وأيده فى ذلك أهل غرناطة ٠

ولجأ الملك فرناندو العاشر الى سياسة الحرب الاقتصادية ضد أهل غرناطة كى يجبرهم على التسليم أو يميتهم جوعا فحـاصر المدينة عـام ٧٩٦هـ/١٤٩١م وافسد مزارعها وبنى امامها مدينـة أطلق عليهـا أسـم سنتفى Santafi أى الايمـان المقدس لتـكون قاعدة لعملياته العسكرية ويذكر أبو خالد السـلاوى فى كتابه الاستقصا وعلى الرغم من كل ما قام به الفونسو العاشر فان الطريق بين غرناطة والبشـيرات Alpujarras كانت متصلة بالمرافق والطعـام يأتى الى المدينـة المحـاصرة من ناحيـة جبل شلير Sierra Noroda الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج فأفسد

باب المرافق والمؤن والمعونات وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء ففر ناس كثيرون من داخل العاصمة غرناطة المحاصرة الى مدينة البشيرات ثم اشتد الامر على المحاصرين ٠

وقد استغل الملكين الكاثولكيين فرناندو العاشر وازبيلا فرصة ضياع الاراضى والاموال وهروب الاهل من الديار وشدوا الحصار على المدينة لاسيما انهم كانوا قد عرفوا نقط الضعف فى شخصية الامير الحاكم أبو عبد الله محمد عندما وقع أسيرا فى أيديهم أثناء قيامه بغارة فى أراضيهم عام ١٤٨٣م ــ ٨٨٨هـ ٠

وكان أسره ضربة شديدة لحكم المسلمين فى الاندلس لا من حيث أسرة نفسه والقضاء على قواته ولكن من حيث أن الملكين الكاثولكيين استطاعا أن يستذلا نفسه ويصغرا اليه ملكه وملك أبيه مرة بالتهديد ومرة بالوعود والامانى حتى ذل عنقه وأصبح أداة طيعة فى أيديهما ثم اطلقا سراحه ٠

ومن هنا كان على هذا الامير أن يكون نهاية النهاية فى تاريخ الاندلس الحافل بالاحداث والمواقع الحربية والمعارك الاسلامية التى ضرب فيهما الجندى المسلم اروع آيات التضحية والشهادة والبذل والفداء والذى قاتل من أجل العقيدة ٠

ولكن بعد أن ضاق الدار وقل الزاد وندر العتاد ولم تعد للبذل والتضحية والشهادة الا الجنة فكان الوعد التى تخاذل فيه هذا الامير ٠ لكن الاحداث تذكر ان غرناطة فى صراعها الاخير مع العدو الصليبى اتجهت الى مصر تتلمس عونها ومساعدتها وبذل النفس والمال من أجل دفع الخطر الواقع على البلاد وارسل سلطان غرناطة محمد بن يوسف الامير سفاره الى سلطان مصر فى ذلك الوقت السلطان جقمق عام ١٤٣٨م/٨٤٤هـ سفاره ٠

كذلك فان فقيه الاندلس أبى على بن محمد بن الازرق التى أرسل

الى السلطان الأشرف قايتباى عام ١٤٨٩م ـ ٨٩٥هـ . وذلك طالبا المساعدة لاسترجاع الاندلس .

والواقع ان مصر لم يكن فى مقدورها القيام بعمل عسكرى فى الاندلس فى تلك الاحوال والظروف وذلك للحيلولة البحر وطول المسافة وعدم وجود مراكب وسفن كبيرة لحمل الجنود والمعدات حتى هذه المسافة الطويلة بين ميناء الاسكندرية وموانىء الاندلس وان ذلك يحتاج الى العديد من السفن .

ولم يكن للملوك مصر عناية بأمور القتال البحرى وشحن السفن لان أسلوب قتالهم كان أسلوب برى يعتمد على الخيل والفروسية ومن هنا كان نجاحهم بريا وليس بحريا وعلى الرغم من ذلك فان بعض سلاطين مصر حاولوا انقاذ غرناطة عن طريق الضغط الدبلوماسى ومثال ذلك تلك السفارة التى ارسلها السلطان قايتباى عام ١٤٨٩م ـ ٨٩٥هـ الى الملكين الكاثولكيين ايزبيلا وفرناندو يهدد فيها بالقيام بأعمال من شأنها أن تهدد أمنهم ومصالح الغرب فى الشرق ان لم يكفا عن مهاجمة غرناطة .

غير ان هذه المحاولة باءت بالفشل وسقطت غرناطة عام ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م وقد قام الملكان الكاثوليكيان بارسال سفارة الى سلطان مصر قنصوه الغورى عام ١٥٠١م واستطاع السفير الاسبانى ، بدور مارتير ، ان يسترضى سلطان مصر ويزيل التوتر السياسى بين مصر وأسبانيا .

وكان آخر سلاطين غرناطة أبو عبد الله محمد عندما رأى بثاقب نظره ان الامر لم يعد تجدى فيه المقاومة وان الاحوال آخذة فى السوء فاجتمع أهل العلم وعلية القوم وتشاوروا مع السلطان ونظروا لانفسهم وتكلموا مع سلطانهم وكان الاجتماع مع اهل الدولة وأرباب المشورة من أجل اصدار قرار نهائى بما يكون عليه الموقف وتحدثوا جميعا فى هذا الامر لاسيما ان العدو يزداد مدده كل يوم والمسلمون لا مدد لهم فاتفق الرأى على تسليم البلد خوفا على الاطفال والنساء .

وكان بابا روما قد وافق على الالتزام والوفاء بالشروط اذ تنـازل بنى الاحمر عن غرناطة ويحلف على عادة النصارى على العهود ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهـل غرناطة فوافقوا عليهـا وكتبوا البيعة لصـاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء واسـتولى النصارى عليها فى ربيع الاول عام ٨٩٧هـ/ينـاير ١٤٩٢م ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الاسلام فى الغرب الاسلامى واوربا وقد احتفلت به كل البـلاد النصرانية جميعهـا واعتبر ذلك ردا على سـقوط القسطنطينية (٨٥٧هـ/١٤٩٣م) وقد أمرت البابوية فى روما أن تقرع كل الكنائس أجراسها فى كل المدن والقرى وكل مكان تقع فيه كنسية احتفـالا بهذه المناسـبة ٠

وهكذا تسقط غرناطة آخـر حصن اسلامى فى شـبه الجزيرة الاندلسية وكان الاسـتيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقى من بلاد الاندلس للاسلام فى محرم سبعة وتسعين وثمان مائة وان الصـلح كان فى المحـرم وكان دخول جيش قشتالة القصبة الحمراء فى ربيع ووقعت معاهدة التسـليم بين حـاكم غرناطة المتخاذل ابو عبـد الله محـمد بن الحسن وبين ملكى قشتالة فى ٢١ محرم ٨٩٧هـ/٢٥ نوفمبر ١٤٩١م ٠

واستولى النصارى على الحمراء ودخولها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان وعلية القوم رهنا خوف وغدر ٠

ونحن هنا لا نستبعد من أمثال هؤلاء السلاطين الضعفاء والمتخاذلين أن يكون قرار تسليم غرناطة قد اخذ به تعهد على هذا السلطان عندما وقع فى الاسر عام ١٤٨٣م/٨٨٨هـ وكان الاسر قد تم على أيدى الملكين الكاثولكيين فرناندو العاشر وايزبيلا وكانت شروط التسليم سبعة وستين بندا منهـا أن يحتفظ المسلمون فى غرناطة بكل حقوقهم وأن تظل لهم مساجدهم وأن يقيم منهم فى غرناطة تحت العـدل والانصاف ويهاجر منهم من اراد ٠ وأن يأمن الصغير والكبير فى النفس والاهل والمـال وابقـاء النـاس فى أماكنهم

وبدورهم ورباعهم وعقارهم واقامة شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت وكذلك الاوقاف وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغتصبوا احد وأن لا يولى على المسلمين الا مسلم .

وهناك كثيرا من البنود تعهد الملكان الكاثوليكيان بأمور كثيرة للمسلمين ولكنها نقضت جميعها بعد توقيع المعاهدة ودخل الملكان قصر الحمراء بغرناطة فى اليوم الثانى لربيع الاول ٨٩٧هـ/٢ يناير ١٤٩٢م وتركها آخر سلاطينها أبو عبد الله محمد الحادى عشر الى مدينة اندرش Andarax فى منطقة البشرات Alpujarras جنوب جبل الثلج ثم عبر فى العام التالى الى المغرب حيث ان ملك قشتالة كان قد أمر باعتقال سلطان غرناطة السابق فارتحل أبو عبد الله بأهله الى المغرب .

وهكذا ما كاد النصارى يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا المسلمين عليه وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة الى كنسية ثم بدأت سياسة الاضطهاد الدينى لمسلمى غرناطة الذين دخلوا تحت حكم النصارى .

وكان آخر سلاطين غرناطة قد نزل بمدينة مليلة فى شواطىء المغرب ثم منها الى مدينة فاس وظل مقيما فى فاس فى ظل حكم بنى وطاس حتى توفى عام ٩٤١هـ/١٥٣٥م .

وهكذا طويت صفحة الاسلام والمسلمين فى غرناطة بهذه النهاية المؤلمة المفجعة التى لازالت تدمى قلوب المسلمين رغم طول المسافة الزمنية ومضى خمسة قرون (خمسمائة عام) على تلك النهاية والمأساة التى لم يكن لها مثيل فى التاريخ وتكون نهاية المطاف فى تلك الدراسة هى الوقوف عند حد السقوط دون الخوض فى تفاصيل اخرى بعد انقضاء ثمانية قرون على الاسلام ونهاية مرحلة البحث حيث ان الدخول فى تفاصيل اخرى قد يطول بنا البحث لاسيما ان الاحوال فى شبه جزيرة الاندلس قد تبدلت فلم يكن الحال هو الحال وتغيرت كل الامور بعد أن عومل المسلمون كأسرى حرب وعوملوا كرقيق واصابهم الاضطهاد والاذلال وصدر قرار بترحيلهم وازالتهم نهائيا من الاندلس الفردوس المسلوب والمفقود عام ١٦٠٩م .

وبعد ان كان فرديناند قد عاهد المسلمين على تأمين حرية دينهم ولغتهم ولكن بعد سبع سنين حل بالمسلمين دور الاضطهاد والتعذيب الذى بدأ بتعميدهم كرها ثم أمرت محاكم التفتيش بحرق المعمدين منهم لتطهيرهم بالنار وكان من المتعذر حرق الملايين منهم دفعة واحدة فنصح كرزدينال طليطلة وكان رئيس محاكم التفتيش أن يقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من المسلمين رجالا ونساء شيوخا وأطفالا لكن الراهب « نبيلدا » لم يرى فى ذلك كفاية وأشار بضرب رؤوس من تنصر من المسلمين ومن بقى على دينه منهم محتجا بأنه المستحيل معرفة صدق ايمان من تنصر فمن المستحب اذن قتلهم جميعا بحد السيف لكى يحكم الرب بينهم فيدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ٠

لكن الحكومة الاسبانية رأت ان قتلهم جميعا صعب التنفيذ وأمرت عام ١٦٠٩م باجلاء المسلمين عن أسبانيا وطاردهم جنود ومحاكم التفتيش فى البر والبحر فقتل أكثرهم وأغرقت سفنهم فى عرض البحر وأبدى الراهب « نبيلدا » ارتياحه لذلك وهو الذى قتل مائة الف مهاجر من قافلة مؤلفة من مائة وأربعين الف مهاجر مسلم فى طريق هجرتهم الى المغرب وتونس هذا ما قاله المؤرخ الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) أما المؤرخ سيديو فى كتابه (تاريخ العرب العام) فيقول ان عدد المسلمين الذين خسرتهم أسبانيا منذ ان فتح فرناندو غرناطة حتى اجلائهم الاخير ثلاثة ملايين ونصف وبطردهم هبطت أسبانيا الى أسفل درجات الانحطاط بعد أن كانت قد بلغت قمة المجد فى العصر الاسلامى ٠

وبذلك وضعت نهاية عصر طويل وعهد تغيرت فيه الاحوال وكانت الدموع والدماء والتزمرات والآهات والشحيب والنحيب والحسرات والنفرات والتضحيات هى واجهة وعنوان كل مسلم عاش بعد الرحيل ولم يعد يسكن من يعلن عقيدته الاسلامية على أرض الاندلس السليب بعد ان تنصر منهم ظاهرا أعداد غفيرة وقاس مسلمى الاندلس مالا يقاسيه بشر على وجه المسكونة وقضى على العقيدة الاسلامية وكل ما يتصل بها ولم يعد هناك وجود بشرى للمسلمين ٠

والغريب فى الامر ان الارض التى شهدت الاسلام ثمانية قرون ان لم يكن عشرة قرون منها قرنان فى ظل الحكم المسيحى لم يعد هناك من يذكر لا اله الا الله محمد رسول الله على ارضها وفوق ترابها ، بل ان هناك بعض الاقلام المسيحية نفسها (فيليب حتى) يذكر ان عدد المسلمين الذين أخرجوا من الاندلس ونزحوا الى ديار المسلمين يزيد عن ثلاثة ملايين ونصف خرجوا يحملون الحسرة والندم على ما فعله سلاطينهم وحكامهم بهم ٠

فقد كانت الشعوب هى الضحية وهى كبش الفداء نتيجة تخاذل حاكم او جهل امير أو ركون وخيانة سلطان أو تهاون حاكم ، فالنتيجة هى ان الاندلس قد ضاع وفقد الاسلام ارضا وعلما وحضارة وثقافة وفكر وتاريخ وعمران ولم يعد الاسلام فى هذه الديار الا ذكرى وحسرة ودمعة والم يعتصر القلوب واسم محفور فى ذهن كل مسلم يتجه بفكره الى ذلك الفردوس المفقود الذى كان دارا اسلامية طوال ثمانية قرون ولا يزال تراثهم الى يومنا هذا شاهد على دور الاسلام الخالد والرائد والراقى المتطور المتقدم الهادى لكل البشرية ٠

الفصل الحادى عشر

لماذا ضاعت الاندلس ؟ ؟

كان ضياع الاندلس بعد ثمانية قرون يمثل قمة من قمم الدراما السوداء التى تلطخ تاريخ البشرية على مدى الحقب والازمان الطويلة وتدمى القلوب وتمزق الضمائر والبصائر ان كان قد بقى هناك ضمير وقت الرحيل وما شهده مشهد القتل الجماعي والتنصير الكلى والحرق الكامل والتعصب الدينى الطائفى الذى مارسه أهل الاندلس (أسبانيا) ضد كل ما هو مسلم وعلى هذا فلابد من القاء الضوء لكى نوضح بما فيه الكفاية الاسباب والعوامل والمسببات والمؤثرات التى أودت بحياة الاسلام والمسلمين فى هذه الديار القابعة فى جنوب غرب القارة الاوربية وكيف انه بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة ضاع الاسلام ولم يعد يبقى على أرضها الا بقايا رماد وذرات ومال استطاعت أن تهرب من براثن ومخالب العدو العنيد ٠

ونقول ان المسلمين الاوائل الذين عبروا مجاز أو مضيق طارق بن زياد عام ٩٢هـ/٧١١م وكانوا من صحابة رسول الله ﷺ ومن التابعين الاوائل الذين حملوا القرآن الكريم فى قلوبهم وعقولهم وفكرهم فدانت لهم الاندلس فى أقل من عامين وتحول الفتح كالسيل الجارف الذى يرفع لواء القرآن الكريم فدانت الارض وأهلها لقرآن الله ونوره ووطد الله الارض وصانت مسجد للعبادة والعلم والدين ومنارة على أرض أوربا أن هذه هى ديار الاسلام وتلك هى مقدمة الفتوح التى تتلوها بلاد وأقطار أخرى ٠

وهكذا لم تمضى ثلاث سنوات ٩٥هـ/٧١٤م حتى كانت اسبانيا قد استكمل فتحها وخضعت للسيادة الاسلامية ولم يبقى خارج هذه السيادة سوى بضعة جيوب فى الشمال الغربى من اسبانيا كان من السهل جدا تصفيتها لو اتخذت الامور مسارها الطبيعى فى هذه الولاية الاسلامية

الجديدة حيث توغل فى هذه المنطقة الجبلية الوعرة التى كانت تعرف ببلاد الصخر فى أقصى الشمال الغربى بقايا فلول المقاومة القوطية المتجمعة فى جليقية بقيادة أحد رجال العصابات الذى يدعى « بلاى » والذى اعتصم فى أحد كهوفها ومعه ثلاثمائة رجل وامرأة .

وكان طارق بن زياد يعتقد انه لن تقوم لهم قائمة أبدا غير ان ذلك لم يتحقق بصورة جزئية وظل هذا الاقليم وأقاليم أخرى صغيرة فى الشمال الغربى منافذا لحركة الاسترداد القومية وبؤرة التحرك حيث انطلق منها تيار الاسترداد بعد ضعف النفوذ الاسلامى وهكذا لم تتيح الظروف والملابسات لطارق بن زياد وقائده موسى بن نصير أن يتمكنا من القضاء النهائى على هذه البؤر .

ذلك لان قرارا مفاجئا من الخلافة الاموية قد وصل الى قيادة القوات الاسلامية بالاندلس بوقف العمليات العسكرية كلية فى أوربا وكان الوليد ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن امية خليفة دمشق (٨٦ ـ ٩٦هـ) قد أصدر أوامره التى حملها رجل الاتصال بين الخلافة وقيادة قوات المسلمين فى الاندلس ويدعى « مغيث الرومى » بالتوقف عن الزحف وكان قرار الخلافة الاموية قرار خاطئا وفى غير محله ولم يكن قرارا صائبا اذ أن هذا القرار قد أضاع فرصة تاريخية للقوات الاسلامية لم تتكرر بعد ذلك لان هذا القرار وقف كالسد الصلب أمام اجتياح المسلمين للقارة الاوربية كلها وحرم المسلمين من تصفية بقايا الجيوب القوطية والتقدم فى اقليم قشتالة الذى انطلقت منه المقاومة لتأمين الحدود الشمالية للولاية الاسلامية الاندلسية الجديدة .

لكن لماذا هذا القرار فى ذلك الوقت بالذات والقوات الاسلامية متقدمة بسرعة الى الشمال ولم تتقابل مع قوة أوربية تقف فى طريقها ولم تدخل فى معركة حقيقية مع أى قوات بعد أن تمزقت قوة لذريق فى معركة (لكة) و معركة شذونة حيث هزم الجيش القوطى .

واستطاع موسى بن نصير وطارق بن زياد أن يرفعا راية الاسلام

والدولة الاموية على الارض الاوربية وان يقيما حكم اول دولة اسـلامية أوربية على القارة وبدأت طموحات الجيش الاسلامى تاخذ بعدا آخر اكثر توسـعا وبعـدا حيث طموح المسلمين وقيادتهم لم يقف عند السيطرة على شـبه الجزيرة الايبيرية (الاندلس) .

لكن خطوات الفتح القادمة كانت تقتضى ضرورة القفز الى ماوراء جبال البرانس التى تفصـل الاندلس عن مـملكة الفرنجـة حيث الارض الكبيرة الواسـعة والتى تتجه أنظار المسلمين اليها قبل وصول قرار الخلافة الاموية بالتوقف عن السير والعودة الى دمشق عاصمة الخلافة وقبل القضـاء النهائى على بقـايا الجيوب القوطية وكانت فكرة التوغل فى كل الاراضى الاوربية وتطويق الدولة البيزنطية من الغرب والوصول الى القسطنطينية من الناحية الغربية ثم الوصول الى دمشق عن طريق هذه السهول الاوربية الواسـعة .

وقد اشار ابن خلدون الى أن موسى بن نصير كان يريد أن يأتى الى المشرق الاسلامى من باب القسطنطينية ويتجاوز الى الشـام من دروب الاندلس ويخضع ما بينهما من بلاد العجم والامم النصرانية وأن يلحق بدار الخلافة لاسيما وان موسى بن نصير قد عبر فعلا جبـال البرانس وتوغل فى أراضى اربونة والسير من طليطلة نحو الشمال والعودة الى المشرق بعد فتحها فتحا مستقرا ولعل ذلك ما دفعه الى مواصـلة الفتح حتى وصل الى اربونة فى جنوب فرنسـا ولنه كان ينوى فعـلا فتح القسطنطينية والوصول الى دمشق عن هـذا الطريق والاستمرار فى فتح الاراضى الكبيرة حتى بلاد الشـام والسيطرة على دولة الفرنجة (فرنسا) وشمال ايطاليا حيث بلاد لمبورديا (اللمبارد) وبقية بلاد الديار الايطالية بما فيها روما ثم يخترق جنوب بلاد الاسلاف وسهول الدنوب (يوغسلافيا وبلغاريا فالدولة البيزنطية) حيث يسقط القسطنطينية لاسيما ان القسطنطينية قد دفعت بدورها عدة حملات اسلامية منذ عهد معاوية بن سفيان دون أن تسقط .

فكان قرار موسى بالالتفاف حولها من الغرب لقطع الامدادات عنها من دول اوربا بعد اخضاعها للواء الاسلام ثم التوجه بعدها الى آسـيا الصغرى (تركيا حاليا) ثم الوصول الى دمشق . .

لكن تلك الاخبار وصلت الى الخليفة الوليد بن عبد الملك عن طريق رسوله مغيث الرومى فاشتد قلقه على القوات الاسلامية التى لم تكن كافية حيث بلغ عدد القوات الاسلامية منذ عبور طارق بن زياد حتى وصول مغيث الرومى (٥ آلاف + ٧ آلاف + ٢٢ الف تكون جملة القوات الاسلامية ٣٤ الف جندى استشهد منها الكثير فى الفتح والقتال قبل عبور قوات موسى بن نصير ٠

ورأى الخليفة أن اندفاع موسى بهذه القوات قد يأتى بالضرر والوبال على المسلمين والتغرير بجند الاسلام فى أرض وأماكن غير معلومة أو توجد عنها معلومات لدى الخلافة الاموية وأمر سفيره (مغيث الرومى) بالعودة ومعه موسى بن نصير وطارق بن زياد وأمره أن يعنفه ٠

لكن موسى وطارق اضطرا الى ترك الاندلس وعادا الى دمشق وهما اكثر تلهفا على الجهاد وفى أشد الاسف على عدم فتح ما بقى من بلاد الفرنجة واقتحام الارض الكبيرة والوصول بالقوات الى بلاد الشام ٠

وهكذا وصلت هذه الاخبار بتفاصيلها الى مسامع الخليفة سواء اكتب بها موسى نفسه الى الخليفة يعلمه بما ينوى القيام به أو علم بتفاصيل الخطط الحربية القادمة دون مشورة من رسل الخلافة الذين أرسلوا اثناء الفتح وحتى اتمام فتح طليطلة وربما كان موسى قد ارسل بذلك للخليفة يستشيره بهذه الفكرة قبل الاقدام عليها عن طريق على ابن رباح ومغيث الرومى رسولا الخلافة وان الخليفة ربما تشاور مع أهل الحل والعقد والمشورة فى الديوان الاموى بهذا فكان قرار الخلافة باستدعاء القائدين وايقاف الفتوح الى حين آخر ٠

وهكذا كان قرار الخلافة الاموية باستدعاء طارق وموسى بن نصير قرار فى غير محله ولم يكن موفقا فى وقته وتوقيته لاسيما ان القوات الاسلامية التى عبر بها موسى بن نصير والتى قدرتها المصادر المختلفة بما بين عشرين الف جندى الى ثمانية عشر الف لم تفقد أعداد منها فى أية

معركة وكانت كاملة العددوالعدة وتملك تغطية عسكرية كافية وكانت منظمة تنظيما جيدا ويقودها قواد لهم دراية كافية بشئون القتال ٠

وكانت المهمات الملقاة على عاتق هؤلاء القواد محـددة وكان موسى ابن نصير كمسئول اول عن هذه الجبهة وكقائد عام للجبهة الغربية وكفاتح للمغرب يدرك خطورة الخطوات التى يتخذها وعليه وحده تقع المسئولية وأن الفتح وصولا الى القسطنطينية كان امر عادى فى فكره لاسيما ان أوربا فى ذلك الوقت ٩٥هـ/٧١٤م لم تكن تملك من القدرات العسكرية والحربية والعدة والعتاد ما يؤهلها للوقوف أمـام الزحف الاسـلامى الذى حقق العديد من الانتصارات دون أن يلتحم مع قوات أوربية تذكر ٠

وكان الطريق مفتوحا امـام هذه القوات وصولا الى القسطنطينية ولم تكن تقدر أن تواجه هذه القوات بمقاومة تذكر اللهم الا عند الوصـول الى القسطنطينية لكن قرار الخلافة حـرم الفتح الاسلامى فى أوربا اكبر ثمـرة كان من الممكن ان يحققها المد الاسلامى فكان قرار الاستدعاء عام ٩٥هـ اول ضربة مؤثرة ومقدمة فى تاريخ الوجود الاسلامى لاسيما ان كانت لاتزال هناك بقـايا قوطية فى جليقية لم يتم احتوائها واطوائها تحت لواء الاسلام وكانت بلاد الفرنجة (فرنسا) فيما بعد قد بدأت تتعاون مع هذه الاعـداد وتاهيلها وتدريبها عسكريا وامدادها بالعتاد والذخيرة والقوات والمساعدة الكاملة وقوفا امام الزحف الاسلامى لمنعه من الوصول الى جبال البرانس والعبور الى فرنسا ٠

وفى دمشق حيث تولى الخليفة سليمان بن عبد الملك خلفا لاخيه الوليد لم يبدى الخليفة سليمان بن عبد الملك أدنى اهتمام بالاندلس وتبدلت سياسته تجـاه الفتح فى الغرب فلم يعد يوليه عنـاية بل لم يرسل قوات جديدة الى الاندلس واكتفى بما وصل اليه حال هذه البلاد وكان الاولى به بدلا من يحرك قوات الخلافة الاموية عام ٩٨هـ/٧١٧هـ الى حصار القسطنطينية والتى حشد لها قوات اسلامية كبيرة حملتها اكثر من ١٨٠٠ سفينة (راجع كتابنا الاسلام والثقافة العربية فى أوربا ص ١٠ ـ ١٩) ولم تستطع هـذه الحـملة على القسطنطينية أن تحقق أهدافها وفشلت حملة سليمان وكان الاولى بهـذه

القوات أن تندفع نحو الأندلس لتوطيد الفتح السابق وتثبيت أركانه وإتمام فتح الجيوب المتبقية والزحف فى الارض الكبيرة لاسيما ان الفرصة مهيأة أمام هذه القوات لاسيما ان المد الاسلامى كان لايزال فى نيته التوجه الى الشمال والزحف فى الاراضى الاوربية ولو ان ربع القوات الزاحفة الى القسطنطينية دفع بهـا الى الاندلس لتغير الحـال ولمـا توقف المد الاسلامى ولمـا تعرضت الاندلس لمـا تعرضت له مستقبلا •

ولكان لسليمان بن عبد الملك شرف فتح فرنسا وبعض الاراضى الاوربية ولاضاف مجـدا الى جوار مجد أخيه الوليد لكن سليمان لم يكن الخليفة الذى على طراز الوليد وانما كانت فترة حكمه توقف النشاط الاسـلامى شمالا حيث لم تكن الامدادات الاسلامية العسـكرية تنـدفع بنفس القـوة والحماس للاندلس •

وهكذا دخلت الاندلس فترة بل مرحـلة مغايرة لفترة الوجود العسكرى لموسى بن نصير وطارق بن زياد حيث بدأت مرحـلة أخـرى من مراحـل الحـكم والوجود الاسلامى كانت تغاير تغايرا تاما ما سبقتها حيث كانت هذه القوة الدافعة قد بدأت تخف لاسيما ما أطلقنا عليه فى الفصل الثالث من هذه الدراسة فترة حكم الولاة التى امتدت الى ما يقرب الى اربعين عاما ٩٧هـ/١٣٨م قد حكم الاندلس فيها ما يقـرب من اثنين وعشرين واليـا أى بمعدل اقل من عامين لكل والى مما جعل العمل الاسلامى الواسع يكاد يكون ليس بالضرورة التى يرجى منها اتمـام فتح أوربا لاسيما أن حركة المقاومة النصرانية قد بدأت تظهر فى عصر الولاة بعد أن فشل هؤلاء الاثنى والعشرين واليا فى القيام بما قام به موسى بن نصير وطارق بن زياد حيث استطاع هذان الرجـلان مع بعض القوات الاسلامية التى لا يزيد عددها عن ثلاثين الف مقـاتل على اكثر تقدير أن يفتحوا قطـرا اوربيـا واسـعا يعتبر من أصعب الاقطار الاوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية والعوامل الجوية وقاموا بهذا الفتح فى اقل من ثلاث سنوات ويعتبر مضربا للشجاعة وسارا على خطة عسكرية وسياسة محكمة تدل على خبرة جيدة بفتح الاقطار فى حين فشل هؤلاء الولاة الذين آلت اليهم أمور الاندلس فيما بعد فى تحقيق

أى من أهداف موسى بن نصير من الزحف شمالا وشرقا وصولا الى القسطنطينية ·

ان التاريخ يشهد بعظمة موسى بن نصير وطارق بن زياد بما قاما به فى الاندلس حيث اننا نجد فى القرن التاسع عشر الميلادى أعظم قواد أوربا فى ذلك الوقت نابليون بونابرت يفشل فى فتح أسبانيا (١٨٠٨ - ١٨١٠م) فقد حالت وعورة التضاريس الوعرة دون اتمام فتحه وهيأت للاسبان فرصة شن حرب العصابات ضده وفى اسبانيا فقد نابليون زهرة شباب فرنسا دون أن يصل الى تحقيق أغراضه ·

فى حين حقق موسى وطارق ذلك فى أقل من ثلاث سنوات فلماذا اذن كان قرار الخلافة وعدم الاستمرار فى دعم الوجود الاسلامى امتداد للفتح المكثف فى بقية الاراضى الاوربية ·

وكان عصر الولاة هذا قد شهد عوامل ساعدت على ضياع الاندلس الاسلامى والتى منها ان الاندلس وقعت فريسة الاضطرابات السياسية التى شهدتها الخلافة الاموية بعد الوليد بن عبد الملك بن مروان كذلك الدور الذى لعبته العصبيات القبلية والنزاعات الشخصية وكان الخلاف الكبير بين العصبيات العربية كالقيسية والسبائية وبين العرب سكان الاندلس الاوائل والعرب الشاميين ثم الخلافات العربية مع البربر ·

وكان ذلك له آثار سلبية على مجرى الاحداث فى الاندلس اضافة الى التنازع على السلطة بين الطامعين الذين قدر عددهم باثنين وعشرين واليا متوسط حكم الواحد منهم أقل من عامين وكان ذلك صورة لعدم الاستقرار السياسى فى البلاد ومقدمة لعواقب وخيمة لاسيما ان الاندلس كان لابد لاهله العمل على مواصلة الجهاد والفتوح فيما يليه من بلاد وأن يواصلوا الفتوح فى فرنسا (غالة) ·

وهكذا لم يكن يقدر للمد الاسلامى أن يستمر الى ما لا نهاية فقد كان لابد أن يقف فى ظل الظروف السائدة وكانت معركة بلاط الشهداء التى حدثت

بعد الفتنة التى شارك فيها بربر الاندلس وازاء سخط البربر وحتى وصل الامر الى اختلاف أصحاب الخندق الواحد والانقسام الى جبهتين متناقضتين فى الاهداف والمصالح ٠

وقد عانى عبد رحمن الغافقى الذى تولى امارة الاندلس (١١٢ ـ ١١٤هـ ـ ٧٣٠هـ ـ ٧٣٢هـ) طويلا من جراء هذه السياسة واستطاع أن يجمع المسلمين لهدف واحد وأن يتحرر من العصبية لكن الحظ تخلى عنه دون أن يجد فى الوقت متسعا لتحقيق أهدافه فى التوسع فى الاراضى الاوربية فاستشهد فى مطلع ولايته التى انتظرها طويلا بعد أن بلغ ذروة التوسع فى أوربا واجتازت جيوش الاسلام رافعة راية القرآن الكريم جبال ووادى الرون الى عمق فرنسا حتى اللوار قبل أن يستشهد فى معركة بلاط الشهداء أو فى معركة بواتية Poitiers

وهكذا استشهد الغافقى نفسه فى موقعة بلاط الشهداء بين مدينتى تور Tours وبواتية Poitiers بالقرب من باريس بحوالى ٣٠ كيلو متر وانتهت المعركة بانسحاب الجيش الاسلامى وانسحابه من ميدان المعركة وهكذا لم يكتب للقائد الخالد عبد الرحمن الغافعى الذى جدد نشاط الفتح الاسلامى فى أوربا أن يسير فى خططه العظيمة فكانت ارادة السماء أن يقف المد الاسلامى عند هذا الحد ٠

وقد انعكست آثار الصراع والتعصب الشديد وامتدت آثارها الى هذه المعركة بل امتدت آثارها الى سنوات طويلة من الحكم الاسلامى فى الاندلس ٠

وهكذا كانت معركة بلاط الشهداء نقطة توقف المد الاسلامى الجارف فيها وان كانت هذه المعركة لا تقلل من انه تمت عدة فتوح اسلامية بعدها لكنها لم تكن على نفس الاندفاعة أيام عبد الرحمن الغافقى ٠

كذلك من اسباب ضياع الاسلام فى الاندلس ان المسلين وقعوا فى خطأ شديد عندما تم اختيارهم لان تكون مدينة قرطبة عاصمتهم الدائمة

والتى تقع على نهر الوادى الكبير ذلك لان أقليم الوادى الكبير اقليم فقير اضـافة ان اختيار العاصمة فى هذا المكان يجعل منها عدم القدرة على السيطرة على شبه الجزيرة الاندلسية الواسـعة حيث ان قرطبة تقع فى الجـزء الجنوبى من البلاد وعجز العاصمة عن اتمـام السيطرة على كل الاقليم ولو قدر للمسلمين اختيار طليطلة التى كانت عاصمة القوط وتم اختيارها بدلا من قرطبة لتغير وجه التاريخ ليس فى الاندلس فقط ولكن فى فرنســا وما يجاورها من اقطار اوربية ذلك لان مدينة طليطلة تقع فى وسط الاندلس تقريبـا ومن القلب أو الوسط يمـكن التحـكم أو السـيطرة على كل الديار الاندلسية وتجعل الحكومة المركزية به متصلة الخطوط مع كل المدن والاقاليم كذلك فان طليطلة تقع على مقربة من مدينة محريط « أو مدريد » وهى مدينة اسلامية متوسطة (العاصمة الحالية لاسبانيا) وهى تقع وسط اقليم غنى بكل الموارد حيث المزارع والمراعى الوفيرة ومصادر الثروة المعدنية متوفرة •

وكانت هذه العوامل الطبيعية الثلاث مصدرا أساسيا فى ادارة الصراع ولكن المسلمين عندما تم اختيارهم لقرطبة قد يكون لهم عذرهم ذلك لانهـم كانوا لازالوا يتجهون الى المغرب حيث مصـدر القوة فهم أرادوا أن يكونوا على مقربة من قاعدة الامداد أو على الاقل على صـلة قريبة من قاعدتهم وأن تكون عاصـمة الاندلس اقرب الى قلب دولتهم حيث الاهل والعشـيرة فى المغرب ولقد كان لهذا الاختيار نتـائجه التى انتهت اليهـا حـالة المسلمين فى الاندلس من الضياع •

كذلك فان المسلمين لم يولوا الاهتمام الاكثر للنصف الشـمالى من شـبه الجزيرة الاندلسية ولاسـيما اقليم الثغر الاعلى الذى كانت عاصمته الاندلسية سرقسطة لاسيما واننـا لاحظنا فى ثنـايا عرضـنا لهذا الموضوع أن مدينة برشلونة عاصمة اقليم قطالونيا الواقعـة على نهر ابرو قد وقعت فى أيدى شرلـان فى فترة مبكرة من تاريخ الاسلام فى الاندلس •

واذا نظرنا الى شـبه الجزيرة الايبيرية وجدنا ان النصف الاغنى هو القسم الشمالى الذى ترك لبقايا القوط وسـيطر المسيحيون عليه مسـتقبلا حيث توجـد به أوسـع مناطق انتـاج القمح فى أوربا وهنـاك فى الجـزء

الشمالى من شبه الجزيرة المراعى الواسعة التى تربى عليها الماشية الكثيرة والاغنام الوافرة الصوف وكذلك الخيول وتوجد به مناجم الفحم والحديد ومعادن كثيرة أخرى ٠

واذا كان القسم الجنوبى الذى ساده المسلمون أوسع مساحة الا ان القسم الشمالى الذى سيطر عليه النصارى أصغر حجما لكنه أكثر ثروة وثروته وافرة وتساعد على الاعداد والعدة والقدرة على الصمود ولهذا كان القوم هناك أيسر حالا وغنى ٠

وهذا يفسر لنا ان المعركة بين المسلمين وخصومهم المسيحيين كانت طويلة وعنيفة بل قوية دائما برغم ان المسلمين يملكون القسم الاكبر من البلاد ولكنه الافقر فلم يكن من الاقاليم الداخلة فى نطاق السيطرة الاسلامية سوى اقليم بلنسية فى الشرق ثم ناحية أشبيلية أما فيما عدا ذلك من أراضى المسلمين فكانت جميعها أراضى فقيرة ٠

وهذا شجع المسيحيين على الثورة بعد أن اعتصمت بها فلول القوط والذين عملوا على ميلاد حركة المقاومة النصرانية فى شمال شبه الجزيرة وكيف انضمت اليهم جماعات فيما بعد من وراء جبال كنتبرية فى اقليم اشتورياس وكان عدد من كبار القوط قد لجأ الى هذا الاقليم وعلى راسهم الفارس « ابلاجيوش » أو بيلايو ويطلق عليه المسيحيون اسم بلاى وكان من انصار لذريق فلما اعتصم ومعه بقايا القوط فى ناحية اشتورياس أصبح هو زعيم الامارة وقائد حركة المقاومة بعد أن احست هذه العناصر بوجود خلاف بين الجيش الاسلامى (العرب والبربر) ٠

وكانت فلول القوط قد انكمشت ازاء حملات أمراء الاندلس المتتالية عند بلدة تسمى « كانجاس » واتخذت حصنا لها يصلها مع بلاد أوربا ٠ وقد حاول المسلمون الاستيلاء على هذا الحصن مع عبد الرحمن الغافقى عام ٩٨هـ/٧٦٨م ٠ ثم ارتدوا عنه نظرا لعدم أهميته لانه لم يكن يشغل أهمية فى ذلك الوقت ٠

وفى عام ١١٢هـ/٧٣٠م بعث حاكم امارة الثغر الاعلى سرقسطة

جيشا ضد اشتورياس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية ولكنهم لم ينالوا من سكان هذا الحصن ثم اتحد سكان هذا الحصن مع بلاد كنتيرية وتزوج الفونسو ابنة بلاى وتوحدت اشتورياس وسميت مملكة الجلالقة وهكذا تكونت بقايا القوط مع غيرهم من سكان الجبال وأصبح هناك مقاومة قوطيـة ٠

وهكذا أصبح الفونسو منشأ هذه المملكة النصرانية يستمر فى التوسع على حساب المسلمين حتى استولى احفاده على الاندلس وطردوا المسلمين وقد ساعده الحظ نظرا لانشغال المسلمين بالحروب الاهلية بعضهم مع بعض وكانت هذه الحرب الاهلية تحمل ملامح المعارك الطاحنة ٠

وهكذا كانت الصراعات القبلية والعنصرية العنيفة قد أدت الى رحيل البربر الى بلاد المغرب وترك تجمعاتهم السكنية في الشمال وحدث خلل سكاني اسلامى ساعد نصارى هذه النواحى لكى يجدوا فرضتهم فى سكنى هذه المناطق نظرا لانشغال العرب بصراعهم مع البربر ثم صراع العرب مع العرب وكل هذه الامور كانت تدور على أرض الاندلس قبل عام ١٣٨هـ وهو عام دخول عبد الرحمن بن معاوية الاموى (الداخل) الى الاندلس ٠

وهكذا كان الفشل في ايجاد وفاق سياسى مما جعل عناصر البربر تتواكب فى جماعات متلاحقة قافلين بالعودة الى المغرب ورفض بقائهم فى الاندلس وتركهم مناطق الشمال فريسة سهلة للنصارى ٠

وهكذا لم يمضى منتصف القرن الثامن الميلادى حتى كانت اشتورياس قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر المينيو واستولى الفونسو الاول على اشترقة منتهزا فرصة اخلاء المسلمين (البربر) اياها نتيجة الفتنة بين العرب والبربر ٠

وقبل وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس وفى عهد حكم يوسف الفهرى والصميل بن حاتم والخلافات بين الشاميين واليمنيين امتدت المملكة النصرانية وأثناء انشغال عبد الرحمن الداخل بحرب الثائرين ضده سقطت العديد من القلاع والحصون الشمالية شمال امارة سرقسطة وفى قطلونيا من أيدى نصارى الاندلس ٠

وقد أتاحت الظروف فى داخل الاندلس الى أن تظهر على سطح الاحداث امارة صليبية أخرى مستقلة فى بلاد البشكونس عرفت باسم نبرة وقاعدتها بنبلونة وظهرت ثلاث امارات صغيرة بجوارها هى امارة أرغون وشبرب ·

وهكذا وطدت هذه الامارات امارة نبرة Navara ولقد تركت هجرة العناصر البربرية من الاندلس منطقة فراغ بين مملكة الجلاقة ونبرة وبين بلاد المسلمين حتى حوض نهر الدويرة وكان النصارى يحاولون الامتداد اليها عندما يغفل المسلمون عنها وهكذا امتد الحال حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ·

وعندما دخل الامير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان بن الحكم بن أمية الاندلس عام ١٣٨هـ/٧٥٥م كانت الاندلس فى حالة التردى والانقسام والضعف والصراع وتضرب الفتنة باطنابها فى جميع الارجاء والصراع على أشده والسلطة الفعلية لم تكن فى يد يوسف الفهرى ولكن فى يد الصميل بن حاتم ·

وهكذا فانه فى فترة حكم الامير عبد الرحمن الداخل الذى استمرت ١٣٨ ـ ١٧٢هـ أربعة وأربعين عاما قضى معظمها يصارع الاعاصير والاضطرابات الداخلية والعمل على ازالة الحواجز والعقبات وخوض معركة التحدى التى تصدى لها هذا الرجل وخرج منها كهلا يصبغ رأسه بالشيب بعد أن قضى أكثر من عشرين عاما وهو يصارع كل هذه الاحداث والحوادث التى لاحقته المؤامرات أكثر من ثلاثين عاما لكن رغم الجهد الذى بذله عبد الرحمن الداخل طوال هذه السنوات الا انه كان له الفضل فى توحيد الاندلس جغرافيا وسياسيا وطوع الطموحات والزعامات المحلية التى كانت تقف وراء هذا التمزق وهكذا خلق عبد الرحمن الداخل دولة موحدة تتمتع بأجهزة مدنية وعسكرية لاول مرة فى تاريخ الاندلس الاسلامية بعد أن ظلت طوال اربعين عاما ٩٢هـ/١٣٨هـ تفتقد الى مفهوم الدولة حتى انه عند وصول عبد الرحمن الداخل الى الاندلس فانه كان يتقاسم الحكم فيها اثنان أحدهما له السلطة الفعلية وهو الصميل بن حاتم والآخر وهو يوسف الفهرى يمتلك فيها الاسم والجاه ·

وهكذا آلت البلاد الى ابنه هشام الاول ١٧٢ ـ ١٨٠هـ/٧٨٩ ـ ٧٩٦م وقد كانت فترة حكمه هذه القصيرة مليئة بالاحداث ومنها الثورة ضده من حكام الشمال (سرقسطة) وآلت الامور الى ابنه الحكم الربض ١٨٠ ـ ٢٠٦هـ/٧٩٦ ـ ٨٢١م) ٠

وكانت فترة حكمه قد شهدت ثورة أهل الربض بالقرب من قرطبة والتى أخذت منه جهدا طويلا وحدثت مصادمات عنيفة وحدثت عدة مؤامرات ضده وكل هذه الامور كانت تعوق نظرة الدولة الى التقدم الداخلى ومحاصرة العدو القابع على الحدود الشمالية ٠

وكانت مشغولية الحكم فى احباط المؤامرات الداخلية قد دفعت حكام الامارات المسيحية الشمالية الى استغلال الاحداث الداخلية والضغط باتجاه الجنوب ٠

وفى عهده أصيبت الدولة الاموية بأكبر خسارة ذلك انه فى عام ١٨٥هـ/٨٠١م قام لويس بن شرلمان بتوجيه أول ضربة خطيرة بسقوط برشلونة العاصمة الشمالية فى أيدى الفرنجة دون أن تتمكن القوات الاندلسية في استرداد ما ضاع من أراضى بل على العكس حلت بها هزيمة قاسية عند نهر الابرو Ebro وقد دفعت هذه العملية والاستيلاء على كبرى مدن الشمال بأن يقوم لويس بن شرلمان عام ١٩٢هـ وفى أثناء فترة حكم الحكم بالهجوم على طرطوشة لكن حملته فشلت وهذا يدل على نية مسيحى الشمال فى التوسع على حساب المسلمين والامتداد جنوبا توطئة لليوم الموعود الذى يحلمون فيه بطرد كل المسلمين من الاندلس ٠

وهكذا شهدت فترة حكم الحكم منافسات عائلية وتحركات ثورية وبداية الضعف فى الصف الاسلامى بسقوط مدينة برشلونة ولولا شجاعة الحكم ومبادرته السريعة لسقط حكم الامويين لكن يتولى الامور ابنه عبد الرحمن الاوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/٨٢٢ ـ ٨٥٢م) وفى عهده شهدت البلاد ظهور الصراعات الحزبية بصورة أكثر فاعلية وقد بذل الامير الاموى جهده لاطفاء نار الصراع الملتهبة ٠

وكان ذلك عام ٢٠٧هـ/٢١٣هـ ٠ ثم ظهرت ثورة البربر بصورة اكثر

قوة عام ٢١١هـ/٨٢٦م وقدر لعبد الرحمن الاوسط أن يقضى على هـــذه الثورة لكن ظهرت ثورة البربر فى مدينـــة مردة بالغرب من قرطبـــة عـــام ٢١٣هـ/٨٢٨م وتحالف قائد الثورة البربريه مع الملك الاسبانى الفونسو الثانى وغيره من أمراء الشمال المسيحيين اضافة الى مساعدات عسكرية قدمهـــا لويس بن شرلمان ملك الفرنجـــة لمســاعدة الثـــورة ضـــد الامير عبد الرحمن وللفت من عضده واشغاله عن النظر الى ما يجرى فى الشمال من تقدم قوات أوربا للسيطرة على ديار المسلمين واستطاع حاكم الاندلس أن يكشف تحالف ثورة البربر مع مسيحى الشمال فانصرف المسيحيون عنـــه وان كان حكام المسيحية يستخدمونه كاداة لتحقيق مكاسب سياسية لبلادهم .

وظهرت ثورة أخـــرى فى طليطلة عام ٢١٤هـ/٨٢٩م وهكذا قدر لحكام بنى أمية ان يقاوموا الثورات والمؤامرات الداخلية بدلا للتفرغ للعمل الداخلى وتقوية وحدة الصف والتفرغ للخطر الخارجى القادم من الشـــمال ولكن الحركات الانفصالية العديدة التى شهدتها الاندلس فى تلك الفترة قد كبلت الدولة بأثقال شديدة واعطت الفرصـــة للقوى المسيحية أن توحد صفوفها وتتوسع فى الاراضى الاسلامية وهذا واضح فى صلب البحث والفصـــول السابقة حيث كانت هذه القوى المعـــادية تستغل هذه الظروف وتحاول أن تحقق هدفها فى طرد المسلمين من الاندلس .

وقـــد شـــهدت فتـــرة عبـــد الرحمن الاوســـط تحـــركات مســـيحية داخل العاصـــمة قرطبة بعد أن ســـبق قيـــام ممالك الشمال بالثورة وقـــد اســـتغل هؤلاء المسيحيين حرية العقيدة السائدة فى الاجـــواء الاندلســـية ووجود أمير مثقف ومســـالم على رأس الســـلطة وظهرت حـــركة مسيحية متطرفة انضـــم اليها فريق من القساوسة الشـــبان .

وكانت خطة حركة الرهبـــان استثارة السلطة الاموية وجر العاصمة الى اضطرابات دموية لكن الامير عبد الرحمن فوت عليهم الفرصة بعـــد أن ظلت الاسقفيات المسيحية خارج العاصـــمة قرطبة وفى كل أنحـــاء البـــلاد تمارس نشاطها الدينى بحـــرية أثناء الحكم العربى الاسلامى .

لكن جو الحرية الدينية التى اشتهر به حكم المسلمين للاندلس قـــد جعل الحركة الصليبية لاول مرة تأخذ ملامحها على المستوى الاوربى .

وفى عهد ابنه الامير محمد شـهدت البلاد قيـام النورمان القـادمين من أقصى الشمال الاوربى بعدة غزوات للاندلس وكذلك قويت النزعة الحربية لدى امارات الشمال وقد شهدت البلاد فترة اختـلال الامور فى عهد محمد ابن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٣٠٠هـ/٨٥٢ ـ ٩١٢م) الذى حكم اثنين وستين عاما هجريا ٠

وشهدت فترة حكمه حدوث حركات استقلالية مكبوتة ووثب الطامعون الى السلطة التى عصفت بامارة الامويين فى الاندلس ٠ وهكذا لم تخل الفترة الطويلة من ١٣٨ ـ ٣٠٠هـ من المؤامرات والحركات الانفصالية والثورات والعـدوان الخارجى ٠

وكل هذه الامور سـاعدت على عدم توطيد دعائم الدولة وتقـوية دعائم البنـاء وبنـاء قوات حربية وبحرية قادرة على التصدى والتحـرك للتوسع واسترداد الارض المفقودة التى استولى عليها مسيحى الشمال من المسلمين ٠

وهكذا صرف أمراء هذه الفترة كل جهودهم وأوقاتهم لمعالجة اخطر الازمـات السـياسية التى كانت تتعـرض لهـا الانـدلس فى تاريخهـا الاسـلامى ٠

كما ان البلاد شهدت ثورة من أهم الثورات فى التـاريخ الاسـلامى وليس فى تاريخ الاندلس أو الغرب الاسلامى بل فى تاريخ الدولة الاسلامية تلك هى ثورة عمر بن حفصون التى بدأت عام ٢٦٧هـ ـ ٨٨٠م فى عهـد الامير محمد بن عبد الرحمن واستمرت فترة ابنه المنذر بن محمد وعبد الله ابن محمد واستمرت مشكلة هذه الثورة يتوارثها الامراء الامويون وظلت مستمرة أيام الخـلافة الاموية التى أعلنت فى عهـد عبد الرحمن النـاصر ٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ/٩١٢ ـ ٩٦١م ٠

وقد استمرت هذه الثورة الحفصية نحـو مـا يقرب من أربعين عاما وانتهت عام ٣٠٥هـ/٩١٧م بوفاة ابن حفصون واخذت جل اهتمام السلطة دون أن تنال منها الا بعد فترة طويلة ساعدت على تحـرك امارات الشمال المسيحية ٠

وهكذا شهدت الفترة قبل تولى عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) اختلال السيادة الاسلامية وانتكاستها لاول مرة منذ ارتباط الاندلس بالاسرة الاموية فقد تراجع نفوذ العاصمة قرطبة وفقدت قوتها السياسية وقد استمرت هذه الفترة أكثر من سبعين عاما قويت فيها حركة الامارات المسيحية حتى انه قد أطلق بعض المؤرخين على هذه الفترة اسم دويلات الطوائف الاولى مقارنة بفترة ملوك الطوائف التى نشأت أعقاب سقوط الخلافة ٤٢٢هـ/١٠٣١م ٠

وتحولت الاندلس الى دويلات صغيرة فى وقت عجزت فيه السلطة المركزية فى قرطبة فى مواجهة هذا التيار الاستقلالى الذى أحاط بالعاصمه من كل الجهات (اعطاء فرصة ذهبية للعدو المسيحى القابع فى الشمال يقصص أجزاء الدولة حصن وراء حصن وقلعة وراء قلعة ومدينة وراء مدينة حتى استطاع فى النهاية أن يبتلع كل الاندلس ٠ وسير الاحداث التى تعرضنا لها أعطاه هذه الفرصة) ٠

وهكذا بدأت مأساة التفسخ السياسى والتقوقع الاقليمى وظهور الامارات الصغيرة حالة من المأساة فى الاندلس الاموية وقد بدأت السلطة تتهاوى بل تتداعى للسقوط فى الربع الاخير من القرن الثالث الهجرى وكانت النهاية المحتومة قد قربت أن تنال من العاصمة قرطبة والاسرة الاموية الحاكمة ١٣٨ ـ ٣٠٠هـ وان الدولة الاسلامية الاموية الاندلسية فى طريقها الى الزوال وان بقى بعض من الحطام والرماد ومن بين الامل واليأس تخرج شخصية أموية تعبر بالاندلس الى أقصى ازدهار السيادة الاموية فى الاندلس ذلك هو عبد الرحمن الثالث الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ ـ ٩١٢ ـ ٩٦١م) ٠

وقد وقع عليه كما وقع على جده الاعلى فى السابق عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ١٧٢هـ) اعادة الوحدة فانه فعل نفس الشىء وأعاد للبلاد قوتها ووحدتها بالجهد والكفاح عن طريق القوة والاخلاق وقد خاض عبد الرحمن الناصر اثنين وثلاثين عاما فى اخضاع البلاد الثائرة واخضاع كل الثوار وتهيئة البلاد لمرحلة جديدة تستطيع أن تواجه الاخطار الداخلية والخارجية عاملا ما وسعه العمل على وقف حالة

الانهيار التى وصلت اليها البلاد والاخذ بيدها الى مرحلة من مراحل القوة والتمكن وتثبيت القواعد ٠

وقد كانت الحدود الشمالية لامارة قرطبة مهددة بأخطار جسيمة قبل أن يتولى عبد الرحمن الثالث عرش الامارة وأن الفونسو الثالث استولى على عدة مدن أيام حكم الامير محمد بن عبد الرحمن الثانى وابنه المنذر واتخذ ليون عاصمة وتحالف مع أمراء الثغر الاعلى سرقسطة لكن الفونسو الثالث فى بداية حكم عبد الرحمن الناصر استولى على مدن جديدة منها (قلمرية ، أنشية ، وحصن اشترقة وسمورة وحصن ليون) واسكن هذه الاماكن أعداد كبيرة من المسيحيين من نصارى الاندلس الذين هاجروا الى الشمال ٠

وعندما تولى عبد الرحمن الثالث كانت مملكة اشتورتاس التى اصبحت تسمى مملكة ليون قد امتدت حتى وصلت الى المسافة ما بين نهرى المينيو الدويرو ٠ وقد انتهز أمراء بنيلونة وغيرهم من أمراء الامارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوب جبال البرت فرصة النزاع الداخلى وتمكنوا من التقدم نحو الجنوب وتهديد الحصون والقلاع الاسلامية حتى طليطلة وجرندة وغيرها من الحصون ٠

وقد توفى الفونسو الثالث قبل تولى عبد الرحمن الناصر الحكم بعامين (٢٩٨هـ/٩١٠م) وخلفه ابنه (اردنو الاول) وقد تمكن هذا من تثبيت حدود دولته بالامتداد فيما يعرف بأراضى قشتالة الجديدة واستولى على آيسلة وسقوبية ٠

وكانت هذه بلاد اسلامية وقد تمكنت الدولة المسيحية من الامتداد قرب (جرندة) وبذلك كان على عبد الرحمن الناصر أن يواجه موقفا بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر المتوسط الى ساحل المحيط الاطلسى ٠

وفى عهد عبد الرحمن الناصر ارسل قواته الى الشمال منذ عام ٣٠٤هـ ٩١٦م لكن القوات المسيحية استطاعت هزيمة القوات الاسلامية فى عام ٣٠٥هـ/٩١٧م واستطاع ـ اردينو الثانى » أن يستولى على بلدة (غرماج)

وبايرة وكذلك استولت قوات ملك نابرة « سانشو غرسيا » استولت قواته على طلبيرة غربى مدينة طليطلة على نهر تاجة ٠

وهكذا فى عام ٣٠٥هـ/٩١٨م هوجمت أراضى طليطلة وتاجـــرة وأحرق المســجد الجـــامع للمدينـــة ٠ لكن فى عـــام ٣٠٨هـ/٩٢١م انـــزل عبد الرحمن الناصر ملك ليون ونبرة هزيمة قاسية ولقنه درسا لن ينساه وأنزل هزيمة قاسية بهم ٠

وقد طالب ملك نبرة الصلح وعرض ان يكون تابعـــا لعبد الرحمن الثالث الناصر وهذه الحملة الكبيرة التى قادها عبد الرحمن الثالث ورجاله فى كل بلاد الشمال هى التى تســـمى بحـــملة (موش) وتوفى الملك اردنيو الثانى بعد ذلك بقليل وتوقفت بذلك أعمال العدوان على بلاد المسلمين وقام عبد الرحمن فى عام ٣١٢هـ/٩٢٤م بجيش كبير وواصل بعد ذلك ضرباته وغزواته فى بلاد الشمال حتى خافه ملك ليون رذبير الثانى واضطر جميع ملوك النصارى الى طلب الصلح مع الخليفة عبد الرحمن الناصر وأصبحوا جميعا أتبـــاعا له وخاضعين للسيطرة الاسلامية دون تغير فى الحدود ٠

لكن ذلك الصلح كان هدفا تكيتيكيا اذ أن الهدف الاصـــلى هو طـــرد المسلمين لكنهم عندما رأوا انهم لا قبل لهم بقوة الاندلس الحالية (٣٠٠هـ ـ ٣٥٠هـ) قبلوا الصـــلح والانطواء تحت كيان الخـــلافة الاموية الاندلسية استعداد لجولة قادمة بل جولات أخـــرى قادمة لان المخطط هو نفس المخطط لا يتغير فى جوهره ولكن الانحناء للقوة الاسلامية حتى يحين الوقت لفترة ضعف أخـــرى يحققون فيهـــا أهدافهم ٠

لكن مهما تكن فترة حكم عبد الرحمن الناصر وقوة الدولة فى عهده فان الحدود الشمالية لم تشهد أية تغيرات ملحوظة ولم يحدث أى تغير على الشريط الحدودى مع الاســـبان وظلت العلاقة تتأرجح بين الســـلم والحـــرب فى السنوات المتبقية من عهد عبد الرحمن الناصر ٠

لكن شـــعار القضـــاء على العرب المسلمين فى أسبانيا لم ينتهى أو يخفت بل ظل الامل كما هو وهكذا استطاع عبد الرحمن الناصر حمـــاية دولته من غزوات التكتل الاسبانى المسيحى المتربص وتفشيل مخططـــاته

التوسعية لاسيما ان الملك رميرو الثانى كان معروفا بنزعته الصليبية المتطرفة وهكذا قدر لمخطط أردونيو أن لا يحقق أدنى نجاح فى عهد الناصر عبد الرحمن (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) ٠

وان كان عبد الرحمن هذا قد حقق من مكاسب عسكرية وتغيرات جغرافية باستيلائه على عدد من المواقع المهمة التى خضعت مؤخرا للاسبان وكانت هذه الانتصارات كافية لتجميد موجة التغلغل العسكرى المسيحى فى البلاد ٠

وهكذا اثبتت الايام صلابة النظام الاموى فى عهد الناصر وهكذا قدر للناصر بما يملك من قدرات غير عادية أن ينقذ الاندلس من الضياع وأعطاها بعدا آخر فى العلاقات الدولية واستيقظت الاندلس فى عهده من جديد بعد أن كانت قبل توليه فى حالة التصدع والانهيار والتهالك وكانت فى أسوء حالتها منذ عبد الرحمن الاول وهكذا كان عبد الرحمن الاول (الداخل) وعبد الرحمن الثانى الاوسط وعبد الرحمن الثالث قمم الاسرة الاموية فى الاندلس ٠

وفى حقيقة الامر فانه مهما يكن من أعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر ضد الامارات المسيحية وخضوعها للخلافة فى قرطبة فانه لم ينجح فى ازالتها أو زحزحة الحدود القديمة او استعادة مدينة برشلونة أو غيرها من المدن الكبرى المهمة ٠

وتوفى عبد الرحمن الناصر فى رمضان ٣٥٠هـ/١٥ اكتوبر ٩٦١م بعد أن حفظ للوجود الاسلامى فى الاندلس كيانه وحرم العدو من تحقيق مآربه فى النيل من أرض الاسلام وتأخرت حركة العدوان على المدن الاندلسية الى مراحل اخرى لاحقة ٠

وآلت مقاليد الحكم الى ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) وهذه آخر فترات قوة الاندلس اذ فترة الحكم كانت امتداد لفترة والده وفى عهده لم تشهد البلاد أى من حالات التعدى سوى وصول بعض سفن للنورمان وتم صدها وقد ظنه حكام الشمال الاسبانى ضعيفا نظرا لانشغاله بالعلم والبحث والدراسة فبداوا بالهجوم لكنه استطاع رد

المعتدين وأمن حدود بلاده بعد أن نقض ملك ليون اتفاق الهدنة المعقود مع الناصر ٠

وهكذا ساءت العلاقات بين الطرفين ، لكن تمت هدنة مؤقتة بين الطرفين ، وفى أواخر عهد الحكم المستنصر عادت الممالك الاسبانية موحدة متماسكة وشعرت بأنها قادرة على استئناف الحرب ضد الخلافة الاموية ، لكن الامارات المسيحية هزمت عام ٣٥٢هـ/٩٦٣م وعقدت معاهدة سلام أخرى غير ان معاهدات السلام مع الاسبان لم تكن لها عادة ذلك المقبول التنفيذى فلا تلبث أن تتهاوى

ولهذا فان مفهوم استمرار الحرب فى هذه المنطقة كان أمر عاديا بل طبيعيا ٠ وآلت الامور بعد الحكم الى ابنه هشام المؤيد (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ) وكانت فترة حكمه هذه بداية الانهيار فى قوة الخلافة وبدأت الامور تأخذ أبعاد مغايرة فقد أمسك بزمام الموقف محمد بن أبى عامر (٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ) ورغم أن محمد بن أبى عامر هذا قد استبد بالامر ولم يكن الخليفة هشام المؤيد الا صورة للخلافة وأراد أن يؤكد وضعه كوزير أول فقد قام بعدة غزوات منذ عام ٣٧٤هـ/٩٨٥م بحملة واسعة على اقليم قطلونيا ودخل برشلونة (أرض الاسلام المسلوبة) منذ عهد لويس بن شارل مارتل عام ١٨٥هـ/٨٠١م لكنه انصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو يقيم وجود اسلامى ثابت ٠

وكانت كل غاراته التى بلغت أكثر من اثنين وعشرين غزوة بمعدل غزوة كل عام عبارة عن هجوم خاطف لم يكن أبدا وضع قواعد ثابتة واجلاء المسيحيين عن هذه الاراضى التى كانت تخضع للاسلام ٠

وكانت آخر غزوة قام بها عام ٣٩٢هـ/١٠٠٢م وقد احتل أراضى قشتالة لكنه توفى بعد ذلك بقليل وقد توفى دون أن تلحق به هزيمة واحدة بل كان النصر حليفه فى كل الغزوات التى قام بها ضد الامارات المسيحية وقد استطاع أن يغير سياسة الاستراتيجية الاسلامية التى كانت أسلوبا دفاعيا فى عهد أسلافه الى هجومية تترصد تحركات العدو وتوقع به الضربات المتوالية ولقد كانت سنوات حكمه الطويلة كابوسا أذاق ملوك النصرانية الاسبانية الخوف والدمار والهزائم ٠

ثم بدأت عوامل الضعف تدب فى أوصـال الدولة الاندلسية فى عهـد ولديه المظفر وعبد الرحمن شنجة وشهدت فترة عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر أخطر مراحل الانهيار والضياع فى الاندلس اذ استطاع أن يحصل من الخليفة الطفل هشام المؤيد على اعتراف بولايته العهد وهذه المحاولة كانت الاولى فى تاريخ الاسلام لان الخلافة فى ذلك الزمان متعارف عليها بأنهـا للقرشيين دون سواهم فجـاء الوزير العامرى يضـع الاندلس فى كف القدر واقبلت سنوات الضـباب والظـلام الدامس الحـالك على الاندلس وبدأت الصراعات التى استمرت من ٣٩٩هـ ـ ٤٢٢هـ ما يقرب من نصف قرن كانت الاندلس تتقاذفها الامواج والاعداء المتربصون خلف الحدود وجاءت الطامة الكبرى بل الواقعة التى ما بعدها واقعة عندما أعلن أبى حزم الاجهورى شيخ الجماعة فى قرطبة العاصمة فى منتصف ذى الحجة عام ٤٢٢هـ الغاء الخلافة واسدل الستار على حكم بنى امية وخلافتهم الى الابد ٠

وشهدت فترة الحـكم بين ملوك الطوائف التى انقسم اليهـا الاندلس والتى وصلت الى عشرين أو اقل أو اكثر ولاية أسـوء فترات الاندلس وهى السبب المباشر والقوى لضياع الاندلس كلية فلولا قرار الغاء الخلافة أو تولى محمد بن أبى عامر مقاليد الامور وازاحة الخليفة هشام المؤيد من السلطة الفعلية لمـا كانت كل هذه الامور قد عجلت بالانهيار الكامل والاسراع فى فقد الديار وترحيل الاهـل أو طردهم أو قتلهم أو احـراقهم أو تعـذيبهم أو تنصيرهم ٠

وكان أمراء الطوائف (أمراء الاقزام) فى حروب طويلة بعضهم مع بعض وكل منهم يريد أن يوسع امارته على حساب الآخرين مستعينا بذلك بقوات من النصارى وشهدت فتـرة أقزام الطوائف عـام ٤٧٨هـ/١٠٨٦م سقوط طليطلة وبذلك دخلت طليطلة بكل أراضـيها فى مملكة ليون وقشتالة وسقطت كذلك قلاع وحصون أخرى خارج نطاق امارة طليطلة التى كانت أكبر الامارات الاسلامية فى البـلاد وأصبح ألفونسو السادس بالاستيلاء على طليطلة وشنترية ومدينة سالم وقلعة أيوب ودروقة فى استطاعته أن يملى ارادته على كل الاندلس الاسلامية واصـبحت الامارات الطـائفية الاسلامية تدفع له الجـزية وسعت هذه المملكة المسيحية فى الاستيلاء على

بقية شبه الجزيرة وأحس أمراء الطوائف ان الاندلس فى طريقه للضياع والفقدان بعد هذا النصر الكاسح الذى حققه ألفونسو السادس باحتلاله امارة طليطلة وغيرها من البلاد ٠

ولقد كان من الممكن أن يكون القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى نهاية الوجود الاسلامى بأكمله من البلاد ومضت كل الامارات المسيحية تقتطع ما تستطيع من الاراضى الاسلامية وسعى كبار فرسان النصارى لالتهام الاراضى ٠

لكن كانت دعوة المرابطين خير قرار اتخذه ملوك الطوائف بعدما أحسوا بالخطر يحيط بهم جميعا من كل جانب وأن البلاد غارقة فى دماء لا قدر للمسلمين تحملها فكان عبور الامير المرابطى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين الى الاندلس عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وبعد سقوط طليطلة بأشهر قليلة ٠

وعندما أحس ألفونسو السادس ملك قشتالة بنزول قوات المرابطين رفع الحصار عن امارة سرقسطة التى كان يسعى لاحتلالها وراسل ملك أرغون وهو الامير شانجة أو سانشو وطلب نجدات من كل دول أوربا من بابا روما وفرنسا والمانيا وايطاليا وسارت أعداد كبيرة وكانت قوات المرابطين قد تقدمت شمالا بسرعة مذهلة للوقوف فى وجه أطماع الفونسو والحيلولة دونه من التهام مدن اسلامية أخرى وتقدمت قوات المسلمين شمالا حتى قرب مدينة بطليوس امارة المتوكل بن الافطس واستعدت كل قوات أوربا فى صباح يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ اكتوبر ١٠٨٦م ٠

كانت قوات المسلمين تحقق نصرا كبيرا على قوات النصارى فى معركة الزلاقة بل بادت معظمها ولم تبقى الا قوات وفلول قليلة وانهزم الفونسو السادس وهرب بمن معه من قوات لكن الموقف الاسلامى انتابه بعض التخاذل بعد عبور يوسف بن تاشفين مرة ثانية عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م ٠

وقرر يوسف بن تاشفين توحيد الاندلس فى جبهة واحدة فيما عدا امارة سرقسطة خط الدفاع الاول شمالا ضد الوجود المسيحى وأنهى يوسف عصر ملوك الطوائف الذى بدأ منذ عام ٤٢٢هـ أو قبل ذلك واستمر على ذلك الوضع حتى عام ٤٨٣هـ ٠

وكانت فترة ملوك الطوائف أضعف حلقات التاريخ الاسلامى فى الاندلس ان لم تكن أسوء حلقات التاريخ الاسلامى بعصوره المختلفة فقد آلت الاندلس الى الخراب والدمار والتقوقع مهما يكن ما قيل عن بعض المظاهر الحضارية ·

وقد كسب المرابطون انتصارات عسكرية كبيرة فى الاندلس الى جانب معركة الزلاقة وقد وصل زحفهم شمالا الى مدينة شنترية بالقرب من طليطلة وحاصروا طليطلة وفى عام ٥٠٣هـ قام جيشا مرابطيا بغزو أراضى طليطلة للمرة الثانية وظل المرابطون يحققون انتصارات كبيرة وكثيرة طوال فترة وجودهم وذلك خلال أكثر من نصف قرن اذ نجد ان معركة الزلاقة كانت عام ٤٧٩هـ نجد المرابطون يحققون انتصارات بالغة فى الثغر الاعلى أقصى شمال الاندلس فى عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م وحقق المسلمون انتصارات بالغة على قوات الفونسو السادس ·

وهكذا بينما كان المرابطون يواصلون جهادهم مع نصارى الاندلس وعاملين اقصى جهودهم فى العودة بالاندلس الى حدوده الشمالية التى كان عليها يوم أن كانت حدودها تمتد شمال جبال البرانس ، كانت هناك ثورة ضدهم بالمغرب يقوم بها الموحدون بقيادة المصامدة البربر وهكذا نجد انه بينما كان المرابطون يحققون نصرا تلو النصر ويستعيدون ما ضاع من ديار المسلمين مثل بلنسية وغيرها من المدن الشمالية الهامة بدات الهزائم تتوالى عليهم فى الاندلس لانهم اضطروا الى سحب قواتهم من الاندلس وأدى انسحاب هذه القوات الى سقوط سرقسطة (الثغر الاعلى) وسقطت المرية وسقطت طرطوشة وسقطت لاردة ·

وبعد تاشفين بن على بن تاشفين عام ٥٣٧هـ/١١٤٥م توالى سقوط العواصم الاندلسية فى أيدى النصارى بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن انفسهم فى المغرب ضد الثورة الموحدية · وهكذا سقطت الامارة المرابطية عام ٥٤١هـ/١١٤٩م ·

وهكذا كانت دولة الموحدين مهما يكن القول عن دورها فى الاندلس والعالم الاسلامى المغرب قد ساهمت فى ضياع الاجزاء الهامة من المدن الشمالية الاسلامية الاندلسية وخضوعها للنصارى حتى اننا نجد انه

عند قيام الموحدين فان الحكام المسيحيين عملوا على ضم ما بقى من بقايا الاراضى الاندلسية الى دولتهم والتى بذل ابن تاشفين دورا هاما فى بقائها خلال اكثر من نصف قرن وهكذا اقترن دور المرابطون فى معارك الاندلس بالصراع ضد كل دول وربا والبابوية وكل القوى الصليبية ووضع طريقا لجهاد المقاومة فى الاندلس .

وعندما عبر الموحدون (٥٤٠ - ٦٢٠هـ/١١٤٥ - ١٢٢٣م) عبر عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين الى الاندلس واستقر فى أشبيلية وضم الى ملكه ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة وكانت حدوده تمر شمال نهر الوادى الكبير وتبدأ فى الغرب عند الاشبونة وتنتهى الى الشرق عند مرسية .

وقد ترك الموحدون قرطبة العاصمة الاسلامية الاولى واتخذوا اشبيلية الواقعة جنوبا جدا عن قرطبة عاصمة لهم واتخذت قرطبة المقر العسكرى بعد أن ضاعت مدينة سالم التى كانت مقر الحشد العسكرى الاسلامى قبل سقوطها فى أيدى القشتاليين .

وتمكن عبد المؤمن بن على أمير الموحدين من توحيد معظم أراضى الاندلس ، وقامت البرتغال فى غرب الاندلس فى عهد ملكها « ألفونسو انريكى » بالعمل على توسيع حدودها على حساب المسلمين واستعانوا بقوات من الانجليز والالمان والهولنديين والفرنسيين المتجهين للحروب الصليبية فى بلاد الشام واستطاع بمعاونة هؤلاء الصليبيين الاستيلاء على بعض الاراضى (شلب وقصر أبى دانس) وتمكن الموحدون من استعادة شلب لكن قصر أبى دانس وكان من أكبر حصون المسلمين لم يعد الى الابد الى الاسلام بعد ذلك .

وقد قام الموحدون بجهود جبارة من أجل المحافظة على ديار المسلمين فى الاندلس وقام الامير أبى يعقوب يوسف ثانى خلفاء الموحدين بدور بارز ثم خلفه ابنه أبى يوسف يعقوب والذى تلقب بالمنصور واستعاد مدينة شلب وقد شهدت فترة حكمه تولى الفونسو الثامن حكم امارة قشتالة وليون وقام هذا الاخير فى عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م بمهاجمة أراضى المسلمين فعبر أبى يوسف

الى الاندلس فى جيش ضخم عام ٥٩١هـ/١١٩٥م وكان قاصدا طليطلة لتحريرها من أيدى المسيحيين ٠

ولكن الفونسو سار اليه مسرعا نحو الجنوب الاندلسى ، وكان هذا الامير المسيحى قد استنجد بكل أوربا وباركت البابوية هذه الحشود ومعه كل

ملوك أسبانيا النصرانية وعند حصن الارك بالقرب من قلعة رباح دارت معركة حاسمة فى التاسع جمادى الاولى ٥٩١هـ/ يونيو ١١٩٥م وهزمت جيوش أوربا المسيحية وحقق المسلمون نصرا حاسما وتمكن المسلمون من كسر شوكة هذه الموجة النصرانية الزاحفة الى الجنوب ٠

وكانت هذه المعركة لا تقل أهمية عن معركة الزلاقة ٤٧٩هـ وكان لها أبعد الاثر فى تقوية الجبهة الاسلامية لفترة تزيد عن قرن أو أكثر من الزمـــان ٠

وبعد تلك المعركة تقدم الفونسو الثامن بطلب عقد هدنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م لكن الفونسو وأوربا لم يكن لهم أن يسكتوا على هذه الهزيمة وهم الذين يحلمون بطرد بقايا المسلمين من الاندلس ٠

وفى عهد محمد الناصر ابن المنصور عاد الفونسو الثامن الى عدوانه على الاندلس وعبر الناصر الى الاندلس عام ٦٠٧هـ/١٢١١م دارت معركة عند حصن العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٣م كانت كل قوات أوربا الصليبية تحشد قواتها بها وبارك البابا (أنوسنت الثالث) هذه المعركة وانتهى اللقاء بهزيمة قوات الموحدين وشجعت هذه الهزيمة كل دول أوربا للمشاركة فى الصراع الدائر على أرض الاندلس حيث كانت معركة العاشر من صفر ٦٠٩هـ/١٦ يوليو ١٢١٢م قاصمة الظهر بالنسبة لمستقبل الاسلام فى الاندلس وضاعت جبهة الوادى الكبير وسقطت مدن كبرى مثل يابسة وليدة وقرطبة واشبيلية ومرسية والمرية وغيرها من عواصم الوادى الكبير ٠

وعندما انتاب الضعف دولة الموحدين انعكس هذا على الاندلس وبدأت تصفية كل ما بقى فى أيدى المسلمين من مدن ولم تبق الا مملكة غرناطـــة ٠

وهكذا قرب الستار أن يستدل على دولة الاسلام العظمى فى الاندلس

وبدأت الحلقات الاخيرة تنتهى فلم يعد هنـاك الا ولاية غرناطة التى ظلت تقـاوم الخطر المسيحى منـذ عام ٦٢٦ ـ ٨٩٧هـ/١٢٣٢ ـ ١٤٩٢م والتى استمرت تحـكم هـذه الديار مـا يقـرب من ثلا ثة قـرون ودارت احـداث على أرض غرناطة اسـتدعت تدخل امـراء بنى مرين حـكام المغرب للوقوف بجانب اخوة الاسلام فى الاندلس ولاداء الواجب الاسلامى ولا شك ان قيـام بنى مرين بواجب المرابطة والجهاد فى الاندلس كان له أهمية بالغـة فى الحفاظ على الوجود الاسلامى بالاندلس ٠

لكن كيف فالعدو يتربص بالديار ويعمل على احلال الضعف بما بقى من باقية الديار ٠ وهكذا تتـابع الانحسار والانكسار وغلقت الابواب أمام قدوم أدنى عون من المغرب ٠

وتم التحالف بين ملكى قشتالة وليون فى ٨٩٧هـ/١٤٩١م وكان هذا التحالف اثـره السىء على مصير غرناطة اذ سيكون هذا التحالف من اكبر الاسباب لضياع مملكة غرناطة ٠

وهكذا شهد عصر آخـر حكام الاندلس الامير أبو عبد الله محـمد (الحادى عشر) ٨٨٧ ـ ٨٩٧هـ نهـاية عصر الاسلام نهائيا فى الاندلس بعد أن دام أكثر من ثمانية قرون اذ فى الثانى من ربيع الاول ٨٩٧هـ الثـانى من ديسمبر ١٤٩٢هـ دخـل الملكان الكاثولكيان قصر الحمراء (الملك فرناندو الرابع والملكة ايزبيلا الثامنة ملكة قشتالة ٠ وانتهى الوجود الاسلامى فى الاندلس ٠

ومن الغريب ان الذى يزور المتحف الحربى بالعاصمة الاسبانية مدريد يستطيع أن يشـاهد وثيقة الاستسلام الموقعة بتاريخ الثانى والعشرين ٢٢ رمضـان ٨٩٨هـ/يوليو ١٤٩٢م وهى موافقة أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) آخـر ملوك غرناطة ، على ترك الاندلس نهائيا وهى باللغتين العربية واللاتينية ٠

وهكذا اسـدل الستار على آخـر فصل هذه الدراسة وهو الفصل الحادى عشر وهو خاتمة المطاف حيث يستطيع القارىء أن يدرك أبعـاد الرحـلة الاسلامية على أرض القارة الاوربية وكيف كان المسار اسـلاميا

طبيعيا تدفعه راية القرآن الكريم ويلتف حولها تلاميذ المدرسة القرآنية المحمدية الذين استطاعوا أن يطوا هذه الارض الواسعة فى أقل من ثلاث أعوام ٩٢ ـ ٩٥هـ ٧١١ ـ ٧١٣م فى حين أن الذى يطالع فصول هذه الدراسة يدرك كيف أن الاسبان قضوا أكثر من سبعة قرون وهم يحاولون استرداد الاندلس منذ أن استطاع لويس بن شرلمان فى عام ١٨٥هـ/٨٠١م الاستيلاء على أول مدينة اسلامية شمالية هى برشلونة واستمر الصراع حتى عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م ٧١٢ عام هجرية ٦٩١ ميلاديا وهكذا ما منحه المسلمون فى ثلاثة أعوام أخذه الاوربيون جميعا فى هذه الفترة الطويلة ٠

لكن وقد عبرنا هذه السنين الطويلة منذ عهد الفاتحى العظام طارق ابن زياد وموسى بن نصير مرورا بعبد الرحمن بن عبد الله الغافقى قائد معركة بلاط الشهداء رمضان ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م وما شهده الاندلس من ولاة عظام حاولوا أن يبذلوا دورا لا يقل عن غيرهم أمثال السمح بن مالك الخولانى وعنبسة الكلبى وغيرهم ممن حاولوا مد الراية الاسلامية عازمين مجاهدين فى أراضى فرنسا (غالة) وما شهده قيام الدولة الاموية منذ دخول عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨هـ الى نهاية الخلافة ٤٢٢هـ مرورا بعبد الرحمن الاول والاوسط والناصر ٣٥٠هـ هؤلاء الذين بذلوا أدوارا هامة فى تاريخ الاندلس وما تلاه من عصور الاقزام الطوائف وتدخل المرابطين والموحدين والمرنيين ودور المغرب فى تأخير سقوط الاندلس مع نهاية القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى والذى أدى الى تأخر النهاية الى أربعة قرون أخرى يستطيع أن يدرك أن الاندلس وشعبها المسلم المشرد الذى ذكرت عنه المصادر والمراجع الاوربية أن ما فقدته الاندلس (فيليب حتى ، استديو) أن أكثر من ثلاثة ملايين ونصف نسمة قد ضاعوا ضحية الهزيمة الاسلامية القاسية التى انتهت فى رمضان ٨٩٨هـ/١٤٩٢م ٠

يستطيع القارىء أن يدرك تمام الادراك أن ضياع الاندلس رغم ما شهد من قادة عظام يضعون فى مصاف عظماء العالم القديم والوسيط والحديث الا ان نخبة من الامراء والسلاطين والامراء كان من الضعف والجهل والعمالة والخيانة والتبعية والمجون والفجور والفساد وسوء الادارة والقيادة واللهو والعبث وعدم تمكين شرع الله فى أرض الله ، كل هؤلاء

الذين وضعتهم الاقدار فى الصفوف الاولى لقيـادة شعب عربى مسـلم بانى حضارة خالدة وناشر قرآن كريم فى ثلاث أعوام أضاعوه وأضاعوا التاريخ وهزموا الاسلام وأهله ٠

ولكن لن تهزم العقيدة فالاسلام خالد باقى أبد الدهر الى أن يـرث الله الارض ومن عليها وهكذا قضى الله أمرا كان مفعولا وذهبت الاندلس « ذلك الفردوس الاسلامى المفقود » ٠

وها نحن نشهد احتفال أسبانيا بمرور خمسة قرون (خمسمائة عام) على ضـياع الاندلس وتحتفل أسبانيا بذلك اليوم فهل ستعود أرض الفردوس المفقود الى أهله وعقيـدته ويكون الفـردوس الموعود وهـل سننتظر ذلك قرون أم عدة عهود أم ان الاسلام صانع الحضارة والتاريخ ويأتى المجـد التليد ومخرج الانسانية من الجهـالة الى النـور قادر على عودة النـور « انا نحن نرث الله ومن عليها والينا يرجعون » سورة مريم آية ٤٠ فسبحان من له الدوام وان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خـوان كفور (سورة الحج آية ٣٨) ٠

الخـــاتمة

ان ما يمكن الوصول اليــه من نتــائج من خــلال دراسة فصول هذا البحث خــلال المسيرة الزمنية الطويلة التى تقدر بأكثر من ثمانية قرون من دخول أنوار القرآن الكريم الى أرض القــارة الاوربية حيث الاندلس القــابع فى الجنوب الغربى للقارة وحيث القوات الاسلامية المجاهدة فى تحــرير الشعوب المقهورة وانتشال هذه الشعوب من طغيان الامراء والنبلاء وتحكم غيرهم فى مصيرهم • هو انه كيف ان الدعوة الاسلامية الاولى منذ بزغت أضوائها الالهية فى الجزيرة العربية قد خرجت تكافح الظلم وعدوان القوى الكبرى المعاصرة الفرس والروم وكيف كان الواجب يحتم الدفاع عن النفس لدرأ الاخطار المحدقة بالجزيرة وضرورة كسر الطوق المضروب من حولها شرقا وغربا فكان تحرك القوات الاسلامية لصد العدوان ودفع الظلم الواقع على اخوة الانسانية والعروبة فى العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب العربى فكان وصول الراية الاسلامية مدافعة صادة لا غازية قاهرة الى هذه الديار التى كتب الله لها أن تستظل بلواء الاسلام وأن تدين بدين القرآن •

وكانت خطة الاسلام والمسلمون دائمــا تامين الحدود ودفع العدوان عنها والتوسع رغبة فى تلبية رغبة أهل البلاد المقهورة فكان تحرك القوات الاسلامية فى عهد الوليد بن عبد الملك بن مروان الى الاندلس (٨٢ ــ ٩٦هـ) لا تريد غنائم ولا أسلاب ولا أسرى حرب ولا شىء من هذا القبيل الذى يكثر الحديث عنه كتاب الغرب ولم يكن الفتح الا من أجل الدعوة للاسلام ونشر لواء القرآن على الارض الاوربية •

فلم يشهد التاريخ الطــويل الاسلامى طوال هذه المرحــلة الطــويلة (٩٢ ــ ٨٩٧هـ) أن أجبر انسان اكراها على الدخول فى دين الاســـلام وهكذا يذكر مؤرخى الغرب (جستاف لوبون) وغيره هذه الحقيقة وهــذا يدحض كل الاقوال التى تقول عكس ذلك كان رجال الفتوح الاسلامية دعاة

هداية ورحمة ومودة ومحبة واخوة انسانية ولم يكونوا دعاة لمحاكم تفتيش ولا اجبار على الدخـول فى عقيدة ولا اتبـاع سياسة الارض المحـروقة وحروب الابادة والتجويع ٠

لكن فحوى هذه الدراسة يثبت سماحة الاسلام وكيف ان الرحـلة الطويلة مرت بعدة مراحل انطلاق بعض الولاة الذين خلفوا موسى بن نصير منذ عام ٩٥ ـ ١٣٨هـ ـ ٧١٤ ـ ٧٥٥م وكيف ان حالة من عدم الاستقرار شهدت هذه الفترة وكيف ان هـذه الفترة الزمنية تولى قيـادة الامور فى الاندلس مالا يزيد عن اثنين وعشرين واليـا بحيث يمكن القول ان فتـرة كل والى منهم لم يزيد عن عامين فقط وكيف بذل هؤلاء الامراء بقدر ما أتيح لهم من وقت وعمل للعمل فيما وراء البرانس وصولا الى بلدة سانيس جنوب باريس الحالية بثلاثين كيلو متر وكيف كانت معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ ٧٣٢م نقطة توقف المد الاسلامى خلف جبال البرانس واستشهد عبد الرحمن الغافقى فى تلك المعركة وكيف ان هذه المعركة وما تلاها من أحداث قد حفزت صقر قريش عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحـكم بن أمية على العبور الى الاندلس (١٣٨ ـ ١٧٢هـ) وكيف اسـتطاع أن يقيم دولة اسلامية فشلت كل المحاولات الداخلية والخارجية من أن تنـال منها وفشلت الخلافة العباسية فى زعزعة النظام الاموى الذى وجد تأييدا من الشعب الاندلسى الاسلامى الذى كانت العقيدة الاسـلامية قد بدأت تنتشر بين أهله على نطاق واسع وكانت اللغـة العربية قد بدأت تتمـكن من ألسنة الاهالى وبدأت تأخذ وضـعا يكاد يكون لغة رسمية للبلاد وكيف ان عبد الرحمن الداخل قضى سنوات عمره يجاهد عاملا على توحيد الاندلس وجمع شمل ولايته التى حاولت أن تستقل عن الحـكومة المركزية فى قرطبة ٠

وكيف ان النزاع العربى والبربرى والنزاع العربى العربى (القيسية والسبائية والشاميين واليمنيين) كل هذه الانقسامات والحروب الاهليـة والصراع على الحـكم وانقسام الاسرة الحـاكمة منذ وفـاة عبد الرحمن الداخل وقام ابنه هشام الاول (١٧٢ ـ ١٨٠هـ) بالعمل على الحفاظ على الوجود الاسلامى ودفع الاخطار عن الاندلس وما تلاه من حكم الحـكم

الاول وابنه عبد الرحمن الثانى والاوسط وثم كيف بدأت الامور تأخذ أبعادا أخرى تخالف ما كانت عليه فى عهد عبد الرحمن الاوسط الثانى اذا شهدت البلاد حالة من الانقسام والفوضى والصراعات والثورات فى عهدى محمد الاول ٢٣٨ ــ ٢٧٢هـ والمنذر بن محمد (٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ) .

وكيف ان حالة من الانهيار التام والاستقلال عن العاصمة المركزية قرطبة وتعرض الحدود الشمالية للغارات المسيحية من ممالك الشمال (قشتالة ، قطلونيا ، ونبرة وأرغون) والاستيلاء على اقاليم ومدن اسلامية .

وكيف ان حالة الضعف والثورة والانقسام والتردى وحالة الانهيار السياسى وكادت قرطبة أن تبلغ النهاية وان الزوال الاسلامى الاول كاد أن يقترب وكأنه على بعد خطوات وان المأساة خيمت على الاندلس واستقلت ثلاثة عشرة مقاطعة وولاية عن العاصمة وسيطر (أمراء الطوائف الاولى) على مقاليد الامور .

لكن من وسط المأساة والشقاق والتمزق السياسى والاضطراب الاقتصادى والاجتماعى والتطاحن على السلطة شهدت البلاد تطورا جذريا فى أسلوب الحكم والادارة والقيادة والتطور والتقدم الثقافى والحضارى والفكرى والعلمى وغدت قرطبة عاصمة أوربا قبل أن تكون عاصمة الاندلس وشهدت سنوات عبد الرحمن الناصر الثالث (٣٠٠ ــ ٣٥٠هـ) أوج فترات تاريخ الاسلام الاندلسى .

وهكذا أرادت الارادة الالهية أن يبزغ فجر عهد جديد أكثر اشراقا حيث كان عبد الرحمن نموذجا فريدا بل فرديا فى سلسلة أمراء الامويين بالاندلس بل هو القيادى الماهر بين رجالات الحكم والبلاط فهو الخليفة الاموى الاول فى الاندلس (١٣٨ ــ ٣١٦هـ) حيث أحرز تفوقا عسكريا وثبت حدود الامارة والخلافة وأخضع امارات الشمال المسيحى ودفعوا الجزية وهم صاغرين وعقدوا معاهدات الاستسلام والسلام وأعاد للجيش الاموى هيبته على كل الجيوش الاوربية وجعل حاملى شعار القضاء على المسلمين يلجأون الى قرطبة طلبا للعون والمساعدة .

وهكذا قدر لعبد الرحمن الناصر الخليفة الاول أن يصنع المعجزات وكيف لا وهو صاحب الارادة الفولاذية وانقذ الاندلس من الضياع وأعطاها بعدا فى العالم الاسلامى وكل العالم الوسيط بعد أن كانت على بداية النهاية وشهدت سنوات حكم ابنه الحكم المستنصر حالة الاستقرار والهدوء النسبى فى ظل الاستقرار التى دعمه والده الناصر لكن الحكم الذى كان مشغولا بالبحث والعلم والاطلاع والدراسة والتحصيل وكان عالما عاكفا وقته من الكتب والمخطوطات لم يكن رجل الدولة الذى يواصل المسيرة رغم أن فترة حكمه لم تزد عن ستة عشر عام فى حين أن والده حكم خمسين عاما كانت حافلة بالنشاط والانجاز ولم يكن عالم العلم رجل سياسة فكان الخيفة المثقف غير الخليفة السياسى ٠

ومن هنا أحست امارات الشمال المسيحية بأن الوقت قد حان لعدم الخضوع فى مظلة الحكم الاسلامى وخلع الطاعة ونبذ المعاهدات وبدأت التحرشات حول الحدود الشمالية واخضاع الحصون والقلاع الصغيرة والغريب فى أمر الصراع العربى الاسلامى والمسيحى ان القلاع والحصون والاراضى والمدن الاسلامية التى كانت تخضع للنفوذ المسيحى لم يتمكن المسلمون من استعادتها أو التمركز فيها مرة أخرى وان كانت هذه المناطق تتعرض للهجوم الاسلامى لكن المسلمون كانت حدودهم قد تقهقرت الى مدن الثغر الاعلى وفقدوا أهم نقاط الارتكاز فى الشمال وأغلق الطريق أمامهم للانطلاق فيما وراء جبال البرنية ٠

ومن هنا بدأ ملوك وأمراء الشمال فى مصارعة الامويين بعد غياب الخليفة عبد الرحمن الناصر القوى ولاسيما ان القشتاليين والاراغونيين كانوا يشنون سلسلة من الهجمات لمحاولة منع المسلمين من مبادرة الهجوم ولكن الخطة المسيحية كانت تسير فى مخططها وعاملة على تنفيذها مهما تكن الظروف ولكن المعاهدات والصلح والسلام لم يكن الا مرحلة لما سيكون عليها الحال من ضعف فى الصف الاسلامى ٠

لكن الاندلس بطبيعة تكوينه الطبيعى والبشرى فى حاجة الى حاكم قوى يبذل كل طاقاته لامورِه السياسية والعسكرية والادارية ومات الحكم المستنصر وآلت الامور الى ابنه الصغير هشام المؤيد واستطاع محمد

ابن أبى عامر أن يتخلص من كل منافسيه وأن ينفرد بالسيطرة على مقاليد الامور فى البلاد ويقبض بيد من حديد على كل الامور بعد أن استطاع أن يحجر على الصبى هشام ٠

وهكذا بدأت معالم الخلافة تضيع فى طريق مشوار الايام القـــادمة حيث أضحت الدولة فى يد محمد بن أبى عامر الذى سعى الى توطيد نفوذه باعتباره الوزير الاول فقـام بنشاط عسكرى وكان يسعى لاكتساب السـمعة وقد قوبلت هذه الانتصارات الباهرة فى الشمال بترحيب الشعب فى قرطبة بعد أن أصبح الوحيد فى البلاد حيث لا توجد قوة غير قوته بعد أن تمـكن من التخلص من كل منافسيه ٠

وفى كل هذه الامور تحول الطفل الخليفة هشام الى مجرد رمز ولقب للخلافة ومن هنا عمل محمد بن أبى عامر على مطاردة كبار رجال الدولة من البيت الاموى الذى يخشى منافستهم فاضطهدهم اضطهادا شـــديدا وقتل الكثيرين من رجالاتهم ٠

وهكذا كانت فعلته هذه سببا فى حدوث مقدمات انهيار الاندلس وضياعه لاسـيما انـه عمل على التخلص من العنـاصر القـديمة فى الجيش وأدت سياسته الى حدوث صراع بين فرق الجيش المختلفة (البربر والاندلس) لكن الشعب الاندلسى الذى كان يحس بالصراع والمؤامرات أدرك أن محمد ابن أبى عامر قد وصل الى رأس الدولة بالطرق الملتوية ٠

ومن هنا لم يكن محببا الى الشعب مهما قام بأعمال الجهاد وانـــه لم يستطيع أن يوقف خطـر الدول المسيحية الشـمالية على حـدود الدولة الاسلامية ولم يستطع أن يطرد أى من أمراء الشمال المسيحيين من القـلاع أو الحصون التى استولوا عليها رغم حملاته الخاطفة وتهديده لهم على الدوام ٠

وبعد أن وصـلت قواته الى برشـلونة وأبواب ليـون ولولا ظروفا خلصة بالاندلس ربما لاستطاع أن يغير الخريطة السياسية للبلاد وممـا يأخذ له انه اسـتطاع أن يصل الى برشلونة وان يهددها وهو أول حاكم تعرفه الاندلس أعطى الجبهة الشمالية كل اهتمامه وكرس لها كل وقتـه

حيث كان دائم الغزو وأصبحت حرب المسلمين تتسم بالهجـــوم بدلا من الدفاع لكن نقطة الضعف انه لم يستطع أن يقتطع أجزاء من أراضى الامارات الشمالية أو يضم قلاع وحصون اسلامية سابقة الى الاندلس ٠

لكن فترة حكمه قد ساعدت على ظهور ملوك وأمراء الطوائف لانـه أضعف الخلافة وأضــاع هيبتها وهيبة الحـكومة المركزية قرطبة وشجع أمراء الاقاليــم على عدم طاعة الخـلافة بل حطم البيت الاموى ورجالاته ولم يستطيع هذا البيت ذو البطولات الخـالدة أن يظهر اية شخصية قوية تستطيع أن تقود البـلاد الى بر الامن والامان وأن تحفظها من الضــياع ومن هنا لم يعد للامويين أدنى ســلطة أو نفوذ فيما بعد عهــد محــمد بن أبى عــــامر ٠

وآلت الامور الى ابنـــه عبد الملك المظفر الذى حــكم ســبع سنوات لكنه لم يكن كصورة أبيه بل كان يختلف عنه كثيرا الا انه استطاع أن يواجه الحركات الصليبية على الحدود الشمالية مع الاسبان لانهم حاولوا استئناف الهجوم على الدولة الاندلسية وخرقوا اتفاقيات السلام المعقودة بينهم ولكنه توفى وآلت الامور الى أخيه عبد الرحمن شنجة الذى كان طائشا وغبيــا أغرق البلاد فى بحــر من الدماء والمتاهات ٠

حيث اســتطاع الحصول على مرسوم يحق له أن يكون خلفا للخليفة وولى لعهده وكان يفكر فى خلع الخليفة لكى يصبح خليفة البلاد ووضـــع أول العلامات القوية لانهيار الدولة الاندلسية وليس للخلافه فزاد ســخط الشعب عليـــه وقد أثارت عليه هذه الخطوة ثورة الشعب وتم عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م قيام ثورة عارمة عليه تمت على يد أحد أبناء البيت الاومى (المهدى) بخلعه وعزل الخليفة هشــام المؤيد وبايع الثــوار محــمد بن هشــام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر خليفة للاندلس وانتهى أمر عبد الرحمن شنجول وتم قتله فى رجب ٣٩٩هـ/ مارس ١٠٠٩م وكانت تلك نهاية أســرة بنى عامر وانتهى دورها السياسى فى الاندلس ٠

وقد شهدت الفترة الزمنية من ٣٩٩هـ ـ ٤٢٢هـ أسوء فترات الاندلس فى تاريخها الطويل حيث ان الاموز ساءت أيضــا فيما بعد بظهور ملوك الطوائف حيث أن هذه الفترة التى لم تزد عن ثلاثة وعشرين عاما تولى

خلافة الاندلس اكثر من سبعة من الخلفاء بعضا منهم من سلالة الامويين وبعضا آخر من سلالة الادارسة حكام المغرب السابقين .

وقد أدت حالة الفراغ السياسى عام ٤١٦هـ باغتيال الخليفة محمد ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر (٤١٤ ـ ٤١٦هـ) حيث تم اغتياله وثار زعماء قرطبة بقيادة الشيخ « محمد بن حزم بن جهور » واستعادوا الخلافة للامويين وأعلن هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (المعتد بالله ٤١٨هـ) خليفة للبلاد لكن احاطت به ثورة شعبية فى قرطبة وكانت معها نهاية الخلافة الاموية ٤٢٢هـ/١٠٣١م .

وهكذا اسدل الستار على الخلافة الاموية (٣١٦ ـ ٤٢٢هـ) بعد استمرارها مائة عام وأربعة ومن هنا كان اعلان نهاية الخلافة بمثابة غياب السلطة الدينية والمؤسسة الخلافية وغياب الحكم المركزى ولم تعد لقرطبة العاصمة أدنى دور سياسى .

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ البلاد حيث عاشت البلاد بعد ذهاب الخلافة وانتهاء حكم أسرة بنى أمية بالاندلس سنوات صعبة من الفرقة والتنافس وقد كانت تلك الاحداث مؤشرا لظهور عصر الطوائف حيث وقعت معظم ولايات الاندلس فى قبضة رجال من رجالات بنى عامر الذين كان قد تم تعيينهم أثناء فترة حكم محمد بن أبى عامر .

وهكذا لم تعد قرطبة تمارس نفوذها حيث وجد حكام الاقاليم والولايات أنفسهم فجأة بدون خليفة أو قيادة مركزية وكان لا مفر الا أن يتولوا حكم الاقاليم والمدن والولايات التى يحكمونها .

وهكذا وجدت فى الاندلس أوضاع جديدة وشاذة حيث تقسمت البلاد الى ما بين ستة عشر ولاية او احدى وعشرين ولاية وزالت الخلافة التى أقامها بنى أمية وطمع أمراء الشمال فى بلاد المسلمين وقام أمراء الطوائف بحروب طويلة فيما بينهم وكل منهم يريد التوسع على حساب الآخر مستعينا بقوات من النصارى بعد أن عجزت هذه الامارات الصغيرة بالقيام بأمورها بنفسها وتدهورت الامور فى الاندلس خلال هذه الفترة واستمر هذا الوضع اكثر من اثنين وستين عاما (٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ) .

وظهرت ولايات عديدة منها امارة الاجهوريين فى قرطبة وامارة بنى ذى النون فى طليطلة وامارة بنى عباد فى أشـبيلية وامـارة بنى هود فى سرقسطة وامارة بطليوس وحـكم بنى الافطس وكذلك امارة بلنسية وغيرها من الامارات الطائفية المختلفة مثل امارة المرية ، ولبة ، ومرسية وغرناطة وامارة شلب وامارة باجة وامارة مالقة وغيرها من الامارات الصغيرة ٠

وقد شـهد عصر ملوك الطوائف سقوط امارة طليطلة التى كان يحكمها بنى هود وذلك تحت ضربات ألفونسو السادس وبدأ هذا الاخير التحرش بولاية أشبيلية واسـتطاع تحـدى كل امارات الاندلس الضـعيفة المفككة وانحدر من الشمال فى خطوة جريئة قاطعا الاندلس وصولا الى الجنوب حيث وصل فى زحفه الى مضيق جبل طارق عند مدينة طريف الواقعة على مدخل مضيق جبل طارق ٠

ومن هنا كان قرار استدعاء المرابطين حـكام المغرب لدرأ الخطـر الصليبى المتربص بدار الاسلام فى الاندلس وكان تدخل المرابطين مع نهاية القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى قد أخر سقوط الاندلس الى أربعة قرون أخـرى حيث انه لو ترك الامر على هـذا النحو الذى شـهد سـقوط طليطلة وتحـدى الفونسو السـادس لمشـاعر المسلمين والعمل على الاستيلاء على الثغور الاندلسية لضـياع الاندلس كله قبل نهـاية القـرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى بعد أن طمع ملوك وأمراء النصرانية فى ديار الاسلام بالاندلس ٠

كان المرابطون يعدون العدة لخوض معركة الاندلس بعد أن شهدت حركة الاسترداد المسيحى بعدا خطيرا بالاستيلاء على طليطلة والوصـول الى ميناء طريف المطل على الاراضى المغربية وكان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يتابع تحركات هذه القوى ويطلع على أحوال المسلمين بها ٠

وهكذا فى عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م عبرت قوات المرابطين الى الاندلس لنجدة أخوة العقيدة والعرض والشرف والاهل لانقاذ الاندلس من التسلط المسيحى وحشدت القوى الاسـلامية للوقوف بحزم أمـام أطمـاع الفونسو السادس بعد استيلائه على طليطلة وتحركت القوات الاسلامية رأسا الى الشمال حيث امارة بطليوس فى غرب الاندلس ٠

وكانت هذه القوات قد أخافت كل القوى المسيحية التى انسحبت من سرقسطة ورفعت الحصار على أشبيلية وحشد أهل الاندلس كل قواتهم مع اخوة المغرب واستعد ألفونسو السادس وخلفه قوات البابوية وكل أوربا واستعد الفريقان ودارت معركة الزلاقة فى رجب عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م وحقق المسلمون أعظم الانتصارات الاسلامية فى الاندلس منذ دخل المسلمون هذه البلاد حيث أن الفتوحات الاولى فى عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد لم تشهد سوى مناوشات بسيطة قام بهـا جيش القوط وتأكد لاهل الاندلس مدى تعـاون المرابطين معهم وتحقيق النصر بالتعاون الاسلامى وأصبح هذا الانتصار فى الاندلس فخارا للمرابطين وللحقيقة والتاريخ وليس دفاعا عن المرابطين فانه لو اتحد كل أمراء الطوائف خلف المرابطين لتم استعادة طليطلة وكذلك (برشلونة) وهكذا أعيد التوازن فى الاندلس ٠

وعبر يوسف بن تاشفين الى الاندلس عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م وقـام بالعديد من الاعمال الحربية واستولى المرابطون على اقاليم الاندلس المختلفة وتم عزل ملوك الطوائف وتوحيد الجبهة الاسلامية الاندلسية وتوحيد الشعب الاندلسى تحت قيـادة مرابطيـة وحقق المرابطون انتصـارات عظيمة فى الاندلس بحيث لم يخسروا أية من المعـارك التى خاضوها ٠

ولقد كان تعاون بنى هود وحـكام طليطلة فى شرق الاندلس ، دورهم فى توطيد النفوذ الاسلامى وتم صـد عـدوان القـوات النصرانية وتطهر الاندلس من بقاياهم ، لكن سقوط الامارة المرابطية وظهور دولة الموحدين المصامدة فى المغرب قد اضعفت جبهة المرابطين فى الاندلس وتم للنصارى الامـتيلاء على العـديد من المدن والقلاع والحصون والاماكن الهـامة فى وسط وشرق الاندلس بل فى غربه حيث ظهرت امارة البرتغـال المسيحية ٠

وهكذا كان انصراف جيش المرابطين لصـد عدوان الموحدين خطـر اكبر على الاندلس والاسـلام بقدر ما أدى الى ظهور خلافة الموحدين لكن هذا الظهور لدولة عبد المؤمن بن على ومحمد بن تومرت سـهل لنصـارى الاندلس الكثير من الاحلام التى كانوا يحلمون بها من اضـعاف الاسـلام وأهله وهم الذين كانوا يخشون المرابطين ولم يفكروا فى التحرك من جحورهم الا بعد غياب الجيش المرابطى فى المغرب وانسحاب المرابطين من المدن الاندلسية ٠

وظهرت دولة الموحدين على أنقاض المرابطين وكان الواجب الدينى يحتم عليهـا القيام بالجهاد الاسلامى فى الاندلس والوقوف أمام التحدى الكاسح المسيحى الذى ابتلع أكثر من نصف الاندلس أثنـاء الصراع بين المرابطين والموحدين ٠

ومن هنا كان ظهور الموحدين وبالا على الاندلس ولم يستطع الموحدون اعادة أدنى أرض من الاراضى التى استولى عليها نصارى الاندلس بعـد انساحاب المرابطين وكان الاجدر بالموحدين اعادة كل الاراضى الاندلسية كما فعل المرابطين وعملوا وحققوا نجاحا باهرا فى ذلك ٠

ووقع عبء الجهاد فى الاندلس على المنصور الموحدى الذى استطاع فى عام ٥٨٧هـ/١١٩١م أن يسترد حصنا بل مدينة شلب من أيدى نصارى الاندلس لاسيما البرتغاليين فى غرب البلاد وواجه الضغط المسيحى بالقوة لكنـه لم يكن فى قوة المرابطين ولا فدائيتهم وعملهم الدائب للجـهاد فى الاندلس ٠

وكان المنصور قد احتفل احتفـالا كبيرا باسـتعادة مدينـة شـلب وانتصاره فى غرب الاندلس وتحرك مرة أخـرى الى الاندلس عام ٥٩١هـ/١١٩٤م وعبر الاندلس بجيوش كثيرة وعندما علم بذلك ألفونسو الثـامن (الفونسو السادس استولى على طليطلة والعديد من المدن) اسـتنفر كل ملوك أسـبانيا المسيحية واستصرخ البابا فى روما وقدمت له جيوش من فرنسا وألمـانيا وهولندا وغيرها من الديار الاوربية وواقته حشود كبيرة من كل أوربا ٠

وكانت قوات الموحدين قد زحفت شمالا حتى انتهت الى موقع يعرف « بالارك » وفى ٩ شعبان ٥٩١هـ/١٨ يوليو ١١٩٥م تجلت الحرب عن انتصار رائع للموحدين وأفلت الفونسو بمعجزة بنفسه وبقايا قواته القليلة ولاذ بالفرار وكان لهذه المعركة أثر بعيد يشبه أثر معركة الزلاقة وهكذا تمكن المسلمون عن طريق اندفاعهم فى اللحظة المناسبة الى احراز النصر فى موقعة الارك Alaras ومـات المنصور عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م وكان المنصور بعد انتصار الارك قد حقق انتصارات فى شمال قشتالة وحـاصر طليطلة واسـتولى على بعض

الحصون المحيطة بهـا مثل مجريط ووادى الحجـارة ووصـل الى أراضى لم تطأها أقدام المسلمين منذ أيام محمد بن أبى عامر المنصور ٠

وتولى النـاصر أبو محـمد عبد الله الحـكم (٥٩٥ ــ ٦١٠هـ) وكان لفونسو الثامن قد تحالف مع ملكى نبرة وأرغون لمحو آثار هزيمة الارك ونقض الهدنة مع الموحدين وأعلن ملوك الشمال الدعوة لحرب صليبية فى أوربا وبارك البابا أنونست الثالث حركتهم فجاءتهم جيوش جرارة من ايطاليا وفرنسا وألمـانيا وهولندا ٠

وتحركت قوات الموحدين الى الاندلس عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م ووصل الى أشبيلية وكان الفونسو قد شـعر بتحـرك الجيوش الموحدية الى الاندلس وأخذ يغير من جديد على أطراف الاندلس الاسلامى وكانت الهدنة بينهما قد انتهت عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م ٠

وفى عام ٦٠٨هـ/١٢١١م استولى الناصر على قلعتى اللحج وشليطرة ٠ وكانت خطة الناصر تقتضى الاسراع بالاستيلاء على الابواب المؤدية الى قشتالة وهو حوض الوادى الكبير وذلك للحيلولة دون دخـول النصـارى الى الاندلس بقوات كبيرة وفى أوائل عام ٦٠٨هـ/١٢١١م تحرك النـاصر بقوات كثيرة ووصل الى مدينة جيـان وتركها واختار مكانا صعب القتال فيه يسمى بالعقـاب ودارت هنـاك معركة اشـترك فيهـا ملوك قشـتالة ونفارا وأرغون وليون ومعظم فرسان أسـبانيا وقـوات فرنسية وألمـانية وبرتغالية وايطالية وانهزم المسلمون حيث ان سـاحة الاندلس لم تشـهد من قبل هذا الجمع الذى حشدت له أوربا قوات كثيرة ٠

وقد كانت تلك الهزيمة القاسـية سـببا فى تكالب أمراء قشـتالة وأرغون على الاراضى الاسلامية بالاندلس وبدأت القوى الاسلامية تتساقط وتوفى الناصر وآلت الامور الى ابنه المستنصر (٦١٢ ــ ٦٢٠هـ) وتعرضت الدولة فى عهده للاخطار الداخلية والخارجية وبدأت القـوى المسـيحية تتدخل فى شـئون المغرب وسقطت المدن الاسلامية جميعها فى الاندلس فيما عـدا ما بقى تحت سيطرة امارة غرناطة ٠

وهكذا كانت معركة العقاب قد أنهت فعلا دولة الموحدين لكنها استمرت فى حـالة الضعف حتى عام ٦٥٢هـ حيث كانت غرناطة قد ازدهرت بعـد أن

ضمت اليها العـديد من المدن شذونة ومالقة ونبرشة ولبلة وأركش والجزيرة الخضراء وجبل طارق والمرية وظلت دولة بنى الاحمر تمارس نفوذها على هذه الديار ويكون موقع غرناطة فى الزاوية الجنوبية من الجزيرة الاندلسية عاملا من عوامل صمودها أمـام الخطر المسيحى الزاحف ٠

وقد كان لموقف حـكام بنى مرين المغـاربة دورا فى مساندة اخوانهم الغرناطيين فى الصمود طويلا أمـام القوة الغاشمة وهكذا كان على غرناطة أن تحارب فى كثيرا من الجهات لكن سقوط حصون وقلاع غرناطة معنـاه انتهاء الوجود السياسى وتدمير البلاد ٠

وهكذا لم يأتى عام ٦٦٠هـ/١٢٦٠م حتى كانت قوات بنى مرين تعمل فى الاندلس وكان ابن الاحمر قد وجه نداء عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م الى السلطان المرينى ابن عبد الحق وفى عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م بعث ابن عبد الحق المرينى قواته التى شنت غارات على مدينة شريش واتجهت قوات بنى مرين الى الوادى الكبير وتوغلت فى الاراضى القشتالية حتى بلغت القوات قرب أشبيلية بل وصلت قوات ابن عبد الحق الى قرب قرطبة واستولوا على حصن بلجة ومدينة استيجة واتجه بعد ذلك أبو يوسف بن عبد الحق الى أشبيلية عام ٦٧٠هـ/١٢٧٥م وانتصرت قوات بنى مرين فى رجب ٦٧٤هـ/١٢٧٥م وكادت أشبيلية أن تسقط فى أيديهم ٠

وقد سـاعدت هـذه الانتصارات على تثبيت حـكم بنى الاحمر فى غرناطة وأعطت للامير محمد الفقيه قوة الدفاع عن غرناطة لكن بعد ذلك تحالف محمد الفقيه مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة وقد يكون ذلك بسبب تخوف سلطان غرناطة من أطماع سلطان المغرب وكانت هذه المحالفة مقابل تنـازل ملك غرناطة عن قواعد على مضيق طارق مثل مدينة طريف والجزيرة الخضراء وبذلك قطع رأس الجسر لعبـور القوات المغربية الى الاندلس ٠

وهكذا حقق ملوك قشتالة اكبر أهدافهم فى منع العون المغربى عن غرناطة وفرق بين المسلمين لكن المنصور المرينى اسـتطاع بأسـطوله أن يحرر الجزيرة الخضراء وجبل طارق من ايدى القشتاليين ويقوم بالعبـور الى الاندلس (غرناطة) فى ربيع الثانى ٦٨١هـ/١٢٨٢م واسـتعاد مالقة والجزيرة الخضراء والحصون الغرناطية القريبة منها ٠

وقام أبو يوسف المرينى فى جوله امتــدت من طليطلة وقرطبـة حتى وصل الى يابسة وأبيدية وجبــال البرت لكن بدون كيان اسلامى واستقرار سكانى بل هجمات خاطفــة وعودة الى نفس المـكان الذى عبرت منــه ثم اضطرت قشتالة الى عقد صلح مع أبو يوسف المرينى وقام بتنظيم حاميات الثغور وتوفى عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ٠

وفى عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م نقض كل من سلطان غرناطة وسانشو الرابع ملك قشتالة اتفــاقهم الســابق مــع بنى مرين وهاجموا متحــدين الثغور الاندلسية التى كانت تحت حكم بنى مرين وحاصرت قوات قشتالة وغرناطة طريف وتمكنوا من الاســتيلاء عليها من أيدى المرينيين وحطموا أسطول بنى مرين عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م ٠

وهكذا وقعت الثغور بين بنى مرين وبنى الاحمر حكام غرناطة لكن جبل الفتح سقط فى أيدى النصارى عام ٧٠٩هـ/١٣١٠م وكانت أعظم نكبة منيت بهـا الاندلس ٠

وفى عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣م تولى حكم غرناطة السلطان يوسف الاول الذى حرص على توطيد علاقته مع بنى مرين بالمغرب للحفاظ على الوجود الاسلامى ببقايا الاندلس وللدفاع عن الدين والاهل والدار والعرض واستنجد بالسلطان أبو الحسن المرينى الذى عبر المضيق وحقق انتصارات عظيمــة واخترق أراضى نصارى الاندلس ٠

وفى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتاليين وانضمت اليهم قوات من الاراغونيين والبرتغاليين والمتطوعين الاوربيين (انجلترا وهولندا وبحر الشمال وجنود بابا روما) وتمكنوا من الاستيلاء على مدينة طريف وهرعت أوربا الى ســاحة طريف يساندها بابا روما وفى صباح السابع من جمــادى الاولى ٧٤١هـ/١٣٤٠م دارت رحى المعــركة وحاق بالمسلمين هزيمة ورغم ان المسلمين استعملوا لاول مرة فى تاريخ الحروب نوعا من المدافع التى تقذف النيران ، لكن المسلمين خسروا المعركة واستولى ألفونسو الحادى عشر على طريف واستغل ملك قشتالة فرصة الاضطرابات التى حلت بجيوش المسلمين بعد هذه الهزيمة وواصل هجومه على غرناطة وحــاصر مدينــة الجـزيرة الخضراء عام ٧٤٣هـ/١٣٤٢م

واستسلمت المدينة فى ربيع ٧٤٤هـ/١٣٤٤م ٠ وتم توقيع معاهدة صلح بعد أن حقق ملك قشتالة أهدافه فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م ٠

وبعد ذلك تولى عرش بنى مرين عددا من السلاطين لم تكن لهم قوة أسلافهم ولا قدرتهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بديار الاسلام ودب الخلاف بينهما بينما كانت قشتالة تقوى وتتوحد وتتجمع كل من أسبانيا والبرتغال ٠ وفى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على ميناء سبتة المغربى ٠

وكان استيلاء البرتغاليون على هذا الميناء نذير بانهيار دولة بنى مرين وهكذا تحولت حرب الجهاد الاسلامى من أرض الاندلس الى أرض المغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من سواحل المغرب ٠

وبعد سقوط جبل طارق عام ٨٦٧هـ/١٤٦٢م فى أيدى ملك قشتالة وأرغون بمثابة الضربة القاصمة التى فقد بعدها الامل فى بقاء مملكة غرناطة طويلا حيث لم تمضى ثلاثين عاما على الحصار المضروب حولها حتى كانت نهاية النهاية قد وصلت الى قدرها المحتوم وذلك من عنف القبضة الحديدية المضروبة حول عنق غرناطة ذلك التوحد فى الجبهة المسيحية والاتحاد الذى تم بين قشتالة وأرغون عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الزواج بين فرناندو الرابع وايزبيلا الثانية ٠

وهكذا توحدت القوى المسيحية وبدأت قواتها تستولى على بقايا الحصون والقلاع والاراضى ونقضت معاهدات السلام والصلح وبدأ ملك قشتالة يشدد ضرباته القوية على المدن والقرى والحصون بجوار العاصمة وأخذ يعاودها قتلا وتدميرا وحرقا وتشريدا واتبع أسلوب الارض المحروقة والديار المدمرة ومزق العهود والمواثيق وأحكم الحصار وبذل المحاصرون فى العاصمة كل جهدهم وقل الزاد وضاعت الارض وهرب الاهل من الدار وحقق الحصار أهدافه والحرب الاقتصادية أغراضها ٠

ووقعت الواقعة وكانت الطامة الكبرى وغشى المدينة ما غشاها وكانت القارعة ما القارعة وزلزلت الارض زلزالها ودكت الارض دكا ٠٠ وبكت

السماء مطرا منهمرا وانطفئت الانوار الاسلامية واشتد الامر على المجاهدين وعظم البلاء وقل الطعام وأطل الشتاء القارس على المدينة وتراكمت الثلوج تسد المنافذ وتغلق المعابر وضاقت الارض بما رحبت فلم يعد أمام من بقى حيا الا يجتمعوا مع سلطانهم أبو عبد الله محمد الحادى عشر وقرروا تسليم المدينة وكتبوا لملك قشتالة بذلك وتنازل السلطان الاخير آخر بقايا الامل المفقود والفردوس الموعود واستولى النصارى على العاصمة الغرناطية فى ربيع ٨٩٧هـ/ يناير ١٤٩٢م ٠

ودخل الجيش القشتالى العاصمة ٠ وهكذا هللت المسيحية ودقت الكنائس أجراسها فى كل دول أوربا وبارك بابا روما هذا الانتصار العظيم أعظم أحداث القرن الخامس عشر الميلادى وحققت أوربا حلم الاجداد ورحل المسلمون يحملون قرآنهم عائدين الى المغرب على أمل أن يأتى اليوم ليعود ويذكر اسم الله ٠

وهكذا جفت الاقلام ورفعت الصحف وطويت الصحائف واستدل الستار على أعظم ذكرى وانتهى مطاف رحلة المشوار الطويل عبر ثمانية قرون فعلى من يكون حمل الراية القرآنية لكى تعبر المضيق هل يعود خالد ابن الوليد وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وطارق بن زياد وصلاح الدين والسلطان قطز وعبد الملك بن محمد الشيخ تحقق انتصار وادى المخازن على البرتغاليون ٠

ان الايام سوف تظهر لا محالة من يكون الرجل الموعود يحمل لواء الاسلام (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلى الكبير ٠ سورة الحج آية (٦٢) ٠

صدق الله العظيم

المصادر والمراجع

١ ـ المصادر العربية :

١ ـ ابن الآبار القضاعي : الحلة السيراء · تحقيق حسين مؤنس · القاهرة ، ١٩٦٣م ·

٢ ـ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ · بيروت ، ١٣٨٦هـ ·

٣ ـ ابن جبير (أبى الحسن) : الرحلة فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية · القاهرة ، ١٩٥٥م ·

٤ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) : العبر وديوان المبتـدأ والخبر · القاهرة ، ١٢٨٤هـ ·

٥ ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة · بيروت ، ١٣٩٨هـ ·

٦ ـ ابن حزم الاندلسى : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون · القاهرة ، ١٩٦٢م ·

٧ ـ ابن حيان (أبو مروان بن حيان) : المقتبس فى تاريخ رجـال الاندلس · تحقيق محمود مكى وآخرون ، بيروت ، ١٩٣٧م ·

٨ ـ ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن سعيد) : أعمال الاعمال · نشرة ليفى بروفسال · بيروت ، ١٩٥٦م ·

١٠ ـ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب : تحقيق شوقى ضيف · القاهرة ، ١٩٥٣م ·

١١ ـ ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار المغرب والاندلس ، نشرة كولان · د·ت ·

١٢ ـ ابن القوطية (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الاندلس · مدريد ، ١٩٦٨م ·

١٣ ـ المؤلف المجهول : أخبار مجموعة ، نشرة اميلو لافونتى · مدريد · ١٨٦٧م ·

١٤ ـ الادريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، روما ١٥٩٣ (مكتبة جامعة القاهرة) ·

١٥ ـ البكرى (عبد الله بن عبد العزيز البكرى) جغرافية الاندلس وأوربا جزء من المسالك والممالك · نشرة عبد الرحمن حجى ·

١٦ ـ الحميدى (أبو عبد الله بن نصر الازدى) : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الاندلس ، القاهرة ، ١٩٢٦م ٠

١٧ ـ الحميرى (أبو عبد الله محمد) صفة جزيرة الاندلس ٠ نشرة ليفى بروفسال ٠ القاهرة ، ١٩٣٧م ٠

١٨ ـ السلاوى (أحمد ناصر) : الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ٠ القاهرة ، ١٣٠٦هـ ٠

١٩ ـ الضبى (أحمد بن عميره) : بغية الملتمس فى تاريخ رجـــــال الاندلس ، القاهرة ، ١٩٦٧م ٠

٢٠ ـ المؤلف المجهول : الاستبصار فى عجائب الامصار ٠ تحقيق د٠ سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٢٨م ٠

٢١ ـ المراكشى (عبد الواحد بن على) المعجب فى تلخيص اخبـــار المغرب ، القاهرة ، ١٣٣٢هـ ٠

٢٢ ـ المقرى التلمسانى : نفح الطيب فى غضن الاندلس الرطيب ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، بيروت ١٩٤٩م ٠

٢٣ ـ الغرناطى (محمد بن أيوب بن غالب) : فرحة الانفس فى اخبار الاندلس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، القاهرة ١٣٧٥هـ ٠

٢٤ ـ ابن عبد الحـكم : فتوح مصر والمغرب والاندلس : تحقيق عبد المنعم عامر ٠ القاهرة ، ١٩٦١م ٠

٢٥ ـ ابن الدلائى (أبو العباس بن عمر القدرى) : نصوص أندلسية ، تحقيق عبد العزيز الاهوانى ، مدريد ، ١٩٦٥م ٠

٢٦ ـ البلاذرى (احمد بن على) : فتوح البلدان ٠ تحقيق المنجـــد ٠ بيروت ، ١٩٥٧م ٠

٢٧ ـ مؤلف مجهول : نبـذة العصر فى أخبـار ملوك بنى نصر ٠ تحقيق الفريد البستانى ٠ المغرب ، ١٩٤٠م ٠

٢٨ ـ ابن الكرديوس الوزرى : تاريخ الاندلس ٠ تحقيق أحمد مختار العبادى ٠ مدريد ، ١٩٧١م ٠

٢٩ ـ القيروانى ، الخشنى (أبو عبد الله بن الحارث) قضاة قرطبة ٠ القاهرة ، ١٣٦٠هـ ٠

٣٠ ـ الطبرى : تاريخ الامم والملوك ٠

٣١ ـ لويس ، سيكودى لوثيا : وثائق غرناطية · مدريد ، ١٢٨٠هـ ·

٢ ـ المراجع العربية والمعربة :

٣٢ ـ ابراهيم أحمد العدوى : تاريخ العالم الاسلامى · ٢ جـزء · القاهرة ، ١٩٨٦م ·

٣٣ ـ ابراهيم أحمد العدوى : المسلمون والجرمان · القاهرة ، ١٩٦٠م

٣٤ ـ ابراهيم أحمد العدوى : المجتمع الاوربى فى العصور الوسطى · القاهرة ، ١٩٦١م ·

٣٥ ـ ابراهيم أحمد العدوى : دار الاسلام مآذنها ورباطها · القاهرة ، ١٩٦٢م ·

٣٦ ـ ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا · بيروت ، ١٩٨٠م

٣٧ ـ ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين · القاهرة ، ١٩٥٨م ·

٣٨ ـ ابراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى · القاهرة ، ١٩٦٦م ·

٣٩ ـ ابراهيم بيضون : الدولة الاموية والمعارضة · بيروت ، ١٩٨٠م ·

٤٠ ـ احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسى · بيروت · د٠ت ·

٤١ ـ أحمد ابراهيم الشعراوى : الامويون أمراء الاندلس · القاهرة ، ١٩٦٩م ·

٤٢ ـ أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والاندلس · الاسكندرية ، ١٩٦٨م ·

٤٣ ـ أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغـرب والاندلس · الاسكندرية ، ١٩٧٠م ·

٤٤ ـ أحمد مختار العبادى : الصقالبة فى أسبانيا · مدريد ، ١٩٥٣م ·

٤٥ ـ أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا تونس ، ١٣٦٥م ·

٤٦ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام · القاهرة ، ١٩٣٣م ·

٤٧ ـ أحمد أمين : ظهر الاسلام · القاهرة ، ١٩٢٤م ·

٤٨ ـ أنور الجندى : ومضات مضيئة فى تراث الاسلام · القاهـرة ، ١٩٧٩م ·

٤٩ ـ حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين · القاهرة ، ١٩٦٢م ·

٥٠ ـ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ١٩٥٨م

٥١ ـ حسن أحمد محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى · القاهرة ، د·ت ·

٥٢ ـ حسن على حسن : دراسات فى التاريخ العباسى : القاهرة ، ١٩٩٠م ·

٥٣ ـ حسن على حسن : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس · القاهرة ١٩٩٠م ·

٥٤ ـ حسين مؤنس : رحلة الاندلس · القاهرة ، ١٩٦٣م ·

٥٥ ـ حسين مؤنس : الثغر الاعلى الاندلس فى عهد المرابطين ، مجلة آداب القاهرة ، ١٩٤٩م ·

٥٦ ـ حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس · القاهرة ، ١٩٨٠م

٥٧ ـ حسين مؤنس : فجر الاندلس · القاهرة ، ١٩٥٩م ·

٥٨ ـ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب · القاهرة ، ١٩٤٧م ·

٥٩ ـ حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط ، المجلة التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥١م ·

٦٠ ـ سيدة اسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك · القاهرة ، ١٩٦٢م

٦١ ـ سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى · القاهرة ، ١٩٦٤م

٦٢ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى · القاهرة ، ١٩٧٥م ·

٦٣ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية · القاهرة ، ١٩٦٣م

٦٤ ـ سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الاسلام وحضارته · القاهرة ، ١٩٨٧م ·

٦٥ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس · القاهرة ، ١٩٦٩م ·

٦٦ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية · بيروت · ١٩٥٩م ·

٦٧ ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس · بيروت ، ١٩٦٢م ·

٦٨ ـ السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الاندلس · بيروت ، ١٩٧١م ·

٦٩ ـ عبد الرحمن على حجى : التاريخ الاندلسى · القاهرة ، ١٤٠٢هـ

٧٠ ـ عبد الرحمن على حجى : الحضــارة الاســلامية فى الاندلس · بيروت ، ١٤٨٩هـ ·

٧١ ـ عبد الرحمن على حجى : أندلسيات · بيروت ، ١٣٨٨هـ ·

٧٢ ـ شكيب أرسلان : الحلل السندسية فى الاخبار والآثار الاندلسية · ٣ جزء · المغرب ، ١٣٥٥هـ ·

٧٣ ـ عبد السلام الطود : بنو عباد فى أشبيلية · تطوان ، ١٩٤٦م ·

٧٤ ـ عبد العزيز الاهوانى : ســفارة سياسية بين غرناطة والقاهرة ، المجلة التاريخية ، ١٩٥١م ·

٧٥ ـ عمر فروخ : العرب والاسلام فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط ، بيروت ، ١٣٥٨هـ ·

٧٦ ـ عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس · القاهــرة ، ١٩٦٤م ·

٧٧ ـ عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوربا · القاهــرة ، ١٩٨٣م ·

٧٨ ـ شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى · ٤ أجزاء · القاهرة · د · ت ·

٧٩ ـ عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الاوربية · القاهرة ، ١٩٧٨م ·

٨٠ ـ على حسن الخربوطلى : الاسلام فى حــوض البحــر المتوسط · بيروت ، ١٩٧٠م ·

٨١ ـ زاهر رياض : شمال افريقيا فى العصور الوسطى · القاهــرة ، ١٩٨١م ·

٨٢ ـ عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ترجمة أمين توفيق الطيبى · طرابلس الغرب ، ١٣٩٩هـ ·

٨٣ ـ أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، جـ٢ ، ٤ · القاهة ، ١٩٦٩م ·

٨٤ ـ حسن محمد جوهر : أسبانيا فردوس العرب المفقود · القاهرة ، ١٣٩٦هـ ·

٩٥ ـ عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا · القاهرة ، ١٩٧٩م ·

٨٦ ـ عبد الفتاح مقلد الغنيمى : موسوعة تاريخ المغرب ٦ أجزاء · القاهرة ، ١٩٩٢م ·

٨٧ ـ فايد حماد عاشور : جهاد المسلمون فى الحروب الصليبية · بيروت ، ١٤٠٥هـ ·

٨٨ ـ مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب · الدار البيضاء ، ١٩٨٢م ·

٨٩ ـ فؤاد محمد فخر الدين : مستقبل المسلمين · القاهرة ، ١٩٧٩م ·

٩٠ ـ لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا · القاهرة ، ١٩٥٨م ·

٩١ ـ محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين · القاهرة ، ١٣٨٦هـ ·

٩٢ ـ محمد عبد الله عنان : الآثار الاندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال القاهرة ، ١٣٨٦هـ ·

٩٣ ـ محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس · القاهرة ، ١٩٦٩م

٩٤ ـ محمد محمد الشيخ : الجهاد المقدس ضد الصليبيين · الاسكندرية ١٩٧٠م ·

٩٥ ـ محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى · الاسكندرية ، ١٩٧٥م ·

٩٦ ـ محمد محمد الشيخ : دولة الفرنجة علاقاتها بالامويين فى الاندلس الاسكندرية ، ١٤٠١هـ ·

٩٧ ـ محمد زينون : المسلمون فى المغرب والاندلس · القاهرة ، ١٩٦٥م

٩٨ ـ محمد بركات البيلى : البربر فى الاندلس · القاهرة ، د·ت ·

٩٩ ـ محمد كامل شبانة : يوسف الاول بن الاحمر سلطان غرناطة · القاهرة ، ١٩٦٩م ·

١٠٠ ـ محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون تاريخهم السياسى · القاهرة ، ١٩٦٩م ·

١٠١ ـ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس · القاهرة ، ١٣٨٤هـ ·

١٠٢ ـ محمود على مكى : وثائق تاريخية جديدة ٠ مدريد ، ١٩٦٠م ٠
١٠٣ ـ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ٠ القاهرة ، ١٣٩هـ ٠
١٠٤ ـ بنت الشاطىء (عائشة عبد الرحمن) : شاهدة عصر ٠ عام أسبانيا وعبرة الايام ٠
١٠٥ ـ صحيفة الاهرام القاهرية ديسمبر ١٩٩٢م ٠
١٠٦ ـ محمد حسين هيكل : حياة محمد ﷺ ٠ القاهرة ، ١٩٨٠م ٠
١٠٧ ـ محمد حسين هيكل : أبو بكر الصديق ٠ القاهرة ، ١٩٧٩م ٠
١٠٨ ـ أرنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ٠ ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون ٠ القاهرة ، ١٩٧٠م ٠
١٠٩ ـ ارشيالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ٠ القاهرة ، ١٩٦٠م ٠
١١٠ ـ بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ، منير البعلبكى ٠ بيروت ، ١٩٤٠م ٠
١١١ ـ دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا : ترجمة حسن حبشى ٠ القاهرة ٠
١١٣ ـ دوزى (رينهرت) : ملوك الطوائف ٠ ترجمة كامل كيلانى ٠ القاهرة ، د٠ت ٠
١١٤ ـ اشباخ : تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين ٠ ترجمة محمد عبد الله عنان ٠ القاهرة ، ١٩٥٨م ٠
١١٥ ـ رينو ، جوزيف : تاريخ غزوات العرب ٠ ترجمة شكيب أرسلان ٠ القاهرة ، ١٣٥٢هـ ٠
١١٦ ـ ليفى بروفسال : حضارة العرب فى الاندلس ٠ ترجمة ذوقان قرقوط ٠ بيروت ، ١٩٦٥م ٠
١١٧ ـ ليفى بروفسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ٠ ترجمة عبد العزيز سالم ٠ القاهرة ، ١٩٥٦م ٠
١١٨ ـ لين بول : العرب فى أسبانيا ٠ ترجمة على الجارم ٠
١١٩ ـ جوستاف لوبون : حضارة العرب ٠ ترجمة عادل زعتر ٠ القاهرة ، ١٣٦٤هـ ٠
١٢٠ ـ بانشيال دانخل جيشالش : تاريخ الفكر الاندلس ٠ ترجمة حسين مؤنس ٠ القاهرة ، ١٩٥٥م ٠

١٢١ ـ سيديو ل٠ا : تاريخ العرب العام ٠ ترجمة عادل زعيتر ٠ بيروت ، ١٩٦٩م ٠
١٢٢ ـ عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والثقافة العربية فى فرنسا ٠ مجلة رابطة العالم الاسلامى ، ١٩٧٥م ٠
١٢٣ ـ عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والمسلمون فى فرنسا بعد معركة بلاط الشهداء ٠ مجلة رابطة العالم الاسلامى ، ١٩٧٦م ٠

٣ ـ الرسـائل الجامعية :

١٢٤ ـ أحمد عبد الرحمن الغوابى : عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٤٥م ٠
١٢٥ ـ حمدى مصطفى شـاهين : تاريخ الدولة الاموية بين التحـريف والانصاف ، ماجستير دار العلوم ـ جامعة القاهرة ، ١٩٩١م ٠
١٢٦ ـ خليل ابراهيم صالح بشير : علاقة المرابطين بالمسالك النصرانية بالاندلس ، ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٧٩م ٠
١٢٧ ـ الدرديرى حسن اسماعيل : الربط فى بلاط المغرب ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٨م ٠
١٢٨ ـ رجب محمد عبد الحليم : دولة بنى حمود فى مالقة بالاندلس ٠ ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٦م ٠
١٢٩ ـ رجب محمد عبد الحليم : العلاقة بين الممالك الاسلامية والنصرانية بالأندلس ٠ دكتوراه ، آداب القاهرة ، ١٩٨٠م ٠
١٣٠ ـ سامية مصطفى مسعد : العلاقة بين المغرب والاندلس فى عصر الخلافة الاموية ٠ ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٨٠م ٠
١٣١ ـ راضى عبد الله عبد الحليم : العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولة العربية الاسلامية ودولة الروم البيزنطية ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٨٢م ٠
١٣٢ ـ عاشور بلقاسم بوشامة : علاقة الدولة الحفصية مع دول المغرب والاندلس ، ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٩١م ٠
١٣٣ ـ عبادة عبد الرحمن كحيلة : المعاهدون فى الاندلس ٠ دكتوراه ، آداب القاهرة ، ١٩٨٣م ٠

١٣٤ ـ عبادة عبد الرحمن كحيلة : المولدون فى الاندلس · ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٧٨م ·

١٣٥ ـ عبد الحميد محمد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الاندلس · دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٠م ·

١٣٦ ـ عبد الحميد محمد الشرقاوى : الملاحة البحرية فى الاندلس ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٣٥م ·

١٣٧ ـ كليكل مرنلى شركوا : مجاهد بن عبد الله العامرى فى الاندلس ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٥٧م ·

١٣٨ ـ محمد بركات البيلى : البربر فى الاندلس · دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٨٢م ·

١٣٩ ـ محمد بركات البيلى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى اشبيلية فى عصر بنى عباد · ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٨م ·

١٤٠ ـ محمد رضا عبد العال محمد : النظام القضائى فى الاندلس · ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٨٢م ·

١٤١ ـ محمد فخر عبد الرحمن : العرب اليمنية فى الاندلس ، ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٨٥م ·

١٤٢ ـ مصطفى محمد عبد الخالق : علاقة القوى الصليبية فى غرب البحر المتوسط بالمغرب الاسلامى · دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٨٧م ·

١٤٣ ـ هشام سليم عبد الرحمن : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية بالاندلس · دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٩م ·

١٤٤ ـ هشام سليم عبد الرحمن أبو رميلة : نظام الحكم فى الاندلس فى عصر الخلافة ، ماجستير آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ·

١٤٥ ـ حاطوم : تاريخ العصر الوسيط فى أوربا · لبنان ، ١٩٦٧م ·

١٤٦ ـ صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية فى حوض البحر المتوسط · القاهرة ، ١٩٧٣م ·

١٤٧ ـ عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية · القاهرة ، ١٩٦٠م ·

١٤٨ ـ محمد ياسين الحموى : تاريخ الاسطول العربى · دمشق ، ١٩٤٥م

١٤٩ ـ محمد لبيب البتنونى : رحلة الاندلس ، القاهرة ، ١٩٤٥م ·

١٥٠ ـ سامية مصطفى مسعد : محاضرات فى المغرب والاندلس ١٩٩٠

المراجــع الاجنبيــة

1 — Aimohd, Ch. : Le Moyen age. Paris, 1906.
2 — Altamiro, R. : A History of Spain. London, 1962.
3 — Ghajne, Anwar : Muslim Spain, its History and culture, 1973.
4 — Heimolt, Hans : Italy throughout the Middle ages.
5 — Mahrenholz, R. : France through the Middle ages.
6 — Bernhard : Arabic Spain, London, 1912.
7 — Bradford : Mediterranean Portrait of Sea. London, 1971.
8 — Brook : A History of Europe 911—1198, London, 1926.
9 — Bryce : The holy Roman Empire, London, 1901.
10 — Bury, J.B. : A History of Eastern Roman Empire, London, 1912.
11 — Bury, J.B. : A History of the Later Roman Empire, 2 vol. London, 1923.
12 — Cantqr, N.F. : Medieval History, N.Y. 1961..
13 — Cantor, N.F. : The medieval world, New York, 1963.
14 — Daniel : The Arabs and Medieval Europe, London, 1970.
15 — Davis, R.C. : A History of Medieval Europe, London, 1970.
16 — Deanasly : A History of Early Medieval Europe, London, 1956.
17 — Dozy : Spanish Islam, London, 1913.
18 — Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne.
19 — El Hajji, Abdel Rahman : Andolusions diplomatic reations with Western Europe during the umayyad period, Beirut, 1970.
20 — Fiche : L'Europe occidentale de 888a 1125, Paris, 1930.
21 — Gayango : The History of the Mohummaden Dynasties in Spain, London, 1818.
22 — Hsakins, H. : The Normans in European History, New York, 1959.
23 — Hoyt and Chodorow : Europe in the Middle Ages, New York, 1976.
24 — Imamuddin : A political history of Muslim Spain, Dacca, 1961.
25 — Jackson : The Making of Medieval Spain, New York, 1976.—
26 — Keen, S. : A History of Medieval Europe, London, 1967.
27 — La Monte : The World of the Middle Ages, 1949.
28 — Lan Poole : The Moors in Spain, London, 1897.
29 — Levi-Provencol : Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950.
30 — Levi-Provencal : L'Espagne Musulmane au X siècle, Paris, 1932.

C3khém

31 — Livermore, H. : History of Spain, London, 1966.
32 — Murphy, J.C. : History of the Mohometan Empire in Spain, London, 1816.
33 — Painter : A History of the Middle Ages, New York, 1954.
34 — Pascual de Gayagos : The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, London, 1843.
35 — Pirenn, H. : Mohamed and Charlemagne, London, 1968.
36 — Read, Jan : The Moors in Spain and Portugal, London, 1974.
37 — Terrasse, H. : Histoire du Maroc, Caso, 1949.
38 — Legendre, M. : Nouvelle histoire d'Espagne, Paris, 1836.
39 — Mercier et Seguin : Charles Martel et La Bataille de Poitiers, Paris, 1944.
40 — Dozy, R.A. : Recherches sur l'histoire et la littérature d'Espagne pendant le Moyen Age, Leiden, 1860.
41 — Gomoz, Garcia : Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris, 1950.
42 — Conde : History of the dominion of the Arabs in Spain, London, 1854.
43 — Watt, W. : The influence of Islam in Medieval Europe, 1972.
44 — Maslatrie : Les relations des chretiens avec les arabes de l'Afrique au Moyen Age, Paris, 1872.
45 — Scott, S.P. : History of the Marish Empire in Europe, London, 1904.
46 — Hunt, W. : History of Italy, London, 1878.
47 — Montell, V. : Le Monde Musulmane, Genève, 1963.
48 — Diehl, Charles : Histoire du Moyen Age, Paris, 1936.
49 — Pérès, Henri : La Poésie andalouse en arabe, Paris, 1937.
50 — Prescott, William : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London, 1895.
51 — Reinsand, Muslim Colonies in France, Italy and Switzerland, Lahore, 1964.
52 — Aimond, Ch. : Le Moyen Ages, Paris, 1942.
53 — Lot, F. : The end of Ancient World, London, 1960.
54 — Previtt : The shorter Cambridge Medieval History, Cambridge, 1953.

الفهرس

الترقيم الدولى

I. S. B. N

977 - 00 - 5020 - 2

رقم الايداع بدار الكتب القومية

٩٣/٢٣٣٨

هــذا الكتــاب

يوضح فيه مؤلفه مأساة الأندلس وضياع الاسلام منها بعــد أن مكث بهـــا ثمانية قرون (٩٢ — ٨٩٧ هـ — ٧١١ — ١٤٩٢ م) وكيف تعرض المسلمون لأقصى أنواع العــذاب والقتل والتشريد والابادة الجماعية ومحاكم التفتيش والطرد الجماعى والتنصير واغراق المسلمين فى مياه البحر المتوســط والمحيط الاطلسى • وكيف كان حكام الأندلس فى العصور المتأخره فى الأندلس سببا فى ضياع هــذه الديار وكيف أن ملوك الطوائف (أقزام الطوائف) وما كان بينهم من نزاع وخلافات من العوامل الهامة فى ضياع هــذه الديار وكيف تحالف المسلم مع عــدو العقيدة والدين والديار لكى تكون النهاية واحــدة • لم يفرق العــدو المتربص بين صديق وعــدو فالجميع أعــداءه •

وهكذا استطاع الأسبان محــو كل أثر للاسلام ذلك لأن الذين طردوا المسلمين من الأندلس هم الذين ساعدوا على طرد المسلمين من فلسطين ، بل أن ما يحــدث فى البوسنة والهرسك على أيدى الصرب هــو صورة لمــا كان يحــدث فى الأندلس عبر المــاضى البعيد ان للتاريخ أدوار وفى كل دور يخسر المسلمون أرضــا ففى المــاضى البعيد خسر المسلمون الأندلس منــذ خمسمائة عام وفى القريب فلسطين واليوم تضيع البوسنة والهرسك •

ان الذين يطالعون هــذا الموضوع يدركون كيف تضيع أرض الاســلام وما هى الأسباب ؟ ••